

خطب الشيخ محمد الغزالي

في شئون الدين والحياة

دار الأحياء
للطباعة والنشر والتوزيع
٨ شارع حسين حجازي - القاهرة

هاتف : ٧٩٥١٧٤٨ - ٧٩٤٤٧٤٨ - فاكس : ٧٩٤٦٠٣١

ص . ب : ٤٧٠ القاهرة - الرمز البريدي : ١١٥١١

خطب الشيخ محمد الغزالي

في شؤون الدين والحياة

مراجعة

إعداد

د. عبد الحميد قطب الدكتور محمد عيسى

المجلد الثاني

دار الأحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى أخى الشيخ قطب

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

لقد طالعت جهدك فى كتابة الخطب والمحاضرات التى
أكرمنى الله بإلقائها خدمة لدينه .

وأثلج صدرى وعيك المكتمل ، وحسك الدقيق ،
ويقينك الحى .

وأملئ أن يمن الله علينا بنعمة المغفرة والقبول ، وأن
يجعل عملك فى نشر هذه المعرفة الإسلامية خالصاً
لوجهه وعزاً فى الدارين .

ولا زلت موصول الخطأ فى نشر الحق ورفع لواء
الدعوة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

أخوك

محمد الغزالي

مَقَرَّة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

أما بعد :

فيسرني ويسعدني أن أقدم للقراء الأعزاء الجزء الثاني من خطب الداعية الإسلامي الكبير فضيلة الشيخ محمد الغزالي .

وفضيلة الشيخ محمد الغزالي - حفظه الله - غنى عن التعريف فهو بالنسبة إلى قراء العربية بمثابة الذهب في عالم المعادن لا يكاد يجهله أحد !! .

إنه صوت الإسلام الصافي الفذ الحنون الذي يعرف كيف يحرق الأفئدة ويضيئها في الوقت نفسه !! .

والحق أنني عندما عزمت على إعداد هذه الخطب التي ألقاها شيخنا كنت أستهدف بذلك أن أرد للمنبر هيئته ، وأن أعيد للمسجد مكانته ، وأن أثبت بالدليل القاطع أن الخطابة في الإسلام - كما يقول شيخنا في أحد كتبه - مظهر الحياة المتحركة فيه ، الحياة التي تجعل هذا الدين يزحف من قلب إلى قلب ، ويثب من فكر إلى فكر ، وينتقل مع الزمان من جيل إلى جيل ، ومع المكان من قطر إلى قطر .

وذاك هو السر في أن نبي الإسلام ﷺ كان يخطب كل أسبوع وكل عيد ، ويخطب أو ينيب عنه أميراً يخطب في وفود الحجيج عند جبل الرحمة .

أقول : وذاك هو السر في تسجيلنا وإعدادنا هذه الخطب التي تجعل - فعلاً - هذا الدين يزحف من قلب إلى قلب ، ويثب من فكر إلى فكر ، وينتقل مع الزمان من جيل إلى جيل ، ومع المكان من قطر إلى قطر .

لقد كنت أشعر وأنا أستمع إلى هذه الخطب الفذة بجلال المنبر وخطره ، وفضل المسجد ودوره .

● ● فمن خلال هذه الخطب الفياضة طُرحت مفاهيم العقيدة ، وتعاليم الشريعة ، وعُولجت المشكلات ، وقُدمت الحلول .

● ● من خلال هذه الخطب تعلم الناس أن الإسلام روح يسرى في كيان هذه الأمة فيحيى مواتها ، ويبدد ظلامها !!.

● ● من خلال هذه الخطب تعلم الناس أن الإسلام

دين ودولة ، عقيدة وشريعة ، مصحف وسيف ، جسد وروح ، عقل وعاطفة ، إيمان ونظام ، دنيا وآخرة .

● ● من خلال هذه الخطب ارتفع صوت الغزالي يُذكّر المسلمين بأيام الإسلام المجيدة ، وعزهم المفقود ، ويروى للأجيال أخبار الرجال الذين قضوا على دروب الجهاد فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وماضعفوا وما استكانوا !! .

● ● من خلال هذه الخطب ارتفع صوت الغزالي مدوياً كالرعد العاصف يحذر من الأخطار المحدقة بالأمة والتحديات الكبرى التي تنتظرها .

• من خلال هذه الخطب اشتبك الغزالي مع سماسرة الاستعمار العالمي في العالم الإسلامي الذين عاشوا بيننا ينبحون ديننا ويخدمون أعداءنا ..

اشتبك معهم الغزالي فكشف دورهم ، وفصح ضلالهم ، وشرّد بهم من خلفهم !! .

• من خلال هذه الخطب وقف الغزالي في وجه مأسماه بالفرعونية الحاكمة والقارونية الكائزة وخاض معركته مع هؤلاء تحت شعار في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، فصدع بالكلمة التي ترضى الله وتسخط كل عدو له !! .

•• من خلال هذه الخطب واجه الغزالي ما أسماه بالتدين المغشوش الذي يعلو صوته بالحفاظ على الإسلام حيث لا خطر ، ويصمت كأن الأمر لا يعنيه حيث يوشك الإسلام على الغرق !! .

بهذا التدفق العلمي والعاطفي والأدبي بيّن الغزالي حقائق الإسلام ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ﴾ (الأنفال : ٤٢) .

فكان بحق - ولا نزكيه على الله - من هؤلاء الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً .. (الأحزاب : ٣٩) نشهد شيخنا - ولا نزكيك على الله - أنك قد بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، ونصحت الأمة فجزاك الله عنا وعن الإسلام والمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها خير الجزاء .

ونسأل الله أن يبارك في عمرك ويمد في أجلك ، وأن يديم عليك نعمة الإيمان والتوفيق .

والله الموفق ..

كتبه الفقير إلى الله تعالى

قطب عبد الحميد قطب

القاهرة في ١٥ شوال ١٤٠٨ هـ .

تأملات في مناسك الحج

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضى الله عنه
في سنة ١٩٧٣ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ،
والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أما بعد :

فإن الحج هو الركن الخامس في أركان الإسلام الخمسة ، وقد افترض
الله هذا الركن على عباده فقال جل شأنه : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ
مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران :
٩٧] .

ولمّا كان الحج يتضمن أعمالاً مختلفة ، وكانت هذه الأعمال موضع
تساؤل خصوصاً في هذا العصر الذي توضع الأديان فيه موضع الاتهام ،
ويتحرك من يسمون أنفسهم مثقفين ، أو أتباع الفكر العقلي الحر ، يتحرك
هؤلاء ليبدوا استغرابهم لمناسك الحج والأعمال التي يقوم المسلمون بها ،
ويطلبون لذلك تفسيراً يرون أنه قد يرضى عقولهم ، ويشبع فضولهم .

ونحن نسوق أفعال الحج كما وردت مع الحكمة التي اتصلت بها
وشُرعت من أجلها ، ليعلم من يجهل ما في الحج من منافع دينية ودنيوية ،
وأن هذه المناسك ليست أموراً غامضة ، ولا أفعالاً مبهمّة كما يتصور هؤلاء .

الحج — أساساً — سفر صالح ، ورحلة إلى الأماكن التي دَرَج فيها الأنبياء ، وانبعث منها الوحي ، وكانت مَشْرِقا للإسلام ، ومجتمعاً أول للسلف الصالحين .

والمقصود من هذه الرحلة أمور عقلية وعاطفية معاً ، فإن الإنسان لا يعيش بالفكر النظري وحده ، ولكن مشاعره وعواطفه شديدة السيطرة عليه ...

والإسلام يجتهد في تحويل الإيمان من صورة عقلية تُسكن الرأس إلى معان عاطفية تُغمر القلب ، وتتشبث بالفؤاد ، وينفعل الإنسان بها ، ويحيا طول عمره وفقها .

معنى صيرورة الفكر العقلي إلى عاطفة حارّة هو ما يقول الله جل شأنه فيه : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانُ وَزِينَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [الحجرات : ٧] .

قد ترى عقلاً أن الله موجود ، ولكن هذه الرؤية العقلية لا تكمل إلا إذا تبعتها مشاعر عاطفية تُسكن قلبك ، وتجعلك تتجه إلى الله بقلب يُحسُّ عظمته ، ويُكرِّم نعمته .

قد ترى عقلاً أن الكذب رذيلة ، أن الشرك فضيحة ، ولكن تحول هذا النظر العقلي إلى إحساس نفسي يجعلك تشمئز من الشرك والرذيلة كما تشمئز من الرائحة الكريهة ومن المنظر الرديء فإن كرهك للشر قد انتقل من معنى نظري إلى حقيقة عاطفية .

والإسلام عندما شرع مناسك الحج أراد أن يحول — فعلاً — الإيمان من معان نظرية دُرست في الكتب ، وتلقاها الناس حقائق مقررة إلى معان عاطفية تربط الإنسان بنشأة الإسلام ونشأة المكافحين من أجل ظهوره ، تجعل الإنسان يرتبط بالمواطن الأولى للوحي ، وبسير الدعاة والرعاة الذين حملوا هذه الأمانات ، وعاشوا بها ، وعاشوا من أجلها ، حتى قدّموها للناس ناضجة مستوية .

هذه هي رحلة الحج ، أو حكمة الحج ، وما من أمة من الأمم حتى الأمم المادية التي تعبد التراب ، ولا ترى وجوداً لغير المادة ، حتى هذه الأمم تحاول أن تستثير مشاعر المؤمنين بها ، فهي تقيم « ضرائح »^(١) لطواغيتها ، وتكلف الزوار الذين يحيئون إلى عواصمهم أن يترددوا على مقابر أولئك الطواغيت صفوفاً منتظمة كي يؤدوا واجباً لميت يعلم الله أنه حطب لجهنم ، وأنه كلب من كلاب النار ، ومع ذلك فإن سدنة هؤلاء الطواغيت يريدون أن يربطوا الجماهير والأجيال الناشئة بمبادئهم وبأحزابهم ، فهم يجلبونهم ليزوروا هذه الضرائح ، وليتصلوا بها ، ولترتبط علاقات نفسية مع أصحاب المبادئ الذين عاشوا بها ، أو قدّموها لغيرهم ، هذا المعنى إلى جانب الأعياد التي تُصنع مرتبطة بمعاني المبدأ المادي وما إلى ذلك وتسمى ذكريات وأعياداً ، هذه كلها إنما شرعت في الفلسفات المادية ، والبلاد المادية ، كي تجعل الجماهير تثوب إلى شاخص حسي يُحوّل الاتصال بالمبدأ إلى تكريم له ، وإلى هُتاف له ، وما إلى ذلك مما يراد غرسه في النفوس .

والله عز وجل أراد أن يجعل المؤمنين — على اختلاف الزمان والمكان — يرتبطون بالدين الذي اعتنقوه — وهو دين التوحيد — ويريد أن يكلف القادرين منهم على أن يحيئوا للأماكن التي بدأت فيها معالم دينه تظهر كي يرتبطوا نفسياً بها .

ولنأخذ المعاني معني معنى .

إن الرسالة الإسلامية ، وإن بعثة محمد — عليه الصلاة والسلام — كانت استجابة لدعوة جده إبراهيم وابنه إسماعيل — عليهما الصلاة والسلام — وهما يرفعان القواعد من البيت ...

فإذا كانت رسالة نبينا ﷺ وإذا كانت دعائم تاريخنا مرتبطة ببناء بيت

(١) الضريح : القبر ، والشق في وسط القبر والجمع ضرائح .

لله فهل على أتباع هذا الرسول ﷺ من حرج أو عليهم من بأس يوم يذهبون زُرَفَاتٍ ووُحْدَانًا إلى المكان الذي بعث فيه نبيهم — ﷺ — إجابة لدعوة قِبلت عنده !!؟ .

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [البقرة : ١٢٧ — ١٢٩] .

ولقد بعث فينا رسولا منا إجابة لدعوة الجد الأكبر إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام .

أفليس من حق الأبناء والأتباع أن يجيئوا إلى هذا المكان كي يذكروا كيف انبعثت رسالتهم منه ، وكيف كان نبيهم الجليل — ﷺ — استجابة لدعوة قِبلت وجدرائه ترتفع وقواعده تُمهّد ؟

ثم هذا البيت هو أول مسجد بُني على ظهر الأرض لتوحيد الله ، بُني على أنقاض الوثنية التي حاربها إبراهيم طول عمره ، بُني ليكون علما للتوحيد وراية للإيمان الخالص المنزه .

أليس من حق هذا المسجد الأول أن يتبعه — بعد ذلك — كل مسجد ينشأ على ظهر الأرض ؟ وأن يقف الرُكع السُّجود بساحات المساجد التي تنشأ بعد ذلك فيولوا وجوههم شطره ويصلوا ناحيته ؟

إن تكريم المسجد الأول شيء غادى ، وهذا سر قوله جل شأنه : ﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون . ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون ﴾ [البقرة : ١٤٩ ، ١٥٠] .

إن هذه الأسباب هي التي تجعل المسلمين يرسلون وفودهم كل عام ليذهبوا إلى المسجد الأول ، إلى الكعبة المشرفة : ﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس ﴾ [المائدة : ٩٧] .

ومن مراسم تحيته أن يطوفوا به سبعا ، هذا الطواف سُنَّ فيه للطائفتين أن يَشْعَلُوا أوقاتهم خلال كل طواف — وكل طواف من سبعة أشواط — بتسبيح الله وتحميده وتمجيده وتوقيره ودعائه والطلب منه والتضرع إليه^(١) ، والطواف صلاة^(٢) ، يبدأ من مكان جعل الإسلام بداية هذا المكان الحجر الأسود ، والحجر الأسود حجر عادي ، لنفرض جدلاً أنه نزل من أحد « النيازك »^(٣) الملتهبة التي سقطت على الأرض ، لنفرض أنه جاء من السماء ، لنفرض ما نفرضه ، إنه حجر لا يضر ولا ينفع^(٤) ، ومن ظن أن الكعبة تضر أو تنفع ، أو أن حجراً فيها يضر أو ينفع فهو إنسان جهول ، لأن الله جل شأنه علّمنا أن الضار النافع ، الخافض الرافع ، المعطى المانع هو جل شأنه .

(١) ففي الحديث : « من طاف بالبيت سبعا ولا يتكلم إلا بسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله محيت عنه عشر سيئات وكتبت له عشر حسنات ورفع له بها عشر درجات ، ومن طاف فتكلم وهو في تلك الحال خاض في الرحمة برجليه كخائض الماء برجليه » قال في الترغيب والترهيب رواه ابن ماجه عن إسماعيل بن عياش حدثني حميد بن سوية وحسنه بعض مشايخنا ٢ / ١٢١ .

(٢) ففي الحديث : « الطواف حول البيت مثل الصلاة إلا أنكم تتكلمون فيه ، فمن تكلم فيه فلا يتكلم إلا بخير » عزاه السيوطي في الجامع الصغير إلى الترمذي والحاكم والبيهقي ورمز له بالحسن ، وقال في فيض القدير : قال ابن عبد الهادي هذا حديث لا يثبت مرفوعاً وقد اختلف الرواة في إسناده ومنتنه والصحيح وقفه ٤ / ٢٩٣ .

(٣) النيزك : جرم سماوي يسبح في الفضاء فإذا دخل جو الأرض احترق وظهر كأنه شهاب ثاقب متساقط .

(٤) لحديث عمر رضي الله عنه أنه جاء إلى الحجر الأسود فقبله ، فقال : « إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبلك ما قبلتك » رواه البخاري في الحج — باب ما ذكر في الحجر الأسود ٢ / ١٨٣ ومسلم في الحج — باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف ٤ / ٦٦ وكلمة عمر — رضي الله عنه — فيها إشارة إلى أن هذا الأمر تعبدى فتفعل وعن علته لا نسأل .

الطواف صلاة ، لسان المرء فيها يلهج بذكر الله وشكره .

وإذا كان بعض المغفلين يزعم أن تقبيل الحجر الأسود نوع من الوثنية فليكن تقبيل الملوك والرؤساء لأعلام دولهم نوعاً أيضاً من الوثنية ومن عبادة الأقمشة !! من قال هذا ؟! إذا كان الأمر لا يعدو إلا ترجمة لمشاعر الولاء لله فليس في هذا شيء ، ونحن في هذا نلتزم ما ورد .

ثم بعد الطواف يسعى المسلمون بين الصفا والمروة ، والسعى بين الصفا والمروة رمز لأمر يحتاج المسلمون إليه احتياجاً شديداً ، فإن المعلوم من تاريخ النبوات أن أبا الأنبياء إبراهيم — عليه الصلاة والسلام — جاء بامراته هاجر ، وأنه تركها وابنها الرضيع إسماعيل في هذا المكان ، وكان صحراء مُجْدِبَةٌ لا أماراة فيها على عمران ، ولا دلالة فيها على حياة ، وكان التصرف بهذه المثابة تصرفاً مستغرباً حتى إن المرأة قالت لرجلها وهو يولى تاركاً إياها : أين تذهب ؟ ولكنه ما استطاع أن يجيب ، ليس لديه شيء يقوله ، إن الله أوحى إليه أن يفعل هذا ، وهو ينفذ أمر الله ، ولا يدري الحكمة ، فلما ألحت عليه ولم يجب قالت له : الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذا لا يُضَيِّعُنَا !!

كانت كرجلها امرأة مؤمنة صادقة ، ولكن مشاعر الأمومة هزتها عندما وجدت ابنها يتلوى ، يحتاج إلى الماء ، فذهبت تجرى يمينا ويساراً سبعة أشواط في هذا المكان بين الصفا والمروة حتى شاء الله أن يُفجر لها الملك نبع زمزم لتشرب منه^(١) !!

ماذا نفهم من هذا ؟

نفهم من هذا أن الإنسان عندما يعتمد على ربه فإنه يعتمد على مصدر القوى ومنبع الخير وسائق الفضل ، وأن الإنسان إذا صدق إيمانه ربّاً توكله ، وازدادت بالله ثقته ، وضعفت علاقاته بالماديات ، وليس معنى ضعف علاقاته بالماديات أن يستكين أو يتواكل ، لا . إن المرأة قامت تجرى

(١) قصة مهاجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأمه هاجر إلى أرض مكة وتفجر زمزم رواها البخاري في الأنبياء — باب يَرْفُونَ السَّلَانَ فِي الْمَشْيِ ٤ / ١٧٢ ، ١٧٣ .

هنا وهناك حتى يسّر الله لها آخر الأمر ما تحتاج إليه ، لا بد من حركة ، ولكن التوكل حتم ، وقد سمي الله نبيه محمداً — ﷺ — المتوكل (١) . لماذا ؟ لمعنى نحن المسلمين الآن فقراء إلى إدراكه ...

لقد بدأ وحيداً يدعو إلى الله ، ليس في الدنيا أضعف منه ، رجل يتيم مستوحش معزول عن قوى الخلق في دنيا اسودت فجاجها ، وامتلأت بالظلمات وشروور الجاهلية آفاقها ، كُلف أن يغرس عُود التوحيد ويرعاه حتى يثمر في بيئة لا تدري شيئاً عن التوحيد ، وتضيّق به ، وتآلف الشرك وتعترّ به ، وتقاتل دونه ، ومن وراء جزيرة العرب حضارات تفسخت من الطغيان والهوى وسيادة الشهوات !!

ورجل واحد هو الذي كُلف أن يقاتل كل هذا الظلام حتى يبده ويمزق أسدافه ويقدم للدنيا فجرها الباسم الباقي إلى الأبد !!

إنه ما جزع لأنه ضعيف القوة أو ذليل الجانب هو وأصحابه ، لا . لكنه توكل على الله فنصره وجعل قوى الشر تتدحرج تحت أقدامه واستطاع أن يقيم دعوة التوحيد وينشر الرسالة الكبرى ويرعى رجاله الذين رباهم على يديه ولقنهم دروس الحق من فمه استطاع أن يقضى على الباطل في الدنيا . التوكل على الله شيء خطير ، ولو أن العرب أهل إيمان ، ولو أنهم — فعلاً — يثسوا من الخلق واعتمدوا على الخالق لنصرهم كما نصر نبيهم — ﷺ — ولسقاهم كما سقى امرأة في صحراء لا تجد هي ولا رضيعها شيئاً !!

إن التوكل شيء خطير ، وعندما تساق الأمة إلى مكان نبع الماء فيه من صحراء لا ماء فيها ولا زرع ولا ضرع يعرف الناس أن الانقطاع عن الله جريمة ، وأن الانقطاع إليه هو الاتصال كله وهو الخير كله !!

(١) عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قلت أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة . قال : أجل : والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وجرزاً للأمينين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ... « رواه البخارى في البيوع — باب كراهية السخب في الأسواق ٣ / ٨٧ وتفسير سورة الفتح ٦ / ١٦٩ — ١٧٠ .

ثم يغالب الناس الهوى ، نحن نغالب الهوى عندما يوسوس الشيطان إلينا بتذكر الله ، وتذكر الله جل شأنه يحىء إلى أفئدتنا همسا ، ويتحرك في قلوب المؤمنين باعث خير طيب ، لكن الله يريد في سَفرة الحج أن يتحول الهمس إلى صوت جهير ، وأن يتحول الذكر الخافت في القلوب إلى هتاف عال ، ولذلك فإن مناسك الحج تتحول كلها إلى مظاهرة ضخمة ، الهتاف فيها لله وحده ، والصياح باسمه .

هذا هو المقصود من الحج ، وترى أن هذا هو القصد عندما تستقرىء الآيات التى تتحدث عن الحج ، ولنبداً من قوله تعالى : ﴿ الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

الله واسع الغنى ، ما يكلفه العطاء جهداً ، إنها كلمة من حرفين « كن » ، فلو أراد أن يجعل الدنيا تحت أقدامك ذهباً وفضة فعل ، إن ذلك لا يعيبه ولا يتعبه ، ولذلك يقول للبشر : أنتم فقراء وبخلاء ، لكن أنا غنى وسمح وكريم : ﴿ ليس عليكم جناح أن تتبغوا فضلا من ربكم فإذا أفضت من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين ﴾ [البقرة : ١٩٨] .

لاحظوا أن التعبير عن مناسك الحج أخذ كلمة « الذكر » دائما : ﴿ فإذا أفضت من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين . ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم . فإذا قضيت مناسككم فاذكروا الله كذاكم آباءكم أو أشد ذكرا فمن الناس من يقول ربنا آتانا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق . ومنهم من يقول ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب ﴾ [البقرة : ١٩٨ — ٢٠٢] .

ثم إن القرآن لم يسم رمى الجمرات رمى الجمرات وإنما سماه ذكرا

فقال : ﴿ واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى ﴾ [البقرة : ٢٠٣] .

يقصد أيام التشريق ورمى الجمرة — جمرة العقبة — في العيد . ثم يقول : ﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف ﴾ [الحج : ٣٦] .

ويقول : ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكاً لذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهمكم إليه واحد فله أسلموا وبشر المختين ﴾ [الحج : ٣٤] .

ذكر الله هو الأساس في هذه المناسك كلها ، يتحول المعنى الصامت المستكن في الضمير إلى هتاف عال ، ولذلك يُسنُّ أن الحجاج يصيحون بالتلبية : « لبيك ^(١) اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » ^(٢) .

وفي الحديث : « ما من ملب يلبي إلا لبي ما عن يمينه وشماله من حجر أو شجر أو مدر حتى تنقطع الأرض من ها هنا وها هنا عن يمينه وشماله » ^(٣) كأن كل شيء يتحول إلى كون يسبح بحمد الله ويذكره . يقف الناس قبل الطواف — طواف القرينة — وقبل رمي الجمرات .. يقف الناس في ساحة واسعة ، يحتشد فيها مئات الألوف من الناس ، ساحة واسعة يتوسطها جبل يسمى جبل الرحمة ، والمفروض أن الناس طول هذا اليوم وجزءاً من الليل لا عمل لهم إلا الذكر والاستغفار . مناسك الحج لا تعقيد فيها ولا صعوبة ، والمقصود منها هذا المعنى العاطفي الروحي الذي شرحته لكم ، لكن هل هذا فحسب هو ما يطلبه الإسلام من الحج ؟ .

(١) معنى لبيك : إجابة لك بعد إجابة .

(٢) لحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن تلبية رسول الله ﷺ : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » رواه البخاري في الحج — باب التلبية ١٧٠/٢ ومسلم في الحج — باب التلبية وصفتها ووقتها ٧/٤ .

(٣) قال في الجامع الصغير: رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم ورمز له بالحسن وقال في فيض القدير : وفيه إسماعيل بن عياش وبقيّة رجاله موثقون ٤٩٩/٥ .

الواقع أن التجمع العظيم في الحج لم يدعه النبي ﷺ سدى ، ولم يترك المسلمون يحتشدون مئات ألوف في هذا المكان ليؤدوا العبادات فرادى ويرجعوا فرادى ، لا .. لقد تمت حجتان أيام النبي ﷺ حجة أولى في السنة التاسعة ، كان أميرها أبا بكر — رضى الله عنه — وفي هذا الحجة لم ينقض موسمها سدى ، ولم يترك التجمع الذى حدث فيها ينقض دون استغلال دينى لقضايا الإسلام ..

كان المشركون ، كان أعداء الله من عبدة الأصنام ، ومن جحدة أهل الكتاب كانوا يتنمرون حول الإسلام الناهض ، كانوا يبيتون له نيات الغدر ، كانوا قد سالموه على غش ، وعقدوا معه معاهدات على دُخْن ، والإسلام دين شريف ، دين صريح ، يكره النفاق والغش ، ويكره المداهنة والمراءاة ، ولذلك يقول الله لنبيه ﷺ وقد وصاه بالصراحة ، وعرفه كيف يدعو إليه ، يقول له : ﴿ ودوا لو تدهن فيدهنون ﴾ [لقم : ١٩] .

لا مداهنة في دين الله ، ولذلك في السنة التاسعة رُوى أن يمزق الستار عن القلوب الغشاشة ، وأن يقال لمن يريدون الشر بالإسلام : ويحكم ، إن من يحاول العدوان علينا قلن نتركه ، وقد تركناكم اثنتين وعشرين سنة ، ونحن نعطيكم حق الحياة ونرجو إلى جواركم حق الحياة ، ولكنكم تريدون الحياة لأنفسكم فقط ولجاهليتكم وشرككم !! .

الآن أنتم بين أمرين : أمامكم أربعة شهور ، من أراد أن يبقى على شركه فليترك هذه البلاد إلى حيث ألفت ، ومن بقى وفياً للعهد قبلناه ، وإلا فالسيف بيننا وبينه .. نزلت في السنة التاسعة سورة براءة : ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين . وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴾ [التوبة : ١ — ٣] .

قرأها على بن أبى طالب — رضى الله عنه — على الناس ، وكان قد

أُرسل بالسورة في حجة أميرها أبو بكر — رضى الله عنه — أُرسل بصدر سورة التوبة ليقرأها على الناس وانطلق المنادون وسط مضارب الخيام ومجامع الحجيج وملتقيات الناس يقولون : « ألا لا يحجُّ بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عُريان » (١) .

انتهى هذا الضلال واستقرت كلمة التوحيد في هذه الأرض .

كانت هذه هي الحجة الأولى ، وكان أبو بكر — رضى الله عنه — أمير الحج يومئذ .

ثم كانت الحجة الأخيرة ، وكانت حجة الوداع ، وكان أميرها النبي ﷺ وقد خاطب في الناس خطبته المشهورة ، أَمَّن فيها الناس على أموالهم وأعراضهم ودمائهم (٢) .

إن كل صيحة نبتت خلال القرون الأخيرة ، سواء كانت صيحات حمراء أو بيضاء كانت تدور كلها حول المحافظة على حقوق الإنسان ، على مال الإنسان ، ودمه وعرضه .

وليت المسلمين حفظوا وصايا نبيهم ﷺ في حجة الوداع ، ليتهم حفظوها .

ماذا يطلب الإنسان في الدنيا إلا أن يعيش آمناً على دمه وماله وعرضه .

لقد نظر النبي ﷺ إلى الكعبة ثم قال :

« ما أطيبك ، وما أطيب ريحك ، ما أعظمك ، وما أعظم حرمتك ، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن عند الله أعظم حرمة

(١) رواه البخارى في الحج — باب لا يطوف بالبيت عُريان ولا يحج مشرك ١٨٨/٢ ، ومسلم في الحج باب لا يحج البيت مشرك ، ولا يطوف بالبيت عُريان وبيان يوم الحج الأكبر ١٠٦/٤ — ١٠٧ .
(٢) رواها مسلم في الحج — باب حجة النبي ﷺ ٣٨/٤ — ٤١ .

منك ماله ودمه» (١) . ومع ذلك فقد قامت في بلاد الإسلام حكومات استباححت الدماء والأموال والأعراض .

أى ترجمة لخطبة النبي ﷺ في هذا المسلك الخسيس ؟ .

أى وفاء لتعاليم الإسلام ، وأى عَرَض له في دنيا الناس يوم تُرى بلاد الإسلام بلاداً متخلفة ، الحكم فيها لمن يملك القوة والسطوة ، ولمن يستطيع أن يضع نفسه حيث وضعته العصابات وغير العصابات !!؟ .

وفي حجة الوداع يحرص النبي ﷺ على حقوق النساء وينوه بها ويبين ما للنساء من حقوق . ومع ذلك فإن المسلمين في كثير من القرى وبدو الصحراء بل وفي كثير من المدن أكلوا تراث النساء فما ورثن كما يرث الرجال النصيب المكتوب لهن في كتاب الله أعرف ناساً كثيرين اجتاحوه ، أهدرت لهن أشياء كثيرة .

رسول الله ﷺ لما بنى المسجد نظر إلى أحد أبوابه وقال : « لو تركنا هذا الباب للنساء » (٢) فسمى باب النساء ، نُحِصَّ بهن ، وكان ينبغي أن تكون هندسة المساجد في بلاد الإسلام على ما فعل النبي ﷺ باب للنساء يَحْتَصِصُ به ، منه يدخلن ومنه يخرجن ، وصفوفهن قائمة بذاتها ، يشهدن الصلوات الجامعة ، ويتصلن بالأمة في جسّها وعقلها ، وقضاياها القرية والبعيدة ، لكن المسلمين حولوا النساء إلى قواعد في البيوت ، ليست لهن رسالة إلا المتعة والشهوة فقط وكانت النتيجة أن تحكم اليهود الآن امرأة (٣) تذيب الرجال النكال !! .

رواه ابن ماجه في الفتن — باب حرمة دم المؤمن وماله : ١٢٩٧/٢ وفي الزوائد : في إسناده مقال ونصر بن محمد شيخ ابن ماجه ضعفه أبو حاتم وذكره ابن حبان في الثقات وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير وزيادته : (٥٠٠٨ — ٨١٠) .

(٢) رواه أبو داود في الصلاة — باب في اعتزال النساء في المساجد عن الرجال . وصححه وقفه على عمر بن الخطاب . لكن هذا الترجيح غير مسلم فإن رواية الرفع فيها عبد الله بن عمرو وعبد الوارث وكلاهما ثقتان ثبتان فلا ترجح رواية الوقف عليه (المنهل العذب المورود شرح سنن أبي داود ٧١/٤ ، ٧٢) .

(٣) هي جولدا مائير رئيسة وزراء العدو الإسرائيلي .

المسلمون يجب أن يعرفوا دينهم ، وأن يتفهموا : تعاليم الإسلام ، وأن يدركوا الحقائق التي كُتبت في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ وأن لا يتجرؤا عليها . نشأ عن هذا أن ناساً من العُهار والدُّعار رجالاً ونساء أخذوا يقودون الحركة النسائية عندنا ..

ونشأ عن هذا أن إحدى الصحف هاجمت ملابس الحشمة ، وفي الأسبوع الماضي تبعت مجلة « المصور » زميلتها لتحارب ملابس الحشمة ، لأن رسالة أولئك الصحفيين مُوعِزٌ بها من خارج البلاد لنشر جرائم الانحلال الخلقي في بلدنا لحساب الصهيونية الزاحفة واليهودية الحاكمة ..

هؤلاء عملاء ، ولكن ما كان لأولئك من صوت لو أن أهل الحق عرفوا الحق وقاموا به وخدموه .

إن الحج ليس رحلة ميتة ، إن ناساً يذهبون إلى الحج الآن ثم يعودون مكتفين بأن حملوا لقباً !! .

هل دُرست قضاياهم ؟ لا . هل عادوا من موسم الحج بتحالف على محاربة الفساد الداخلي والغزو الخارجي ؟ لا . إن الحج ليس عبادة فردية لا في ديننا ولا في تاريخنا . فيجب أن نعلم ديننا وكفانا جهلاً حتى لا نستيقظ على الويل والثبور وعظائم الأمور ؟! .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ..

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .
وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين . وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإن « مصر » الإسلامية منذ بدأت عاش فيها أهل الذمة معيشة كريمة محترمة ، وتمكن الأقباط فيها من أن تكون لهم حقوق مكافئة للمسلمين مادياً وأديباً .

وليس ينتظر من المسلمين أن يَغْدِرُوا ، وليس ينتظر من المسلمين أن يعتدوا ، وما يُتوقع من المسلمين في زمان ولا مكان أن يجيء منهم عدوان أو غدر أو طغيان . ولكنى أوجه النظر إلى أن الاستعمار العالمى ، وهو استعمار يرتكز على أحقاد دينية وضغائن تاريخية يريد محو الطابع الإسلامى عن « مصر » ، لا يريد أن تكون « مصر » إسلامية ، وكل ما أطلبه من المسلمين :

أولاً : أن يُوفوا بعهودهم لمن لا يدين دينهم !! .

ثانياً : أن يتشبثوا إلى آخر رمق بكل شُعبة من شُعب الإيمان ، وكل حد من حدود الإسلام ، وكل حكم من أحكام الله ، وكل معلّم من معالم الشريعة ، فإن العالم المتمر ضدنا يتهاوس فيما بينه يقول : لقد عاش الإسلام أربعة عشر قرناً حَسْبُه هذا يجب أن نجهز عليه !! .

إننى أنذر حتى يعلم المسلمون أن معيشتهم في يوم الناس هذا وفي الغد القريب والبعيد ستكون معيشة كدح وكفاح ودفاع عن تعاليم الإسلام أمام

مؤامرات لا ينقصها الذكاء ولا المهارة !! .

إننا نحن المسلمين نعيش أحياناً تستبد بنا الأوهام والأحلام والسذاجة التي تبلغ حد الغفلة !! وإذا كان القانون المحلى لا يحمى المغفلين فإن القانون العالمى لا يحمى المغفلين أيضاً !! .

ألا فلتستيقظ أمتنا ولتؤد واجبها نحو كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة ..

★ ★ ★

رواه مسلم فى الذكر — باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨ .

قِصَّةُ الْقِتَالِ فِي الْإِسْلَامِ

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ،
وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ،
والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أما بعد :

فإذا كان هناك دين يحتاج إلى العنف كي يفرض تعاليمه على الناس
فليس هذا الدين هو الإسلام .

وإذا كان هناك مذهب يستغل التفوق المادى ، أو القدرة العسكرية
على فرض مبادئه ونشرها فى المشارق والمغارب فإن هذا المذهب لن يكون
الإسلام .

إن الإسلام دين أساسه عقلى فطرى ، يجد طريقه ميسراً إلى القلوب ،
ممهداً إلى أولى الأبواب .

التوحيد لا يحتاج إلى عصاً تلهب الجلود كي يقتنع الناس به ..
العبادات السمحة ، والأخلاق الزاكية ، والمعاملات العادلة ، والشرائع
الضابطة لأفضل المثل ، وأشرف التقاليد ذلك كله ما يحتاج إلا إلى دعوة
هادئة وإقناع مجرد .

ربما يحتاج التفكير الذى يرفضه العقل ، أو المذهب الذى يأباه الطبع ،
وتكرهه الفطرة ، ربما احتاج هذا وذاك إلى العنف لينتشر .

لكن الإسلام لا يحتاج إلى العنف ، إنما يحتاج إلى فاهم له ، وإلى سامع لا غش في قلبه ، ولا هوى في ضميره ، فإذا تيسر هذا وذاك فما يحتاج الإسلام بثّة — إلى العنف .

بل نقول أكثر من ذلك ، نقول : إن رسالات السماء التي بدأت مسيرتها على الأرض ما لجأت إلى العنف في إقرار العبودية لله الواحد ، وفي حشد الناس على صراطه المستقيم .

منذ الرسالة الكبيرة — رسالة نوح عليه الصلاة والسلام — استُبعد الإكراه طريقاً إلى تعليم الناس أو إدخالهم في دين الله .

وفي ذلك يقول الله عز وجل — على لسان نوح — : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّى وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ فَعَمِيتُ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْتُكُمْوَهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ [هود : ٢٨] .

هذا التساؤل الذى جاء على لسان نوح — عليه السلام — ظل يتنقل بين القرون جيلاً بعد جيل ، وعصراً بعد عصر ، حتى وصل إلى الرسالة الخاتمة ، ففي سورة يونس يقول الله لنبيه ﷺ : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مِنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تَكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] .

اعتمد الدين في شرح مفهومه وبلوغ غايته على دعاة لهم لبٌ ناضج ، وقلب سليم ، واحتاجت البيئة إلى أن تخلو من السدود العائقة ، والطواغيت المستبدة . عندما يكون صوت العقل لا حجاب أمامه ولا عائق فإن الإسلام ينتشر وينتصر .

وعندما نتدبر آيات الدعوة التي شرحت وظيفة الرسالة نجد هذا المعنى هو القائم ، يقول الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ [الطور : ٢٩] .

يقول له : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ ﴾ [ق : ٤٥] .

يقول له : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر . إلا من تولى وكفر . فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴾ [الغاشية : ٢١ - ٢٤] « إلا » هنا — كما يقول علماء اللغة — استثناء منقطع ، أو استدراك واستئناف لكلام جديد بمعنى « لكن » .. لكن ﴿ من تولى وكفر . فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴾ .

يقول الله ﴿ قد جأكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ [الأنعام : ١٠٤] .

يقول الله : ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ [الكهف : ٢٩] .

يقول الله : ﴿ وإن كذبوك فقل لي عمل ولکم عملکم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ [يونس : ٤١] .

هذه الآيات كلها من القرآن الكريم الذى نزل بمكة المكرمة .. وقد قلنا : إن ما يطلبه الإسلام داعية يحسن فهم ما يقول وعرضه على الناس العرض اللبق الواعى اللطيف ، ثم ناس قلوبهم سليمة ، وبيئة خالية من الطواغيت التى تعترض سير الحق كما تعترض الجنادل^(١) مسيرة الأنهار ..

فهل وجد الحق السبيل ميسرة أمامه لينتشر ؟ .

هذا تساؤل يُنظر إليه من خلال الواقع ، لا من خلال الخيال .

فإن الذى حدث — فعلاً — أن ناساً كثيرين ضاقوا بكلام المرسلين : ﴿ وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أو لنعودن فى ملتنا ﴾ [إبراهيم : ١٣] .

هذا وضع غريب ، أنت تنير الطريق فيجىء من يريد كسر المصباح ويقول لك : ابق معنا فى الظلام !! عندما مشى الإسلام فى طريقه يعرض

(١) الجنادل مكان فى مجرى النهر فيه حجارة تشد حولها سرعة التيار وتتعدى الملاحاة والجمع : جنادل .

نفسه على الناس وُجد في هذا الطريق من يقول له : اسكت ،
لا تتكلم !! .

خُطبتنا في العرض كانت واضحة ، نحن نقول لغيرنا : عندنا دين
صحيح لا زيف فيه ، صادق لا كذب فيه ، واضح لا غموض فيه ، خير
لا شر فيه ، نعرضه عليك فإن قبلته قبلته ، فإن قال : قبلت ، فهو أخونا ، وإن
قال : رفضت ، قلنا له : من حَقك ، لكن لنا معك موقف ، ما هو ؟
تدعنا نشرح الحق لغيرك ، فإذا قال : ادعوا من تريدون ، فأنا لا أصدكم ،
قلنا له : لا صلة لنا بك ، أما إذا قال لنا : لن أدعكم
تشرحون الحق لغيركم ، ولن أدع غيركم يستمع إليكم ، وإذا استمع وقيل
فنته ونكلت به .

هنا ما بُدِّ من أن أشتبك معه ، وأن أصفى حساني معه بالدم ،
وما يلومني أحد ..

هذا هو خط سير الإسلام ، والأساس الأول للقتال الذي دار بعد
ذلك .

نشرح مرة أخرى ، أكان موقف أعداء الإسلام منه موقفاً محايداً أو
سلبياً ؟ .

ننظر فنجد أن أعداء الإسلام وصفهم القرآن فكشف خباياهم بطريقة
كان فيها واصفاً للواقع وحده .

يقول جل شأنه : ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ
مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة : ١٢٠] .

لكن أنا لن أتبع لا ملة اليهود ولا ملة النصارى ، إذاً لن نرضى عنك
أبداً ، ليكن ما احتاج إلى رضاكم ، ولا أسعى إلى طلبه ، ولكني أطلب
العدالة في المعاملة ، بيني وبينكم العدالة ، أنا إذا عاملتكم فعلى أساس
ما علمني الله : ﴿ فَلِلَّذَلِكَ فَادَعِ وَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ
آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا

أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴿ [الشورى : ١٥] فإذا قالوا : لا : ومشى الأمر في طريق آخر يصفه القرآن فيقول : ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ [البقرة : ٢١٧] .

ما الحل إذا كنت سأسير في طريق انتشر فيها لصوص العقيدة ليقولوا : لن ندعك تمر بالتوحيد أبداً ، لن ندعك تمر بهذا القرآن أبداً ؟ .

مايد إذا من أن أتسلح ، وأن أضع كل ما أمكن من أسباب المقاومة في يدي ويد من معي ، وأن أورث أولادي هذه المقاومة إلى آخر الدهر .

هل أوصف بأننى عنيف ؟ .

أنا ملجأت للعنف أبداً ، إنما أُلجأتُ الآخرون إليه ، من سالننى فأنا معه كما قال الله تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ [المتحنة : ٩] .

هذا هو الإسلام ، فأنا أريد أن أمشى في طريقي وأبقى مستجمعاً أمرين :

الأمر الأول : الجهاز العاقل الواعى الذى يعرض الدعوة بقدرة عقلية على أولى الألباب فى كل زمان ومكان . هذا الجهاز لا بد منه لأنه أساسى الذى أقوم عليه ، هذا الجهاز — جهاز الدعوة — الذى يدرس العالم كله وما يسوده من فلسفات ، وما ينتشر فيه من أفكار ، ويكون الجهاز قديراً على قياس مسافات القرب والبعد من العقيدة التى أدعو إليها والشرعية التى أحكم بها . هذا جهاز لا بد من استبقائه وتنميته وتغذيته علمياً بما يعينه على أداء رسالته .

الأمر الثانى : لا بد من جهاز آخر يقوم على المقاومة المسلحة لعوامل الفتنة التى تأمرت قوى العالم الشريرة على أن تعترضنى بها .

أحب وأنا أنظر إلى التاريخ أن أكون واقعياً — وأنا أواجه الآخرين الآن .

إن من أسباب فرحة النبي ﷺ بمعاهدة « الحديبية » مع أن في نصوص المعاهدة ما يشير بظاهره إلى أن فيها خيفاً على المسلمين ، لكن النبي ﷺ كان فرحاً بالمعاهدة ، مستريحاً إليها ، لماذا ؟ .

لأنه انتزع من أعدائه الاعتراف به ، كان الدين معتبراً خارجاً على القانون ، وكان أتباعه معتبرين ضد السلطة القائمة والأوضاع القائمة ، فلما ظفر بهذا الاعتراف قبل المعاهدة على ما بها .

فماذا يصنع المسلمون إذا كانت قوى العالم الكثيرة لا تريد الاعتراف بهم ؟ .

قد يقول بعض الناس : ومن قال لك إن العالم لا يريد أن يعترف بك ؟ .

والجواب : التاريخ قال لي هذا ، ويشاء الله — وأنا رجل مسلم ، وعالم من علماء الدين — كنت أذاكر في « الأزهر » دار الحرب ، ودار الإسلام ، فكان بعض الناس يتساءل : لماذا نسمى بقية العالم دار حرب ؟ قلت له : أظن المعاملة جاءت بالمثل ، قال : كيف ؟ قلت له : هناك أمور لا يمكن أن تحل داخلياً ، إنما تُحل دولياً ، قال : مرة أخرى : كيف ؟ قلت له : ديننا يتشوّف إلى الحرية — كما يقول علماء الفقه — وله في هذا كلام لا يقال الآن ، لكن هل يستطيع أن يصدر أمراً داخلياً في أرض الإسلام : أن كل أسير يحرر ؟ كيف ؟ إذا كان أسراى سيباعون في أسواق الرقيق فهل تبلغ في الغفلة أن أحرر — أنا — الأسرى تحت يدي وأترك أبنائى يباعون في العالم كله ؟ .

المعاملة بالمثل — هنا — أساس ، ومعنى هذا أن أقول لهم : إن شئتم حررنا الأسرى جميعاً ، أما أن أحرر أنا وحدى فلا ..

فإذا قرر العالم منع الاسترقاق فأنا أول من يمضى !! كذلك الاعتراف

بى ، إذا أبوا أن يعترفوا بى فكيف أعترف بهم ؟ .

قلت : هذا من باب الاجتهاد وأنا طالب صغير ، لكن قرأت فيما بعد ما أثبتته فى كتاب صدر لى من خمس وعشرين سنة^(١) ، وما أثبتته يعطى فكرة عن الوضع العالمى للمسلمين ، النقول التى أقرؤها عليكم الآن من كتاب^(٢) ألفه الدكتور « محمد حافظ غانم » وقد كان — فيما أعلم — وزيراً للتعليم العالى ، وكان أيضاً رئيساً — يوماً ما — لمجلس الأمة ، والكتاب مقرر على طلاب « معهد الدراسات العربية العالمية بجامعة الدول العربية » .

يقول المؤلف تحت عنوان : « العائلة الدولية كانت تستبعد دار الإسلام من حظيرتها » : ومنذ نشأة القانون الدولى الحديث كان من المقطوع به اعتبار الإسلام خارج نطاق العلاقات الدولية ، وعدم الاعتراف بتمتع الشعوب الإسلامية بالحقوق التى يقررها هذا القانون .

وعلى هذا الأساس لم يكن الفقهاء الأوربيون راغبين فى اعتبار الدولة العثمانية جزءاً من الجماعة الدولية ..

ف « جروسيوس » أب القانون الدولى قال بوجوب عدم معاملة الشعوب غير المسيحية على قدم المساواة مع الشعوب المسيحية ومع أنه يرى القانون الطبيعى يميز عقد معاهدات مع أعداء الدين المسيحى إلا أنه نادى بتكتل الأمراء ضد أعداء العقيدة .

و « جنتيلس » هاجم « فرنسو » الأول ملك فرنسا لعقده معاهدة مع السلطان سليمان العثمانى فى سنة ١٥٣٥ .

مع أن هذه المعاهدات أقامت سلاماً بين الدولتين مدة حياة الملكين . وأعفت الرعايا الفرنسيين من دفع الجزية التى كانت مقررة على غير المسلمين إذا ما أقاموا فى دار الإسلام ، ومنحتهم امتيازات دينية وقضائية .

(١) هو كتاب « كفاح دين » ص ١١٢ وما بعدها ط دار الكتب الحديثة الطبعة الثالثة سنة

١٩٦٥ م .

(٢) الكتاب « المجتمعات الدولية الإقليمية » .

وذلك على أساس أن هذه المعاهدة تقيم تعاوناً بين ملك مسيحي وبين غير المؤمنين .

بل لقد ذهب فقهاء آخرون إلى أنه من الممكن إقامة سلام دائم في أوروبا على أساس تكتيل الدول المسيحية ضد العثمانيين .

أنا نقلت من هذا الكتاب نحو ثلاث صفحات من موقف القانون الدولي ضد الإسلام ، واعتبار الإسلام خارجاً على القانون واعتبار المسلمين لا يعاملون بالقانون الدولي .

هذا في القرن التاسع عشر ، ثم جاء القرن العشرون وأنشئت هيئة الأمم ، ولم تر هيئة الأمم حرجاً من أن تطرد عرب فلسطين المسلمين من أرضهم لتعطي هذه الأرض عصابات اليهود التي استقدمت من هنا ومن هناك ويبدو — إلى الآن — أن المسلمين يعاملون معاملة الجنس الأسود في جنوب أفريقيا ، فهم يعتبرون المسلمين من الدرجة الثانية ، أو إن سمح لهم ببقاء فبقاؤهم في حدود معينة !! .

بداهة ما نرضى لأنفسنا ، وما يرضى عاقل لنفسه أن يحيا على هذا النحو ، بل لابد أن ندرك الحقائق كاملة ، وأن نتعاون في رد العدوان وكسر حدته ، والتجاة بديننا من عبث هذه المؤامرات قانونية كانت أو غير قانونية .

لذلك كان الإسلام في تعاليمه جامعاً بين الأمرين : إن أعطينا حق الحياة والكرامة والحديث إلى غيرنا أعطينا غيرنا هذا الحق ، وإن ضُنَّ علينا بحق الحياة والكرامة والعيش وفق ديننا فإننا نُضِنُّ على الآخرين بهذا الحق .. وما يلومنا أحد على هذا ، أما الأساس الأول الذي يقوم عليه الدين فهو أن ينشر بغير إكراه .

بعض المستشرقين أو المبشرين قال : إن الآيات التي تضمنت حرية المعتقد والتي قالت للآخرين : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون : ٦] كانت في مكة ، فلما شعر المسلمون بقوتهم ، وتماسك السيف

بأيديهم ، وأسسوا بالهجرة دولة لهم قرروا أن يعاملوا الآخرين معاملة فيها غبن ، وأن ينسوا ما كان من حرية المعتقد ، ويلجأوا للقتال !! .

هل هذا الكلام حق ؟ هل القرآن الذى نزل فى المدينة يخالف القرآن الذى نزل فى مكة من هذه الناحية ؟ .

الجواب : لا . لأن أول سورة نزلت فى المدينة سورة البقرة ، وسورة البقرة تضمنت ثلاثة مواضع وهى تتحدث عن أتباع الأديان الأخرى .

منها الآية العظيمة التى لا يُعرف لها نظير فى مكان آخر من أرض الله ، وهى قوله تعالى : ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

ومنها قوله تعالى لأهل الكتاب : ﴿ قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ﴾ [البقرة : ١٣٩] .

ومنها قوله تعالى وهو يتناول موقف اليهود منا : ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شئ قدير ﴾ [البقرة : ١٠٩] بل إن آخر ما نزل فى القتال وشرائعه ما ختمت به سورة التوبة : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ [التوبة : ١٢٨] ، [١٢٩] .

قصة الجهاد فى الإسلام قصة مشرفة للمسلمين ، وقصة القتال فى الإسلام قصة مشرفة للتاريخ الإسلامى .

والقضية ليس فيها ما يريب ، ولما يحتاج إلى تدخل التافهين ليعبثوا بتعاليم الإسلام .

وقع فى يدى كتاب عليه أسماء بعض الدكاترة الذين يشتغلون بالطب ،

مكتوب في هذا الكتاب : « حتمية تأويل آيات القتال في القرآن » .

سبحان الله !! قلت في نفسي : كيف تؤول آيات القتال ؟ وبدأت أقرأ فإذا بالدكاترة العباقرة ذكروا نصين كنهاذج لهذا التأويل الذي لا بد منه في القرآن الكريم .

النص الأول : قوله تعالى : ﴿ **والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم** ﴾ [محمد : ٤] .

قال الدكاترة العباقرة : إن المقصود بالقتل هنا قتل الشهوات والأهواء .

هذه الكلمة ليست مستقلة وإنما هي جزء من الآية الرابعة في سورة محمد ﷺ أو سورة القتال كما تسمى في كثير من المصاحف ، هذا الجزء من الآية الرابعة يُفهم بداهة مرتبطاً بها ، ما هي هذه الآية الرابعة ؟ الآية الرابعة هي : ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم** ﴾ [محمد : ٤] .

يقول الدكاترة — الذين كتبوا الكتاب : إن الآية لا صلة لها من قرب ولا من بعد بالقتال الذي تُسفك فيه الدماء !! ألا شأنت الوجوه .

الآية تقول : عندما تلاقون المعتدين الصادين عن سبيل الله ، الضائين عليكم بحق الحياة اضربوا أعناقهم ، وقيدوا أسراهم ، وأثخنوا في الأرض حتى ترهبوا عدو الله وعدوكم ، هذا كله يُهدر ويقال : إن الآية في حرب الشهوات ؟!

أى شهوات ؟ حرب الشهوات والأهواء لها آيات أخرى : ﴿ **ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله** ﴾ [صر : ٢٦] ﴿ **بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم** ﴾ [الروم : ٢٩] .

أما أن تحيى لكلمة هي جزء من آية قتال ساخن دموى أساسه أنك تريد إنقاذ عقيدتك ممن يبغي سرقها ، وإنقاذ كرامتك ممن يبغي استباحتها ،

وإنقاذ يومك وغدك ممن يريد التطويح بهما في مهاوى الفناء فتجىء
لتقول : هذا القتال في حرب الأهواء ؟!

النص الثانى الذى نقله الدكاترة العباقره فى كتابهم هو قوله جل
شأنه : ﴿ وَإِنْ نَكْثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا
أُتَمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ [التوبة : ١٢] .

قال الدكاترة العباقره : إن المقصود بالقتال هنا الجدل والمحاورات
العقلية ونقد الأدلة ؟!

أى كلام هذا ؟ الآية من سورة التوبة ، وسورة التوبة بدأت بإلغاء
المعاهدات التى عَهِثَ بها أعداء الله ، وقالت للمسلمين : ارفضوا هؤلاء :
﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنَفَصُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي
دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُتَمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ . أَلَا تَقَاتِلُونَ
قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُواكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ
فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ
وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ . وَيَذْهَبُ غِيظُ
قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١ - ١٥] .
هل هذا القتال قتال أدلة خطائية أو إقناع عقلى ؟ أم القتال هنا جاء
لأناس انتصوا أسلحتهم لضربنا ، وما بد من أن نكسر السلاح فى أيديهم ،
وأن نذيقهم وبال ما قدموا هم لأنفسهم ؟!

الكلام الذى قاله هؤلاء الدكاترة خطير ، فبعد صفحات قرأت تفسيراً
لحديث نبوى معروف وهو حديث : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده
فإن لم يستطع فليسهه ، فإن لم يستطع فليقلبه وذلك أضعف
الإيمان » (١) .

يقول الدكاترة العباقره : معنى الحديث : من رأى منكم منكراً فى
نفسه هو فليغيره بيده !! وفى المجتمع ؟ لا . سبحان الله !! أدركت أن هذا
الكلام ليس وراءه عقل علمى ولا فقه إسلامى ولا شرف نفسى ، بل هو
كلام لحراسة الفساد فى بعض المجتمعات ، أو لخدمة الاستعمار العالمى الذى

(١) رواه مسلم فى الإيمان — باب بيان كون النهى عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد
وينقص وأن الأمر المعروف والنهى عن المنكر واجبان ٥٠/١ .

استباح الدم الإسلامى فى كل مكان .

وقد حدث أن الاستعمار الإنكليزى لما وجد الجهاد الإسلامى يعكر صفوه ، ويعترض طريقه استعان برجل اسمه « ميرزا غلام أحمد » — زعيم القاديانية — فأبطل الجهاد ، وأبطل الحج ، حتى لا يتجمع المسلمون لا تجمعاً مدنياً ، ولا تجمعاً عسكرياً ، وحتى ينتشر الضلال فى الأرض دون أن ينتصب له مؤمنون أشداء يقفون ضلاله وينكسون رايته . ولكن القاديانية فضح الله صاحبها ، وفضح أتباعه ، وعُرفوا بأنهم أعداء للإسلام ، وعمولوا — فى حكومة باكستان الحالية — على أنهم أقلية دينية مقطوعة الصلة بالإسلام .

فهل ينتهى التخريف القاديانى فى الهند ليبدأ بعض الدكاترة — ومنهم أناس فى كلية الطب فى جامعة القاهرة — التخريف فى « مصر » ولا فقه لهم فى دين الله ، ويتحدثون فى شرح الإسلام وقضاياه على نحو طائش أحق لا يمكن أن يُعترف به ، ولا يمكن أن يتحدث عنه بهذا الأسلوب إلا خصوم لدين الله .

والواقع أن هذا الكلام يجب أن توضع أمامه علامات استفهام كثيرة ليُعرف لحساب من يقال ؟ من وراء هذه الأراجيف ؟ .

بقى شيء وحيد يمكن أن نشرحه لأنه بحاجة — فعلاً — إلى شرح ، وربما كان ظاهر الحديث المروى سبباً فى أن يحدث تساؤل ينبغى أن نجيب عنه .

روى البخارى ومسلم عن النبى ﷺ قوله : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم منى نفسه وماله إلا بحقه وحسابه على الله (١) .

ظاهر هذا الحديث يخدع ، يخدع من ؟ يخدع من لا ثقافة إسلامية له ، لأنه سيفهم من هذا الحديث أن صاحب الرسالة ﷺ مأمور بشن غارة على العالم كله حتى يقول الناس : لا إله إلا الله ، وتنتهى الغارة عندما يقولون : لا إله إلا الله !! .

هل هذا هو معنى الحديث ؟ هذا كذب لا أصل له ، والسبب فى

(١) رواه البخارى فى الجهاد باب دعاء النبى ﷺ إلى الإسلام والنبوة ٥١/٤ ومسلم فى الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ٣٩/١ .

هذه الخُدعة التي فُهمت من ظاهر الحديث كلمة « الناس » في قوله :
« أمرت أن أقاتل الناس » — فقد فهمها كثيرون على أن المقصود
بالناس البشر عموماً ، وهذا غير صحيح .

أول ما نذكره في تكذيب هذا الفهم أن العلماء أجمعوا على أن كلمة
« الناس » في الحديث لا تشمل أهل الكتاب ، لماذا ؟ قالوا : لأن سورة
التوبة تحدثت عن المعتدين من أهل الكتاب الذين لا يعرفون حلالاً
ولا حراماً في معاملتهم للمسلمين ، تحدثت عن قتالهم وجعلت الغاية منه
محددة : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ
مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى
يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩] .

فكانت الغاية من قتالهم — لا أن يقولوا لا إله إلا الله وإنما : ﴿ حَتَّى
يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ .
فلا صلة للحديث المروى لا باليهود ولا بالنصارى .
هل يتناول المشركين كلهم ؟ .

لا : « فإن عمر بن الخطاب ذكر المجوس ، فقال : ما أدرى كيف
أصنع في أمرهم — فقال عبد الرحمن بن عوف : أشهد لسمعت رسول الله
ﷺ يقول : « سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ » (١) .

إذا هؤلاء أيضاً ليسوا في الحديث .

ما المقصود من الحديث إذا ؟ .

كلمة « الناس » هنا ، قال العلماء : إنها عام مخصوص ، وقد وردت
كلمة « الناس » في القرآن عموماً يراد به خصوص في مواضع كثيرة ،
منها قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ
فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ ﴾ الناس هنا : بعض المنافقين ﴿ إِنَّ النَّاسَ
قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ﴾ الناس هنا : بعض المشركين ، إذا فالناس في
الآية ليس المقصود بها عموم البشر ، آية أخرى هي قوله تعالى : ﴿ إِذَا

(١) رواه مالك في الموطأ كتاب الزكاة — باب جزية أهل الكتاب والمجوس ٢٧٨/١ قال
الشوكاني في نيل الأوطار : وهذا منقطع ورجاله ثقات . ورواه الدارقطني وابن المنذر في الغرائب من
طريق أبي علي الحنفى عن مالك فزاد فيه عن جده أي جد جعفر بن محمد وهو أيضاً منقطع لأن جده =

جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ﴿
[النصر : ١ ، ٢] ما الناس الذين دخلوا ؟ أهل القارات ؟ لا . عرب
الجزيرة .

كلمة « الناس » في الحديث تفسير لكلمة « الناس » في قوله تعالى :
﴿ وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من
المشركين ورسوله ﴾ [التوبة : ٣] .

الناس هنا : هم الذين خانوا الأمانات ، ولعبوا بالمعاهدات ، وعبثوا
بالمواثيق التي أخذت عليهم ، أما الذين بيننا وبينهم ميثاق فقد استثنوا من
هذا القتال كله :

﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا
عليكم أحداً فأتقوا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾
[التوبة : ٤] .

المهم أن الحديث ليس على ظاهره ، والحديث صحيح السند ، ولكن
يحتاج المعنى إلى فقه الفقهاء .

يحيى واحد صعلوك فيقول : الحديث كذب لأنه عدوان على
الناس !! .

كيف كذبت الحديث ؟ الحديث صحيح لكن له معنى ، لكنها قلة
الفقه وسوء الأدب .
نسأل الله العافية .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

= علي بن الحسين لم يلحق عبد الرحمن بن عوف ولا عمر ، فإن كان الضمير في جده يعود إلى محمد
ابن علي فيكون متصلاً لأن جده الحسين بن علي سمع من عمر بن الخطاب ومن عبد الرحمن بن
عوف ، وله شاهد من حديث مسلم بن العلاء الحضرمي أخرجه الطبراني في آخر حديث بلفظ
« سنوا بالمجوس سنة أهل الكتاب » (نيل الأوطار : ٥٧/٨) .

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .
وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، إمام الأنبياء وسيد المصلحين .
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أما بعد :

أيها الإخوة : فى الحقيقة أننا نحتاج فى هذا العصر إلى شىء من التأمل
والتؤدة ونحن نواجه المكاييد والمؤامرات التى تُوجه للإسلام وأهله .

ذلك أن هناك جهلة متدينين لكن فيهم بلاهة ، وهناك أعداء وفيهم
نُحْبث ودهاء ..
والإسلام بين نارين من هؤلاء وأولئك ..

ورد حديث يقول : « إنا أمة أمية لا تكتب ولا نحسب ، الشهر
هكذا وهكذا » يعنى مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين (١) .

ما معنى الحديث ؟ العرب فى جاهليتهم كانوا أمة أمية ، ما يعرفون
الحساب الفلكى ، ولا تشيع الكتابة بينهم ، كانوا كالإبل الهائمة فى
الصحراء ، حتى جاء الإسلام فنقلهم بثقافته :

﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا
عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق نفصل الآيات لقوم
يعلمون ﴾ [يونس : ٥] .

فانتقل العرب — بداهة — إلى أمة مثقفة ، لها معارف خصبة ، ولها
حضارة رائعة .

(١) رواه البخارى فى الصوم باب قول النبى ﷺ لا تكتب ولا نحسب ٣٥/٣ ومسلم فى
الصيام باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال ، والفطر لرؤية الهلال ١٢٤/٣ .

فألذى يفهم من حديث : « إنا أمة أمية » أن الأمية شرف ، وأنا نسحب الطلبة من الكليات ، ونقر بهم إلى الجبال فهذه غباوة ما يمكن أن يقول بها عاقل ، ولا يصنعها إلا البُله .

يجيء آخر فيقول : الحديث كذب ، لا . الحديث صحيح ، لكن فهمكم أنتم له هو الكذب ، فيفهم الحديث كذباً ثم يكذب الحديث ، وتفتح ثغرة في جدار الثقافة الإسلامية ، لأنه عندما يجيء العيال والصعاليك ويكذبون البخارى ومسلماً وكتب السنة فماذا يبقى في الإسلام ؟ .

القرآن ؟ سيؤول على هذا النحو الذى شرحته لكم ، ويضيع الدين كله .

إن الله عز وجل لم يخلق الناس متساوين لا في كفايتهم ولا في مواهبهم ، ولم يقل جل شأنه للناس إذا جهلوا : أسألوا الجهلة أمثالكم ، ولكنه قال : ﴿ فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ [الأنبياء : ٧] وأمتنا محتاجة إلى جماعات كثيرة ، كثيرة جداً من أهل الذكر يشرحون للناس دينهم ، ويعرفونهم معاشهم ومعادهم .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

(١) رواه مسلم فى الذكر — باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨ .

عهد المظالم والهزائم

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

١٩٧٣/٦/٨ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإن الناس يستقبلون في الأيام الأولى من هذا الشهر — بالتقويم الميلادي — ذكرى كئيبة ، تَسْوَدُّ لها وجوه ، وتُنْكَسُّ بها رؤوس ، ويشيع معها جو من الأسى والعجب !! وذلك أن العرب لحقت بهم هزائم شنعاء في هذه الأيام الأولى من هذا الشهر .

وهي هزائم يريد العدو أن يبنى عليها أشياء خطيرة ، يريد العدو بها أن يصف نفسه بأنه عدو ذو بأس شديد ، وعزم حديد ، وقدرة خارقة ..

ويصف بعد ذلك العرب والمسلمين بأنهم شعوب في طريق التلاشي ، وأنهم أمم قد أخذت تفقد خصائص الحياة ، وأن ما نزل بها من هزائم إنما كان تسجيلا لما تستحق من إدبار أمرها ، وسقوط ألويتها .

والأمر على هذا النحو لا يمكن أن نسكت عليه ، ولا أن نستطيع أمام ربنا أن ندع الأكاذيب تربو وتنمو مع صمت من يعرفون الحقائق .

أريد أن أقول — معتصما بالله — :

إن الهزائم التي وقعت لم تكن هزائم للأمة الإسلامية ، ولم تكن هزائم للجيوش العربية ، لكنها كانت هزائم لطراز معين من الحكم ، ولون معين من الرجال ، ونوع معين من الخطط !!

أما بالنسبة لنا نحن المصريين فإنني خير بالشعب المصري والجيش المصري ، وينبغي أن أقول : إن أعداءنا يريدون أن نفقد ثقتنا بأنفسنا ، وأن تشيع الأكاذيب التي رُوِّجوا لها ، وبنوا عليها ، وما ينبغي نحن أن نستسلم لهذه الخطة .

إن ما وقع من هزائم لا يمكن إنكاره ، ولكنه لم يكن هزيمة للجيش ولا للشعب ، إنما كان هزيمة لعصابة من الناس وقعت أزمّة الحكم في أيديها فأذت الله ورسوله ، وأهانت المؤمنين ، وتركت وراءها هذا الدمار المادي والأدبي ينال من كرامتنا ، ومن حقيقتنا !!

الجيش المصري سبقت له مواقف في التاريخ ما تُنكر ، فهو الذي هزم الصليبيين في « حطين » وغير حطين ، وهو الذي هزم التتار في « عين جالوت » وغير عين جالوت ..

واستطاع فلاح تركي اسمه « محمد علي » بهذا الجيش من المصريين أن يمد حدود « مصر » حتى « الجزائر » غربا ، وحتى « منابع النيل » جنوبا ، وحتى « الخليج العربي » شرقا ، وحتى « القسطنطينية » وداخل « جزر اليونان » و « شبه جزيرة الموره » شمالاً .

الجيش جيش محترم يوم يُرزق قيادة محترمة ، لكن يوم تقع أزمّته في إيد غيبة فإنه سينهار يقينا .

الشعب المصري ليس تافها ، ولست أقول هذا لأني مصري ..

إن هذا الشعب له خصائص أصيلة ، هذا الشعب في آخر قضاياه — ولا أذهب إلى الماضي البعيد — يوم استطاع الإنكليز أن يدخلوا « رشيد » في أول حملة من حملات الاحتلال ، وفُرّت الجيوش « الألبانية » من أمامهم ، قرر الشعب المصري أن يقاوم ..

الشعب أعزل ، ومع ذلك فإن اثنين من المؤرخين كتبوا وثيقة —
موضوعة الآن في وثائق وزارة الخارجية الانكليزية ، و مترجمة في بعض كتبنا
العربية والإسلامية — تقول : إن أهل « رشيد » قاوموا بحجرات ،
وتقول : إن الحملة التي نزلت سرعان ما بدأ الأهالي في الحارات ، وفي
الشوارع ، ومن أسطح البيوت ، ومن نوافذ البيوت ، أخذوا يُحولون
المدينة إلى بركان ثائر ...

كانوا يُغنون الزيت ويسكبونه على الجنود ، وكانوا يضربون بالرصاص
والبلط والعصى ...

ووجد القائد الانكليزي نفسه أمام محنة ، إذ فقد نصف الحملة —
تقريباً — في شوارع « رشيد » وحاراتها مع الشعب بعد أن فرّ الجيش
الألباني ...

وكانت إشارة الهجوم على المحتلين من مسجد « المحلى » بـ
« رشيد » !!

هذا ما وقع في « رشيد » مع الانكليز ، وما وقع مع الفرنسيين أن
ربع السكان في « مصر » — تقريباً — قُتلوا أو جرحوا وهم يقاومون
الجيش الفرنسي بعد أن هُزم المماليك !!

وتاريخ المقاومة لا يُدرّس ولا يُكتب ، كأن هناك مؤامرة لإشعار هذه
الأمة بأنها لا تحسن المقاومة ...

إن الجيش المصرى أصيل ، وتاريخه مشرف ، والشعب المصرى
أصيل ، وتاريخه مشرف ، ومفتاح شخصيته الإسلام ...

يوم ينادى بهذه الصيحة ، ويوم تُدار في أقفاله هذه المفاتيح المؤمنة فإنه
يتحرك فلا يقف أمامه شيء في الأولين والآخرين !!

إن الهزيمة التي وقعت كانت هزيمة عصابة من الناس تستمتع بقدر كبير
من الغباء والجهالة وكبرياء الضلال ...

هؤلاء كانوا في واد والشعب في واد آخر ، لأن القانون سُجن ، ولأن كل إنسان كان مُروَّعا ، لم يكن هناك وجود لقانون عقوبات أو قانون أخلاق ...

كان من الممكن لأي حاكم من هؤلاء إذا أعجبته عمارة من العمائر أن يعلن حراسة عليها ثم يسكنها أو يسكنها أتباعه !!

كان التدين شبهة ، وصلاة الفجر في بعض المساجد مشكلة ، والبعد عن الخمر والذنيئة يُعرَّض صاحبه للهوان والضياع وخراب المستقبل بعد الحاضر !!

فلما وقعت المعركة كان الناس يتفرجون !! وكيف وُضعت الخطة ؟ .

يقول لي طيب : صدر في أربع وعشرين ساعة نحو عشرين أمراً متضاربة متناقضة ؟ .

فما استطاع الجيش أن يصنع شيئاً أكثر من أن يحمل سلاحاً ربما لم يُجَرَّب ، أو ربما لم تُفتح أغلفته ليعطيه اليهود !! .

كانت خطة لا نظير لها في الغباء ، الجيش معذور ، والشعب معذور ، والأمر محتاج إلى أن يدرك الناس الحقائق .

كان الجيش يستطيع أن يفعل الكثير ولكنه عجز ، وكانت الأمة تستطيع أن تفعل الكثير ولكنها عجزت .

في الحرب الأولى مع اليهود في سنة ١٩٥٦ م كنت يقظان مدركاً لما هنالك ، كانت في شعبنا بقايا من الإيمان والوطنية ، وعندما وُزِع السلاح على الشعب ليقاوم كنت موقناً أن هذا السلاح لن يُستغل إلا في ضرب العدو ، وعندما أكره سكان القناة على أن يهجروها كان الناس بصدورهم وبيوتهم وعواطفهم وتقاليدهم يرحبون بالمهاجرين لأن بقايا الإيمان موجودة ..

كنت موقناً أن شيئاً حدث غير كريم وهو هزيمة جيشنا على الحدود

الشرقية بسرعة غير متوقعة ، وقيل يومئذ : السبب في صدور أوامر الانسحاب أن الانكليز والفرنسيين نزلوا في « بور سعيد » .. والواقع أن هذا التعليل خادع ، وأن المقاومة كان ينبغي أن تطول أكثر لو كانت القيادة أعقل وأحكم وأحزم .

ولكن الخطأ وقع ، وشاء الله أن تنجو البلاد ، وأن ينسحب أولئك الذين جاءوا .. وقلت : بأى قدرة خرجوا ؟ بأى قدرة غُسلت الأرض منهم ؟ .

وكان الجواب : قدرة من غير قدرة الله جل شأنه !!؟ .

وقلت يومئذ : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يسطروا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ [المائدة : ١١] .

هو وحده الذى كف الأيدى عنا ، ولكن الذين استمعوا لهذا الكلام ذكرونى بقصة الأقرع والأبرص والأعمى التى روتها كتب السنة ، وكتب السنة تروى أحاديث موجهة وأخباراً نافعة ..

إن الإنسان فى طبيعته أن ينسى ، وفى طبيعته — أحياناً — أن يعُذر ، بالنعمة وأن يجحد صاحبها .

ضربت السنة مثلاً لهذا بثلاثة نفر ابتلوا بالفقر والعلل ، هذا أبرص وفقير ، وهذا أقرع وفقير ، وهذا أعمى وفقير : « إن ثلاثة فى بنى إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى بدا الله أن يبتليهم^(١) فبعث إليهم ملكاً فأتى الأبرص فقال : أى شئ أحب إليك ؟ قال : لون حسن ، وجلد حسن ، قد قَدَرنى الناس ، قال : فمسحه فذهب عنه فأعطى لونا حسنا وجلداً حسناً ، فقال : أى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل . فأعطى ناقه عُشراء ، فقال : يُبَارَكَ لك فيها .

(١) بدا الله : أى سبق فى علم الله فأراد إظهاره ، وليس المراد أنه ظهر له بعد أن كان خافياً ، لأن ذلك محال فى حق الله تعالى يبتليهم : أى يختبرهم .

وَأَتَى الْأَقْرَعَ فَقَالَ : أَى شَىء أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : شَعْرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِ هَذَا قَدْ قَذَرْنِى النَّاسُ . قَالَ فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ وَأَعْطَى شَعْرًا حَسَنًا ، قَالَ : فَأَى الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الْبَقْرُ ، قَالَ : فَأَعْطَاهُ بَقْرَةً حَامِلًا ، وَقَالَ : يُبَارِكَ لَكَ فِيهَا .

وَأَتَى الْأَعْمَى فَقَالَ : أَى شَىء أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : يَرِدُ اللَّهُ إِلَى بَصْرَى فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ ، قَالَ : فَمَسَحَهُ فَردَ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصْرَهُ ، قَالَ : فَأَى الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الْغَنَمُ ، فَأَعْطَاهُ شَاةً وَالِدًا ، فَأَنْتَجَ هَذَانِ وَوُلِدَ هَذَا .

فَكَانَ لِهَذَا وَادٌ مِنْ إِبِلٍ ، وَلِهَذَا وَادٌ مِنْ بَقَرٍ ، وَلِهَذَا وَادٌ مِنَ الْغَنَمِ .

ثُمَّ إِنَّهُ — أَى الْمَلِكُ — أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ : رَجُلٌ مَسْكِينٌ تَقَطَّعَتْ لِي الْحَبَالُ فِي سَفَرَى فَلَا بَلَغَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَ ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِى أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالِ بَعِيرًا أَتَبْلُغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرَى ، فَقَالَ لَهُ : إِنْ الْحَقُّوْقُ كَثِيرَةٌ ، فَقَالَ لَهُ : كَأَنِّى أَعْرِفُكَ أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ ؟ فَقَالَ : لَقَدْ وَرِثْتُ لِكَابِرَ عَنْ كَابِرٍ^(١) فَقَالَ : إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصِيرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ .

وَأَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ لَهُ مِثْلُ مَا قَالَ لِهَذَا فَردَ عَلَيْهِ مِثْلُ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا ، فَقَالَ إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصِيرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ .

وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ فَقَالَ : رَجُلٌ مَسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ وَتَقَطَّعَتْ لِي الْحَبَالُ فِي سَفَرَى فَلَا بَلَغَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَ ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِى رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ شَاةً أَتَبْلُغُ بِهَا فِي سَفَرَى ، فَقَالَ : قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَردَ اللَّهُ بَصْرَى وَفَقِيرًا فَقَدْ أَغْنَانِى فَخَذَّ مَا شِئْتُ فَوَاللَّهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَىءٍ أَخَذْتَهُ اللَّهُ . فَقَالَ : أَمْسِكْ مَالَكَ فَإِنَّمَا ابْتَلَيْتُمْ فَقَدْ رَضِىَ اللَّهُ عَنْكَ وَسَخَطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ^(٢) .

(١) أَى وَرِثْتَهُ عَنْ آبَائِى وَأَجْدَادِى .

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِىُّ فِي الْأَنْبِيَاءِ — بَابُ حَدِيثِ أَبْرَصَ وَأَعْمَى وَأَقْرَعَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ٢٠٨/٤ .

وَمُسْلِمٌ فِي الزَّهْدِ — كِتَابُ الزَّهْدِ وَالرَّقَائِقِ ٢١٣/٨ .

النفس البشرية — أحياناً — تنسى ماضيها ، تنسى فقرها ، تنسى ذلها ،
ثم تزعم أن ما هي فيه من خير وعز ونصر وغنى هو جهدها ، كما قال
قارون — لما قيل له : ﴿ أحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في
الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندي ﴾
[القصص : ٧٧ ، ٧٨] عبقريتي هي التي جاءت بالمال .

وهذا ما حدث ، فإن الحكم السابق في بلدنا قال — ببساطة —
انتصرنا !! .

وأحسن صناعة أجدناها كانت الكذب !! .

فانتشر الكذب ، انتشر أننا بقدرتنا وحولنا وخططنا وذكائنا وعبقريتنا
انتصرنا !! .

والله وحده يعلم أنه هو وحده صاحب اليد الطولى علينا ، وهو وحده
الذي أخرج العدو من بلدنا !! .

كانت بقايا الإيمان — فعلاً — ترشح الأمة لأن تنجو من كبوتها ..
لكن الذي حدث في سنة ١٩٦٧ م كان شيئاً لا بد منه ، كان لا بد أن
يفتضح الغرور ، وأن ينكشف الجهل ، وأن تتضح أمام أنفس الناس
الهالات التي زُورت ، والقامات التي تطاولت !! وما يغيظني في الدنيا شيء
كهذا اللون من الادعاء ، وكثيراً ما أردد قول المتنبي^(١) :

أفي كل يوم تحت ضيبي شويعر ضعيف يقاويني قصير يطاول
إلى أن يقول :

وما التيه طبي فيهم غير أنني بغيض إلى الجاهل المتعاقل
وعندما تقع أزمة البلاد في أيدي الجاهل المتعاقل فلا تنتظر إلا
الضياع .

(١) ديوانه : ١٩١/٢ والضين : ما بين الإبط والكشح — وهو ما بين السرّة ووسط الظهر .
ومعنى البيت : أفي كل يوم أرى بين صفار الشعراء من يقاويني ويطاولني وهو بحيث لو أردت أن
أحمله تحت ضيبي لقدرت على ذلك لصغره وقمائه . وطبي : أي شأني .

شعبنا شعب طيب ، وفيه مواهب أصيلة ، هاجر منه من هاجر فهو الآن يشتغل في غزو الفضاء ، وفي تفجير الذرة ، فهو شعب معدنه ذكي ، ويحتاج إلى حاكم يحنو عليه ، حاكم والد ، حاكم طيب يحتاج إلى هذا .

وأنا في مكاني من العمل في الدعوة الإسلامية — وأنا رجل خبير بديني ودنياي — كتبت مذكرة وقلت فيها — لمن ييدهم الأمر عندنا : إنني بعد أن أذهب الله الانكليز والفرنسيين واليهود أريد أن نعيد النظر في شبه جزيرة سيناء ، وعندى اقتراح سببه أني مسلم قرأت في كتاب الله : ﴿ وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للأكلين ﴾ [المؤمنون : ٢٠] فقلت : معنى هذا أن شجر الزيتون الذي ينمو في « لبنان » وفي « فلسطين » غابات كان ممتداً إلى « سيناء » ولا بد أن عوائق حالت دون انتشاره ، أو أن ظروفًا زمانية أو مكانية منعت أن ينمو شجر الزيتون في هذه البقاع ، لكنني موقن وأكملت بقمي فاكهة نبتت في سيناء أحلى وأشهى مما ينبت في « وادي النيل » وقد عشت في سيناء أمدًا غير قليل من الزمن وأنا بها خبير ..

قلت : أريد أن نبني مستعمرات في سيناء ، أساسها ثلاثة نفر ، عالم ديني ، مهندس زراعي ، ضابط عسكري ، الثلاثة تُختار لهم بقاع معينة ، وفي كل بقعة نوطن البدو ، للبدو حقوق في رقابنا ، إنهم جهلة ، يشتغلون برعى الغنم ، وإذا كان هذا الاحتراف لا يعطي الكثير اشتغلوا بتهريب المخدرات ، أو اشتغلوا بمعاونة الأعداء ، فلم لا نمنع هذا البلاء ونبدأ في توطينهم ، ويكون التوطين على الأساس الديني العسكري الاقتصادي ؟ .

وقلت : نبدأ بمحطات السكة الحديد بين « القنطرة » و « العريش » و « رمانة » إلى « رفح » إلى « غزة » وتنتشر بعد ذلك المستعمرات .

ووقع بعد ذلك التقرير الذي قدمته في يد مسئول بدأ يقرأ ، وبدأ ينظر إليّ في شيء من العجب أو من الازدراء ، وقال : ليست هناك مياه يا أستاذ في هذا المكان . قلت له : أنا أعرف أن اليهود مدوا الماء من شمال « غزة » إلى « رفح » وزرعوا الأرض « بطاطس » !! .

ونحن مددنا المياه إلى « مرسى مطروح » للمصيفين ، فإذا مددناها

للهو نستطيع أن نمدّها للجد ، لكن هيهات ، من تُحدث ؟ !

من البلاء أن يكون الرأى لمن يملكه لا لمن يصره !! .

وكان الرجل يقول : ما لرجل مُعمم يتحدث في هذه الأمور ؟ .

وشعرت بهذا وقلت وأنا أنتفض من العزة والكبرياء ، قلت : إننى معمم فعلاً ولكنى أضع خطة تمنع حاخامات اليهود من أن يهزموكم هزيمة ترفعون فيها أيديكم وأرجلكم وتضحكون العالم عليكم !! .

إن حاخامات اليهود يفعلون الكثير من أجل دينهم ، وأنا رجل مسلم أريد أن نخدم ديننا .

لكن هيهات ، ذهب الاقتراح إلى القمامة !! ونفّذ الاقتراح بنو إسرائيل ، نفذوه هناك بعد أن احتلوا أرضنا ، الحاخام اليهودى مع الضابط الإسرائيلى مع المهندس الزراعى .

إن ناساً تريد أن تصف ما حدث فتقول : نكسة . كلمة « نكسة » معناها أن رجلاً كان يصعد فانزلق فسقط ، فيقال : شئء باغته عن طريقه فما تم له ما أراد .

والحقيقة أن بلادنا كانت تنحدر ، الحقيقة أن الحكم السابق كان بهذه الطريقة التى يعيش بها يرشح الأمة لهزيمة نكراء ؟ ! .

ونحن لا نبكى على الماضى ، فإن البكاء على الماضى شأن الانهزاميين ، ولكنى أقول : فى المعركة القادمة — ولابد من وقوع معارك أردنا أم لم نرد — يجب أن لا تكون بين الشعب والحاكم فجوة ، الحاكم الأمين الصدوق النزيه هو الذى يعرف أنه خادم للأمة لا سيد لها ، الحاكم الأمين الصدوق النزيه هو الذى يرعى الدماء والأموال والأعراض ويقدها ، ليس ذنباً ينطلق فى أحشائها كي يُشبع نهمته من الحرام ، إنه يومئذ لن يكون حاكماً لها إنما يكون عدواً لها وعميلاً لأعدائها !! .

وقال بعض الناس : إن نكسة « يونيو » كنكسة « أحد » !! ولم أر أغرب ولا أعجب من هذا التعليق ، إن هذا الكلام خطورته بعيدة المدى ،

وهو اجترأ على حقائق التاريخ ، فإن معركة « أحد » أرّخ بعض كُتاب السيرة لها ورفضوا رفضاً باتاً اعتبار ما حدث نصراً لقريش وغلبة للوثنية . قالوا : ربما لم يبلغ المسلمون مرادهم ، ولكن ما حدث لا يمكن أن يوصف بأنه هزيمة .

ونحن نريد أن نبرز خمس نقط :

النقطة الأولى : أن المسلمين في « أحد » أحرزوا النصر ، وانكشف العدو ، وولى الأدبار في المرحلة الأولى من المعركة ، وهذه الهزيمة التي لحقت بالعدو هي التي أغرت طلاب الدنيا أن يتركوا مواقعهم ليحصلوا على الغنائم فكان ما كان .

لكن في « يونيو ١٩٦٧ م » ما حصلنا على شيء ما من النصر إلا ما كانت الإذاعات تكذب به وتقول : أسقطنا عشرات الطائرات ومئات الطائرات وهو كلام من نسج المخدرات !! .

النقطة الثانية : أن المشركين في معركة « أحد » ما استولوا على شبر من المدينة ، ولا فكروا في دخولها ، أما في « يونيو » فإن مساحة إسرائيل تضاعفت كثيراً من أرضنا وبلادنا وخيراتنا .

النقطة الثالثة : أنه بعد ما حدث في « أحد » لم تمر عشية أو ضحاها حتى أصبر النبي الكريم ﷺ — أمره بمطاردة قريش واللاحاق بجيشها ، ما صبروا على ما نزل بهم أربعاً وعشرين ساعة !! .

النقطة الرابعة : أنه بعد ما يوصف بأنه هزيمة ما فقد المسلمون دينهم ولا تقواهم ، بل جمع النبي ﷺ الناس وراءه وقال : « استتروا حتى أثنى على ربي عز وجل »^(١) وأخذ يثنى على الله ويؤمن به ويدعوه ويستغفره .

(١) رواه أحمد ٤٢٤/٣ والحاكم ٥٠٧/١ ، ٢٣/٣ — ٢٤ وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين . وقال الألباني : إنما هو صحيح فقط فإن فيه عيب بن رفاعه ولم يخرج له الشيخان ، ومن أخطاء الذهبي أنه في أحد الموضعين وافق الحاكم على تصحيحه وفي الموضع الآخر قال : « والحديث مع نظافة إسناده منكر » كذا قال : ولم أعرف لقوله وجهاً والله أعلم (هامش فقه السيرة للشيخ الغزالي : ٢٨٣) وقال في مجمع الزوائد : رواه أحمد والبخاري واقتصر على =

شيء آخر : تنظيم الناس في مواقعهم في الحياة أو في الممات أمانة ، كان زعيم الأمة ونبينا ﷺ يرعاه حتى في القبر ، كان يجمع بين الرجلين من قتلى « أحد » في ثوب واحد ، ثم يقول : « أيهم أكثر أخذاً للقرآن ؟ فإذا أشير له إلى أحد قدمه في اللحد وقال : أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة . وأمر بدفنهم بدمائهم ولم يُصلّ عليهم ولم يُغسلوا » (١) .

حتى في الموت يقدم الأعظم تقوى وديناً ، فإذا كان هذا في الموت فكيف الشأن في الحياة نفسها ؟ .

كانت الأمة يقدم فيها أصحاب الكفايات ، ويؤخر فيها من لا كفاية له .

النقطة الخامسة : أن سبب الهزيمة في « أحد » مخالفة الجيش للخطة ، أما في « يونيو » فإن سبب الهزيمة أن الجيش لم توضع له خطة ، كانت الخطة الموضوعة هي التي هزمتها ، كأنما وضعها عدو لهذه الأمة !! .

الفروق كثيرة جداً ، قلت : لا أبكى على ماض ، إن شهر يونيو يجيء وتجيء معه الآلام ، ويريد اليهود أن يفتحوا أفواههم في كل مكان ليقولوا : نحن أولو بأس شديد !! .

كذبتم والله ، والله لو أن أعدادكم من الناس كانوا كلاباً أو ذئاباً لانتصروا على العرب !! لأن العرب كانوا مخذولين بقادتهم ، كانوا مهزومين بمن يحكمهم ، لو اصطدم هؤلاء العرب بجيش من الكلاب لانهزموا !! لأنه ما كانت لديهم لا قوة ولا خطة ولا تراحم ولا تعاون !! .

إن اليهود امتدوا في فراغ ، ويوم ترجع هذه الأمة إلى دينها وإلى القليل من السلاح الذي بأيديها فإن اليهود سوف تسود وجوههم ، وسوف يضحك أهل الأرض من دعاواهم !! .

= عبيد بن رفاعه عن أبيه وهو الصحيح ، وقال : اللهم قاتل كفرة أهل الكتاب ، ورجال أحمد رجال الصحيح ١٢٢/٦ .

(١) رواه البخاري في المغازي — باب من قتل من المسلمين يوم أحد ١٣١/٥ .

إننى أريد بهذا الكلام كله شيئاً واحداً : أن أكشف الحقائق ، أن أرد الاعتبار لألوف من الشباب انتظموا فى الجيش وهم ليسوا جبناء ، وما فكروا أن يبيعوا دينهم ، ولكنهم ضاعوا بالخطط الرديئة ، شعوب مؤمنة طيبة ، ولكنها ذلت فى مدنها وقراها ، كانت تتفرج هذه هى المأساة التى وقعت فى « يونيو » ربما مات من مات ، ربما سجن من سجن ، ربما ذهبت مراكز القوة المسئولة عن هذا إلى حيث ذهبت ، لكن تبقى العبرة التى أريد أن يستفيد منها كل حاكم .

لا يجوز أن تكون بين الدولة والأمة فجوة ، لا يجوز أن يشعر رجل الشارع بأن حاكماً ما ديّان له ، مسيطر عليه ، رب له فى الأرض ، لا .

يوم أراد أحد الملوك فى « فرنسا » أن يجعل من نفسه إلهاً على الناس ، جاء الفرنسيون به وقتلوه !! .

إن هذا الحكم الذى أجراه الثوار الفرنسيون كان حصانة لهم فيما بعد من حكام يريدون أن يصنعوا هذا الصنيع بشعوبهم .

والأمة الإسلامية محتاجة إلى هذا كله ، لقد ضاع المسلمون فى « باكستان » بسبب هذا الذى قلته لكم .

جماعة من الجنرالات كانوا يسكرون ويهرفون بما لا يعرفون دوخوا مستقبل الإسلام فى الهند !! .

هذا ما حدث فى « يونيو » أرجو أن نأخذ منه عبرة : ﴿ إن فى ذلك للذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ [ق : ٣٧] .
أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ..

★ ★ ★

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فلغاية فى نفسى أحب أن أحكى شيئاً حدث ..

من عدة شهور جاءنى فى مكتبى رجل وأعطانى مبلغاً من المال أحصيته فإذا هو ستمائة جنيه ، قال لى : وزّعها على المساجد التى ترى أنها بحاجة إلى المعونة . قلت له : لا بأس ، ما اسمك ؟ فإذا هو يولى ويتركنى فما أعرف اسمه !! .

الجمعة الماضية وُضع فى يدى « ظرف » ما أعرف مَنْ صاحبه ، وعندما احتوتنى السيارة التى أعود فيها وجدت المبلغ ثلاثمائة جنيه ، ومعه خطاب فيه : ضع هذا المبلغ فى مساجد معينة بأوصاف معينة .

أنا أقصد بهذا ثلاثة أمور : الأمر الأول : أنه لاشك أن أمتنا — كما قلت — أمة تقية طيبة ، معدنها سليم ، والخير فيها كثير .

الأمر الثانى : لا أريد أن يتكرر هذا معى ففيه شئ من التعب أو الحرج لى .

الأمر الثالث : أن هذه النيات الطيبة فردية ، بمعنى أنها لا تزال فى أماكنها كمناجم الذهب لا تُكتشف إلا بالبحث .

الهجوم على الإسلام هجوم جماعى منظم ولا بد أن يكون الدفاع دفاعاً
جماعياً ومنظماً .

وألفت النظر إلى أن أمتنا لها مفتاح واحد هو : الإيمان ، هو الإسلام ،
وأنها بهذا المفتاح تعطى المال ، تعطى الدم ، لأنها تريد وجه الله تعطى كل
شئ وتصنع كل شئ .

أما من يحاول إزلالها فماذا سيجنى ؟ سيذل نفسه ويقهرها ويقهر
الامة معه ويذلها !! .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا التى
فينا معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا
فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا
غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] . ●

أقم الصلاة

(١) رواه مسلم فى الذكر — باب التعود من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨ .

١- تأملات في سورة آل عمران مفتاح هذه السورة

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضى الله عنه

١٩٧٤/٢/٨ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

نهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

• أما بعد :

فسنعود اليوم بمشيئة الله تعالى إلى التفسير الموضوعي للقرآن الكريم .

كنا قد ألقينا نظرات عَجَلَى على سورة البقرة ، ثم اعترضتنا مناسبة الهجرة فقضينا معها ثلاثة أسابيع ، والآن نعود إلى سورة آل عمران — بعد سورة البقرة — لنلقى عليها نظرات عَجَلَى نستبين فيها الهدايات التي أودعها الله في تضاعيف الوحي المبارك ، وننتفع بهذا الخير الذي خصنا الله به نحن المسلمين ، ولعلنا نقدره ونرتفع إلى مستواه ونكون أهلاً لفقهه وتبليغه .

قلنا في نظرة سريعة إلى هذه السورة : إنها يمكن أن تنقسم قسمين : قسم يتضمن مناقشات لأهل الكتاب ، وهذا القسم ينتظم تقريباً نصف السورة الأول .

أما القسم الثاني الذى يشيع فى نصفها الأخير : فهو التعليق على هزيمة

« أحد » واستخلاص العبر مما أصاب المسلمين فيها من مأس ونكبات .
ونحن نستعين الله عز وجل لننظر في هذه السورة على نحو آخر يقترب من
عرضنا الأول لها ، ولكنه قد يضيف جديداً إلى هذا العرض .

بدأت السورة — بعد حروف الهجاء المقطعة — بقول الله جل شأنه :
﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ [آل عمران : ٢] .

وصف رب العالمين نفسه بثلاث صفات : أنه لا إله إلا هو : أى
لا شريك له ، فما عداه عبد خاضع لجلاله ، محتاج إليه .

الصفة الثانية : الحى : حياته من ذاته ، يفيض الحياة على غيره وغيره
لا حياة له من ذاته ، وإنما يكسب حياته من الله جل جلاله .

الصفة الثالثة : القيوم : ومعنى القيوم : أن العالم علوه وسفله ، عرشه
وفرشه ، ما نراه ومالا نراه ، إنما يقوم لأن الله يُمده بتيار الوجود ، فإذا
انقطع هذا التيار — لأن الله قطعه — فإن وجود العالم يتلاشى تلقائياً
ويستخفى ويتحول إلى صفر وعدم مطلق !! .

الأوصاف الثلاثة للذات الأقدس ترد على أهل الكتاب من يهود
ونصارى وأيضاً ترد على المشركين أنفسهم . ولكى نلقى نظرنا ونحن
نعرف ما يشيع في السورة من أولها لآخرها ، ولكى نستكشف المحور الذى
تدور عليه السورة نوجه النظر إلى كلمة تكررت سبع أو ثمانى أو تسع
مرات (١) في هذه السورة هى مفتاحها ، هذه الكلمة هى : « الله » .

تكررت — فيما أذكر — على النحو الآتى :

﴿ إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو
انتقام ﴾ [آل عمران : ٤] .

﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون
الذين يأمرون بالقسط من الناس فيبشرهم بعذاب أليم ﴾ [آل عمران : ٢١] .

(١) تكررت عشر مرات في الآيات : ٤ ، ١٩ ، ٢١ ، ٧٠ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٨ ، ١١٢ ،

﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ﴾ .
[آل عمران : ٧٠] .

﴿ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ﴾ [آل عمران : ٩٨] .

﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين ﴾
[آل عمران : ١٠٨] .

﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ﴾ [آل عمران : ١١٣] .

﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ﴾ [آل عمران : ١٩٩] .

فكلمة « آيات الله » تكررت في هذه السورة فيما قرأت من آيات وفيما لم أقرأ — لأنى لم أستوعب إلا على عجل — على هذا النحو^(١) .
نريد أن نتعرف على معنى كل آية من الآيات التى قرأناها ، وما المقصود أولاً بـ « آيات الله » ؟ .

إن الظاهر من كلمة « آيات الله » مع استعراضها في سورة آل عمران أنها تعنى القرآن الكريم على أنه الوحي الإلهي المصون المبرأ الذي كتب الله له الخلود ، فما تستطيع بُتَّة أن تقول الآن : إن الله في القارات الخمس وحياً خالصاً مأموناً يُطمأن إلى صدقه وصفائه وخلوصه ونقاؤه إلا في هذا المصحف المصون !! .

وكلمة « آيات الله » تردت في هذه السورة ترد على أنواع من الخلق وأنواع من الشبه ..

ولكى نعرف — بالضبط — كيف فُتحت السورة بالكلام عن الله ،

(١) قرأ شيخنا حفظه الله سبع آيات فقط ولم يقرأ الآيات رقم ١٩ ، ١٠١ ، ١١٢ .

وكيف أن النقاش بدأ مع أهل الكتاب في النصف الأول من السورة ، وكيف ختمت السورة بالكلام عن آيات الله ، لكي نعرف هذا نعود بالنظر مرة أخرى إلى أول السورة .

ذكر رب العالمين أنه تعهد الأمم السالفة بوحي لا شك فيه : ﴿ نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل . من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ﴾ [آل عمران : ٣ ، ٤] .

الفرقان : الفارق بين الحق والباطل ، وهو هنا الكتاب الذي استوعب ما في الصحف الأولى التي نزلت على إبراهيم وموسى وعيسى ، وفي الوقت نفسه جدد هداية الإنسانية بما أفرد الله به محمداً ﷺ من وحي خاص ، زاد به على غيره ، وكفل به معاش الناس ومعادهم ما بقي على ظهر الأرض بشر يحتاج إلى هدى !! .

الناس تتصور كلمة « الكفر » على نحو يحتاج إلى شيء من الإيضاح . الوثنيون سُموا كفاراً ، هل معنى أن الوثنيين كفار أنهم كانوا ينكرون الله ؟ .

لا . كان الوثنيون يؤمنون بالله ، ولكنهم كما حدث القرآن عنهم : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ [يوسف : ١٠٦] .

نحن نتصور أن الكفر هو إنكار الألوهية ، إن إنكار الألوهية من أصلها كفر لا شك فيه ، لكنه كان قليلاً في الدنيا قديماً وإن كثر في عصرنا هذا كثرة شنيعة ..

أما الاعتراف بالألوهية فكان موجوداً في الديانات القديمة أرضية كانت أو سماوية ، فالمشركون يؤمنون بأن الله موجود ، وبأنه الخالق ، وبأنه الرازق ، وبأنه مدبر الأمر ، وبأنه مالك السمع والبصر ، وما فكر أحدهم في أن حجراً خلق أو رزق ، تلمح هذا في قوله تعالى :

﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر

فسيقولون الله فقل أفلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق
إلا الضلال فأني تصرفون ﴿ [يونس : ٣١ ، ٣٢] .

كان هؤلاء يؤمنون بأن الله هو الخالق الرازق المدبر لكنهم اعتقدوا أن
هذا الإله لا يتوصل إليه مباشرة ، لا بد من شفعاء ، ولا بد من وسطاء
وهؤلاء الشفعاء الوسطاء هم الآلهة الصغرى التي تعتبر في نظرهم مفتاحاً
للإله الكبير !! وقد كذب القرآن الكريم هذا كله : ﴿ ما لهم من دونه من
ولى ولا يشرك فى حكمه أحداً ﴾ [الكهف : ١٠٢] .

﴿ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء إنا
أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً ﴾ [الكهف : ١٠٢] .

هذا كفر الوثنيين من عبيد الأصنام ، وهناك كفر من نوع آخر ، هو
كفر أهل الكتاب ، وكفر أهل الكتاب من يهود ونصارى جاء من ناحية
أخرى ، فتصور اليهود — مثلاً — للألوهية كان تصوراً شائناً فيه غرض من
عظمة الله ، وفيه تشبيه له بالبشر ، وفيه جرأة عليه ، وفيه افتيات على
حقه ..

هؤلاء يرون أن الله صارع إسرائيل ، وظلت المصارعة طول الليل ،
وكاد الإله يُهزم لولا أن شيئاً من الاحتيال فى اللعب جعله يكسر حق
إسرائيل ويتغلب عليه (١) !! .

وهؤلاء يرون أيضاً أن الله كان يتمشى فى الجنة ، وما كان يدرى
ما وقع من آدم عندما أكل من الشجرة حتى أخبره آدم (٢) .

وذكر « سفر التكوين » أيضاً الذى ذكر القصتين السابقتين : أن الله
ندم بعد خلق آدم لأنه ما كان يدرى أنه سيكون على هذه القساوة أو
القساوة (٣) !! فهؤلاء كان جهلهم بالله غليظاً بحيث جعلهم يتصورونه على
نحو لا يليق .

(١) سفر التكوين الإصحاح الثانى والثلاثون .

(٢) سفر التكوين الإصحاح الثالث .

(٣) سفر التكوين الإصحاح السادس .

وتعبير القرآن في سورة آل عمران : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ فيه تكذيب لهذه الصور كلها .

وعندما قال الله في سورة آل عمران : ﴿ إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ [آل عمران : ٥ ، ٦] إنما كان يرد على هذه التصورات التي شاعت فيما يوصف الآن بأنه « تورا » ، وما يعطى عنوان « الكتاب المقدس » !! .

والواقع أن هذا الكلام ما جاء على لسان موسى ، ولا أنزله الله على قلب أحد من خلقه ، لأن هذا الكلام باطل في وصف الألوهية تماماً .

إذن الآية الأولى : ﴿ إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ﴾ تتناول أصحاب الديانات الأرضية والسماوية كلهم ، لماذا ؟ .

لأنهم إما أشركوا بالله ، وإما وحدوه على نحو طائش ، والإسلام يرفض هذا كله .

الديانة الأخيرة قبل الإسلام ، وهي النصرانية جعلت الله أجزاء ، وجعلت جزءاً منه يوصف بأنه ولد له ، وهذا الولد هو كذلك إله معه : ﴿ وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين ﴾ [الزخرف : ١٥] .

كل هذا رفضته الآية الأولى^(١) في السورة عندما قالت : ﴿ إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ﴾ .

هذا المعنى انضم إليه شيء ينبغي أن يُعرف ، وهو أن الباطل في عصور كثيرة قد انضم إليه ما يقويه وما يزينه وما يجعل له في القلوب رهبة ، وما يجعل له في أنحاء المجتمع سطوة ، وربما ازدان الباطل بأشياء تجعل له

(١) الأولى من حيث الآيات التي ذكرت فيها كلمة « آيات الله » لا من حيث الترتيب الطبيعي في السورة .

أُبْهَةٌ^(١) وفخامة ، في أحيان كثيرة يستعين المبطلون على فراغهم العقلى بالمظاهر الحسية الضخمة فتكون بيوت العبادة أشبه بالحصون الشامخة ، والقلاع الضخمة تعويضاً عن فراغ العقيدة مما يجعلها مقبولة عقلاً ، لكن القرآن الكريم ناقش هذا الاتجاه عندما قال المشركون في الرد على رجال الإسلام وحمله دعوته : نحن خير منكم مسكناً وأعظم وأفخم نادياً : ﴿ وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا يَنَادُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَى الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾^(٢) [مريم : ٧٤] .

عندما قالوا هذا كان الجواب الإلهى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِثِيّاً ﴾^(٣) [مريم : ٧٤] .

أى أن المنظر الحسن ، والأثاث الفخم ، والقلاع الشامخة لا قيمة لها إذا كانت تخدم خرافة ، أو كان ما تحتها شيئاً لا وزن له في ميدان العقل ، وهنا لا قيمة للمال ، ولا قيمة للجمال ، ولا قيمة للمنظر ، لأنه لاخير فيه .

وهنا تجد سورة آل عمران تحدث عن هذا في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ . كَذَّابُ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [آل عمران : ١٠ ، ١١] . كان آل فرعون أصحاب أموال طائلة ، وقصور شامخة ، ومظاهر فارهة ، فماذا حدث ؟ دعا موسى عليهم فقال : ﴿ رَبَّنَا أَطْمَسَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدَدَّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٨٨] .

فضاع كل هذا ، وقيل في تراثهم الذى حُرِّموا منه وضاع منهم :

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونَ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . وَنِعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَانْكُهْنِ . كَذَلِكَ وَأُورَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ . فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ [الدخان : ٢٥ — ٢٩] .

(١) الأبهة : العظمة والرواء .

(٢) الندى : مجلس القوم ومجتمعهم .

(٣) الأثاث : متاع البيت من فراش ونحوه . الرثى : حسن المنظر في البهاء والجمال .

إن مصلى على شاطئ ترعة يوحد الله فيه أفضل من مبنى يطاول
السحب يشرك بالله فيه !! .

الأمر ليس أمر فخامة في المظهر : ﴿ فلا تعجبك أموالهم
ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم
كافرون ﴾ [التوبة : ٥٥] .

آية أخرى في سورة آل عمران ذكرت فيها كلمة « آيات الله » وهى :
﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين
يأمرون بالقسط من الناس فيبشرهم بعذاب أليم . أولئك حبطت أعمالهم
في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴾ [آل عمران : ٢١ ، ٢٢] .

فآيات الله هنا ردُّ على اليهود وحدهم ، ولكن كما قال العلماء : العبرة
بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

الكلام هنا — فعلاً — عن اليهود ، لماذا ؟ لأنهم هم الذين قتلوا
الأنبياء ، قتلوا زكريا ويحيى وهما يقتل عيسى ومحمد ، ولكن الله نجى نبيّه
كليهما عيسى ومحمد ، فما قُتل أحدهما برغم المؤامرة التى دبرها اليهود
وأحكموا خططها ، والآية هنا تقول : إنهم ضموا إلى محاولتهم قتل الأنبياء
بذل الجهود لقتل كل من يأمر بالعدل : ﴿ ويقتلون الذين يأمرون
بالقسط من الناس ﴾ والذين يقتلون من يأمر بالقسط من الناس إنما يمثلون
أنظمة إجرامية ، والأنظمة الإجرامية قد يكون اليهود قد بدأوا بها أو
اخترعوها أو شجعوا عليها ، لكنها بغير شك انتشرت فى القارات الخمس ،
ووجد حكام كثيرون استطاعوا — من إملاء القدر لهم — أن يصدروا
الأوامر بقتل الأبرياء ، وأن يستحلوا دماءهم ، وأن يملأوا بالترويع والقلق
والرهبة والجزع نفوس من حولهم ، وهؤلاء ينطبق عليهم ما انطبق على
اليهود فى هذه الآية عندما بين رب العالمين أن ما يطلبه هؤلاء من عزة
لهم — بهذا القتل — ومن كبرياء وجبروت — بهذا الإرهاب — لا بد أن
ينتهى إلى فشل ، قال جل شأنه : ﴿ أولئك الذين حبطت أعمالهم فى
الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴾ [آل عمران : ٢٢] .

أى أن الناصرين يعجزون عن أن يدفعوا عنهم ، أو أن يردوا قدر الله إذا دهمهم ، فإن قدر الله عندما يفجأ الجبابرة يخيئهم من حيث لا يحتسبون ، فقد يُحصنون السقف ، وقد يحصنون الجدران لأنهم يظنون أنه من هنا قد يجيء الفزع الذى يخافونه ، ولكن عندما يريد الله فإنه يزلزل الأرض نفسها : ﴿ قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ [النحل : ٢٦] .

وتمشى مع كلمة « آيات الله » في سورة آل عمران فنجد هذه الآية : ﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ﴾ [آل عمران : ٧٠] .

والظاهر من النظر في هذه الآية وما سبقها أنها تتجه إلى اليهود والنصارى معاً ، ذلك لأنه قبل هذه الآية اتجه القرآن إلى اليهود والنصارى فقال لهم : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . يا أهل الكتاب لم تحتاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون . ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحتاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾ [آل عمران : ٦٤ - ٦٧] .

وتمضى بنا الآيات إلى أن تحيى هذه الآية : ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين ﴾ [آل عمران : ١٠٨] كلمة « آيات الله » هنا جاءت بعد توجيه شديد للمسلمين أن يكونوا منهم أمة تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وبعد أن تضمن هذا التوجيه الشديد للمسلمين أمراً أن يعتصموا بحبل الله وألا يتركوا أسباب الفرقة تمزقهم ، فإن الفرقة هنا ربما ردتهم إلى الكفر ، وكثير من أسباب الفرقة قد يعود إلى أسباب خُلقية ، وقد يعود إلى أسباب دينية .

فأما الفرقة لأسباب دينية فقد نهى الإسلام عنها في أول السورة عندما قال : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ [آل عمران : ٧] .

أى أن القرآن تضمن جملة من الآيات المحكمة ، هذه الجملة هى أساس القرآن كله ، لماذا ؟ .

لأنها هى التى تضمنت العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق وجميع الشرائع المتصلة بالخلق والسلوك ، وتنظيم الدولة ، وتنظيم المجتمع ، فليس فى هذا كله آية متشابهة .

إذن أين تقع الآيات المتشابهة ؟ .

تقع عند وصف الله جل شأنه ، وهذا طبعى ، فإن وصف الله أكبر من أن تكون عقولنا المحدودة أهلاً لإدراك كنهه ، واستيعاب جوهره ، ولهذا فإن الكلام يحىء متشابهاً ، الراسخون فى العلم يدعون هنا أن يهديهم الله ، وأن يجمع شملهم وألا يفرق كلمتهم : ﴿ ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ [آل عمران : ٨ ، ٩] .

وقد حاول بعض علماء المسلمين قديماً أن يدخل فى ميدان العقائد بالفكر العقلى المجرد ، وحاول أن يشرح الآيات المتشابهات بطريقة تقرّبها للعقل الإنسانى ، فماذا حدث ؟ حدث أن قال قائلهم :

نهاية إقدام العقول عقال

وغاية سعى العالمين ضلال !

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا

سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا !

وكم من جبال قد علا شرفاتها

رجال فبادوا والجبال جبال !

خطب الغزالي - المجلد الثانى

هذا فيما يتصل بالعقائد ، أو الخلاف من أجل العقيدة ، أما الخلافات الأخرى فالذى تكشف لى من استقراء أحوال الناس إنما أن ترجع إلى بلاهة فكرية ، وإما أن ترجع إلى رذيلة خلقية ، وهذا ما يقع بين كثير من المسلمين ، فإن بعضهم بعقل أبله يريد أن يضخم أحكاماً صغيرة في الإسلام ليجعلها عقائد ، وبالتالي يحمل على غيره إذا لم يفعلها . شئ آخر ، بعض الناس — فعلاً — يستغل الخلاف ليفرض نفسه ، لعله مجنون بحب الظهور ، لعله مجنون بانتقاص الآخرين والتهجم عليهم ، وكثير من الذين يتاجرون بالخلافات من هذا النوع ، وكلهم تنطبق عليه الآية الكريمة من سورة آل عمران : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ . وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ [آل عمران : ١٠٨ ، ١٠٩] .

ولنا إن شاء الله عودة أخرى إلى سورة آل عمران .
أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

★ ★ ★

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

عباد الله أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل . واعلموا أن الأمة الإسلامية أصيبت منذ قرن من الزمن بالهزائم عسكرية وسياسية وحضارية جعلتها في مكانة رديئة ، وأغرّت بها غيرها .

وأسوأ ما تمخضت عنه هذه الانهزامات أنها أفقدت كثيراً من المسلمين ثقتهم بأنفسهم ، واعتصامهم بدينهم ، واحترامهم لتراثهم ، فظن كثير منهم أن ما عند الآخرين خير مما عنده ، وجعلت الكثير من المسلمين يرنو ببصره إلى دول العالم التي قويت ، وشعوبها التي ارتقت واغتنت ، ينظر إليها وكأنها مثل أعلى ، أو كأنها الشيء الذى يُستجلب ويتأسى به ، ويُنقل خير ما فيه — أو ما فيه كله — إلى بلادنا ! .

وبداهة هذه النظرة قوّاها المستعمرون من شرق وغرب لأن أحب شيء إليهم أن يتعاملوا مع أناس لا يحترمون أنفسهم ولا تراثهم ، ولا يكرمون ما لديهم من تعاليم ، ولا يرتبطون بما ورثوا من تراث .

كان هذا المعنى موجوداً منذ قرن في بلادنا ، وقد غدّاه — كما قلت لكم — رجال الاستعمار على اختلاف صنوفهم . وقد وجدت — وأنا أتبع هذا الغزو الثقافى — أن خطط الغزاة فى منتهى الدهاء ، وأن مكرهم

عميق ، وأن الأشخاص الذين يعملون لهم من فئات شتى ، فيهم ملوك ، وفيهم أدباء ، وفيهم يساريون ، وفيهم صحافيون .

المهم أن يأخذ الغزو الثقافي طريقه ، ويصل إلى هدفه ، فمثلاً : من عشرات السنين حكى التاريخ : أن الخديو إسماعيل^(١) — وهو ملك — قال : أريد أن أجعل « مصر » قطعة من أوروبا !! لو أنه يقصد بالكلمة أن ينقل المصانع ، أو أن ينقل العلم ، لكان هذا الاتجاه محموداً له ، مشكوراً عليه ، لكن الرجل جلس^(٢) شهوات ، وصاحب أهواء ، وكانت غرائزه متنزية متطلعة منفلة لا ضابط لها ، فكان أول ما جعل « مصر » قطعة من أوروبا أنه بنى هنا دار « أبرا »^(٣) !! .

إن « اليابانيين » أرادوا أن تكون بلادهم أيضاً قطعة من أوروبا ، فماذا صنعوا ؟ استقدموا المصانع ، وجاءوا بعلماء مُبرِّزين في الميدان العلمي فكانت النتيجة أن أخذوا طريقهم الصحيح إلى التقدم !! أما نحن فأخذنا طريقنا إلى الانحراف ، ولا شك أن من وراء هذا الحاكم الذي قال : أريد أن أجعل « مصر » قطعة من أوروبا وراءه كثير ممن علموه الهزل ومن قادوه إلى هذا الطريق !! .

جاء أديب مشهور^(٤) وكتب في كتاب له عن « مستقبل الثقافة في مصر » يقول : نريد أن نأخذ حضارة الغرب كلها ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، ما يُذم منها وما يمدح ، ما يحمد منها وما يعاب !! .

هذا معناه إفناء الشخصية الإسلامية ، وجعل « مصر » قطعة من أوروبا ، ولكن كان المسخر قبل ملكاً ، ثم جاء المسخر بعد ذلك أديباً ، والآن يجيء — فعلاً — من يكتب في الغزو الثقافي ممن يصطنعون

(١) إسماعيل باشا : (١٨٣٠) وإلى مصر (١٨٦٣) وخديوها (١٨٦٧) الابن الأكبر لإبراهيم باشا .

(٢) المجلس : ما يبسط في البيت من حصير ونحوه تحت كريم المتاع ، ويقال : هو جلس بيته : لا يرحه ، وهو من أحلاس البلد : لا يفارقها ، وهو من أحلاس الشهوات : ملازم لها .

(٣) الأبرا : مسرحية شعرية غنائية تقوم على الموسيقى .

(٤) هو الدكتور / طه حسين .

اليسارية ، ماذا يقصد ؟ لا يقصد إلا تميع الشخصية الإسلامية ، وجعل أمتنا ذنباً لغيرها في كل مجال .

لقد وجدت أن الغزو الثقافي في خطته واحدة ، ولكنه يغير الأشخاص ، مرة مَلِك ، مرة رئيس جمهورية ، مرة عميد كلية ، مرة صحفي ، مرة شيخ طوائف من هذا النوع تكثر وتنتشر ، والقاسم المشترك بينهم جميعاً أنهم يزهدوننا في قوانين الله ، يزهدوننا في أحكام الشريعة ، يزهدوننا في أصول العقيدة ، يزهدوننا في قيم الإيمان ، يزهدوننا في مكارم الأخلاق ، يزهدوننا في أصول العبادة وشعائر الإسلام !! .

هذا هو الخط الذي يجمع أولئك كلهم ، أريد أن أوجه النظر إلى أن الغزو الثقافي يستأنف طريقه بألف حيلة ، ولكننا كما علمنا نبينا ﷺ : « لا يلدغ المؤمن من جحرٍ واحد مرتين »^(١) .

لقد لدغنا من هذا الجحر فيجب أن نصحوا ، وألا نلدغ مرة أخرى ، افتحوا عيونكم ، ستجدون كلاماً غامضاً ، وكلاماً غريباً ، وكلاماً لا هدف له ، ونوعاً من التثبيت المقصود منه جعل الأجيال المتعلمة في بلادنا تدور في دوامة لا آخر لها ، والمهم إبعاد الإسلام عن الطريق ، عن النهضة ، عن التشريع ، عن العلم ، عن المعرفة ، عن التقاليد !! .

ونحن مستمسكون بديننا ، ولا نريد — خصوصاً بعد معركة رمضان — أن ندع الزمام تتحرك به أيدٍ عميلة للغزو الثقافي ، افتحوا عيونكم فإن مستقبل الإسلام مرهون بالسنوات القادمة التي تقع بعد « معركة رمضان » .

هناك من سيحاول إبعاد الإسلام عن كل شيء ، ولكننا سنضرب على يديه ونفرض دين الله استجابة لجماهير هذه الأمة التي ترفض الإلحاد ، وترفض الانحراف ، وترفض الاتجاهات المادية ، وترفض أن يُهمل دينها في تشريع أو في قانون !! .

(١) رواه البخاري في الأدب باب : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين : ٣٨/٨ ومسلم في الزهد والرقائق باب : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين : ٢٢٧/٨ .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر »^(١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [التحل : ٩٠] .

أقم الصلاة ..

(١) رواه مسلم فى الذكر باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل : ٨١/٨ .

٢- نظرات في سورة آل عمران أهل الكتاب كما تحدث عنهم السُّورة

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضى الله عنه

١٥/٢/١٩٧٤ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ،
والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أما بعد :

فقد استعرضنا — بسرعة — بعض هدايات الله في سورة آل عمران ،
وأبنا أن النصف الأول من السورة ناقش عقائد أهل الكتاب ومسالكتهم ..
واليوم نبدأ بتفصيلات لهذا الموضوع تُلقى عليه أضواء كاشفة ولنلاحظ
بين يدي هذا الكشف أن الله جل شأنه أفهم المسلمين كما أفهم غيرهم أن
التدين الصحيح يقوم على عقيدة واضحة في الله الواحد جل شأنه .

ومع هذه العقيدة الواضحة لا بد من خلق ضابط وثيق يحكم الغرائز
البشرية ، ويكبح جماحها ، ويقيم سدوداً قوية أمام تياراتها ، فإن هذه النفس
البشرية قد تحيى فيها أهواء جامحة ، إذا لم تكن السدود أمامها قوية
انهارت ، ومضت هذه الأهواء إلى غايتها دون ضابط أو رادع أو وازع ..

نلمح هذا في قوله جل شأنه : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ﴾ [آل عمران : ١٤] .

هذا حق ، إن النفس البشرية تهوى النساء ، وتهوى الأموال ، وتهوى الزينة والمتعة ، لكن هذا الذي تهواه إن عبدته من دون الله قتلها ، وإن تناولته باسم الله أحيها !! إن لجج الماء قد تغرق الزرع فلا ينبت ، وقد تغرق الإنسان فيهلك ، لكنه إذا تناول هذا الماء بقدر منظم فإنه يحيا به ، كما أن هذا الماء إذا أرسل إلى الأرض بمقادير معقولة نبت عليه الزرع والضرع ، ولذلك قال الله — بعد أن وضّح حقيقة النفس البشرية ، وأن هذه الميول مفسورة عليه نفوسنا — : ﴿ والله عنده حسن المآب . قل أؤتئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد . الذين يقولون ربنا إنا آما فاعفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ﴾ [آل عمران : ١٤ — ١٧] .

إذا لم يكن التدين صانعاً لخلق يحكم الهوى ، وإذا لم يكن التدين صانعاً لعاطفة رقيقة تجعل المرء يحنى رأسه وصلبه لربه ، ويشعر بضعفه فيستغفر ذنبه ، وينهض في الهجعات الساكنة كي يُرقق روحه بمناجاة الله وطلب خيره ، إذا لم يكن التدين صانعاً لهذه المعاني فهو تدين شكلي لا خير فيه !! .

كما نلاحظ معنى آخر — بدأت السورة تنبه إليه — وهو أن التوحيد عقيدة عقلية ، فإن الإيمان بأن رب هذا الكون واحد — هذا المعنى — هو حكم العقل الصائب ، ومنتهى العلم السديد ، وأن الشرك خرافة ، وأن التثليث جهالة ، وأن كل ما يعكر رونق العقيدة الصحيحة في إله واحد فهو ضلال مبين ، ولذلك تقول السورة : ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ [آل عمران : ٢] .

وأكدت السورة المعنى مرة أخرى فقالت : ﴿ شهد الله أنه لا إله

إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز
الحكيم ﴿[آل عمران : ١٨] .

لكن أهل الكتاب شردوا عن هذه المعاني ، وأهل الكتاب — من يهود
ونصارى — لما شردوا سجّل القرآن — هنا في هذه السورة —
شرودهم ، وهو بذلك كأنما يقول للمسلمين : إياك أعنى واسمعى
يا جارة !! .

الكلام تأنيب وتوبيخ لمن ضل وشرد ، وهو في الوقت نفسه تحذير
وتعليم لهذه الأمة ألا تسلك ما سلك غيرها من أسباب الانحراف والعوج .

أول ما ذكرته السورة هنا — بعد الملاحظتين اللتين قررناهما الآن —
هو أن اليهود تركوا العدالة ، ورفضوا أن يقوم الناس بالقسط ، ولم يتركوا
العدل والقسطاس فقط بل اتجهوا إلى دعاة العدل ، وإلى الأمرين بالقسط
فَطَوَّحُوا بِهِمْ ، ونالوا منهم ، وأعدموهم ، يقول الله جل شأنه : ﴿إن
الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون
بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم﴾ [آل عمران : ٢١] .

إن المجتمع الذى يرفض العدالة ، ويحيف على دعائها لا بد أن يستباح ،
ولا بد أن يؤخر عن مكان الصدارة ، وهو معنى يصوغه النبي — ﷺ —
في حكمة بالغة ، وكلمة موجزة ، يقول : « إنه لا قُدُسَ أُمَّةٍ لا يأخذ
الضعيف فيها حقه غير متعج » (١) .

(١) رواه ابن ماجه في الصدقات — باب لصاحب الحق سلطان ٨١٠/٢ قال في الزوائد : هذا
إسناد صحيح ، رجاله ثقات . لأن إبراهيم بن عبد الله قال فيه أبو حاتم صدوق . ونص الحديث :
عن أنس بن مالك الخدرى قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يتقاضاه ديناً كان عليه ، فاشتد عليه حتى قال
له : أخرجْ عليك إلا قضيتي ، فانتهره أصحابه وقالوا : ويحك تدري من تكلم ؟ قال : إني أطلب
حقي ، فقال النبي ﷺ : هَلَّا مع صاحب الحق كنتم ؟ ثم أرسل إلى خولة بنت قيس فقال لها : إن
كان عندك ثمرٌ فأقرضينا حتى يأتينا ثمرنا فتقضيكي ، فقالت : نعم . بأى أنت يا رسول الله . قال :
فأقرضته فقضى الأعرابي وأطعمه . فقال : أوفيت أوفى الله لك . فقال : أولئك خيار الناس ، إنه
لا قُدُسَ أُمَّةٍ لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعج » أى من غير أن يصيبه أذى يقلقه ويرعجه .

معنى لا تقدر أمة : أنها أصبحت مستباحة ، إذا عدت عليها العوادي ونالت منها شر نيل فإن ذلك عقوبتها التي تستحقها ، وهذا ما صنعه اليهود بأنفسهم ، وما تصنعه كل جماعة ظلمت نفسها بنفسها .

بعد ذلك — مباشرة — بين القرآن الكريم أن هؤلاء اليهود رفضوا الحكم بما أنزل الله ، وتركوا آيات الوحي خلف ظهورهم ، ما يحبون أن يعملوا بها ، وليتهم لما تركوا العمل بها شعروا بخزي التقصير ، لا . إنهم مع تركهم الحكم بما أنزل الله تبجحوا ، وظنوا أنهم مع تركهم للحق النازل من السماء أن لهم عند الله مكانة ، وأنهم يستحقون منه الجوائز !! علام ؟! علام تنالون الجوائز أو تنتظرون التمكين ؟ على تفريطكم ؟ ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون . ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون ﴾ [آل عمران : ٢٣ ، ٢٤] .

والأمم — ومن بينها الأمة الإسلامية — أحياناً ترتكب الدواهي ثم تظن أن لديها ضماناً يمنع عقوبة الدنيا والآخرة عنها ، وكثير من المسلمين يفعلون بدينهم الأفاعيل ثم يقولون متبجحين : أمة محمد بخير !! وأمة محمد ﷺ إنما تكون بخير يوم تكون وفيّة لمحمد ﷺ ويوم تكون موقرة للكتاب الذي نزل عليه ، ويوم تكون منفذة للتعالم التي جاء بها ، أمّا أن تنتسب إليه شكلاً ثم ترفض مقتضيات هذا النسب موضوعاً فهذا لعبٌ بالدين سبقت إليه الأمم التي يحكى القرآن — الآن — قصتها ، فناها ما نالها . ماذا نالها ؟ نالها أن الله صرف عنها نعمته ، فإن اليهود كانوا يملكون القيادة الروحية للبشر ، وكانوا يحتكرون رسالات السماء على امتداد القرون ، ولكن لما فعلوا هذا الذي ذكرنا صرف النظر عنهم ، وأتى بغيرهم ليقود البشر ، وهذا المعنى — فيما تلونا من آيات — هو التمهيد لقوله تعالى : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾ [آل عمران ٢٦] .

بعض قصار النظر يتصورون أن المشيئة الإلهية تُخبط في الوجود خبط عشواء !! وهذا التصور جهل فاضح ، فإن المشيئة الإلهية — هنا — قبل أن

تجىء بهذه العبارات فى هذه الصيغة ذكرت الحثيات التى من أجلها نزع الله الملك من اليهود وأعطاه الأمة العربية ، وفى سورة أخرى يقول الله عن اليهود : ﴿ أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً ﴾ [النساء : ٥٣] .

والملك — هنا — ليس وراثه العروش ، ولكن الملك — هنا — هو السلطة التى يمنحها الله من يقومون باسمه ، ومن يصنعون الخير لعباده ، ولهذا وجدنا الآيات — هنا — تحدثت عن السر فى أن الله حول النبوة من نسل يعقوب — أى من بنى إسرائيل — إلى نسل إسماعيل إلى محمد خاتم النبيين ﷺ ، واختار الأمة العربية لتصبح هذا النبي فى مسيرته وفى هدايته فقال : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

والخير بيد الله يقيناً ، ولكن الله ما يمنح خيره إلا عبداً رفع يديه ضارعاً يطلب من الله بذل العبيد أن يمنحه !! إن الله عز وجل لا يعطى خيره عبداً أدار الله ظهره ، ولم يُسلم إليه وجهه !! .

إن الله عز وجل بيده الخير ، ولكنه يعطى الخير من يرشح نفسه للعطاء بأن يعرف الله ألوهيته وللشعر عبوديتهم !! .

أما ما عدا ذلك من مسالك فلا خير فيها .

واستطرد الكلام عن اليهود فى مواضع شتى من السورة ، نكتفى منها بقوله تعالى : ﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ [آل عمران : ٧٥] .

هؤلاء اليهود ظنوا أن الفضيلة تنقسم ، وأنه يمكن أن يكون الإنسان عفيفاً عاهراً ، أميناً خائناً ، صادقاً كاذباً !! وهذا يستحيل ، فإن الفضيلة لا تنقسم ، الرجل العادل يعدل فى كل شيء ، الصادق يصدق فى كل شيء ، الأمين أمين فى كل شيء ، والله عز وجل عاب على اليهود فقدانهم

خُلِقَ الأمانة ورغبتهم في اجتياح حقوق الآخرين .. إن الذي وقر في نفس اليهودي أنه شخص ممتاز^(١) ، وأن هذا الامتياز الفردي ، أو هذا الاختيار الشعبي يبيح له أن يأكل حقوق الآخرين^(٢) !! .

والإسلام أو الدين الحق يأبى هذا السلوك ، إذا كنت معاهداً أحداً ، أو معاملاً بشراً فكن مؤمناً تقياً ، ارع عهدك ، واحترم حق كل إنسان : ﴿ بلى من أوفى بعهدده واتقى فإن الله يحب المتقين ﴾ [آل عمران : ٧٦] .

وفي هذا يقول النبي ﷺ : « ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة »^(٣) ولماذا يكون النبي — ﷺ حجيجه ؟ .

لأن النبي ﷺ يريد أن يعرض دينه على الناس نظرياً بحجة مقنعة ، وعملياً بسيرة مشرفة ، فإذا جاء مسلم وعامل الناس معاملة شائنة واتصل بغير المسلمين اتصالاً يكون معرة للإسلام فهذا صائدٌ عن سبيل الله ، وهذا عدو لمحمد ، محمد يدعو الناس إلى دينه ، وهذا يصد الناس عن دينه !! .
نكتفي بهذا القدر من استعراض الآيات المتعلقة باليهود لننظر إلى الآيات المتعلقة بالنصارى في النصف الأول من هذه السورة .

إن عقيدة التوحيد — بكل ما في التوحيد من رشد وصواب — هي لبُّ الرسالة الإسلامية ، وكما بينا هي الثمرة لأي بحث علمي في آفاق السماء أو فجاج الأرض ، كل شيء في الأرض أو في السماء يشير إلى أن الرب واحد : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل

(١) ففي سفر التثنية الإصحاح الرابع عشر : « أنتم أولاد الرب إلهكم . لا تخمشوا أجسامكم ولا تجعلوا قرعة بين أعينكم لأجل ميت . لأنك شعب مقدس للرب إلهك وقد اختارك الرب لكي تكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض » !! .

(٢) ففي سفر التثنية الإصحاح الثالث والعشرون : « لا تُقرض أخاك برئاً رباً فضةً أو رباً طعاماً أو رباً شيئاً مما مما يُقرض برئاً . للأجنبي تُقرض برئاً ولكن لأخيك لا تقرض برئاً لكي يباركك الرب إلهك في كل ما تمتد إليه يدك في الأرض التي أنت داخل إليها تملكها » !! .

(٣) رواه أبو داود في الإمارة — باب في تعشير أهل الذمة وقال المنذرى فيه مجهولون (عون المعبود : ٣٠٤/٨) .

إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴿ [المؤمنون : ٩١ ، ٩٢] .

لكن النصارى ضلوا ، وقالوا : إن هناك ثلاثة ، كل واحد منها يسمى إلهاً (١) ، وكان الخطأ الذى وقعوا فيه غريباً ما يطيقه عقل ، ولا يرتضيه علم ، ولا تنتجه مقدمات منتظمة ، لكن القوم استقروا على هذا !! .

وقد تحدث القرآن الكريم فى سورة آل عمران فوجدنا أنه ناقش هذه العقيدة بنموذجين : نموذج مختصر — نذكره على عجل — وهو إذا كان وجود عيسى من غير أب شبهة تجعل بعض الناس يظنون الله أباه ، إذا كان وجود عيسى بهذا الأسلوب سبباً لأن يتصور بعض الناس أن رب العالمين والده ، إذا كان الأمر كذلك فآدم أولى بالعبادة منه ، فليس له أب ولا أم ، وهنا يقول القرآن الكريم فى إيجاز : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين ﴾ [آل عمران : ٥٩ ، ٦٠] .

أى فلا تكن من الشاكين ، هل شكُّ نبينا ﷺ ؟ هذا مستحيل ، وإنما يقول العلماء : إن الصيغ البلاغية فى اللغة العربية — أحياناً — تحيى بالفعل أمراً أو توكيداً أو بأى صيغة كى تجعل من على أمر من الأمور يبقى فيه ، ويظل عليه . تقول للمجتهد الذى نجح فى جنى ثمرات اجتهاده : اجتهد ، هو ليس كسولاً ، ولكنك بكلمة « اجتهد » تغريه أن يبقى على نشاطه ، وأن يظل على مثابرته ، وأن يقاوم أسباب الكسل التى قد تحيط به ، كذلك ﴿ فلا تكن من الممترين ﴾ هذا نوع من استبقاء الرسول ﷺ على الحق الذى شرفه الله تعالى به ، وتأنيب للآخرين الذين ضلوا عنه ، فهو يقول له : لا تكن مثل هؤلاء . ثم قال له : ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ [آل عمران : ٦١] .

فمن حاجك فيه : جادلك . من بعد ما جاءك من العلم : لأن غير هذا جهل .

(١) انظر انجيل متى الإصحاح ٢٨ ورسالة يوحنا الرسول الأولى الإصحاح الخامس .

ماذا نعمل ؟ نحن مخلصون ، أصحاب حقيقة ، نزعمون أنكم على حقيقة ؟ تعالوا ندعو الله أن يهلك الكاذب ، وكان ذلك في مناظرة بين النبي ﷺ وبين بعض أساقفة النصرانية الذين جاءوا يجادلونه في عقيدة التوحيد ، ولقد رفض القوم أن يدخلوا في هذه المباهلة ، وأن يقفوا في ساحة يتجهون فيها إلى الله أن يهلك من يفترى عليه الكذب .

قبل هذا بقليل تحدثت السورة عن خوارق للعادات تقع غالباً في جَوِّ النبوات ، فإن الله عز وجل يريد أن يقول للناس : إن ميلاد عيسى مخالفاً للسنن الطبيعية ، أو للقوانين المعتادة لم يكن بدعاً في البيئة التي عاش فيها ، فإن مريم أمه كفّلها زكريا ، فكانت هذه الأسرة مسرحاً لبعض العجائب التي وقعت ، كان زكريا يدخل فيجد طعاماً لم يأت به عند مريم : ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

لَمَّا شعر زكريا بأن خوارق العادات تقع حوله طَمِعَ في فضل الله ، وكان رجلاً شاخ ، وهنَّ عظمه ، وتغصَّن جلده ، وتأخرت سنه ، وكانت امرأته عقيماً ، لو كان مع شيخوخته يتزوج امرأة مخصبة لكان هناك أمل ، لكنه قد شاخ ، والمرأة عقيم — مجدبة — : ﴿ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله ييشرك يحيى مصداقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبيّاً من الصالحين . قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامراتى عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء ﴾ [آل عمران : ٣٨ — ٤٠] .

هذا المعنى في جو النبوات من خوارق للعادات هو الذى حدث ، وكون امرأة عقيم طول حياتها تنجب ، وكون رجل انقطع من الناحية الجنسية ينجب فهذا خارق للعادة كولادة عيسى من أم بغير أب ، وكما خلق آدم هكذا بدون أب وأم يستطيع أن يخلق ما يريد ، هذه هي القصة ، تختم القصة بخلاصة هي : ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين

بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن
تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً يأمركم بالكفر بعد إذ أنتم
مسلمون ﴿[آل عمران : ٧٩ ، ٨٠] .

على هذا المعنى ، أو في هذا النطاق ذكرنا بعض المناقشات التي
تضمنتها الآيات الأولى من سورة آل عمران .

وقد ورد عن نبينا ﷺ أنه قال : « .. إن المغضوب عليهم اليهود
وإن الضالين النصارى »^(١) .

هؤلاء غضب عليهم ، هؤلاء ضلوا سواء السبيل .

إذا انتهينا علمياً من هذا البحث فلنقل : إن الصداقة شيء والفروق
العلمية المؤكدة شيء آخر ، فأنا مكلف ديناً أن أكون بَرّاً وعندى شرف
وخلق وذمة مع من لا يدين بديني ما دام لا يكيد لي ولا يتآمر عليّ
ولا ينتصب عدواً أمامي ، ما دام سليماً معي فيجب أن أكون أكثر منه
براً ، وخيراً منه عدالة ، وأشرف منه سلوكاً ، فنحن أولى بالبر والخلق
والصدق من أى إنسان على ظهر الأرض ، لكن الخلق الفاضل ، والحكم
العاقل ، والصلة الطيبة شيء والفروق القائمة بين العقائد شيء آخر ، فإذا
صادقتُ أو صالحتُ أى إنسان من أهل الكتاب ، وعاملته بالبر وبالعدل
فهذا لا يחדش أو لا يقرب بين العقائد المتناقضة ..

نحن أصحاب توحيد نحرس عليه ونرفض أن يُمس ، وغيرنا صاحب
خرافة لا يمكن مهما كانت هناك صداقات أن تقترب منها أو نرحب بها أو
نصطليح معها .

العقائد شيء والسلوك الواجب على مقتضى الشرف والأمانة شيء
آخر .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

(١) جزء من حديث طويل رواه أحمد ٣٧٨/٤ ، ٣٧٩ ، والترمذي وقال : هذا حديث حسن
غريب لا نعرفه إلا من حديث سيمّك بن حرب ١٨٦/٥ ، ١٨٧ .

الخطبة الثانية

الحمد لله : ﴿الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

عباد الله : أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل .
أيها الإخوة : ينبغي ألا ننسى أن الله سترنا في المعركة الأخيرة ، وأنه طوّل أسلحتنا القصيرة ، وأنه أعاننا بجند من عنده ، ينبغي ألا ننسى هذا ..
لكن يبدو أن بعض الناس يريد أن ينسى رمضان ، ومعركة رمضان وفضل الله الذى أدرك هذه الأمة فى رمضان وإلا فما معنى أن تذهب إلى « الزيتية » — فى « السويس » — جماعة من الممثلين ليعرضوا رواية مسرحية ؟ .

هذه واحدة ، شئ آخر ، ما معنى أن يذهب طلاب من الجامعات ما يبقى إلا أن يُضَفَّرُوا شعورهم ليكونوا نساء — إلى الجنود وينظر الجنود إليهم ثم يتساءلون : ما هذه الشعور ؟ وما هذه البنطلونات^(١) الحمراء ؟ وما هذه المظاهر السمجة ؟ .

(١) البنطلون : اسم إيطالى الأصل ، وهو فى اللغة العربية السُّرَّبال .

وثالثة الأثافي (١) وفضيحة الفضائح : جامعة الأزهر !! .

أرادت جامعة الأزهر أن تحتفل بـ « العبور » فقررت إقامة ليلة ساهرة بعدد من الرقصات والمغنيات والممثلات !! ما هذا !!؟ إننى أستغرب أن يقع هذا فى أى جامعة من الجامعات المدنية ، فكيف تفكر جامعة الأزهر فى هذا !!؟ .

لكن هذا الذى حدث هو فى الحقيقة فرض لكى يعلم المسلمون الواقع فى الأزهر ..

أنا رجل أزهري ، وأعلم علم اليقين أن الأزهر وُضعت له خطط جعلت الخيانات العلمية — الآن — تملؤه !! وأنا أنبه المسلمين إلى أن الأزهر إذا بقى على وضعه الحالى — عدة سنين — فسيخرج علماء لا يحسنون أن يقرأوا القرآن فى المصاحف !! .

إذا بقى الأزهر على وضعه الحالى فإنه سيخرج منه ناس يكرهون أن يصلُّوا بالناس فى المساجد !! .
إذا بقى الأزهر على وضعه الحالى ولم تتداركه عناية الله فإن أمر الإسلام إلى شر !! .

ذلك أن الأزهر — فى حقيقته — مصنع الأدوية لعلل الأمة ، فإذا غُشَّت الأدوية التى يصدرها المصنع فإن العلل ستبقى مضاعفة !! .
إن الأزهر يعانى ، وقد وُضعت له خطة محكمة كى يدمر ، وأنا أوجه نظر المسلمين لهذا ..

إن كل أهل الأرض الذين يتبعون ديانات أرضية أو سماوية اختاروا العمالة فى أبنائهم وأشخاصهم ، اختاروا أعتى الرجال وأقواهم كى يقودوا هذه الديانات !! .

أما الأزهر فقد وُضعت الخطة ليقوده الخبايل ، وليقوده المرضى بعقولهم والمرضى بأخلاقهم .

(١) الأثافي : هى الحجارة الثلاثة التى يوضع عليها القدر عند الطبخ ، وثالثة الأثافي : هى أكبرها ، ويقال : رماه بثالثة الأثافي : بدهية كالجلبل .

إن الوضع غريب في الأزهر ، وإن جامعة الأزهر عندما تفكر في أن تحيي بعض النساء المغنيات للاحتفال بليلة العبور تكون بهذا قد سجلت الجريمة المنكرة على ما وصل إليه الأزهر من انحطاط وانحيار !! .

كنا نريد أن يحتفل الأزهر فيعرض فصلاً ثقافياً من خصوبة التشريع الإسلامي وسعته لمصالح الأمة ، كنا نريد أن يعرض تفسيراً موضوعياً لسورة القتال وكيف أن الاعتماد على الله يحیی بالخیر ، كنا نريد أن يتحدث الأزهر عن اللغة العربية ويذكر نماذج من أدب القتال من الشعر الفحل الذي قيل أيام الحروب الصليبية وأيام الحروب الأولى كي يعرض على الناس ألواناً من أدب القوة لا يعرفها الأدب المائع المخنث الذي يتبناه الآن بعض محترفي الأدب .

إنني ألفت النظر إلى هذا الوضع إن بقي فإن الإسلام يهدد ، إننا بحاجة إلى أن نعود إلى العلم الديني والثقافة الدينية والخصوبة الإسلامية والمعارف التي تتفجر من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فتحیی موت هذه الأمة .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] . .

وأقم الصلاة ...

(١) رواه مسلم في المذكر — باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨ .

٣- نظرات في سورة آل عمران

النكبة الكبرى

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضى الله عنه

في ٢٢/٢/١٩٧٤ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ،
وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة والسراج
المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .
أما بعد :

فإن المسلمين يعلمون أن القرآن الكريم لم ينزل جملة واحدة ، وإنما نزل
مجزئاً ، وقد أفادت تجزئته — هذه — في معالجة قضايا متجددة ، ورد شبهات
مُثارة ، ومواجهة أحداث تكثر لها الأمة .

ولعل سورة آل عمران مَثَلٌ لنزول القرآن مجزئاً يناسب ما تواجهه الأمة من
أحداث ، وما يلابسها من حرب أو سلام .

وقد قلنا : إن النصف الأول من السورة تعرّض لأهل الكتاب ، أو واجه
الحرب الباردة التي شُنُّوها على الإسلام والتي لمّا تتحول بعد إلى حرب
دامية ...

أما النصف الأخير من السورة فإنه واجه المشركين الذين لم يكفهم أن
أخرجوا الإسلام من وطنه الأول — في مكة — حتى أرادوا متابعته حيث استقر
كي ينالوا منه ، ويجهزوا عليه ، فتحوّل حربهم الباردة الأولى إلى حرب ساخنة
مدمرة ...

كان المسلمون يواجهون هذه القوى المعتدية الباغية التي انتشرت على
جبهات عريضة تريد أن تنال من الإسلام ، وأن تضع العقبات في طريقه ،
بل تريد أن تجتث جذوره ، وأن تطفئ نوره ...

فكانت العلاقة بين أول السورة وآخرها هي أن المسلمين ينبغي أن
يواجهوا تلك القوى كلها في لحظات واحدة ، ومفتاح هذا من قوله
تعالى : ﴿ لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا
الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن
ذلك من عزم الأمور ﴾ [آل عمران : ١٨٦] .

كان الأمر بالنسبة لأهل الكتاب أمر مناقشات عقلية كان للإسلام فيها
الفوز وله الغلب ، لأن ديننا يعتمد في حوارهِ على المنطق السديد ، والفكر
الناضج ، والعلم الصادق ، وما يبارى في هذه المجالات جمعاء ، إلا أنه فيما
يتصل بأهل الكتاب فقد أمرنا الله أن نعامل أهل الكتاب معاملة معتدلة ،
وَألا نجادلهم في شئون الدين إلا إذا بدأوا ذلك فليكن جدالنا لهم حسنا^(١) ،
وقد زاد النبي ﷺ إلى هذا أنه أوصى المسلمين ألا يفضلوه على
موسى أو عيسى أو أحد من الأنبياء السابقين ، ومع أنه — يقيناً — أعلى
الرسل قدراً — لأنه أوسعهم رسالة ، ولأنه أعلاهم درجة — إلا أنه أرى أن
يُذكر بهذا الفضل ، وقال : « لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس
ابن متى »^(٢) .

ويونس هو النبي الذي ترك بلده ضائعاً بمواقف الكفار فيها ، سأمان
من المواقف الرديئة التي شعر بها ، فكان أن التقمه الحوت وهو مُوَلٌّ عن
بلده ما يؤدي واجبه ، قال تعالى لنبينا محمد ﷺ : ﴿ فاصبر لحكم
ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم . لولا أن تداركه
نعمة من ربه لنبد بالعراء وهو مذموم . فاجتبه ربه فجعله من
الصالحين ﴾ [القلم : ٤٨ — ٥٠] .

(١) قال تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا
بالحق أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .
(٢) رواه البخاري في الأنبياء — باب قول الله تعالى : ﴿ وإن يونس لمن المرسلين ﴾ ٤ / ١٩٤
ومسلم في الفضائل — باب في ذكر يونس عليه السلام وقول النبي ﷺ : « لا ينبغي لعبد أن يقول
أنا خير من يونس بن متى » ٧ / ١٠٢ .

إن النبي — ﷺ — كره أن يفضل على يونس بن متى ، وهذا تواضع منه لله أولاً .. وثانياً : رغبة في إطفاء الفتن ومنع المسلمين أن يخرجوا اليهود أو النصارى بتفضيله على أنبيائهم .. فهل ارعوى أهل الكتاب لهذا المسلك ، وتأدبوا مع المسلمين ، وقدرُوا هذه المواقف النبيلة ؟ !

لم يقع هذا !! .

والسبب أن المسلمين يؤمنون بأنبيائهم ، ويصدقون برسالتهم ، وهؤلاء لا يؤمنون بنبينا ، ولا يصدقون برسالته ، والمسلمون لا يرون حرجاً في أن يبقى أهل الكتاب على عقائدهم ، وأن يجمع الكل وطن مشترك ، أما أهل الكتاب فكانوا يرون حرجاً في أن يبقى المسلمون على توحيدهم وقرآنهم ونبوتهم ورسالتهم الجديدة !! .

هذا المعنى جعل موقف المسلمين — لا بد أن يكون — دقيقاً ، ولذلك أمرهم الله بأن يكونوا — من أهل الكتاب — على حذر ، فليحسنوا إليهم ، ولكن لا ينبغي أن يستعينوا بهم في شئون السياسة الإسلامية ، أو أن يطلعوهم على خباياها ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . هَآ أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تَحِبُّونَهُمْ وَلَا يَحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِهِ وَإِذَا لِقَوْكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنْ أَلَّهِ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران : ١١٨ ، ١١٩] .

هذه التعاليم قصد بها أن تستطيع الأمة الإسلامية السير دون عائق ودون مؤامرات داخلية ودون أن تشعر بغش يتخلل كيائها ويسىء إليها .

وبدأ المسلمون — فعلاً — يتجمعون على هذا الأساس ، وبينون وحدتهم على ذلك الهدف الواضح ، يَدُّ أن أهل الكتاب يَتَّبِعُوا أمراً هو أن يبذلوا الجهود مستميتة لجعل الفرقة تَدِبُ بين المسلمين ، فهم يشعرون بأن المسلمين إذا قامت لهم وحدة فإن وحدتهم سَتُنْجَحُ رسالتهم ، وتَوْصُلُ

مبادئهم ، وتجعلهم يداً واحدة على من سواهم فلا يمكن أن يُغلبوا .

حاول اليهود ذلك في « المدينة » عندما نظروا فوجدوا أن المهاجرين من « مكة » وأن رجال « الأوس » ورجال « الخزرج » الذين أكلت العداوات قلوبهم قديماً قد أصبحوا أنصار الله ، ثم أصبح الأنصار والمهاجرون جميعاً إخوة . كان اليهود يشتغلون بالربا بينهم وبيع السلاح لهم ، كانوا ينتفعون بالعداوات المهتاجة التي تثير هؤلاء على أولئك ، وتجعل الدم لا يجف من بيوتهم !! .

إذن لا بد من تمزيق هذه الوحدة ، وحاولوها — فعلاً — وكادوا ينجحون لولا أن تدخل النبي ﷺ وأطفأ الفتنة في مهدها ، ونزل قوله تعالى — في سورة آل عمران — : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴾ [آل عمران : ١٠٠ ، ١٠١] .

فعرف المسلمون أنها نزغة شيطان كادت تُحطِم كيانهم ، وتُضيع يومهم وغدهم ، وتُغضب عليهم ربهم ، وتردهم إلى الجاهلية التي خلصوا من شرورها ، وعرفوا أن الله شَرَّفهم بهذا الدين ليكونوا به أمة خير ، وليكونوا حُرَّاساً على تعاليمه ، وليكونوا أساتذة للإنسانية كلها بما أودع الله في هذه التعاليم من حق وبر .

ولذلك حُدِدت وظيفة هذه الأمة في سورة آل عمران بقول الله جلَّ شأنه : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

وأشار إلى أن أهل الكتاب الأولين قد فسدت تعاليم السماء بين أيديهم فأصبح القبيح لديهم حسناً ، والحسن لديهم قبيحاً ، والتوحيد شركاً ، وفهمُ الألوهية غلطاً ، فنبههم إلى أنه ما يجوز للأمة الإسلامية أن تقع في ما وقع فيه أهل الكتاب ، قال تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم اليّنات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ [آل عمران : ١٠٥] .

وأكد رسالة الأمة الإسلامية فقال : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

لكن أهل الكتاب ما نسوا أن كيانهم أو نجاحهم ضد الإسلام إنما يتم بتمزيق الوحدة الإسلامية فدأبوا على ذلك ، واستطاعوا على مرّ الزمن أن يحدثوا فتوقاً بيننا ، لكن هذه الفتوق سرعان ما تندمل جراحاتها ، وتعود الأمة إلى وعيها ، وتستأنف باسم الله مسيرتها ، إلا أن النكبة الكبرى التي أصابت الأمة الإسلامية في القرن الرابع عشر للهجرة كانت فوق الظنون ، كانت نكبة جاثحة تركت أثراً سوداً إلى يوم الناس هذا في مستقبل الأمة الإسلامية . ذلك أن الدسائس الصليبية واليهودية تلاقت — في هذا القرن الحزين الجريح — على أمتنا ..

كانت الأمة موحدة في ظل خلافة مريضة معتلة ، لكنها خلافة شبح ، والشبح — أحياناً — في الحقول ربما منع الطير المتلصص !! كانت الخلافة شبحاً ، ولكن هذه الخلافة وقفت دهرأ ضد الاستعمار العالمي ، وبوسائلها الضعيفة قدرت على أن تصنع شيئاً ، فكان هدف الصليبية والصهيونية معاً ضرب دولة الخلافة ضرباً يجيء إلى صميمها فينال منه شر منال .. واتصل الانكليز — فعلاً — بالعرب عن طريق « الشريف حسين (١) » والانكليز ما كانوا مخلصين للقرآن أو السنة ، ما كانوا ولن يكونوا مخلصين لأهل البيت ، ما كانوا ولن يكونوا رحماء بالإسلام وأمته .

لكن الرجل الطامع الأناني اتفق مع الانكليز على ضرب الأتراك .

كان الأتراك ظلمة — فعلاً — وكان العرب خونة — فعلاً — وكانت النتيجة أن ذبح العرب الأتراك في الحرمين !! وهُزم الأتراك هزيمة منكرة بسبب خيانة العرب لهم ، والعرب يقولون : نُخَنَّاهم لأنهم ظلمونا !! على كل حال الذي كسب المعركة الكفر والإلحاد !! .

(١) هو الحسين بن علي (١٢٧٠ — ١٣٥٠هـ = ١٨٥٤ — ١٩٣١ م) أول من قلم في الحجاز باستقلال العرب عن الترك وآخر من حكم مكة من الأشراف الهاشميين .

وكانت النتيجة أن الأمة العربية سقطت خلافتها الشبح ، وانقسم بعضها — بعد ذلك — كما ينقطع حبل السُّبْحَة (١) فتتثر السُّبْحَة مائة حبة أو ثلاثين حبة حسب ما فيها من حبات !! .

انتثرت — فعلاً — الخيوط التي تجمع الأمة الإسلامية ، وأصبحت هذه الأمة لا يعرف بعضها الآخر !! .

ولو سألت أى مثقف فى الجامعة — الآن — : أتعرف أن فى « توجو » (٢) مسلمين يمثلون أكثر الدولة ؟ .

لقال لك : ما « توجو » ؟ ما « ملاوى » (٣) ؟ .
دول إسلامية ، لكنه لا يدري ، ما يدري أحد عن الإسلام فى « أفريقيا » شيئاً ، ما يدري أحد عن الإسلام فى « آسيا » شيئاً ، ما يدري أحد أن المسلمين — الآن — يبلغون ثمانمائة مليون فى العالم (٤) ، وحرب الإحصاءات — وهى حرب خبيثة — جعلت المسلمين أنفسهم ما يعرفون عددهم !! .

وقد قلت — بناءً عن إحصاءات دقيقة من مصادر أمريكية — : إن المسلمين — الآن — فى « الحبشة » (٥) نحو ٧٠٪ ولكن الكثرة المسلمة مسحوقة ، والمسجد فى « أديس أبابا » تحيط به بيوت البغايا !! .
هذا التمزيق جعل الأمة مُجْهَلَة فى كيانها ، ولكن على رأس من يقع وزر هذا الجهل ؟ .

الحق يقال : إنه يقع على الأمة العربية !! لماذا ؟ لأن « العرب هم دماغ الإسلام وقلبه » احفظوا هذا التعبير ..

(١) السُّبْحَة والمِسْبَحَة : خرزات منظومة للتسبيح .

(٢) جمهورية أفريقية حديثة تقع فى غرب القارة لها شريط ساحلى يطل على خليج غينيا لمسافة ٣٢ كم تحاورها من الشرق داهومى وفى الغرب غانا وتتصل حدودها الشمالية بجمهورية فولتا العليا ، وعاصمتها لومى .

(٣) جمهورية أفريقية تقع شرق وسط أفريقيا ، وعاصمتها زمبيا .

(٤) وقد وصلت النسبة الآن إلى ألف مليون أى ربع سكان العالم .

(٥) الاسم العربى الذى كانت وما زالت تُعرف به دولة أثيوبيا فى الوقت الحاضر ، وتقع شرق أفريقيا والعاصمة أديس أبابا .

ما دام القرآن عربياً ، وما دامت السنة عربية ، وما دامت الثقافة الإسلامية عربية ، وما دامت الكعبة — قبلة المسلمين — في بلاد عربية فمعنى ذلك أن الجنس العربى — بلغته ودينه — هو المسئول عن العالم الإسلامى كله !! .

وعرف الاستعمار هذا ، وأدرك أن العرب إذا استيقظوا باسم الإسلام تجمع الثمانمائة مليون مسلم في وحدة كبرى !! فماذا يصنع ؟ .

اجتهد في أن يبعد العرب عن الإسلام ، ونجحت جهوده ، وأذكر لكم مثلاً وحيداً — من عشرات الأمثلة التى أعرفها ، وربما كتبتها يوماً — « قبرص »^(١) بلد إسلامى ، فتحه المسلمون بعد أن فتحوا « مصر » ، فعمر الإسلام في « قبرص » يقل عشر سنين عن عمر الإسلام في « مصر » لأن « مصر » حُررت من الاستعمار الرومانى في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — وحُررت « قبرص » من الاستعمار الرومانى في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان — رضى الله عنه .

ولرواة السنة الشريفة قصة لـ « قبرص » هذه ، أحب أن تُعرف .. عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يدخل على أمِّ حَرام بنت ملحان فتطعمه ، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت ، فدخل عليها رسول الله ﷺ فأطعمته وجعلت تقي رأسه ، فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك — قالت : فقلت وما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : ناس من أمتى عُرضوا

على غزاة في سبيل الله يركبون ثَبَج هذا البحر ملوكاً على الأسيرة — أو مثل الملوك على الأسيرة — قالت : فقلت يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم . فدعا لها رسول الله ﷺ ثم وضع رأسه ، ثم استيقظ وهو يضحك . فقلت : وما يضحكك يا رسول الله ، قال ناس من أمتى عُرضوا على غزاة في سبيل الله كما قال في الأول . قالت : فقلت يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم . قال : أنتِ من الأولين . فركبت البحر في زمان معاوية

(١) تقع في شرق البحر الأبيض المتوسط وهى جزيرة قبالة سواحل سوريا من ناحية الغرب وسواحل تركيا الجنوبية وهى ضمن المجموعة الأسيوية وتبلغ مساحتها ٣٥٧٢ ميلاً مربعاً .

ابن أبي سفيان ، فصُرِّعت عن دابَّتِها حين خرجت من البحر
فهلكت» (١) .

فلننظر كيف حققت الأيام رؤيا نبينا ﷺ ؟ ومن الملوك الذين
يركبون أمواج البحر ؟ وماذا صنعوا ؟ قال التاريخ : كان المسلمون في
حرب مع دولة الرومان ، ودولة الرومان هي السبب في هذه المعارك لأنها
قتلت رسل النبي ﷺ ، واشتبكت مع المسلمين — على عهد النبي —
ﷺ — نفسه في حروب كانت تريد بها القضاء على الإسلام .

دولة الرومان دولة استعمارية عجوز هزمت المسلمين في « مُوتة »
وانسحبت دون قتال في « ثُبوك » ، فكان على المسلمين أن يواجهوا
الموقف ، وواجهوه واحتلوا « الشام » بعد أن حرروها من الرومان ،
واحتلوا « مصر » بعد أن حرروها وكانت مستعمرة ذليلة وضعيفة داخل
النطاق الروماني الذي أكلها مادياً ومعنوياً ، فكان دخول الإسلام في
« مصر » إحياء لها ، ومضى القتال في طريقه بعد وفاة عمر بن الخطاب
رضي الله عنه ، وشرع عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه يؤدي دوره ،
وكان يعلم أن رأس الأفعى في « القسطنطينية » (٢) .

يقول التاريخ : ذهب عبادة بن الصامت — رضي الله عنه — وذهبت
معه زوجته — أم حرام بنت ملحان — وقتلوا في « قبرص » إلا أن المرأة
أدركتها الوفاة في « قبرص » فماتت فيها ، ويُعرف قبرها — إلى الآن —
بقبر المرأة الصالحة (٣) !!

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير — باب الدعاء بالجهاد والشهادة للرجال والنساء
٤ / ١٩ ومسلم في الإمارة — باب فضل الغزو في البحر ٦ / ٤٩ .

وأم حرام بنت ملحان : هي أخت أم سليم وخالة أنس بن مالك . تحت عبادة بن الصامت : أي
زوجاً له . تفل : يعني تفتش شعر رأسه لتستخرج هوأته ، وإنما كانت تفل رأسه لأنها كانت منه
ذات محرم من قبل خالاته لأن أم عبد المطلب كانت من بني النجار . ثبح هذا البحر : أي وسطه أو
معظمه أو هَوْلُه . ملوكاً : بنزع الخافض أي مثل ملوك .

(٢) عاصمة الإمبراطورية الرومانية ، بناها الإمبراطور قسطنطين (٣٣٠ م) في بيزنطة القديمة
وسميت باسمه .

(٣) انظر البداية والنهاية ٧ / ١٥٣ فتح قبرص .

فماذا حدث لقبرص بعد ثلاثة عشر قرناً من امتلائها بالإسلام ؟
عندما هاجم الانكليز « مصر » واحتلوها احتلوا « قبرص » ،
كيف ؟

كانت « تركيا » موجودة ، ودولة الخلافة قائمة ، لكنها دولة
ضعيفة ، فاتفق الانكليز مع الأتراك الذين يحكمون « قبرص » — وكانوا
يحكمون « قبرص » لأن « قبرص » كانت تتبع « الشام » ، و
« المحافظ » في « الاسكندرونة » أو « أنطاكية » — وكانت هذه ولاية
شامية — هو الذى يتولى شؤون « قبرص » لأنها قرية من الساحل
السورى ، ففرض الانكليز على الدولة العثمانية أن يقيموا قاعدة لهم في
« قبرص » وأقاموا القاعدة ، ورفض السكان المسلمون أن يعاونوا
الانكليز ، فماذا صنع الانكليز ؟.

بدأوا يستأجرون عُمَّالاً يونانيين ، فكان مجيء العُمَّال اليونانيين أول
الوجود اليونانى في « قبرص » وبدأوا يكثرون ، فماذا حدث ؟

قرر اليونانيون أن يأخذوا « قبرص » من الإسلام ودولته !! أكانت
« قبرص » في تاريخها الماضى السحيق تتبع اليونان يوماً ؟ لا . يقول
التاريخ : ما كانت « قبرص » تتبع اليونان يوماً من الأيام ، فماذا حدث ؟

المؤامرات العالمية التى أرادت أن تضرب الإسلام جعلت العرب
يؤيدون « قبرص » اليونانية ضد « قبرص » الإسلامية !!

هذا ما حدث ، أننا مضياً منا في محاربة الأتراك المسلمين قررنا أن ننضم
إلى « مكاريوس »^(١) .. واليونان ضد الأتراك المسلمين !! ما هذا ؟!

بلغت الوقاحة بالسياسة الاستعمارية العالمية أن أوعزت لمنفذيها أن
يستقدموا « مكاريوس » إلى « القاهرة » وأن يزور إدارة « الأزهر »
ليقال : إن الأزهر مع اليونانيين القبارصة ضد المسلمين القبارصة !!

(١) اسقف يونانى ارتوذكسى قبرصى ، زعيم حركة الوحدة مع اليونان منذ ١٩٥٠ ، انتخب
رئيساً لجمهورية قبرص الجديدة في ديسمبر ١٩٥٩ .

العرب إذا قرروا محاربة الإسلام فإن الله عز وجل لا بد أن يذلهم ،
وأن يخزيهم ، وأن يُسَوِّدَ بالهزائم وجوههم ، وأن يجعل الدنيا تسخر منهم !!
لقد قلت : إن العداوات التي تعمل ضد الإسلام كثيرة ...

العالم الإسلامي يمتد على رُقعة بين المحيط الأطلسي والمحيط الهادي ،
أكبر رُقعة في تجمعات البشرية ، ثمانمائة مليون مسلم يملكون أحشاء العالم
بين أصابعهم ، يملكون مَمَرَّاته الكبرى ، يملكون طاقاته الموجَّهة ، ما يشكو
العرب أو المسلمون فقرًا !!

لكن الذي حدث أن الهجوم على الإسلام بدأ بعد تدويع الفكر العربى
فإذا المسلمون في آسيا يؤخذون أخذًا في ظل « روسيا القيصرية » ثم في
ظل « روسيا الشيوعية » !!

البلاد التي أنجبت الإمام « البخارى » والإمام « مسلم » وأنجبت
« فخر الدين الرازى » وأنجبت « جار الله الزمخشري » وأنجبت خدم
القرآن في باب الإعجاز واللغة : « سيويه » و « الجرجاني » و
« السكاكي » وغيرهم وغيرهم من علماء الدين واللغة !!

البلاد التي أنجبت أولئك العمالقة ليست عليها — الآن — راية تقول :
لا إله إلا الله !!

الراية التي عليها راية كافرة ملحدة تنكر الألوهية أصلًا !!

أما المسلمون في « الهند » فيعلم الله كم يعانون ، المسلمون في
« باكستان » ، المسلمون في بقية الأرض الإفريقية والآسيوية ممزقون !!

أتدرون من يجمع شملهم ؟ العرب ، العرب إذا رجعوا إلى الإسلام ،
أتدرون من يجمع شمل العرب ؟ « مصر » إذا تمسكت بالإسلام !!

نحن بين قراءتنا لسورة آل عمران عندما نتأمل قوله تعالى : ﴿ ولتكن
منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك
هم المفلحون ﴾ [آل عمران : ١٠٤] . وعندما نتأمل قوله تعالى : ﴿ كنتم
خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون

بِالله ﴿[آل عمران : ١١٠] . ندرك أن المكلف بهذا الكلام ابتداء الذين يعرفون
اللسان العربى ...

المسلم الهندى مسكين ما يعرف العربية ، المسلم الزنجى مسكين
ما يعرف العربية ، المسلم التركى مسكين ما يعرف العربية ، فإذا جاء حكم
عربى وقرر أن يحارب التجمعات الإسلامية ، أو يقف لها بالمرصاد ، أو أن
يطعن فى نيات أصحابها فإن هذا إنما يخدم الذين يريدون الإجهاز على الإسلام
والنيل منه !!

إن أشياء كثيرة يجب أن تُعرف ، وأن تُنقد ...

من أسوأ ما أصاب الأمة الإسلامية فى القاهرة — والقاهرة هى العاصمة
الثقافية للعالم الإسلامى — أن الجهاز الذى كُلف برعاية العقيدة واللغة
وحراسة الآداب العربية أصابه عَطَب !! إنه لمن المحزن أن أعلم أنه فى يوم
الأربعاء الماضى أقامت كُليَّة اللغة العربية — فى الأزهر — حفلاً مثَّلت فيه رواية
« الصُّديقيْن » — والرواية فيلم هندى !!

ولا أدرى ما الذى يجعل كلية من كليات الأزهر تُشغل نفسها بتمثيل
فيلم هندى ؟ لا أدرى السبب ، ولكن الذى أدريه أن اللغة العربية منكوبة ،
وأنها مهددة فى يومها ومستقبلها ، وأن من عجائب الزمن أن كلية دار العلوم
أرسلت مبعوثاً لها إلى « لندن » كى يدرس فقه اللغة فى « لندن » !!
فى هذه السنة يقع هذا ، سبحان الله .

أين كلية اللغة العربية ؟ مشغولة بتمثيل فيلم هندى !! أين فقه اللغة ؟
لا تدرى عنه شيئاً . لو كان لفقه اللغة أساتذة ما أرسلت « دار العلوم » إلى
« لندن » مبعوثاً يتعلم فقه اللغة هنالك ، وهل « لندن » تُعَلِّم فقه اللغة ؟
هذا عجب !! والأعجب من هذا أن « الأزهر » — فى كلية البنات —
أرسل فتاة لتعلم الفلسفة الإسلامية فى « لندن » !!

إننا ورثنا مجتمعاً ظل جباناً فى نقد الحكومات وأجهزة الحكومة ، ظل
جباناً لأن الناقد كان يُعتقل أو يُسجن أو يُضرب أو يُهان !!

وجئت الأمة العربية — فى مصر — ثمرات هذا الجبن أن أذها الله ، ومكَّن
العدو منها ، ثم بدأنا نتوب ونتراجع ونأخذ طريقنا إلى ربنا صحيحاً .

فلنعلم أن العقلية الخربة التي ظلت عشرين سنة تبحث لا تزال موجودة ، وأن هذه التصرفات يجب أن تطارد وإلا فلسنا أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

ما معنى أن يرسل « الأزهر » فتاة تتعلم الفلسفة الإسلامية في « لندن » ؟ أو ترسل « دار العلوم » شخصا يتعلم فقه اللغة في « لندن » ؟

إننا بدل أن نُحسُّ العار والخزي جئنا برواية فيلم هندي نمثله في كلية اللغة العربية !!

هؤلاء الناس يظنون أن التقدم في محاصمة الإسلام ، وأن المدنية في محاصمة اللغة العربية والقرآن الكريم والسنة النبوية .

إننى أعلم أن بعض الذين حملوا الدكتوراه من العواصم الأجنبية لا يسأون شيئا !! وأن الورق الذى يؤخذ من « لندن » أو « باريس » ورق مزور !!

إننى أقول هذا لأدأوى عقدة الوضاعة في نفوس المثقفين عندنا .
لِنُعْذُ في « مصر » إلى كتاب ربنا وسنة نبينا — ﷺ — ومناصرة الإسلام ، وتصحيح الأجهزة المسئولة عنه .
أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد

عباد الله : أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل ومن باب إحقاق الحق وتقدير الناس أذكر لكم أن الأخ الجليل مدير مكتب الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر اتصل بي وقال لي : إن الإمام الأكبر^(١) اعترض الرواية أو الحفلة الماجنة التي نددت بها في الأسبوع الماضي ، وأنه طلب معاقبة المسؤولين عن وضع برامجها !!

إنني أريد أن أقرر هذا ، وأقرر معه — أيضاً — أن الإمام الأكبر رجل فيه خير كثير لأنه هو الذي أوقفني هذا الموقف ، وهو الذي جاء بي إلى هذا المسجد ، وهو الذي رأى أن يُعمر بعد خراب ، وهو الذي تفاءل خيراً في أن المسلمين سوف يحتشدون هنا — لا حول شخص ولكن — حول فكرة أن الإسلام يجب أن تعلو رايته ، وأن تنتصر جبهته ، وأن يثوب إليه الذين ابتعدوا عنه وخافوا من الانتساب إليه .

جزاه الله خيراً على هذا كله .

هذه واحدة ، وواحدة أخرى أرى نفسي مُلزماً بها ، إن هذا المسجد

(١) الدكتور الشيخ عبد الحلیم محمود — رحمة الله عليه .

بذل من أجله وعانى في تعميره السيد الكريم / محافظ القاهرة ، والرجل
الآن — مريض ، نُقل من مكتبه مريضاً ، أظن واجب الوفاء يفرض على
المسلمين في هذا المسجد أن يسألوا الله له العافية ، نحن نسأل الله من قلوبنا
أن يصحح له بدنه وروحه وأن يُسبغ عليه ثوب العافية ، وأن يرده إلى عمله
في خدمة هذا المسجد وخدمة الإسلام وأن يجعله مثلاً صالحاً لإخوانه
المحافظين كي يؤدوا واجبهم لخدمة هذا الدين العزيز .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا
التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا ، واجعل الحياة
زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر »^(١)

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا
غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .
عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

★ ★ ★

(١) رواه مسلم في الذكر — باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١ / ٨١ .

٤- تأملات في سورة آل عمران غزوة أحد كما تحدثت عنها السورة

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضى الله عنه

في ١ / ٣ / ١٩٧٤

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ،
والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أما بعد :

فمن لطف الله بعباده المؤمنين أنه إذا وقع منهم خطأ طمأن قلوبهم
بتقديم العفو عنهم قبل أن يذكر الذنب الذى فرط منهم ، وذلك على نحو
ما قال لبيبة — عليه الصلاة والسلام لما قبل الأعداء المختلقة التى تقدم بها
المنافقون — : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا
وتعلم الكاذبين ﴾ [التوبة : ٤٣] .

وفى أواخر سورة آل عمران — فى النصف الأخير منها ، النصف
الذى تضمن معركة « أحد » — نجد أن رب العالمين فتح أبواب المتاب ،
ويسر للمسلمين الذين وقعت منهم أخطاء أن يرجعوا إلى ربهم ، وأن
يتخلصوا من أخطائهم ، وأن يجدوا الطريق أمامهم مفتوحاً لإحراز الثواب
الكثير ، وذلك فى قول الله جل شأنه : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم
وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ [آل عمران : ١٣٣] .

إن هذه الآية وما بعدها نزلت فى أثناء الكلام عن معركة « أحد »
وما وقع فيها من أحداث .

خطب الغزالي - المجلد الثانى

والحديث عن معركة «أحد» بدأ من قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ بِبَنِي الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٢١] . غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ : أى خرجت فى الصباح تُرْصُ الْمُؤْمِنِينَ فى الصفوف التى يقفون فيها كى يؤدوا حق الله عليهم فى الدفاع عن عاصمة الإسلام ، وعن حمى العقيدة ، وَرَدُّ الْمُهَاجِمِينَ الَّذِينَ يَرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نَوْرَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ .

بدأ الكلام من هذا الموضع ، ثم قبل أن تُذكر الهزائم التى وقعت ، والآلام التى أحسَّ بها المؤمنون فى قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٧ ، ١٣٩] .

قبل أن تذكر هذه الهزائم نجد هذه الآيات : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] من هم المتقون ؟ عَرِّفُوا بِأَوْصَافِهِمْ : ﴿ الَّذِينَ يَتَّقُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَالْأَسْوَاقِ وَالْكَازِمِينَ الْفَيْضَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] من المتقين يقيناً كل من يقع منه خطأ ثم يسارع بالخلاص منه ، والتوبة إلى الله بعده ، والبعد عنه جهد الطاقة .

وهذا من رحمة الله بعباده ، فإنه لم يفترض المؤمنين معصومين ، وإنما فُرض فى الطبيعة البشرية أنها تخطئ ، فالخطأ جزء من كيانها ، وما يجزئ أحد على القول بأنه لم يقترف طول حياته ذنباً ، ولم يفرط فى جنب الله ويقع منه التقصير ، ما يجزئ أحد على القول بهذا ..

ولذلك فإن من عناصر التقوى أن يسارع الإنسان بتنظيف نفسه من الخطيئة إذا هو سقط فيها : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أُولَئِكَ جِزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٥ ، ١٣٦] . وبالنسبة إلى الرجال الذين اشتركوا فى معركة «أحد» ووقعت الهزيمة — إن صح التعبير — وهم يقاتلون ، فإن الله تعالى أعلن صفحه عما بدر منهم : ﴿ إِنْ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ

الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور
حلیم ﴿[آل عمران : ١٥٥] .

والكلام عن معركة «أحد» يحتاج إلى شيء من التوضيح
والتفصيل ، فإن الهزائم لا تستوى ، هناك هزائم تقع لأصحابها بعد أن
أعدوا الخطة للمعركة ، وبعد أن بذلوا الجهد في بلوغ النصر الذي يحرصون
عليه ، ولكن عدوهم انتزع النصر منهم لأنه أكثر عدداً ، أو لأنه أشد
سلاحاً ، أو لأنه أحكم حُططاً ، أو لأسباب أخرى قضت بها حكمة الله
جل شأنه .

والمعارك من هذا النوع التي تصاب الأمم فيها بهزائم هي معارك تُعتبر
الهزائم فيها عوارض مؤقتة ، فقد انهزم «الألمان» في المعركة الأخيرة لهم في
الحروب العالمية الثانية ، ولكن الهزيمة التي أدركتهم لم تنل من عبقريتهم
العسكرية ولا الصناعية ، وإنما عرضت لهم الهزيمة لظروف فوق الطاقة ،
وسرعان ما تغلبوا عليها ، ولم تمض سنون حتى تجاوزوا الهزيمة ، ورجعوا إلى
مصاف الدول العظمى ، وكذلك «اليابان» .. والهزيمة التي وقعت في
«أحد» من هذا القبيل . هناك لقاء بين العمالقة ، ربما قرأ القارئون أنباء
الملاكمات والمصارعات التي تقع في حلائب^(١) الرياضة بين ناس بلغوا منتهى
القوة ، فما يهزم أحدهم الآخر إلا بعد عناء وجهد .

هذا نوع من الهزيمة — كما قلنا — يستطيع المهزوم في عواقبه أن ينهض
على عجل ، وأن يداوى جراحاته برجولة ، وأن يستأنف السير في الدنيا
بقدره ، لأن كيانه صلب ، ولأن ما وقع له عارض مؤقت .

وليست كذلك الهزائم التي أصابت المسلمين في أيام أخرى من
تاريخهم ، انهزم المسلمون في «الأندلس» وخرجوا تاركين هذا الفردوس
المفقود ، وبكى القائد الخارج لمّا وجد أن ماضياً عريقاً قد ضاع ، وأن
ملكاً ضخماً قد تلاشى ، فقالت له أمه :

ابك مثل النساء ملكاً تولى لم تحافظ عليه مثل الرجال
وكانت هزيمة المسلمين في «بغداد» التي أدخلت «التر»

الحلّة : موضع يختص للملاكمة والمصارعة ونحوهما . والجمع : حلائب .

عاصمتهم من هذا النوع أيضاً ، فإن الخلافة في « بغداد » كانت صورية ، وكان الخليفة ومن حوله ناساً ما يعرفون إلا الشهوات المطاعة ، والأهواء المتبعة ، والكهانات الباردة ، والانتساب للنبي ﷺ — في ورق تُذكر فيه أسماء الآباء ، ولكن ما ينتسبون إليه بالخلق العظيم ، ولا بالفعل الكبير .

ولذلك لما دخل « التتر » « بغداد » كانوا يقاتلون حكماً من هذا اللون الهابط السخيف الوضع ، فكانت الهزيمة شيئاً لا بد منه . فارق بين هزائم العمالقة وهزائم المهازيل .. إن المهزول شخص يمشى وهو ضعيف ، جرائم العلة تُخَر في كيانه ، فلو لم يضربه أحد لسقط بعد قليل من تلقاء نفسه ، لأن العلل تأكل في جسمه ، فالمعركة التي وقع فيها لم يهزم فيها لأنه لقي هزيمة عارضة ، إنما هُزم فيها لأنها كشفت ضعفه الحقيقي ، وبيّنت ما في كيانه من علل .

ومن هذا النوع ما أصاب العرب سنة ١٩٦٧ م فإن هزائم العرب يومئذ كانت شيئاً طبيعياً ، فإن الله تعالى لا يهزم العلم أمام الجهل ، ولا يهزم النظام أمام الفوضى ، ولا يهزم إخلاص القادة لأممهم أمام خيانة القادة لشعوبهم !! .

الفارق كبير بين هزيمة وهزيمة ، هناك هزائم تقع لأصحابها فيشعر المنتصر بأن خصمه رجل كبير ، وأن انتصاره عليه انتصار له ثمنه ، وهناك هزائم تقع لأصحابها فيشعر المنتصر بأنه إنما كان يقاتل من لا وزن لهم ولا قيمة !! .

الذين اشتركوا في معركة « أحد » طراز من الرجال لا نظير له في الدنيا ، ولذلك يرفض بعض المؤرخين القول بأن هزيمة وقعت في « أحد » ويكتب السيرة النبوية على هذا الأساس ، ويقول : لقد وقع قتال فعلاً ، ولكن موقف المسلمين في نهايته يشبه موقف المشركين .

كان يمكن أن نقول : إن المسلمين انهزموا لو أن شبراً من أرض « المدينة » احتل ، ولكن ما احتل شبر من الأرض .. كان يمكن أن نقول : إن المسلمين انهزموا لو أن ما أصابهم أسقطهم في الحلبة فلم

يستطيعوا نهوضاً .. لكنهم بعد يوم كانوا يشتدون في دروب الصحراء يطاردون العدو ، ويطلبون منه أن يتوقف كي ينازلوه مرة أخرى .. ثم شيء أخير وهو أنهم دخلوا المعركة بإيمان راسخ ، و يقين باذخ ، فانتصروا في أولها انتصاراً كاد يكشف جيش الشرك ، بل إن المشركين رُؤوا وهم يشتدون في الأرض هرباً !! ولولا ما حدث من مخالفة لأوامر النبي ﷺ ما كانت الخسائر التي نزلت بالأمة الإسلامية يومئذ .

لكي ندرك من هم الرجال الذين قاتلوا في « أحد » أعرض هذه القصص لنعرف كيف يصنع الإيمان البطولة ، وكيف يُغري بالتضحية ، وكيف يُحبب إلى الناس لقاء الله ، وكأنه ذهاب إلى حفل تكريم يسعى الإنسان إليه ببشاشة ورغبة !! إن الرجال الذين يكتبون التاريخ بدمائهم ، ويوجهون زمامه بعزمااتهم هم الذين صلُّوا هذه الحرب في « أحد » وحفظوا بها مصير الإسلام في الأرض .

رُوى أن « خثيمة » قُتل ابنه في معركة « بدر » فجاء إلى رسول الله ﷺ يقول : لقد أخطأتني وقعة بدر ، وكنت — والله — عليها حريصاً ، حتى ساهمتُ ابني في الخروج ، فخرج — في القرعة — سهمه ، فُرِز في الشهادة ، وقد رأيت البارحة ابني في النوم في أحسن صورة ، يَسْرَح في ثمار الجنة وأنهارها ، يقول : الحق بنا ترافقنا في الجنة ، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً . وقد أصبحت يا رسول الله مشتاقاً إلى مرافقته ، وقد كبرت سني ، وِرَقَّ عظمي ، وأحببت لقاء ربي . فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة سعد في الجنة . فدعا له رسول الله ﷺ بذلك فقتل بأحد شهيداً^(١) .

وكان « عمرو بن الجموح » أعرج شديد العرج ، وكان له أربعة أبناء شباب يغزون مع رسول الله ﷺ ، فلما توجه إلى « أحد » أراد أن يخرج معه . فقال له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة ، فلو قعدت ونحن

(١) زاد المعاد ٢٠٨/٣ ولم أقف عليه الآن وأما قصة الاستهام على الخروج في بدر واستشهاد سعد في هذه المعركة فقد رواها الحاكم ١٨٩/٣ ورواها أيضاً ابن المبارك وموسى بن عقبة كما في الإصابة ٢٥/٢ .

نكفيك ، وقد وضع الله عنك الجهاد ، فأتى عمرو رسول الله ﷺ فقال :
إن بنى هؤلاء يمنعوننى أن أجاهد معك ، ووالله إني لأرجو أن أستشهد فأطأ
بعرجتى هذه فى الجنة ، فقال له رسول الله ﷺ : أما أنت فقد وضع الله
عنك الجهاد ، وقال لِبَنِيهِ : وما عليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه
الشهادة . فخرج مع رسول الله ﷺ فقتل يوم « أحد » شهيداً^(١) .

وقال « النعمان بن مالك » : يا نبي الله لا تحرمنا الجنة — وذلك قبل
نشوب القتال — فوالذى نفسى بيده لأدخلنها ، فقال له رسول الله ﷺ :
بم ؟ قال : بأنى أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف . فقال له رسول الله
ﷺ : صدقت . واستشهد يومئذ^(٢) .

وقال « عبد الله بن جحش » فى ذلك اليوم : اللهم إنى أقسم عليك
أن ألقى العدو غداً فيقتلونى ثم يبقروا بطنى ، ويجدعوا أنفى وأذنى ، ثم
تسألنى : فيم ذلك ؟ فأقول : فيك^(٣) .

هذه صورة للرجولة الفارعة التى اصطدم بها الكفر أول المعركة
وآخرها فماد أمامها ، واضطربت من تحت أقدامه الأرض ، فما ربح شيئاً
فى بداية القتال ، ولا انتفع بما ربح آخره .

وهذا اللون من البطولة مدفون تحت جدران التاريخ الإسلامى القائم
إلى اليوم .

(١) رواه ابن هشام ٣١/٣ عن ابن اسحاق قال : وحدثنى أبى إسحاق بن يسار عن أشياخ من
بنى سلمة .. قال الألبانى : وهذا سند حسن إن كان الأشياخ من الصحابة وإلا فهو مرسل . وبعضه
فى المسند ٢٩٩/٥ من حديث أبى قتادة رضى الله عنه وزاد : « فقتلوا يوم أحد هو وابن أخيه ومولى
لهم ، فمر عليه رسول الله ﷺ فقال : « كأنى أنظر إليك تمشى برجلك هذه صحيحة فى الجنة »
وسنده صحيح (فقه السيرة للشيخ محمد الغزالى ص ٢٨١) .

(٢) قال الألبانى : أورد هذا الحديث الحافظ فى « الإصابة » من طريق السدى . فهو مرسل
(المرجع السابق) .

(٣) رواه الحاكم ١٩٩/٣ — ٢٠٠ وقال : صحيح على شرط الشيخين لولا إرسال فيه . ووافقه
الذهبى . قال الألبانى : لكن له شاهد موصول ، وأخرجه البغوى كما فى « الإصابة » من طريق
إسحاق بن سعد بن أبى وقاص : حدثنى أبى أن عبد الله بن جحش قال : .. فذكره بنحوه ، وزاد فى
آخره : قال سعد : فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه معلقتان فى خيط . (المرجع الأسبق) .

وما يقوم للإسلام صرح ، ولا ينكشف عنه طغيان إلا بهذه القوى
المذخورة المضغوطة في أفئدة الصديقين والشهداء . كنت مع أخي
وصديقي الحاج / حافظ سلامة — بطل معركة السويس ، وهو رجل من
المؤمنين الخيار — قال لي : إن أحدهم سقط « فكه » في المعركة ، وأخذ
الطبيب بخيط « لسانه » في « حلقه » كي يستطيع إجراء عملية تثبيت
الفك الأسفل ، فكان يصرخ أثناء العملية بكلام لم نفهمه ، ثم طلب ورقة
فكتب فيها إنه صائم ولا يريد أن يتناول شيئاً حتى يفطر !! .

وقال لي مثل هذا في بعض الضباط الذين قاتلوا بجلد ..

وذكر أن روح المسجد هي التي صنعت هذه المقاومة ، قال : إن
الإيمان بالله ، وإن الرغبة في مثوبته — جل شأنه — وإن الحرص على مرضاة
الله ، وإن مواريث القرآن والسنة في دمائنا وفي بيئتنا هي التي صنعت هذا
اللون من الرجال الذين قاتلوا بقوة ، وحرصوا على مرضاة الله إلى آخر
رمق .

وهذا النوع موجود بكثرة ، وينبغي أن تُكتب صحائف ناضرة بسيرته
وبأخلاقه ، ويقال : هذا ما صنعه القرآن وصنعت السنة في تكوين أبطال
استخرجوا النصر من أشد الأيام ضناً به ، فإن الواقع يوم يُعرف سيُعرف أن
« المصريين » ما أدركوا هذا النصر بسهولة ، ولكن الله امتنَّ به على ناس
تطلعوا إليه راجين فضله ، تطلعوا إليه بأبصارهم وبصائرهم :
﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ [البقرة : ١٤٣]

لكن هل سُكتب هذه الوقائع الشاهدة بما يصنعه الإسلام في أيام
الحرب وأيام السلام ؟ .

أرجو لأن هناك — كما أشعر — تيارات شاردة زائغة تحاول أن تُخفي
عمل الإسلام في هذه المعركة ، وما تزال هذه التيارات تبذل الجهد لجعل
الناس يعودون إلى الأيام الأولى — أيام العكوف على الشهوات ، وأيام
الجرى وراء الأهواء ، وأيام الكذب على الله وعلى الناس — ولكننا لن نقبل

هذا ، فنحن لهم بالمرصاد ، ومعنا جماهير المؤمنين التي أعلنت وفاءها لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ — ونعود إلى سورة آل عمران وهي تتحدث عن المعركة ، لقد تحدثت فذكرت الكثير ، وما نستطيع أن نذكر هذا الكثير ، لكن أول ما ذكرته الآيات أن الهزائم العابرة لا قيمة لها ، وأن الأمم تدرك ما تريد بجَلَدِها على تحمل الجراح ومضيها في طريق الكفاح ، ولا بد أن تصل إلى ما تبغى أخيراً ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] .

ثم قال القرآن — في واقعية ينبغي أن تعرفها الأمم — للمهزومين أو للمتعبين : ﴿ إِنْ يَمْسِكْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

وهذه الكلمات أو هذه الجمل تحتاج إلى شرح ، إن انتصار المسلمين في « بدر » جعل دائرة الإسلام تزدهم بطلاب الغنائم ، وطلاب الشهرة ، وطلاب المنفعة ، وطلاب الحكم ، وهذه طبيعة الدنيا ، إذا كان الإنسان في رَغَدٍ وفي قوة أقبل عليه الكثيرون ، والله — عز وجل — يريد أن يكشف طبائع أولئك الذين ازدحموا حول نبيه ﷺ ليبقى منهم الصادقون في إيمانهم المخلصون لربهم ، وليذهب بعيداً أولئك الذين جاءوا حوله انتظار منفعة ، أو ارتقاب مغنم : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ [آل عمران : ١٧٩] .

إن الله لا يكشف الناس بوحى فيقول : هذا مخلص ، وهذا منافق ، ولكنه يختبر المؤمنين ، ومَسُّ السراء والضراء في حياتهم هو الذي يبين أحوالهم ، ويكشف خباياهم ، فالمنافق إذا اغتنى شعر بالبطر ، وإذا افتقر شعر بالقنوط ، أما المؤمن فهو متماسك العاطفة ، إذا اغتنى حمد الله فلم يبطر ، وإذا تألم حمد الله فلم يَقْنَطْ ، وهو بين الصبر والشكر متماسك الخلق ، قوى العقيدة ، رفيع الرأس .

وبينت الآيات أن الاستشهاد ليس نكبة يُعَزَّى فيها . ولكنه رِزْق

إلهي ، أو مكافأة سماوية يتخير الله لها من أراد من خلقه ، يتخير الله لها من أراد إعلاء رايتهم ، يتخير الله لها من أراد إعلاء مكانتهم ، ولذلك كان التعبير : ﴿ ويتخذ منكم شهداء ﴾ ..

وبديهي أن الشهداء منازل ، وليسوا في مرتبة واحدة ، ففي حديث عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال : « الشهداء أربعة رجل : رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله حتى قُتل ، فذاك الذي يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هكذا ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته ، يقول الراوي : فلا أدري قلنسوة عمر أراد أم قلنسوة النبي ﷺ (١) قال : ورجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فكأنما ضُرب جلده بشوك طَلح من الجبن ، أتاه سهم غَرِب فقتله فهو في الدرجة الثانية (٢) ، ورجل مؤمن خَلَطَ عملاً صالحاً وآخر سيئاً لقي العدو فصدق الله حتى قُتل فذاك في الدرجة الثالثة ، ورجل مؤمن أسرف على نفسه لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الرابعة (٣) ».

لا نريد أن نتبع ما ذكرته السورة هنا تعليقاً وتعقيباً على القتال الذي دار في « أحد » ، لكن أريد أن أبرز أمرين : الأمر الأول : أن المعركة جرت على هذا النحو خارج المدينة لأن النبي ﷺ استمع إلى كثرة المقترحين عليه أن يخرج ، وكان كثرتهم من الشباب الذي هَزَّهُ ما سمع من ثواب للمجاهدين ، ومن كرامة للمستشهدين ، فأراد أن يخرج متعجلاً لقتال العدو .

(١) يوضح شيخنا المعنى فيقول : يعني أن مكانته من الرفعة بحيث إذا نظر الإنسان إليه نظرة عالية جداً فإن غطاء رأسه يقع .

(٢) الطلح : نوع من الأشجار ذى الشوك . الجبن : الخوف وعدم الإقدام سهم غَرِب : هو الذي لا يدري من راميهِ ولا من أين جاء والمعنى — كما يوضحه شيخنا : أن الرجل في طبيعته الخوف ، ولكن الخوف لم يمنعه من أن يتحامل على نفسه ، ويقالب طبعه ، ويلبى النداء ، ويقف في الصف ، فجاء سهم غَرِب : أي جاءه سهم طائش فقتله .

(٣) رواه أحمد ٢٢/١ ، ٢٣ والترمذي في الجهاد — باب ما جاء في الشهداء عند الله . وقال في الجامع الصغير : رواه أحمد والترمذي عن عمر ورمز لصحته . قال المناوي : ورواه أبو يعلى والدلمي وفيه ابن لهيعة (فيض القدير ١٨٠/٤) .

وكانت هناك قلة ترى أن يُستدرج المشركون إلى داخل المدينة ليُقضى عليهم في دُروبها وأزقتها ، وكان النبي ﷺ على هذا الرأي ، لكنه لما وجد الكثرة تتجه إلى الخروج نزل على رأى الكثرة وخرج ، وانتهى القتال بما انتهى إليه .

هنا نرى أن الله جل شأنه يقول لنبىه ﷺ كيف تعامل أصحابك بعد أن حدث ما حدث ، هل تلومهم ؟ هل تعاتبهم ؟ لا .. كن بهم رحيماً ، كن معهم رقيقاً ، طيب خواطرهم ، تلطف معهم ، ولا تبرم أمراً إلا بعد أن تعرض الأمر عليهم وأن تشاورهم : ﴿ فما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

إذا عزمت فتوكل على الله : أى إذا استقر الأمر على شىء سواء كان رأيك أو رأى غيرك فتوكل على الله .

وهذا ما حدث من النبى ﷺ فإن الشباب بعد ما رأوا النبى ﷺ قد خرج عليهم مستعداً للقتال لابساً ملابس الحرب قالوا : نحن استكرهنا النبى على هذا ، وعرضوا عليه أن ينزل على رأيه الأول ، فرفض وقال : « ما ينبغي لنبى إذا لبس لأمته — وهى الدرع — أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » (١) .

وهذا هو التوكل على الله .

هنا أوجه النظر إلى أن بعض الكتاب ، وبعض الذين يقررون قضايا خطيرة في فقها وتاريخنا يريدون أن يأخذوا من هذه الآية أن للحاكم أن يذهب إلى رأيه هو إذا كانت الشورى قد انتهت برأى يخالفه !! .

وهذا كلام فارغ وتضليل ، وهذا الكلام إنما دخل في الثقافة الإسلامية

(١) رواه أحمد ٣٥١/٣ والدارمى ١٢٩/٢ ، ١٣٠ موصولاً من طريق أنى الزبير عن جابر ، ورجاله ثقات ، وله شاهد من حديث ابن عباس عند الحاكم ١٢٨/٢ ، ١٢٩ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ وصححه ووافقه الذهبي .

أيام الملوك الفجرة ، وأيام الحكام المستبدين ، فإن الحكام المستبدين يحبون أن يفرضوا على الأمة آراءهم ، ويريدون أن يعصوا الله ، وأن يجيئوا بفتوى من هنا أو من هنا تُسوِّغ لهم هذه المعصية !! .

والدنيا كلها تعلم أن الشورى خير ، وأن الشورى فضيلة عرفها المؤمن والكافر ، والصديق والعدو ، وأن تجريد المسلمين من فضائل الشورى إنما هو قضاء عليهم ، وإنما هو خدمة لبعض الحكام المستبدين فيهم الذين يزعمون أنهم عباقرة ، وما هم في الحقيقة إلا أشخاص تافهون خلا لهم الجو فكانوا كالطير الذي قال فيه الشاعر (١) :

يالك من قُبْرَةٍ (٢) بمعمر * خلا لك الجو فيضي واصفري

قد رُفِعَ الفُخُّ فلا تحذري * ونُقِرْ ما شئت أن تُنْقَرِي

قد ذهب الصيد عنك فابشري * لا بد يوماً أن تُصادي فاصبري

إن حكاماً كثيرين تجاهلوا الشورى ونظامها ، وهو نظام أساسي في الإسلام ، وبلغ من دقة التوجيه الإسلامي أنه في جراحات « أحد » وفي غمرة الآلام التي أصابت النبي ﷺ يقول الله له : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ .

وقد حكوا عن الشيخ محمد عبده أنه قال : ما تصلح الأمة إلا بمستبد عادل !! .

والشيخ محمد عبده أشرف من أن يقول هذه الكلمة ، لا يوجد مستبد عادل ، كلمة مستبد عادل ككلمة صادق كاذب ، عالم جاهل ، تجمع المتناقضات .

(١) هو طرفة بن العبد ، يحكى أنه خرج في سفر مع عمه وهو ابن سبع سنين فنزلوا على ماء ونصب طرفة فخه للقناير بمكان هناك اسمه مَعْمَر فلم يصد شيئاً ، ولما هموا بالرحيل رأى القناير يلقطن ما كان قد نثر لهن من الحب فأنشأ يقول : يا لك من قبرة بمعمر .

(٢) القُبْر والقبرة والقنبر والقنبرة والقنبراء : ضرب من الطير .

إن المستبد لا يكون عادلاً ، إن الاستبداد وليد الحنا ، ووليد
الفجور ، ووليد المظالم ، وهو سرطان في الأمم ينبغي أن تنقيه وأن تبعد
عنه !! .

الأمر الثاني الذي نريد أن نبرزه من غزوة « أحد » : أن المؤمن
لا يجوز أن ينظر إلى الماضي إلا بقدر ما يأخذ منه العبرة ، والنظر إلى الماضي
لأخذ العبرة جزء من الإيمان ، وهو معنى قوله جل شأنه : ﴿ أفلم يسيرا
في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها
لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ [الحج : ٤٦] .
إن أخذ العبرة استجابة لأمر الله : ﴿ فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾
[الحشر : ٢] .

لكن إذا كان النظر للماضي نوعاً من التحسر على آلام الحاضر
ونوعاً من الفجيعة التي مبعثها جهل الأقدار الإلهية وعدم فهم الحقيقة
الأزلية الأبدية التي قررها القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ قل لن يصيبنا
إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ [التوبة :
٥١] .

إذا كان البكاء على الماضي من نوع : « لو أني فعلتُ كان كذا
وكذا » (١) ف : « لو » هذه تفتح عمل الشيطان (٢) كما قال عليه
الصلاة والسلام .

وقد كان المشركون يقولون : ﴿ لو كانوا عندنا ماماتوا وما قتلوا ﴾
[آل عمران : ١٥٦] . فرفض القرآن أن يكون هذا منطق المؤمنين : ﴿ يا أيها
الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في

(١ ، ٢) جزء من حديث رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ ونصه : « المؤمن القوى خير
وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ،
وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلتُ كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح
عمل الشيطان » رواه مسلم في القدر — باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض
المقادير لله ٥٦/٨ .

الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك
حسرة في قلوبهم ﴿ [آل عمران : ١٥٦] .

المؤمن يقول كما أمر الله : ﴿ لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب
عليهم القتال إلى مضاجعهم ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

إن أحداً لن يموت ناقص أجل أو ناقص عمر ، هو كتاب محدد :
﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ﴾ [آل عمران :
١٤٥] .

إن سورة آل عمران مضت إلى آخرها تُعلق المؤمنين بعبير وهدايات
انتهت بدعاء أولى الألباب ، وانتهت بأن الدعوة المستجابة هي العمل
الصالح ، ثم انتهت بأمر صارم جازم يقول للمؤمنين : ﴿ يا أيها الذين آمنوا
اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾
[آل عمران : ٢٠٠] .

اصبروا : فإن إطاعة الشهوات والجزع من التكاليف لا يكون شيمة
مؤمن .

وصابروا : أى غيركم سيصبر فليكن صبركم أكثر من صبر عدوكم ،
كأن هناك سياقاً في الصبر .

ورابطوا : أى كونوا دائماً مستعدين للقاء العدو ، فإن نسيان المعارك
والعودة إلى حياة المرح هي قرّة عين العدو ، إن هذه العودة هي التي
ستصنع هزيمة أخرى ، وما نريد أن نعود عن رباطنا ضد عدونا ، خصوصاً
وأن المعارك بين الإسلام وقوى الشر المتربصة به لا تزال باقية .
أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين ، وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

في المسجد الآن وفدان ، لكل منهما مطلب ، نرجو أن تتبناه حكومتنا .

الوفد الأول : من « جزيرة الذهب » وهي هنا تعترض « النيل » المبارك ، ويعيش فيها ألوف ممن يقدمون لنا الخير ، ويصنعون لهذا البلد الكثير من أسباب رفاهيته .

فإن هذه الجزيرة قرأت — وقرأ غيرة — أن بعض الأغنياء عرض أن يشتريها بعشرة ملايين من الجنيهات كي يجعل منها جزيرة سياحية ، ومعنى جعلها جزيرة سياحية أن نصنع بقعة نجسة لاهية عابثة فوق ماء النيل ، وأن نحرم الألوف — الذين يعيشون على الزرع والضرع ، ويقدمون للقاهرة الخير — من حياتهم الطبيعية .

نحن لا نريد أحياء سياحية جديدة في بلادنا ، حسبنا الخزي الذي يقع في شارع « الهرم » ، حسبنا هذه الألوف من السياحات الخبيثة التي تُعرض فيها الشهوات والملذات !! .

نحن لا نريد أن نبيع هذه الأرض ولا بمائة مليون من الجنيهات ، والمثل العربي يقول : تجوع الحرة ولا تأكل بثديها !! .

نريد أن يفهم هذا المثل الحريصون على السياحة في بلدنا ، إن السياحة يمكن أن تكون شيئاً آخر غير ما يفهمه اللاهون والعابثون ، يمكن أن نعرض أخلاق الإيمان وشمائل الرجال ، وتواريخ الأبطال ، وآثار الذين صنعوا الحضارة .

أما أن نعرض مفاتن الراقصات ، ونجيب الغرائز الدنسة فليست هذه سياحة ، هذا عبث ، ويجب أن تبقى الجزيرة ملك أصحابها .

الوفد الثاني من : « وادى النظرون » يقول : إن هنالك عشرين ألفاً من المسلمين الفقراء كانوا ينتظرون أن يفلحوا الأرض التي تم استصلاحها ، ولكنهم فوجئوا بأن هذه الأرض تباع بالميزاد لمن يستطيعون أن يدفعوا الثمن الأكبر .

هذا لا يجوز ، فإن عشرين ألفاً من الفقراء يحتاجون إلى أن يفلحوا الأرض يجب ألا يُتركوا فقراء .

نرجو أن يكون هذا وذاك موضع النظر ، فإن أمتنا لا تريد أن تعود إلى عبث أو ظلم .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا غفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة ..

(١) رواه مسلم فى الذكر — باب التعود من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨ .

العالم في انتظاره

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضى الله عنه

٦ / ٤ / ١٩٧٣ م

الحمد لله رب العالمين ، والغاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .. اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد ..

في شهر ربيع الأول سنجتهد في جعل خطب الجمع خلاله حديثاً عن النبي عليه الصلاة والسلام .. عن سيرته ، وشمائله الزاكية ، وأمجاده الخاصة والعامة ، وعن علاقة الأمة به ، واستمدادها منه ، وعن حاجة العالم إليه ، وضرورة تلقيه الهدى والبر والحق والبركة من النبي المبارك العربى المحمّد عليه الصلاة والسلام .

ونحن بهذا الحديث نتعرض لفضل الله .. فإن الحديث عن النبي الكبير عليه الصلاة والسلام يُنْعَش الأفتدة ، وَيُرَقِّقُ المشاعر ، وَيَرْفَعُ المستوى ، ويصل النفوس بالله عز وجل صلة سَمْحَة زَاكِيَة ، نحن في هذا العالم مُحتاجون إليها .

وأبدأ الحديث بالإجابة عن سؤال تلقّيته من بين الأوراق التي تُرسل إليّ أحياناً في أعقاب المحاضرات التي ألقّيتها بين طلاب الجامعات . لقد جاءني سؤال ووجدته فرصة سانحة للإبانة عن الحقيقة بعد ما قرأته .

هذا السؤال هو : ما حاجة العالم إلى محمد عليه الصلاة والسلام بعد الرسالة التي قام بها عيسى عليه الصلاة والسلام ؟ .

قلتُ في نفسي هذا السؤال جاء في إِبَّانِه ، وكان مِن الخير أن يُعرض
علَيَّ !! .
وأجبت فقلتُ :

إنَّ الناس قَبْلَ بعثة محمد عليه الصلاة والسلام كانوا على نوعين : نوع
مَحْرُومٍ مِن هدايات السماء فهو يَتِيه في صحراء الحياة هائماً على وجهه
لا يَعْرِفُ رَبّاً ولا حَدّاً ، ورُبّما قَدَّسَ الأحجار ، وعَبَدَ الأبقار ، وعاش على
هذا النحو السفيفه الوضيع إلى أن يموت ليتحول تُراباً ، أو ليكون حطباً
لجَهَنم .. الله أعلم بمصائر هؤلاء وَفَق ما أُتِيح لهم مِن هدايات ، وما عَرَضَ
لهم في حياتهم مِن عِلْمٍ أو نُور .. هذا النوع لا كتاب له ، لا يدرى شيئاً
يُمْكِن أن يُسَمُّوا بالأُمِين .. لتكن تسميتهم ما تكون فقد كانوا جُهالاً
حقيقة .

نوع آخر يَمَلَأُ الأرض .. وهم كِتَابِيُونَ .. لكنهم ظلموا أنفسهم ،
وَعَشُّوا وَخَيَّهَم ، وزَوَّروا كتابات الله التي نَزَّلَتْ عليهم ..

● ● ما معنى أن نقرأ لأولئك الكِتَابِيِّين أن الله تَمَشَّى في الجَنَّة ، وفوجىء
بأنَّ آدم عليه السلام مُخْتَبِئٌ ، قد أَكَلَ مِن الشجرة ، وربُّه لا يدرى ..
فهو يَسْأَلُهُ كيف أَكَلْتَ وكيف خُدِعْتَ !!

● ● ثم يُقال في هذه الكتب : إنَّ الله بعد أن خلق آدم نَدِمَ على خَلْقِ
آدم !!

● ● وبعد أن أغرق الأرض بالطوفان ندم على أن أغرق الأرض !!

● ● وأنه ظل سَحَابَةً ليلة بأكملها يُصارِعُ واحداً مِن عبيده هو يعقوب ،
وفي نهاية المصارعة أعطاه لقب إسرائيل !!

● ● وأنه مع اثنين مِنَ الملائكة دُعُوا إلى وليمة غداء أقامها إبراهيم لهم فأكل
الإله !! .

أى تزوير على صفات الألوهية على هذا النحو !!؟

ثم عند أولئك الكِتَابِيِّين أنَّ الألوهية « والد » و « ولد » ،
أو « زوج وصاحبة » !! ، أو كذا وكذا من التُّرَّهات التي شاعت
وانتشرت !!

ما كان العالم ليعرف الرشد ، ولا لِيُبْصِرَ الحق ، ولا لِيَصُفَّ قَدَمِيهِ
على الصراط المستقيم إلا لما جاءه محمد عليه الصلاة والسلام !! .

لقد كانت حاجة الدنيا إلى محمد عليه الصلاة والسلام حاجة العين
العمياء إلى البصر !! حاجة القَدَمِ المشلول إلى الحياة والحركة !! حاجة
الجسد السقيم إلى البرء والعافية !! .

إنَّ الذين يسألون : ما كانت حاجة العالم إلى محمد عليه الصلاة
والسلام ؟ يجب أن يعرفوا أنَّ محمداً ﷺ بكتابه وسنته رَدُّ إلى الدين
اعتباره ، وأعطى الإنسانية بصيرتها النيرة ، فكانت هذه البعثة خيراً للناس
أجمعين ، ورحمة لأرجاء العالمين !! ما كان أحوج العالم إلى محمد عليه
الصلاة والسلام .. إنَّ هذا الإنسان الكبير هو أمل الإنسانية لكي تُنْقَذَ مِنْ
خَيْرَتِهَا ، وتأنس من وحشتها ، وتُحَسِّنَ عودتها إلى ربها ، وتُتَخَلَّصَ مِنْ
الجاهلية الطَّامَّةِ التي وقعت فيها .. ونحن عندما نتحدث عن النبي الكبير
محمد عليه الصلاة والسلام نريد أن نتناول اليوم أطرافاً قليلة من السيرة ؛
لأن حديثنا كما قلتُ لكم ، وكما أستعين الله ، سيكون خلال هذا الشهر
تناولاً للسيرة النبوية ، وحديثاً في السمائل المحمدية .

النبوة عندنا معشر المسلمين هبةٌ مِنْ الله .. وليست جُهدَ بَشَرٍ يصل
بعده إلى مَرْتَبَةِ النبوة .. إن النبوة فضل إلهي أعلى يَمْنَحُهُ اللهُ مَنْ أَرَادَ مِنْ
خلقه .. وليست نتيجة كَدْحٍ في ميدان التربية ، أو الفلسفة ، أو المعاناة
النفسية ، أو الجهاد الخاص .. لا .. هي هبة مِنْ الله ، وليست كسباً ..
هذه الهبة العُليا بداهة يَتَخَيَّرُ اللهُ لها مِنْ خَلْقِهِ مَنْ هو لها أهل .. أيُّ أن النبوة
بداهة لا يمكن أن تكون نصيب التافهين ، أو المغموصين ، ولا يَصْلَحُ لها
شخص مُنْطَلِقُ الشهوة ، أو بَلِيدُ الفكر ، أو ضَيِّقُ الأفق ، أو عَطِنُ
النفس .. وهذا الذي أقوله هو معنى قول الله جَلَّ شأنه : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ
حيث يجعل رسالته ﴾ [الأنعام : ١٢٤]

إنَّ التفاوت بين البشر كبير جداً .. فهناك بَشَرٌ كَقِمَمِ الجبال ..
وهناك بشر كأكوام السَّبَخِ !! الفارق بين البشر مِنْ الناحية الفردية فارق
واسع جداً .. هناك أصحاب عقول كأنها لَمَحَ البرق مِنْ ذكائها وتألقها ..

وهناك أصحاب عقول يُعَيِّبهم أَنْ يَعْرِفُوا البديهيّات !! والكل من أولاد آدم !!.

وعندما يختار الله نبياً فهو يَخْتار من القمم ولا يَخْتار من السفوح !!
﴿... أَهْم يَقْسِمُونَ رَحْمَةً رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سَخِرِيّاً وَرَحْمَةً رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف : ٣٢]

كان هذا الجواب الإلهي لقوم تساءلوا : لِمَ كانت النبوة في ابن عبد الله ابن عبد المطلب .. وهو شاب محدود الثروة ، محدود القوة ، محدود السلطة !!؟ وَلِمَ تركت النبوة العُمَد في مكة والطائف ، وأصحاب الدولة والصولة في البلدين العظميين !!؟ .

﴿وقالوا لولا نُزِّلَ هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾
فكان الرد الإلهي : ﴿أَهْم يَقْسِمُونَ رَحْمَةً رَبِّكَ﴾ [الزخرف : ٣١ - ٣٢]

إن مقاييس العظمة عند هؤلاء الجاهلين كانت مقدار ما يملك المرء من نياق ، أو أبقار ، أو مَعَزَ وَغَنَم !! هذا ميزان العظمة عند بعض الناس .. وهو ميزان سخيف فَإِنَّ العظمة مَعْدِنُ نَفْسِي نَفِيس ، ومن المعادن .. النفيسة الغالية الكريمة يَخْتَارُ الله أنبياءه .. دون نظر إلى مال أو جاه .. وقد اختار الله محمداً ﷺ بعد أن تَخَيَّرَهُ مِنْ نُطْفِ الْآبَاءِ وَالْأُمَهَاتِ ، وأشرف على تربيته ، وأدبه ، وبسط عليه رعايته .

اختار الله محمداً على هذا النحو .. ولذلك أوجه النظر إلى أمور لا بد من توجيه النظر إليها .. إِنَّ الرسل بشر .. ولا بد أن يكونوا بشرأ .. لأنَّ الناس الذين يسكنون الأرض يحتاجون إلى بشر ، يفهمون منهم ، ويتلقون عنهم ، ويُحْسِنُونَ إحساسهم ، ويأْنَسُونَ بهم .. وعندما قال بعض المستغربين المستكرين : ﴿أَبْعَثْ اللَّهُ بَشِراً رَسُولاً﴾ [الإسراء : ٩٣]

كان الجواب : ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾ . لكن الناس بشر .. فيجب أن يتعلموا مِنْ مُجَانِسِ لَهِمْ ، مِنْ مُشَابِهِ لَهِمْ فِي خَلْقِهِ .. فبشرية الرسول ﷺ لا تُنْكَرُ .. وإنما تُنْكَرُ على بعض الذين يتحدثون في بشرية الرسول ﷺ

أشياء يدسونها في هذه البشرية كي يُوهَموا أنَّ الرسول ﷺ رجل عبقرى ، أو شخص صاحب مواهب ضخمة ، وأنه بعقريته الفريدة ، ومواهبه الجليلة ، استطاع أن يبلغ ما بلغ ، وأن يصل إلى ما وصل إليه .. وهذا تدليس .. إنه بشر حقاً ، وذو مواهب حقاً .. ولكنه بشر يتلقى عن الله ، ويستقدم الوحي ، بشر لم يبلغ ما بلغ بعقريته الخاصة .. وإنما بلغ بتوجيه الله له ، واعتناؤه به .. فالذين يتحدثون عن بشرية الرسول ﷺ يخلطون أو يكذبون عندما يُريدون إيهام الناس أنه بشر عادى .. لا .. هو بشر حقاً ولكن يُوحى إليه : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يُوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه ﴾ [فصلت : ٦] ثم إن هناك خلافاً واضحاً بين النبوة وبين العبقرية مهما بلغت .. عبقرية فلسفية ، عبقرية عسكرية ، عبقرية سياسية .. أولئك العباقرة فيما درسنا من تاريخهم يرجع تفوقهم غالباً إلى امتداد في موهبة من المواهب .. أمّا بقية مواهبهم فإما عادية أو هابطة .. ولذلك وجدنا عبقریات سياسية وعسكرية ترتكب الدنيا !! .

نَحْذِ عبقرية عسكرية مثل « نابليون » الرجل في معركة ما وهو يفتح الشام أمّن المدافعين ، وأعطاهم وعداً بأنهم إذا أسروا ضمنت لهم الحياة .. وما كادوا يَقعون في الأسر حتى أمر بقتلهم جميعاً !! .

عَدَرَ القائد في كلمته ، كَذَبَ في وعده ، كان خسيساً في تصرفه .. هو عبقرية عسكرية .. ولكنه كان نذلاً في معاملاته الأخلاقية !! .

الواقع أننا نَقفز قفزة عالية جداً عندما ننتقل من شخص كـنابليون أو غيره من قادة العالم إلى القمة الشماء في تاريخ الإنسانية كلها إلى محمد ابن عبد الله عليه الصلاة والسلام .. عندما كانت ظلمات الجاهلية ترين على صحراء الجزيرة كان محمد عليه السلام في أحشائها كوكباً متألقاً بفضائله ، وكان معروفاً في الجاهلية بأنه الصادق الأمين !! ذاك في الجاهلية .. فكيف بعد أن تمت عليه النعمة ، واختاره الله نبياً !!؟

إنَّ العبقرية شيء والنبوة شيء آخر .. السراج المنير لا يمكن أن تكون فيه نُقْطُ سوداء ، ولا بُقْعُ مُعْتَمَة .. لأنه منير من كل ناحية .. وفي الأنبياء وتلاميذ الأنبياء يقول الشاعر :

هُم الرِّجَالُ الْمَصَاحِيخُ الَّذِينَ هُمْ كَأَنَّهُمْ مِنْ نَجْمٍ حَيَّةٍ صُنِعُوا
أَخْلَاقَهُمْ نُورُهُمْ مِنْ أَيْ نَاحِيَةٍ أَقْبَلَتْ تَنْظُرُ فِي أَخْلَاقِهِمْ سَطَعُوا

كواكب .. وهذا معنى وصف الله عز وجل لنبيه ﷺ : ﴿ وَسِرَاجاً

مُنِيراً ﴾ [الأحزاب : ٤٦] والسراج المنير مُشرق في جوانبه كلها .. مصدر
نور ، وإشعاع من أرجائه كلها !! .

فنحن نرفض وصف النبي ﷺ بالعبقريّة ، أو وصفه بالبشرية
العادية ، ونعلم أنه فعلاً مَعْدِنٌ ليس هناك ما يُشبهه نفاسة وكرماً .. ولكنّ
النبوة اصطفاءً أعلى ، ولكنّ النبوة هبة الله لمن أراد من عباده ، وقد خُتِمت
النبوات كُلُّها برجلها الأوحد نبي الأنبياء ، وإنسان الإنسانية محمد بن
عبد الله عليه الصلاة والسلام !! .

في طلائع الوحي على النبي عليه الصلاة والسلام دروس تُحب أن
نقف عندها لتتعرف الفلك الذي دارت النبوة المحمدية فيه .

من أوائل ما نزل عليه ﷺ سورة « العلق » .. سورة
« الضحى » .. سورة « الانشراح » .. سورة « المزمل » .. سورة
« المدثر » قلتُ أتدبر الآيات التي نزلت عليه أول ما استقبل إشراقات الوحي
الأعلى ، ودون ترتيب مُراعى في السرد الآن .. أبدأ بسورة الضحى :

الشيخ « محمد عبده » يقول : إن الله تعالى أقسم بالضحى والليل
إشارة إلى أن فترات الوحي في حياة النبي ﷺ كانت فترات تألق وسنى
لامع .. وأما فترات الانقطاع للوحي فكانت تشبه وحشة الليل عندما
يَصْمِت وَيَنْقَطِع كل جِراك به !! .

وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام قد بدأ يستقبل الوحي دون ارتقاب
له .. إنه ما كان يدري أنه سيختار نبياً ، ولا تطلع إلى الرسالة ، ولا عرف
أن مستقبل الإنسانية مرتبط بشخصه الجليل في الأربعين سنة الأولى من
عمره .. وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ
الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ [القصص : ٨٦] كأن الله تعالى أرسل إليه

الوحي ، ثم قطعه قليلاً عنه ليزداد شوقاً إليه ، ويزداد تهيؤاً لاستقباله ، ويزداد تشوقاً إلى مطالعته عندما يجيء ، ولكنه أحس شيئاً من الكرب عندما انقطع الوحي .. فطمأنه رب العالمين أن لا مكان للحزن وللحزن في حياته من هذه الناحية ، قال له لا تظن أني هجرتك ، أو تركتك ، أو حولت نعمتي عنك .. ﴿ ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ [سورة الضحى : ٣ - ٥]

ثم بين له كيف أنه رعاه من غير سؤال ، وكيف أنه أشرف على تربيته وتوجيهه من غير طلب ، وكيف أنه صنعه لنفسه ، فقال مُفصلاً هذه المعاني : ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ [الضحى : ٦] آواك والإيواء هنا ليس الإيواء الحسى لتدبير الكفالة له فقط .. ولكنه الإيواء المعنوى الذى يتضمن الإشراف على تربيته وتكوينه : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ [الضحى : ٧]

أقف قليلاً عند هذه الكلمة .. أى وجدك حائراً لا تدرى الحق ولا تعرف طريقاً إليه ، والضلال فى اللغة العربية يعنى الحيرة ، ويعنى الذهول ، ويعنى النسيان .. ﴿ لا يضل ربى ولا ينسى ﴾ [طه : ٥٢] .. أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

الضلال : الحيرة .. وفعلاً كان النبى ﷺ حائراً .. وآية : ﴿ ... ووجدك ضالاً فهدى ﴾ فصلت فى سورة الانشراح بعد ذلك .. إذ قال الله له : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ ؟ [الانشراح : ١]

من أثر الحيرة ، من أثر النظر فى شئون الناس ، وأحوال الدنيا ، والعودة من هذا النظر بغير شيء .. كل هذا ضيق صدرك ، وكأنك تحمل على ظهرك حملاً يكاد يقطعه ، يكاد يقصمه .. لأن الرجل الكبير الجليل عندما يشعر بالحيرة لأنه عاجز عن أن يصنع شيئاً ، أو أن يخرج من الظلمات التى تُحيط به ، فإنه يتعب نفسياً جداً تعباً يكاد يرهق أعصابه ويُمزق كيانه .. فكلية : ﴿ ألم نشرح لك صدرك . ووضعنا عنك وزرك . الذى انقض ظهرك ﴾ ؟ هى التى قُلت فى آية أخرى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ [الشورى : ٥٢] ﴿ ولولا

فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴿ [النساء : ١١٣]

هذا التعليم الجديد هو التفسير لقوله جل شأنه : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ وقوله في السورة التي تليها : ﴿ ألم نشرح لك صدرك . ووضعنا عنك وزرك . الذي أنقض ظهرك ﴾ أى كاد يقصم ظهرك لثقله ، وشدة وطأته ، وأنت حائر في المجتمع الجاهلي بمكة لا ترى بصيص نور في الوثنية السائدة ، وفي ضلالات أهل الكتاب الذين ما يعرفون الكتاب إلا أمانى ، ولا يدرون من الحقيقة المبرأة شيئاً .

ثم يرتب الله عز وجل على هذا الفضل أشياء .. يرتب عليه نتائج لمصلحة الجماهير .. فإن الذى يمرض ثم يصح أحق الناس برعاية أصحاب الآلام !!! .

والذى يغتنى بعد فقر أحق الناس برعاية أصحاب الحاجات .
والذى يعلم بعد جهل أحق الناس بأن يطارد الجهالة ويلقى نيرها عن كواهل أهلها !! ولذلك بعد أن امتن الله عليه وقال له : ﴿ ألم يجدك يتيماً فأوى . ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ [الضحى : ٦ - ٨]
رتب على ذلك هذه النتائج : ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ [الضحى : ٩ - ١١] .

وكذلك في سورة الانشراح .. رتب النتائج بعد أن قال : كنت مُوقر الظهر بحمل أزعجك وأتعبك ، فخفف الله عنك ، وتنفست الصعداء بعد أن زال هذا الكابوس ، وطلع عليك فجر الوحي ، واتصلت بربك ، وأصبحت أسوة الناس وإمامهم ، وهاديتهم وراعيهم .. فماذا تصنع ؟ باستمرار أقبل على الله .. إن انتهيت من واجب اتصل بواجب آخر : ﴿ فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب ﴾ [الانشراح : ٧ ، ٨]

هذا جهاد النبوة .. فالنبوة عبء .. ولكي يُعرف عبؤها ننظر إلى ما نزل في أوائل الوحي المبارك من سور .. في سورة « المزمل » يُعَرِّفُ النبي ﷺ أن الهوى خفيف على الأنفس ، وأنه يُتيح لأصحابه أن يناموا حتى يعقد الكرى « النوم » على أجفانهم ليالى طوالاً ، ويتشبعوا حتى

يألفوا الراحة والخمول .. الهوى خفيف على الأنفس ، خلو المذاق .. لكن الحق ثقيل على الأنفس .. فيه مرارة الدواء ، فيه متاعب الجِد .. ولذلك في أوائل الوحي قيل له : ما مضى مضى .. أما الآن فأمامك سَهر طويل : ﴿ يا أيها المزمّل . قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أوزد عليه ورتل القرآن ترتيلا . إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً ﴾ [المزمّل : ١ - ٥] هذا القول الثقيل يتضمن الحقائق المُرة :

● ● عقيدة التوحيد .. كم يضيق بها المُعدّدون والمُشركون ؟
 ● ● مسئولية النفس الإنسانية عن سلوكها وعن عملها .. كم يضيق بها عُباد القرايين ، وأصحاب المزاعم في أن الله يحتاج إلى كفارات من الدماء البشرية ، أو الدماء الإلهية إن صحَّ التعبير كي يرضى عن خلقه ؟ !
 لكن هذا الحق الثقيل يحتاج إلى رجال ذوى مناكب أيّدة كي يحملوه بصلافة ، وكى يطوفوا الآفاق به دون إعياء أو انقطاع .

وتقرأ « سورة المدثر » وهى بعد المزمّل ومن أوائل ما نزل .. فتجد أمارات الجِدّة في الوحي الخاتم .. لأنه يُبين للنبي عليه الصلاة والسلام معالم طريقه كي يقود الناس فيها : ﴿ يا أيها المدثر . قم فأُنذر ﴾ انتصب لتُعلّم الناس ما لم يعلموا .. إن جماهير كثيفة شردت عن الطريق ، وأنت مكلف أن تعود بها إلى الصراط المستقيم : ﴿ قم فأُنذر . وربك فكبر ﴾ .. إن الناس عبدوا الأوهام ، وقدّسوا الأصنام .. ولكن أنت اربط تعظيمك وتقديسك ، وعلم الناس معك أن خوفهم ورجاءهم وركوعهم وسجودهم وتوكلهم ، وركونهم إنما يكون على الكبير المُتوحّد بالكبرياء ﴿ وثيابك فطهر ﴾ [المدثر : ١ - ٤] إن بعض الناس فسّر الآية بأن تطهير الثياب هنا إنما هو تطهير للأخلاق وللكيان المعنوى للإنسان .. وهذا تفسير قد يقبله البعض ، أما رأى فإن كلمة : ﴿ ثيابك فطهر ﴾ تُعطى المنهج الجديد للإنسان .. كان التدين قَبْلاً يعتبر التقشف والرهبانية ووساخة الأجساد .. يعتبر ذلك لونا من القربى إلى الله .. لكن الدين الجديد احترم الجسد الإنسانى ، واعتبر طيبَ الجسد ، وطهارة الجسد ، وزينة الجسد ، والرائحة الزكية في الجسد .. اعتبر ذلك من أمارات التقوى ، ومن دلائل الإيمان ، ومن حُسن الصلة بالله !! .

ولعل تشريع الوضوء والغسل ، ولعل تشريع الطيب والسواك .. لعل هذه الشرائع التي جعلت الجسد الإنساني مُكرّماً عند الله .. لعلها إشعار بأن الدين الجديد دين الفطرة السليمة ، وأن تقدير هذا الجسد ، وتقدير الإبداع الإلهي في خلقه من معالم التقوى .. وكان النبي عليه الصلاة والسلام يقول في سجوده أحياناً : « سجد وجهي للذي خلقه وصوّره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين » (١) .

هذا الجسد لا يُوسَّخ .. هذا الوجه لا يُلَوَّث .. هذه الثياب يجب أن تُظهر !! .

لقد كان النبي عليه الصلاة والسلام آية في وضاعة بدنه كله ، وفي نظافة ثيابه كلها ، وكان الناس إذا شَمَوْا رائحة جيدة في مكانٍ ما قالوا : لعل محمداً مرَّ من هنا !! هذا هو التدين .. لا الرهبانية القذرة الوسخة التي تفتت على الجسد وتُوسَّخه ، وتجعل الناس يحتقرون البدن ، ويرون الإجحاف به ، والنيل منه قريناً إلى الله .

﴿ وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين مطولاً « باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه » عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال : « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين ، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربي وأنا عبدك ، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي ، فاغفر لي ذنوبي جميعاً إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت ، ليك وسعديك ، والخير كله في يديك ، والشر ليس إليك ، أنا بك وإليك ، تباركت وتعاليت ، أستغفرك وأتوب إليك » وإذا ركع قال : « اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، خشع لك سمعي وبصري ومعني وعظمي وعصبي » وإذا رفع قال : « اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد » وإذا سجد قال : « اللهم لك سجدت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، سجد وجهي للذي خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين » ، ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم : « اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت » ١٨٥/٢ ، ١٨٦ . والترمذي في الدعوات تحفة الأحوذى ٩ / ٣٧٤ والنسائي بنحوه في التطبيق ٢ / ٢٢٠ ، ٢٢١ وأبو داود في الصلاة : باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء عون المعبود ٢ / ٤٦٣ وما بعدها وابن ماجة في الإقامة ١ / ٣٣٥ والحاكم مختصراً ١ / ٢٢٠ والبيهقي مختصراً ٢ / ٤٢٥ .

فاصبر ﴿[المدثر : ٤ - ٧] إلى آخر ما يمكن استعراضه من هذه الآيات التي وجهت النبي ﷺ إلى الحق والخير .. لا لتكوينه شخصياً .. بل لتكوين الأمة معه ، ورسم الرسالة الإسلامية لتُعرف معالمها من ملامحه ، ومشخصاتها من مشخصاته .

إن الله عز وجل ربي محمداً ﷺ يُرى به العرب ، وربي العرب بمحمد ليرى بهم الناس أجمعين .

كيف ربي ؟ كيف صنع الناس ؟

هذا بحث آخر .. موعدنا إن شاء الله تعالى به في عالمية الرسالة ، وفي الآفاق التي تعمل فيها ، وفي الأبعاد التي تتألق خلالها .. موعدنا إن شاء الله تعالى في يوم الجمعة المقبلة ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ، ويستجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد﴾ [الشورى : ٢٥ — ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، إمام الأنبياء ، وسيد الصالحين .. اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإن أحفالننا الننى أَلَفْنا إقامتها فى شهر ربيع عاطفة مقدورة البواعث .. ولكنها لا تُقبَلُ ترجمة عن الحب الواجب لصاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام .

وعندى لو أن المسلمين عَطَّلُوا هذه الأفعال كلها ، وأقاموا بدلاً منها حَدًّا مِنَ الحدود المعطلة ، أو قانوناً من القوانين الإسلامية المهمة لكان ذلك أرضى لله عز وجل وأحب لرسول الله ﷺ !! .

لكن نحن ننتهزُ فُرْصَ هذه الأفعال ، كى نُذكر .. والذكرى تنفع المؤمنين ..

ومن الذكرى التى نؤكد بها ولاءنا لصاحب الرسالة ، وإعزازنا للتراث الذى تلقيناه عنه صلوات الله وسلامه عليه ، أن نوجه الأنظار إلى أعداء الله عز وجل ، وأعداء محمد ﷺ .. أنا أعرف ناساً من العرب عندما يقع نزاع بين المسلمين والهندوك ينضمون إلى الهند .

وعندما يقع النزاع بين القبارصة المسيحيين وبين الأتراك المسلمين ينضمون إلى اليونان !!! .

وعندما يقع النزاع بين الإرتريين والأحباش ينضمون إلى الأحباش .
وعندما يصطدم الإسلام في معاركه الطويلة العريضة بأيِّ عدو .. فهم
مع هذا العدو !!!

وهم عرب يتسمَّون بأسمائنا ، ويتكلمون بألسنتنا ، ويجدون من ينخدع
بهم ، ويستمع إليهم !! .

هؤلاء أملهم أن يجعلوا « مصر » علمانية .. أى لا يكون الإسلام دينها ،
ولا مصدر التشريع فيها ، ولا أساس الأخلاق والقيم والمثل لأبنائها !! .

هؤلاء يجب أن نكشفهم وأن نتعرف آثارهم في مجتمعنا لنحوها .
إن الإسلام في هذه الأيام ليس فقط « جواز المرور » إلى الجنة عندما
نلقى الله .. إنه قبل أن نلقى الله هو ضمان البقاء لنا على ظهر
الأرض !!! .

هذا الدين ليس فقط تأمين آخرتنا عند ربنا .. إنه الآن تأمين حياتنا
العاجلة !! فإن المسلمين أعلنت عليهم حرب إفناء ، وأعلنت على محمد
ﷺ حرب اجتياح لكتابه وسنته وتاريخه وآثاره !!! .

فإذا أراد المسلمون أن يعيشوا هملاً فمصيرهم هو الذبح ..
لا غير !!! .

وأنا أسأل نفسي : أى خيانة ارتكبتها المسلمون جميعاً وهم يعلمون أو
يُجهلون في أن نحو سبعة آلاف جزيرة شرق جزائر أندونيسيا كانت مسلمة
كلها !! ثم هجم عليها الأسبان ، ووضعوا عليها اسم ملكهم « فيليب »
وسموها « الفليبين » ، وبدأوا عملية محو القرآن والسنة ، والمنتسبين إلى
القرآن والسنة .. حتى محوا [٨٧٪] من السكان ونصروهم ، وبقي الآن
نحو [١٠٪] يتعرضون للفناء !!

إذا تحدث الناس عن التجمع الإسلامى ، وعن الروابط الإسلامية ،
وُجد من العرب من يقول : إن التجميع على الإسلام سياسة أمريكية !! ،
يا سبحان الله !! أى بلاء هذا الذى نزل بنا ؟!! إن التجميع على الإسلام

سياسة قرآنية : ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾
[آل عمران : ١٠٣] ألا فليستيقظ المسلمون وإلا هوت بهم الرياح في مكان
سحيق !!

اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها
معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل
خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر ﴿١﴾ .

﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا
غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾ [الحشر : ١٠]

عباد الله :

﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾ [النحل : ٩٠]

وأقم الصلاة

★ ★ ★

(١) رواه مسلم والنسائى وأحمد .

تأملات في الهجرة

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص
رضي الله عنه

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .
وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ،
والسراج المنير .
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمدا وعلى آله وأصحابه والتابعين .
أما بعد :

فلا تزال بقايا من قصة الهجرة تحتاج الى تجلية ، ولا تزال عبر في هذا الحادث الضخم ، ينبغي أن نقف بإذائها حتى نصلح على ضوئها حاضرنا ، فنحن مازكر تاريخنا الماضي — قصصه وأحداثه — إلا لتقتبس منه أضواء تحدد لنا الهدف وتجنبنا الزلل .

أول ما نوجه النظر إليه في حادث الهجرة قانون السببية الذي تحدثنا عنه كثيرا ، إن هذا القانون فرض نفسه في الهجرة ، لم يقل النبي عليه الصلاة والسلام إنني ومن معي أودينا في الله طويلاً ، وقد أخرجنا من ديارنا كرهاً ، فعناية السماء يجب أن تلاحقنا ، ولا حرج من بعض التفريط أو بعض التواكل ، فإن الله يجبر الكسر ، ويكمل النقص ، لم يقل النبي عليه الصلاة والسلام شيئاً من هذا ، وإنما وضع الخطة كاملة ، كل ما يمكن أن يصنعه الإنسان العادي ليتجنب الاخطار ، وليبتعد عن مكاييد العدو فعله النبي عليه الصلاة والسلام .

ما ترك ثغرة ، ولا أبقى في خطته مكاناً يكمله الذكاء ، فعل ما في طوق البشر .

عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما سمع بالطاعون في الشام أى أن يدخل البلد الذى قصد أن يدخل إليه ، فقال له أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه : أتفر من قدر الله ؟ فعضب عمر غضبا شديداً ، وقال : يا أبا عبيدة : لو غيرك قالها!! أفر من قدر الله الى قدر الله !! أرأيت لو أن عندك قطع غنم فتركت المكان المجدب إلى المكان المخصب ألم تتركه بقدر الله إلى قدر الله ؟

هذا المعنى يشرحه حديث آخر ، فقد سئل رسول الله ﷺ : أرأيت أدوية نتداوى بها ، ورُقَى نسترقى بها ، وتُقَى نتقيها ، هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ قال : « هي من قدر الله » (١)

والرقية : دعاء المريض لنفسه بالشفاء أو تلاوته بعض سور القرآن للاستشفاء ببركتها كما صح من أن النبی علیه الصلاة والسلام « كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما » قل هو الله أحد « و » قل أعوذ برب الفلق « و » قل أعوذ برب الناس « ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات » (٢)

اتخاذ الأسباب اذن دين ، وهذا هو الذى جعل رسول الله ﷺ يفكر في الاختباء في الغار ، وفي تضليل أعدائه فكان يتجه جنوبا وهو يريد أن يتجه إلى الشمال ، وفي اتخاذ راحلتين قويتين مستريحتين حتى تتمكننا من السفر وتحمل وعشاء الطريق وطول المدة ، واتخاذ دليل مدرب حتى يعرف ما هنالك من وجوه الطرق والأماكن التى يمكن التعرّيج عليها بعيدا عن الأرصاد المبتوثة هنا وهناك ، وكيف يضل من يبحثون عنه ؟

قضية السببية قضية فرغ الإسلام منها ، قرر أنها حق . لكن موقف المؤمن والكافر من السبب يختلف بعد ذلك ، فالمؤمن بعد أن يتخذ الأسباب كاملة لا يعول عليها ، ولا يربط نفسه بها ، ولا يظن أنها هي التى تفعل أو

(١) رواه ابن ماجه في الطب : باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء ١١٣٧/٢ وأحمد ٤٢١/٣ والحاكم في الطب ٤٠٢/٤ .

(٢) رواه البخارى في فضائل القرآن : باب فضل المعوذات ٦٢/٩ والترمذى في الدعوات : باب ما جاء فيمن يقرأ من القرآن عند المقام تحفة الأحوذى ٣٤٧/٩ وأحمد ١١٦/٦ .

تترك ، بل يؤمن بأن الأمور بيد الله ، وأن النتائج تتم بقدره الله ، وأن هناك بأسباب أخرى ليست في يد الانسان ، الله جل شأنه هو الذى يوفرها ويكثرها لمن أراد أن ينجح قصده .

ولذلك قارن العلماء بين موقفين للنبي عليه الصلاة والسلام قالوا : فى الغار عندما أحس أقدام المطاردين تقترب ، وعندما بدأ أبو بكر رضى الله عنه يقلق ويشعر بالوجل ، كان النبي عليه الصلاة والسلام يسكن روعه ، ويبدد قلقه ويقول له : « ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما » (١)

قال العلماء : هذا الموقف يغير الموقف فى معركة « بدر » عندما أخذ النبي عليه الصلاة والسلام يتجه بقلبه ولبه إلى الله فى ضراعة حارة ، ودعاء متتابع ، واستغاثة موصولة ، يقول : « اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض !! » فمازال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه من منكبىه فأتاه أبو بكر .. وقال : يابى الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك » (٢) .

قال العلماء : ما السبب فى تفاوت الموقفين هنا وهناك ؟
وكان الجواب : أن النبى عليه الصلاة والسلام فى الغار كان قد اتخذ الأسباب كلها ، وأفرغ ما فى طاقته عملياً ، فاطمأن إلى أن الله هو الذى سيكفله وهو الذى سيحقق ما يصبو إليه من أمل فى إنجاح الهجرة وبلوغها غايتها .
أما فى « بدر » فإن الأسباب لما تكتمل من ناحية ، وربما تعلقت الهمة بها ، وعولت عليها ، وانتظرت النصر منها ، فأراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يتجرد من هذه الأسباب ، من الجيش الذى خرج إلى القتال ، من العدو أو العدة اللتين أحاطا به عليه الصلاة والسلام ، فكان دعاؤه ، وكانت استغاثته ، وكانت ضراسته ، وكان استنصاره بالله جل جلاله .

الفارق بين المؤمن والكافر كلاهما يأخذ بالسبب ، أما نحن المؤمنون فإننا نرى أن الأسباب أدوات للقدره العليا ، ومفاتيح لخزائن الرحمة الإلهية ، وأن أى شىء انقطع عنه الإمداد الأعلى فإنه لا يصنع شيئاً ،

(١) رواه البخارى فى فضائل الصحابة : باب مناقب المهاجرين ٨/٧ فى فضائل الصحابة — باب من فضائل أبى بكر الصديق رضى الله عنه وأحمد ٤/١ .

(٢) رواه الترمذى فى التفسير : تفسير سورة الأنفال ٤٦٩/٨ وأحمد ١٠/١ .

ويتوقف في مكانه . أظن الأرض وهي تدور حول نفسها لا تتخلف دقيقة عن ميعادها في شروق أو غروب ، أليها ساعة تضبط بها الوقت ؟

أترى وهي تدور حول الشمس لديها أجنحة تطير بها ، أو مخزون من البترول أو الكهرباء يعينها على السرعة في جريها ؟ لا شيء ، انها قدرة الله هي التي تحرك الأسباب علوا وسفلا !! فإذا كان الإنسان يقوم بالسبب ثم ينتظر من رب العالمين أن يحقق النتيجة فتلك طبيعة علمية ما ينبغي أن يكابر امرؤ فيها .

المؤمن بأكل الخبز ثم يعلم أن استفادة جسمه من هذا الخبز ليس لأن في ذرات الدقيق عقلا يحولها إلى عظم وعصب وقوة وطاقة ، لا ، هذا كله صنع الله !!

أما المادى فيتصور أن هذه الأسباب تتحرك تلقائيا بذكاء في الدقيق أو بقدرة عقلية في الرغيف !!

هذا هو الفارق بين المؤمنين وغير المؤمنين .

أما الأسباب فاتخاذها دين .

مما نذكره في قصة الهجرة أن ما قبل الهجرة وما بعده سواء في قضية عرض الإسلام ، بعض الناس يقول — وقد أكد هذا مستشرقون ومبشرون وسماسة لهما — كانت الدعوة الإسلامية قبل الهجرة تعتمد على الاقناع المجرد ، وعلى التفكير الحر ، وعلى رفض الضغط في جعل الناس يعتنقون ما يشاءون من عقائد ، أما بعد الهجرة ، وبعد أن تماسك السيف في أيديهم فقد أخذوا يحكمون السيف ، ويتعدون عن منهج العقل !!

هذا كلام يحتاج إلى أن نناقشه ، صحيح أن الدعوة قبل الهجرة كانت تعتمد على الاقناع الحر ، وعلى المنطق العقلي الواعي ، وعلى ترك المعارضين يأخذون طريقهم كما استحبا لانفسهم . في سورة الانعام وهي مكية نقرأ قوله تعالى : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ﴾ [الأنعام : ١٠٤]

في سورة الكهف وهي مكية نقرأ قوله تعالى : ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ [الكهف : ٢٩]

خطب الغزالي - المجلد الثاني

في سورة يونس وهي مكية نقرأ قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَذَبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس

: ٤١] هذا منطق الاسلام في مكة فهل تغير هذا المنطق في المدينة ؟ الجواب على هذا يتقاضانا أن ننظر في الوحي الذي نزل في المدينة لنرى أترك المسلك الأول أم بقي إلى هذه الوجهة يسير دون أدنى تغيير ؟

نقرأ سورة البقرة وهي سورة مدنية ييقين ، فنجد فيها قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ [سورة البقرة : ١٣٩]

ونقرأ في نفس السورة قوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرِّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ... ﴾ [البقرة : ٢٥٦]

ونقرأ في نفس السورة قوله تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ١٠٩]

ونقرأ في سورة آل عمران ، وهي مدنية ييقين ، نقرأ قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأَمِينَ أَسْلَمْتُ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ٢٠]

ونقرأ في سورة النساء وهي مدنية ، نقرأ قول تعالى : ﴿ مَنْ يَطْعِ الرِّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴾ [النساء : ٨٠]

ونقرأ في السورة نفسها قوله تعالى : ﴿ .. فَإِنْ اعْتَزَلُواكُمْ فَلَاحِقَ الْأَمْرُ بِاللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ لِقَوْمٍ يُقَاتِلُونَ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٩٠]

ونقرأ في سورة المائدة ، وهي مدنية ، قوله تعالى : ﴿ مَا عَلَى الرِّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ [المائدة : ٩٩]

ونقرأ في السورة نفسها قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرِّسُولَ

واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ﴿ [المائدة : ٩٢]

ولا أريد أن أستعرض القرآن كله لأبين أن مكيه تمهيد لمدينه ، وأن مدينه تصديق لمكيه ، وأن مسلك الإسلام بعد الهجرة هو مسلكه قبل الهجرة ، وأنه الدين الذي اخترع في العالم الحرية الدينية ، وبسط رعايته على من يعارضونه فما أخرجهم ، ولا اضطهدهم ، ولا استذلهم ، ولا نال منهم قليلا ولا كثيرا !!

ولكن هناك من على أبصارهم وبصائرهم حجب يريدون أن يكذبوا ، وأن يزوروا التاريخ ، وأن يقولوا للناس كلاماً لا أصل له في تصور الإسلام وتصويره للأمور .

شيء آخر يتصل بالهجرة وهو قصة التشريع .

يشيع بين الناس أن ما بعد الهجرة كان عصر التشريع ، وأن ما قبل الهجرة كان عصر التمهيد ، هذا كلام مدخول ، ويحتاج إلى شيء من التوضيح .

فإن شرائع العقيدة كلها تمت قبل الهجرة ، وشرائع الأخلاق الفاضلة كلها تمت قبل الهجرة ، وأن العبادات من صلاة وزكاة تمت قبل الهجرة والحج معروف من شريعة إبراهيم ، وإذا كان فرض الصوم قد تأخر إلى ما بعد الهجرة فلا يقدح هذا في أن ما قبل الهجرة كان عصر تشريع لأهم ما تحتاج إليه الأمة في عقائدها وعباداتها .

الصلاة شرعت قبل الهجرة ، الزكاة شرعت قبل الهجرة ، أوائل سورة المؤمنون وهي سورة مكية ، تقول : ﴿ قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴾ [سورة المؤمنون ١ - ٦] .

كل هذا شرع قبل الهجرة ، بل كان تشريع الزكاة من أول ما عرف بعد الايمان بالله والصلاة مباشرة .

وسورة المدثر وهي من أول ما نزل ، نقرأ فيها قوله تعالى على لسان

المؤمنين وهم في نعيمهم يسائلون المجرمين :

﴿ ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب يوم الدين حتى أتانا اليقين ﴾ [سورة المدثر ٤٢ — ٤٧]

تشريع الخمر أغلب العلماء يرى أن الأمر الحاسم بترك الخمر كان في المدينة ويرى آخرون أن الخمر من أسمائها « الإثم » يقول الشاعر :

شربت الإثم حتى ضل عقلى * كذاك الإثم تذهب بالعقول
والدليل على تحريم الإثم — الخمر — في مكة قوله تعالى في سورة الأعراف
﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق ﴾ [سورة الأعراف ٣٣]

تشريع الربا ، صحيح أن آيات الربا من آخر ما نزل في سورة البقرة ، ومن آخر ما نزل في المدينة ، لكن تحريم الربا أشعر القرآن به في الوحي المكي النازل بمكة ، في سورة الروم نقراً قوله تعالى :

﴿ وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ [الروم : ٣٩]

المضعفون .. أى الذين يضاعفون ثوابهم ، ويكثرُونَ عند الله أجرهم .
فالعصر المكي كان عصر تشريع إلى جانب العصر المدني الذى أكمل التشريع ، وفرع في كثير من المسائل بعد استقرار المجتمع الإسلامى وتكون الدولة فيه .

مما ينبغى أن يعرف أيضا في الهجرة .. أن القرآن الذى نزل في مكة قبل الهجرة أو في المدينة بعد الهجرة سواء في إعجازه ، سواء في بلاغته ، سواء في التحدى به . نعم ، يقول بعض العلماء : إن بعض القرآن ثوابه في التلاوة أو فضله على غيره قد جاءت به نصوص ، مثلا ، قرأنا أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن (١) .

(١) قال رسول الله ﷺ : أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة ؟ فشق ذلك عليهم ، وقالوا إنيما يطيق ذلك يا رسول الله ، فقال « الله الواحد الصمد ثلث القرآن » رواه البخارى في فضائل القرآن ، باب فضل قل هو الله أحد ٢٣٣/٤ ومسلم في المسافرين .. باب فضل قراءة قل هو الله أحد ١٩٩/٢ .

قال العلماء : إنما تتفاضل السور بموضوعاتها ، فإذا كانت سورة تتحدث عن العقائد وأصول الدين فهي أكثر مثوبة عند الله ، وأكثر مكانة من آية تتحدث عن الموارد ، أو عن الزواج ، أو عن الطلاق ، فآية الكرسي تفضل غيرها ، لأن موضوع الحديث في الآية عن الله جل جلاله أما السور كلها مكها ومدنيها والآيات جميعاً التي تناولت العقائد أو العبادات أو الأخلاق أو المعاملات فهي كلها في طبقة رفيعة من البلاغة ، وفي أوج من الإعجاز تحدى الله به الإنس والجن لا فارق بين قرآن مكى أو قرآن مدني .

وقد قال المستشرقون — ومن بينهم مستشرق مجرى اسمه « جولد زيهر » قال : إن القرآن المدني أقل بلاغة من القرآن المكى !! وتبعه في هذا اللغو بعض الذين كانوا يدرسون في كلية الآداب ، وبقوا في أماكنهم ينشرون هذا الإلحاد ، بل حفظت لهم مناصبهم إلى أن ماتوا .

ونحن نريد أن نوجه النظر إلى أن الغزو الثقافي له تسلل وله مداخل ، وله سواتٍ ويجب أن نحتاط لديننا وعقائدنا من عدوان المستشرقين والمبشرين وسماسرتهم في هذا البلد .

وحديثنا المهم فيما يتصل بهذا الغزو في خطبتنا الثانية إن شاء الله . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ الذى يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ، ويستجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦]

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء ، وسيد المصلحين ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

عباد الله أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل .. واعلموا أيها المؤمنون أننا نواجه مستقبلاً يحتاج منا إلى اليقظة الكاملة ، والوعى الدقيق ، والبصر الفاحص المنقب لكل ما يراد بنا أو يبيت لنا ، والسبب فى هذا أن مصر هى طوعاً أو كرهاً دماغ الإسلام وقلبه ، وأن نجاح الإسلام فيها نجاح له فى العالم أجمع ، وأن ضياع الإسلام فيها ضياع له فى العالم أجمع ، بل الأمر ليس أمر ضياع ، وإنما الأمر أمر المكانة ، يوم يدحرج الإسلام من مكانته كدين أول ، وموجه أول ، وأساس أول لكل بناء خلقى وثقافى وتشريعى واجتماعى ، يوم يدحرج الإسلام من هذه المكانة لتكون له مكانة ثانوية أو ثالثة أو رابعة ، فمعنى هذه الدحرجة أن مستقبل الإسلام سيمضى إلى الغروب إن لم يكن اليوم فغداً وإن لم يكن غداً فبعد غد !! .

ولهذا فإن المحافظة على مكانة الإسلام كموجه أول فى كل شئ له أهمية فى بلدنا !! .

إن مكانة مصر ومكانة الإسلام فيها موضع دراسة ذكية لمن يكرهون هذا البلد ويتآمرون على مستقبله ، وقد شاء الله تعالى أن تقع حرب رمضان وأن تكون هذه الحرب نقلة بعيدة المدى ، ودعما سخاويا مباغتاً لهذه

الأوضاع في العالم العربى والعالم أجمع ، فإذا الايمان يعلن عن وجهه الصييح ، وحقيقته الحلوة ، وإذا الجيش الذى حمل عبء دعايات مرة ، ومواقف مصنوعة ، إذا هذا الجيش يزأر بكلمة التوحيد ويمشى تحت صدى التكبير الذى يملأ الأودية ، ويهز الآفاق ويصل الى غرضه .

أريد أن أقول : لقد أحرزنا نصراً مرحلياً بعد هزيمة سوداء صبغت الوجوه بالذل والعار ، أريد أن أسأل ما الذى أكسبنا هذا النصر الآن ؟ وما الذى أكسبنا الخزي والهزيمة من قبل ؟

التحقيق فى هذا أن أوضاع الأمة قبل سنة ١٩٦٧ كان يجب أن تنتهى بالهزيمة !! وأن أوضاع الأمة قبل معركة العاشر من رمضان كان معها الأمل فى جنب الله أن يضع خيراً فى الأيدي الممدودة له ، وأن يجعلها ترجع بما يبيض وجهها ويرفع رأسها .

قبل ١٩٦٧ كان هناك إذلال لطوائف كثيرة من هذه الأمة ، كان هناك حرب على الإسلام ، كانت هناك مساوءات لديننا ، كان هناك استبداد أعمى ، كانت هناك معتقلات مفتحة ، كان سجن كبير يعتبر الإسلام جريمة ، أما عندما دخلنا المعركة الأخيرة كانت أبواب الحرية قد بدأت تفتح رويدا رويدا ، صفيت المعتقلات ، عاد الجيش إلى كلمة التكبير فى تمريناته ، وكان ذلك لا يعرف له ، بدأت أمتنا ترجع إلى دينها دون قلق أو خوف ، كانت الخيانات التى كانت على مستوى عال بدأت تنزاح عن تاريخنا وعن صدرنا وعن مجتمعنا ، ولكن أيرضى هذا الذين صنعوا هزيمة ٦٧ ؟ لا ، لن يرضيهم هذا ، والذين صنعوا الهزيمة من كتاب خدموا الجبروت ، وتملقوا المستبدين ، وعاشوا يصنعون للأمة الإلحاد الذى يعميها عن الله ، أهؤلاء يرضون أن تنعم الأمة بالإيمان والحرية ، وأن تأخذ طريقاً جديداً يعود بها إلى الله ؟

لا ، إنهم لا يريدون هذا ، إنهم يريدون استئناف نفس الأوضاع التى كانت قبل سنة ٦٧ ، قد تسأل ما الذى يريدون استئنافه ولأقل بصراحة لقد فهمت أن الأصوات التى يجب أن تختفى لا تزال عالية وأن الذين صنعوا الهزيمة لا يزالون يريدون أن يصنعوها مرة أخرى لا أدري ، لقد استقدمت بعض

الصحف « بول سارتر » طاغية الوجودية وعموداً من أعمدة الكفر في فرنسا ، وجاءت معه بعشيقتة !! واقتحم الرجل النذل وعشيقتة القصر الجمهورى ، وكان ينبغى أن يحرم على رجل وعشيقتة ، لكن مراكز القوة وأسباب الشر كانت تريد أن تفرض على أمتنا الإلحاد ، والانحلال وأن مجيء رجل مع عشيقته أمر عادى .

والآن يستقدم من فرنسا زعيم للتحالف اليسارى الاشتراكى . ما حاجتنا إلى هؤلاء ؟ ما الذى نتلقاه من هؤلاء ؟ لكن الذين صنعوا هزيمة سنة ٦٧ يريدون أن يصنعوا هزيمة أخرى لبلدنا .

إن الذين قادوا معركة النصر هم المؤمنون ، ومنهم الحاج حافظ سلامة زعيم السويس غير منازع ، الرجل الذى رفض الاستسلام وخرج مع الجنود والمؤمنين من مسجد الشهداء فى السويس ، وقاتل حتى هزم اليهود ورددهم بعد أن أحرق دباباتهم . ورددهم خارج المدينة وجعلها مدينة محترمة صامدة .

هذا الرجل بقى فى المعتقل ستة وعشرين شهرا ، يذوق الذل ، حتى خرج أخيراً فى أيام الحرية وأدى واجبه ؟ لم يقل هذا الانسان أنا ما أدافع عن بلد ذقت فيه الذل ، لا ، ما قال هذا ، عهد الذل انتهى ، ينبغى أن ينتهى إلى الأبد ، إن أعداء الإسلام أصحاب حيلة ، وقد بدعوا الآن يفكرون كيف يعودون بالأمة إلى الشتات الذى كانت فيه ؟

ستسمع ألف كلمة إلا كلمة الإسلام ، ستقرأ قضايا كثيرة إلا قضايا الإسلام ، سترى أن ضيوفا يجيئون حمراً أو صفراً ، ولن يجاء برجل يمثل الإسلام !!

لم ؟ هؤلاء لم يرثوا مصر ، إن مصر التى شاء الله أن يكسر قيودها ، وأن يحرر أرضها ، ينبغى أن يعلم الناس الآن أن هذا التراب حرام على الأصوات التى خدمت الجيروت ، وبقيت فى كنف الذل تهتف له وتبشر به ؟

ليس هؤلاء قادتنا ، إن قادتنا هم الذين حملوا راية الإيمان وبكوا من خشية الله ، وبشروا بالحق ، وبقوا إلى جانب الكتاب والسنة .

إننا نريد أن تصحو هذه الأمة ، إن الأمة التي تنسى ولا تذكر لا تستحق البقاء .

وقديما قيل في مصر :

نُسيت روعته في بلد كل شيء فيه يُنسى بعد حين .

ونحن اذا كنا ننسى كل شيء بعد حين فلا نصلح للبقاء .

ينبغي أن نعرف أن الإيمان أساس نهضتنا ، وأن الإسلام سياج عزنا ، وأن راية الحق هي التي ينبغي أن ترفرف علينا ، وأن الذين خدموا الإلحاد ، وجاءوا بزعمائه من أوربا رجالا أو نساء ، أو الذين يريدون تعكير صفونا وتوسيع فكرنا ، وجعل حياتنا تعتمد على مصادر من الخارج هذا كله غثاء ولغو ، نحن ينبغي أن نبني على قواعدنا ، وأن ننطلق من مبادئنا ، وأن نتجه إلى غاياتنا وأهدافنا .

نحن أغنياء عن « بول سارتر » ، وعن « ميثران » وعن بقية أولئك الذين عاشوا في الغرب يحرسون ضلاله .

وأنا أعلم وغيرى يعلم أن سارتر جاء هنا وبعد يوم كان في إسرائيل !
وأنا أعلم وغيرى يعلم أن زائر مصر الحالي صديق لإسرائيل وصديق لزعيمة إسرائيل !

فما الذي يجعل أمتنا تتسول الرجال والثقافات على هذا النحو الأعمى !

لكن هي طبيعة القوم ، هي طبيعة العصابة التي تأمرت على مستقبل بلدنا من أمد غير طويل .

إننا بحاجة ملحة إلى أن نعرف الإيمان ورايته ، ولا نمشي إلا تحت هذه الراية حتى نصل إلى غايتنا أن شاء الله .

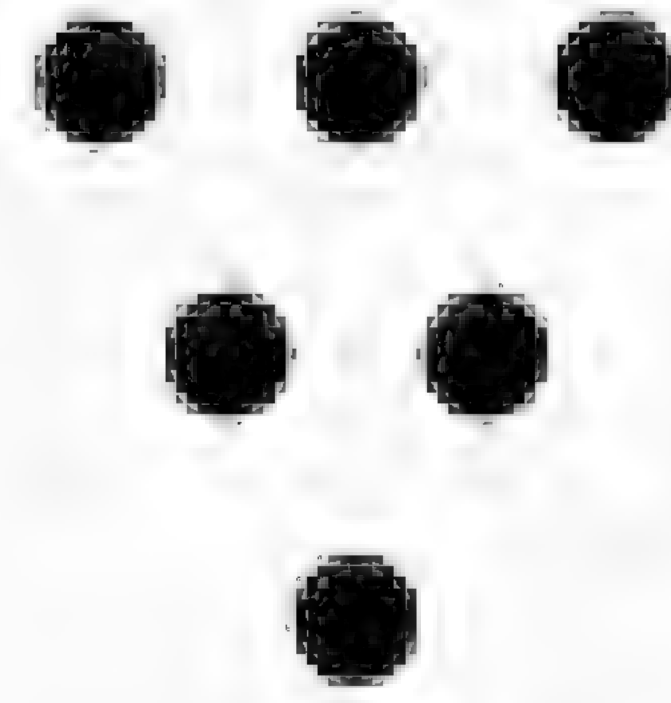
« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا
التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا واجعل الحياة زيادة
لنا في كل خير واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١)

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في
قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠]

عباد الله

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠]

أقم الصلاة



(١) رواه مسلم والنسائي وأحمد .

كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

١٤٠١ هـ - ١٩٨٠ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، هو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، السراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه التابعين .

أما بعد :

فقد قال ربنا تبارك اسمه وصفاً للكتاب العزيز : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهdy به من يشاء ومن يضل الله فماله من هاد ﴾ [الزمر : ٢٣] .

معنى أن القرآن متشابه في هذه الآية : أن معانيه متماثلة على كثرة السور ، وأن المحاور التي يدور عليها متقاربة وإن تعددت الآيات وطالت .

وليس معنى التشابه هنا ما يقابل المحكم في قوله تعالى : ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾ [آل عمران : ٧] .

المقصود بالمتشابه في آية سورة الزمر : أن معاني القرآن الكريم على كثرتها تدور على مبادئ معروفة محدودة ، وأغراض معينة واضحة ، ولذلك فإن في الإمكان القول بأنها متشابهة .

وأظننا في الجمعة السابقة أوضحنا أن القرآن الكريم دارت آياته الكثيرة على أربعة معان :

أولا : وصف القرآن الكريم للكون ، وحديثه عن المادة وآفاقها وقواها وأسرارها .

ثانيا : تاريخ الماضين وسرد قصصهم .

ثالثا : اليوم الحاضر وما فيه من تكاليف ، وما يقع على الناس من أعباء .

رابعا : مشاهد القيامة وما إلى ذلك مما يتصل بالحساب من ثواب وعقاب .

معنى المثاني : الإزدواج في الجمع بين أمرين ، فالقرآن الكريم في تربيته للنفوس وفي توجيهه للأمم يجمع بين مصلحتي الروح والجسد ، بين منطقي الفكر والعاطفة ، بين مصلحتي المعاش والمعاد ، بين الوعد والوعيد ، بين الرغبة والرغبة .

قلت : إننا في هذا الشهر نتحدث في السيرة الشريفة ، في النبوة الخاتمة وصاحبها عليه الصلاة والسلام ، وقد بدأت بالحديث عن القرآن لأن نبينا عليه الصلاة والسلام كان قرآنا حيا في مسلكه ، في خلقه ، في شمائله ، في عبادته ، في جهاده ، في حربه ، في سلمه ، في سفره ، في إقامته ، في انتصاره ، في انهزامه ، في صحته ، في مرضه ، في خلوته ، في جلوته ، في شؤنه كلها .

صَحَّ عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت للسائل : أليست تقرأ القرآن ؟ قال : بلى ، قالت : فإن مخلق نبي الله ﷺ كان القرآن (١) .

المعنى الذي شاع لهذا الحديث أنه ما من خير جاء في القرآن أو بر أو فضل أو محمداً إلا والنبي عليه الصلاة والسلام قد تخلق بذلك ، وظهر به ، واصطبغت نفسه بحقيقته ، وما من شر أو مردول من السلوك والعمل حذر

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين — باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه ١٦٨/٢ ، ١٦٩ .

القرآن منه ونهى عنه إلا ابتعد النبي عليه الصلاة والسلام عنه وكان أبعد ما يكون عن اقترافه أو القرب منه .

هذا هو المعنى الشائع للحديث ، كأن الحديث يجعل دائرة القرآن في شمائل النبي وسيرته لا تتعدى الأخلاق .

في تأمل السيرة وفي تأمل آفاق النبوة وجدت أن الحديث يمكن أن يكون أوسع دائرة وأرحب آفاقا ، يمكن أن يكون المعنى المقصود أن النبي ﷺ كان قرآنيا في حياته كلها .

كيف كان قرآنيا في حياته كلها ؟

ذكرت لكم أن القرآن الكريم — في العنصر الأول فيه — عرّف رب العالمين عن طريق آثاره في الكون وإبداعه في الخلق ، فهو يعرف الله جلّ جلاله فيقول :

﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾ [الروم : ٤٨] .

﴿ الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ [غافر : ٦١] .

﴿ الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء، وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾ [غافر : ٦٤] .

﴿ الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع وتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ [غافر : ٧٩ ، ٨٠] .

فهنا نجد أن الوصف لله سبحانه وتعالى هو بتوجيه الأنظار إلى أسمائه الحسنى وصفاته العليا في كتاب الكون المفتوح وفي هذا العالم الذي يسر لنا كل ما فيه وسخرت لنا سماواته وأرضه .

كان النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الجانب من القرآن شديد الحس

بالوجود الإلهي ، ومعنى « خلقه القرآن..» في هذه الناحية : أنه ما ينظر إلى شيء إلا ويرى الوجود الأعلى مسيطرا عليه ، نافذا فيه ، واضحا من خلاله ، يتضح هذا في ذكره لله واستشعاره مجده ونعمه ووجوده .

فالله جل شأنه في كل شيء زمانا ومكانا ، وقبل أن نشرح الزمان والمكان أجيء بآية من سورة الأنعام تقول : ﴿ قل لمن ما في السموات والأرض قل لله ﴾ [الأنعام : ١٢] .

فهذه الآية تتحدث عن المكان ، والآية التي بعدها تتحدث عن الزمان ، قال تعالى : ﴿ وله ما سكن في الليل والنهار ، وهو السميع العليم ﴾ [الأنعام : ١٣] .

ملاحظة هذه المعاني زمانا ومكانا كانت تظهر في حياته عليه الصلاة والسلام نوعا من التسبيح والتحميد والتمجيد والذكر والشكر لم يعرف مثله في حياة بشر آخر ، كان إذا أصبح قال :

« أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله لا شريك له لا إله إلا هو وإليه النشور » (١) .

« أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص وسنة نبينا محمد ﷺ وملة أبينا إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين » (٢) .

« اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر » (٣) .

(١) تمة الدعاء : « وإذا أمسي قال : أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله لا شريك له لا إله إلا هو وإليه المصير » رواه البزار وإسناده جيد . كذا في مجمع الزوائد ١٠/١١٤ .

(٢) رواه أحمد في المسند ٤٠٦/٣ ، ١٢٣/٥ والدارمي في الاستئذان — باب ما يقول إذا أصبح ٣٧٨/٢ والنسائي في عمل اليوم والليلة — ذكر ما كان النبي ﷺ يقوله إذا أصبح ص — ١٣٣ والطبراني في الكبير — في الدعاء . وقال في صحيح الجامع (٤٦٧٤) : صحيح .

(٣) رواه أبو داود في الأدب — باب ما يقول إذا أصبح ٤١٣/١٤ والنسائي في عمل اليوم والليلة ص ١٣٧ وابن حبان وصححه (موارد الظمان رقم ٢٣٦١) وابن السني رقم ٤١ والبيهقي في الشعب . وقال النووي في الأذكار : ٧٤ : إسناده جيد .

وكان يحمد ربه قائلا :

« يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك » (١) .

إلى آخر هذه التسييحات والتحميدات التي لهج بها لسانه ، وعمر بها جناته ، وتحركت بها عواطفه ، وتركها في تراثه نورا يقود الناس إلى ربهم ويربطهم به أوثق رباط .

كان في شعوره بهيمنة الله على الكون ينظر إلى القريب والبعيد فلا يرى إلا قدرة الله وجلاله ، ينظر إلى الهلال وقد بدا فيقول :

« اللهم أهله علينا باليمن والإيمان والسلامة والإسلام ربي وربك الله » (٢) .

كان إذا نزل المطر حسر (٣) ثوبه حتى أصابه من المطر ، فإذا سئل قال :

« لأنه حديث عهد بربه تعالى » (٤) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان النبي ﷺ إذا عصفت الريح قال : اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به ، وإذا تخيلت (٥)

(١) رواه ابن ماجه في الأدب — باب فضل الحامدين ١٢٤٩/٢ وفي إسناده قدامة بن إبراهيم ، ذكره ابن حبان في الثقات ، وصدقة بن بشير ، لم أر من جرحه ولا من وثقه ، وباقي رجال الإسناد ثقات . كذا في الزوائد .

(٢) رواه الترمذي في الدعوات — باب ما يقول عند رؤيه الهلال . وقال : هذا حديث حسن غريب ٤١٣/٩ ، ٤١٤ وأحمد في المسند ١٦٢/١ والدارمي في الصوم — باب ما يقال عند رؤيه الهلال ٧/٢ والحاكم وابن حبان وزاد : و « التوفيق لما تحب وترضى » . وقال في صحيح الجامع (٤٧٢٦) : حسن .

(٣) أي كشف بعض بدنه .

(٤) رواه مسلم في صلاة الاستسقاء — باب الدعاء في الاستسقاء ٢٦/٣ ومعنى حديث عهد بربه : أي بتكوين ربه إياه ومعناه أن المطر رحمة وهي قربة العهد بخلق الله تعالى لها فيتبرك بها .

(٥) تخيلت السماء : أي تغيمت وتغيأت للمطر .

السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر ، فإذا مطرت سرى عنه
فعرفت ذلك في وجهه قالت عائشة : فسأله ، فقال : لعله يا عائشة كما
قال قوم عاد : فلما رأوه عارضا مستقبلا أوديتهم قالوا هذا عارض
مطرنا « (١) .

كان إذا رأى قرية يريد دخولها قال :

« اللهم ربّ السموات السبع وما أظللن ، وربّ الأرضين السبع
وما أقللن ، وربّ الشياطين وما أضللن ، وربّ الرياح وما ذرين فإننا
نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها
وشر ما فيها » (٢) .

هذا هو تجاوب النبي مع ما في القرآن من وصف للكون .

النظر العادي يرى الشمس تطلع ويراهها تغيب ، يرى الريح تعصف
ويراهها ترقد فلا يهتز .

أما نبينا عليه الصلاة والسلام فقلبه مرتبط بمن سخر الشمس والقمر ،
وبمن شق الأرض عن النبات ، وبمن أدار القمر هلالا ثم عاد كالعرجون
القديم ، إلى آخر ما في ذلك من مظاهر الكون .

كان ارتباطه بالقرآن تطبيقا ، هو يقرأ القرآن وشعوره وهو يقرأ أنه مع
الكون ، يعرف رب الكون من خلال صفحات هذا الكون الكبير .

هذه ناحية ، وهى معرفة الكون وأسراره وآثاره جلّ جلاله فى ملكوته
الضخم ، وتجاوب النبي ﷺ معه .

(١) رواه البخارى فى بدء الخلق — باب ما جاء فى قوله : ﴿ وهو الذى أرسل الرياح بشراً

بين يدي رحمة ﴾ ١٣٢/٤ ومسلم فى صلاة الاستسقاء — باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم والفرح
بالمطر ٢٦/٣ .

(٢) رواه النسائى فى عمل اليوم والليلة : ٣٦٨ وابن خزيمة وابن حبان (موارد الظمان
٢٣٧٧) والحاكم ١٠٠/٢ وقال : صحيح الإسناد ٤٤٦/١ وابن السنى رقم ٥٢٩ والبيهقى فى
السنن ٢٥٢/٥ .

الناحية الثانية : تاريخ الماضين وسرد قصصهم ، تاريخ الحياة ، تاريخ الناس منذ ظهوروا على ظهر هذا الكوكب وبدأ نشاطهم يملاً الأرجاء ، إن هذا التاريخ يصور مدنيات ظهرت وبادت ، وقرى عمرت بالإيمان وبالفجور ثم حصدت وعادت إلى ربها ليسألها عما قدمت وأخرت ، هذا التاريخ يحكيه القرآن الكريم ليعيش نبينا ﷺ وهو يتلاقى معه .

في سورة الأنعام نقراً قوله تعالى — وهو يصف عمل المرسلين بين الناس — : ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا يمسه العذاب بما كانوا يفسقون ﴾ [الأنعام : ٤٨ ، ٤٩] ثم يجرى رب العالمين على لسان نبيه ﷺ هذا الكلام : ﴿ قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلى قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون . وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلمهم يتقون ﴾ [الأنعام : ٥٠ ، ٥١] ثم يقول الله له بعد جدال مع المشركين : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ [الأنعام : ٥٢] .

هذا كلام يوجه به النبي ﷺ وهو يتعامل مع المشركين في مكة ، لكن لا جديد تحت الشمس ، وما يقع له في مكة وقع مثله لأول المرسلين نوح ، قال تعالى : ﴿ .. وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون . ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون . ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما فى أنفسهم إني إذا لمن الظالمين . قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين . ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون . أم يقولون افتراه قل إن

افتريته فعلى إجرامى وأنا برىء مما تجرمون . وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن
من قومك إلا من قد آمن فلا تبشس بما كانوا يفعلون ﴿ [هود : ٢٩ —
٣٦] .

القصة واحدة ، والقضية واحدة ، والتلاقى بين الموضوعين ظاهر ، إلا
أننا نجد القرآن الكريم وهو يذكر قصة نوح قبل الطوفان يتجاوز العصور
الطويلة بعد الطوفان إلى عهد البعثة المحمدية ، ثم فى أثناء سرد قصة نوح
تجىء آية : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ وهى كلام عن موقف المشركين فى
مكة مع النبى الخاتم ﷺ وهو يؤسس عقيدة التوحيد ويطارد خرافات
الوثنية ، تجىء هذه الآية — أثناء الحديث عن نوح — فتنقل الماضى كله إلى
حاضر الناس وتنقله إلى يومنا هذا ، وهى تشير إلى أن الإنسان الكبير الذى
كان خلقه القرآن كان فعلا يعيش مع ماضى الإنسانية ومع حاضرها ، وأن
موقفه ممن كذبوه وآذوه وتربصوا به هو موقف الأنبياء من قبل ، وأن
النتيجة واحدة ، ولذلك قال الله فى آخر السورة : ﴿ وكلاً نقص عليك
من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى
للمؤمنين . وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون .
وانظروا إنا منتظرون . والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر
كله فاعبدوه وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ [هود :
١٢٠ — ١٢٣] .

كان خلقه القرآن ، كان مع القرآن فى وصفه للكون ، كان مع رب
الكون وهو يبدى مظاهر قدرته وحكمته فى العالم الذى نعيش فيه .

كان خلقه القرآن ، كان مع القرآن فى سرده قصص الأولين ، وفى
عرضه لما أصاب أولئك الأولين من خير أو شر ، من نصر أو هزيمة ، من
عقاب أو عفو ، كان مع هذا التاريخ يعيش فيه ويبقى معه .

فهو قرآن يتحرك ، لأنه مع القرآن فى وصفه لله عن طريق التدبر فى
آفاق الملكوت ، ومع القرآن الكريم فى وصفه لفعل الله بخلقته وهو يحكى
التاريخ القديم ، وما تضمن من قصص يجب أن نلتفت إليها وأن نستفيد
منها ، فإن قصص الأولين ليست مقطوعة عن حاضر العالم .

من علماء المادة من اعتبر الزمن بعداً رابعاً مع الطول والعرض والعمق ، ونظرية النسبية تشير إلى هذا ، وقد كتب أحد الأطباء في كتاب « الإنسان ذلك المجهول » (١) ما يؤكد هذه الحقيقة .

وقد أشار بعض المفسرين عندنا إلى أن الزمن بعد رابع في حياتنا ، لأننا نحىء بعد أسلافنا ، ونحن نحمل رسالتهم ، ونتبنى قضاياهم ، ونسير إلى أهدافهم ، ونقر ما فعلوا ، وندافع عنه ، فنحن مسئولون عما قدموا وأخروا .

وهذا صحيح ، وبهذا فسر العلماء قوله تعالى لبنى إسرائيل في المدينة : ﴿ وَإِذْ نَحْنُكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ . وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْحَنَّاكُمْ وَأُغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ [البقرة : ٤٩ ، ٥٠] .

بعض الناس يقول : ما لليهود في المدينة والنجاة من فرعون وأهله ؟! الصلة مقطوعة .

لا ، الصلة قائمة ، ما داموا يتبنون عقائد آبائهم ، ويسيرون وفقها ، ويدافعون عنها ، وينشرون حضارتها ، فهم مسئولون ومؤخذون .

والواقع أن الإنسانية تشبه رجلاً في الخمسين أو الستين من عمره ، إنه يجب أن يتذكر ماضيه ، فهو مسئول عما كان في شبابه وما فرط منه في أيامه الأولى ، وينبغي أن يعتبر بما كان منه .

ولذلك فإن قصص القرآن الكريم — في الحقيقة — إنما يشير إلى هذا البعد الرابع في كيان الأمم وفي شخصيتها عندما يحكى القرآن لنا ما كان ، لأن ما كان ليس غريباً علينا ، إنه يعيننا أتم العناية ، فيجب أن نكثر به ، وأن نلتفت إليه ، وأن نستفيد منه ، والرجل العظيم القرآني النزعة الذي حمل هذا القرآن كان يمثل هذه المعاني .

المعنى الثالث : اليوم الحاضر وما فيه من تكاليف .

(١) الدكتور ألكسيس كاريل : الإنسان ذلك المجهول : ١٨٥ ، ١٨٦ ط مكتبة المعارف —

بيروت .

إن القرآن الكريم يأمر وينهى ، يعلم ويرى ، يعظ ويذكر ، لنسير وفق
مراد الله لنا ، ووفق ما خط لمحيانا على ظهر الأرض ، ورب العالمين
لا يستفيد من طاعات الناس شيئا ، ولا يضره من معاصي الناس شيئا ، إنما
يفعل ذلك لمصالح العباد أنفسهم : ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم
قالوا خيرا للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم
دار المتقين ﴾ [النحل : ٣٠] .

والواقع أن الناس — الآن وقبل الآن — قسمان :
قسم يريد أن يحيا وفق هواه ، ما يتجه بتوجيه الله له ، إنما يريد أن
ينبعث من رغباته ومن شهواته ومن أهوائه وآرائه لا يبالي بشيء .
وقسم يستمع إلى هدايات الله ويرى أن فيها مصلحته ورحمته ، وأن
من الحكمة أن يعيش وفق الخط الذي أمره الله أن يستقيم عليه .
حاضر الناس أو ما هم عليه في معتقداتهم وفي أعمالهم وفي أحوالهم
كلها كان نبينا عليه الصلاة والسلام صورة جيدة له ، فهو فيما يصيبه من
خير أو شر يرى أصابع القدر في كل شيء ، هناك ناس — كما وصف
الله — : ﴿ فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه
خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾ [الحج : ١١] .

رأينا نبينا عليه الصلاة والسلام في أشد الساعات تعباً له يستقيم لقدر
الله ، ويرجو من الله الرضا . في هزيمة « أحد » كان المصاب شديداً ،
وكان الجرح عميقاً ، وكان الألم مستولياً على المؤمنين غماً بغم ، ومع ذلك
فإن النبي عليه الصلاة والسلام في أعقاب المعركة قال لأصحابه : « استووا
حتى أثنى على ربي » !!

المتنبى لما أغضبه سيف الدولة قال :
فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللاتي سررن ألوف (٢)

(١) رواه أحمد في المسند ٢٢٤/٣ والحاكم ٥٠٧/١ ، ٢٣/٣ ، ٢٤ وقال : صحيح على شرط
الشيخين . وقال الألباني : إنما هو صحيح فقط فإن فيه عيب بن رفاعه ولم يخرج له الشيخان .
(٢) ديوانه ٤٦٧/١ .

نحن نكبر نبينا عليه الصلاة والسلام عن أن نضرب له مثلاً من موقف شاعر مع ممدوحه ، ولكننا نضرب مثلاً صغيراً ليعلم الناس أن الموصولين بالله يشغلهم ما يحسون به من رفد الله ومجده ، وما يشغلهم من تسيبته وحده ، إن ذلك كله يخفف من آلام الحياة إذا أحاطت بهم ، بل لعل ما يشغلهم أولاً وآخرأ هو إرضاء الله .

في غزوة « الخندق » ظل القتال أمداً غريباً حتى ذهب العصر فكان حزن النبي ﷺ عليها شديداً وقال : « ملأ الله يومهم وقبورهم ناراً شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس » (١) !

المعنى الرابع : اليوم الآخر وما يتصل به .

اليوم الآخر ذكر في القرآن وفي السنة كثيراً ، والموت ذكر في القرآن وفي السنة كثيراً ، وينبغي أن يعرف شيء في هذه النواحي ، لماذا ؟ لأن الناس تظن أن الدين هدم للدنيا ، أو أن الدين يبنى الآخرة على أنقاض الأولى ، أو أن المتدينين نظرتهم تشاؤمية انسحابية ، هكذا يتصور الناس الدين ، وهذا غير صحيح .

الواقع أن السبب في كثرة كلام الله جل جلاله عن الدار الآخرة هو كسر غرور الناس بالدنيا ، فإن انشغال الناس بحاضرهم واحتباسهم في آلامهم وآمالهم الحاضرة يكاد يذهلهم ذهولاً مطلقاً عن اليوم الذي ينتظرهم ، فيريد الله أن يبين لأي إنسان ليستطيع في لحظة أن ينتقل من صحراء الجزيرة إلى أنهار النعيم في لحظة شهادة !! لحظة وحيدة سريعة تنقله من دار ليس فيها إلا الشظف إلى دار أخرى فيها النعيم المقيم والرحيق المختوم !!

هذا نوع من المعادلة ، في علم الطبيعة يقولون : إن ذراع المقاومة مع المقاومة يعادل ذراع القوة مع القوة .

(١) رواه البخاري في الجهاد — باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة ٥٢/٤ — ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة — باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر ١١١/٢ .

فالتعادل لا بد منه ، لكي يكون هناك توازن ، والناس يفقدون توازنهم عندما يعبدون الأولى وينسون الآخرة ، فلا بد من إعادة التوازن ، ولو أن إنساناً أثر الآخرة ونسى الأولى لكان مخطئاً ، فإنه ما يستطيع أن يكون آخرته إلا من نجاحه في دنياه ، وما يستطيع أن ينصر دينه إلا بامتلاكه للدنيا وفهمه لقوانينها وتسخير هذا الفهم أو الملك لنصرة الحق وتأييده ، مابد من هذا ، وعلى ضوء ذلك نفهم قول الرسول ﷺ : « إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها » (١) .

لماذا يغرسها والآخرة تقوم ؟

لأن الغرس طلب للآخرة ، لأن الغرس عبادة تضمن الآخرة ، لأن الغرس يغني المؤمنين عن مدّ أيديهم إلى طلب معونة الكافرين ، لأن الغرس هنا ضمان للأولى ، ثم مع الإيمان تسخير لهذه الضمانات في إعزاز المؤمنين وإعفافهم .

وكان نبينا عليه الصلاة والسلام إذا قرأ القرآن يقرأ مترسلاً إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبح ، وإذا مرَّ بسؤال سأل ، وإذا مرَّ بتعوذ بتعوذ (٢) .

وروي أنه كان في الصلاة يوماً فتأخر فسئل بعد ذلك فقال : « لقد رأيت في مقامي هذا كل شيء وعدته ، حتى لقد رأيتني أريد أن آخذ قطعاً من الجنة حين رأيتموني جعلت أتقدم ، ولقد رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً حين رأيتموني تأخرت » (٣) !!

هذا إحساس إنسان الروحانية الفؤارة تغلب على شخصيته أحيانا فتكاد تسلخه عن الإهاب الآدمي ليرى مالا يستطيع الآخرون أن يروه ، وهو نبي ملهم وإنسان يحدث من السماء !!

(١) رواه أحمد في المسند ١٨٤/٣ ، ١٩١ والبخاري في الأدب المفرد — باب اصطناع المال ص ٦٩ وعبد بن حميد . وقال في صحيح الجامع (١٤٢٤) : صحيح . وقال في فيض القدير : ورواه أيضا البزار والطيالسي والديلمي . قال الهيثمي : ورجاله ثقات وأثبات .

(٢) جزء من حديث طويل رواه مسلم في صلاة المسافرين — باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل ١٨٦/٢ .

(٣) رواه البخاري في كتاب العمل في الصلاة — باب إذا انفلتت الدابة في الصلاة ٨٢/٢ ومسلم في صلاة الكسوف — باب صلاة الكسوف ٢٨/٣ .

هذا في نظري معنى « كان خلقه القرآن » .

معنى كان خلقه القرآن : أنه — في حياته على ظهر الأرض وبين آفاقها وأرجائها وتحت السماء الرحبة ، ومع تاريخ الحياة والأحياء على امتداده الطويل ، وفي زحام الأحياء الذى يلهى بمشاغله ومتاعبه ، وفي هذه النهايات التى تنتظرها حصداً لحياتنا على ظهر الأرض — كان يتجاوب مع القرآن الكريم !!

القرآن كتاب مشحون بفنون من الثقافات التى تتصل بالظاهر والباطن ، واليوم والغد ، والدنيا والآخرة ، والأخلاق والمسالك ، والنيات والظواهر .

إن هذا القرآن إذا تجاوب إنسان معه صاغه صياغة جديدة في أحواله كلها ، ثم يمشى المؤمنون بعد ذلك على منهج نبيهم ﷺ وقد أجرى الله على لسانه : ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ [الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣] .

هذه هى النبوة الخاتمة ، وتلك صلتها بالقرآن فى معانيه التى تتشابه أو التى تزدوج .

هذا هو كتابنا الذى يجمع بين التربية والتعليم ، بين الرغبة والرغبة ، بين الوعد والوعيد ، بين الخوف والرجاء ، بين الدنيا والآخرة ، بين الروح والجسد ، بين العقل والعاطفة ، هذا الكتاب الذى تشابهت معانيه وهو يصف ملكوت الله وحياة الأولين ومستقبل الآخرين .

هذا الكتاب كله تجسد سلوكا وجهادا ، عبادة وقيادة ، تشريعا ومعاملة وسياسة فى مسلك النبي الخاتم ﷺ ، فكان بهذا قديرا على تغيير الدنيا إلى وضع آخر وإلى وجهة أخرى .

وجدير بأتباعه إذا اعتنقوا القرآن وفهموه وتثقفوا منه وعاشوا فى وجوده أن يقوموا بتلك الرسالة وأن يؤدوا ما عليهم لله .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمدا رسول الله إمام النبيين وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فهذا تقويم السنة الميلادية المقبلة ، وجدت دسًّا فيه وإهانة لديننا وافتياتا على نبينا ﷺ ، وأنا لا أريد شيئا أكثر من الدفاع وإلقاء شعاع من الضوء على ما فى هذا من غش .

هذا التقويم الذى أصدرته مؤسسة الأهرام التجارية — وأظنها تتبع القطاع العام — فى ٢٨ صفر سنة ١٤٠١هـ أو فى ٤ يناير سنة ١٩٨١م كتبت فى ظهر الورقة الأولى ما يأتى :

قال محمد ﷺ : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » (١) .

وقال المسيح عليه السلام : « أحبوا أعداءكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، باركوا لاعنيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم » (٢) .

هذا كلام يحتاج إلى تعليق هادىء ، فأما حديث : « انصر أخاك

(١) نص الحديث : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » فقال رجل يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوما أفرأيت إذا كان ظالما كيف أنصره ؟ قال : تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره » رواه البخارى فى الإكراه — باب يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه ٢٨/٩ ، ٢٩ .

(٢) انجيل لوقا — الإصحاح السادس .

ظالما أو مظلوما « فتتمته ما يأتى : « قال رجل يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوما أفرأيت إذا كان ظالما كيف أنصره ؟ قال : تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره » .

هذا معنى الحديث فجاء الكاتب وأخذ الجزء الأول ، كما يجيء إنسان ويقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة » !!

وأي « وأنتم سكارى ؟

المهم : لا تقربوا الصلاة !!

وبعد أن بتر الحديث وأفهم الناس أن محمدا ﷺ رجل يقول لأتباعه : انضم إلى أخيك معتديا أو معتدى عليه ، قال عن المسيح إنه قال : « أحبوا أعداءكم ، أحسنوا إلى مبغضيك ، باركوا لاعنيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم » .

أما أن المسيح قال هذا فليس بكثير على نبي التسامح والمحبة أن يقول هذا ، ولكنه أيضا قال كلاما آخر ، ففي الإصحاح العاشر من إنجيل : « متى » يقول : « لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاما على الأرض ، ما جئت لألقى سلاما بل سيفا » !!

وفي الإصحاح الثانى عشر من إنجيل « لوقا » يقول : « جئت لألقى النار على الأرض » !!

صاحب مؤسسة الأهرام التجارية أراد أن يوهم الناس فاختر حديثا وبتره على طريقة :

ما قال ربك ويل للألى سكرؤا بل قال ربك ويل للمصلينا

منطق السكارى والحشاشين ينتقل إلى مؤسسة الأهرام التجارية فتقول : محمد يأمر الناس بأن ينضموا إلى إخوانهم ظالمين ومظلومين .

هذه واحدة ، فى ٦ يناير و ٧ يناير وهو ميلاد السيد المسيح عند الأقباط جاء الكاتب بأبيات لأحمد شوقى :

وُلد الرفق يوم مولد عيسى والمروءات والهدى والحياء
وازدهى الكون بالوليد وضاءت بسناه من الثرى الأرجاء
وسرت آية المسيح كما به رى من الفجر فى الوجود الضياء (١)

هذا كلام صحيح ، ونحن نؤيده ، فإذا أردت أن تتحدث عن ميلاد
محمد ﷺ بعد أن تحدثت عن ميلاد عيسى ﷺ فماذا تقول ؟
كان يمكن أن تنقل عن شوقي ، نقلت له أبياتا فى مدح عيسى عليه
الصلاة والسلام انقل من شوقي البيت الأول — حتى — من الحمزية :
وُلد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء (٢)
لا ، لم يقل هذا ، بل قال ما يأتى :

فى يوم الاثنين الموافق ٢٣ إبريل سنة ٥٧١م كان مولده — مولد من ؟
الحقد طفع ، ما قدر أن يقول : مولد محمد — كان مولده فى بيت أمه
السيدة آمنة بنت وهب بعد وفاة أبيه عبد الله بن عبد المطلب ، فى هذا اليوم
الثانى عشر من ربيع الأول يحتفل المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها
بمولده ﷺ .

هذا هو الذى قيل ، نحن نغفو وندعو للعفو ، لكن نقول للدولة : من
أخطأ يؤدب ، ولا ينبغى أن يترك مبشر يشتغل بمنطق السكارى أو منطق
الحشاشين ليتناول صاحب الرسالة ودين الأمة بهذه الطريقة .

إننا أهل سماحة ، وقلت : إننى — فقط — أدفع عن نبينا وعن أمتنا ،
وأوضح أننا نكره العدوان ، ولكننا نرفض من الآخرين أن يستغلوا طيبتنا فى
النيل منا وإهانة ديننا ونبينا عليه الصلاة والسلام ، وسنتنظر ما يصنعه
المستولون مع مؤسسة الأهرام التجارية التى رأت أن تشتغل بالتبشير على
آخر الزمان .

(١) الشوقيات : ٢٧/١ .

(٢) الشوقيات : ٣٢/١ .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

(١) رواه مسلم فى الذكر باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل : ٨١/٨ .

عَرَضُ مُوجَزِ لِسِيرَةِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ خِلَالَ أَرْبَعَةِ عَشَرَ قُرْنًا

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ،
والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين ..

أما بعد :

فإن العقل الإنساني ينضج مع طول الدراسة وكثرة التجربة ، والإيمان بالله ينمو ويستوى — أيضا — مع طول الدراسة ، وكثرة التجربة ، وملاحظة القدر الأعلى فيما يكون من شئون الناس ، وفيما يقع لهم من ضحك أو بكاء ، ومن هزيمة أو نصر ، ومن رفعة أو ضعة .

ومن هنا أمرنا رب العالمين أن ندرس التاريخ ، وأن نستخلص العبر منه ، وأن نتفجع بما كان من أحوال الناس وبما كان من سنن الله في هذه الأحوال ، وذلك حتى ينضج العقل والإيمان معا ، قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] .

وعندما قرعت مسامعي أنباء الوحدة المرتقبة بين « مصر » و « ليبيا » شعرت بشيء من الرضا ، ولكنني في الوقت نفسه قلت : ينبغي أن نعود إلى ماضي أمتنا الطويل نقف بإزائه وجهها لوجه ، نتفرس في

ملاحمه ، و ننتعمق في معالمه ، و نرجع منه بعضات تصون غدنا ، و نحمو مستقبلنا ، و تسدد خطانا إلى الغاية المنشودة حتى لا نرتجل تصرفا نندم عليه ، و حتى لا يعبث بنا الأعداء كما عبثوا بنا قديما .

و في ساعة من طواف العقل بالماضي وجدت أن هذا الدين الذي نعتنقه سلخ من عمره — المديد إن شاء الله — أربعة عشر قرنا ، و أن هذه القرون الأربعة عشر يمكن أن تقسم على خمس مراحل متميزة ، و بداهة لا يمكن لبشر أن يتحدث عن الإسلام في خطبة ، و لكنني أتابع خطأ بيانيا يمثل الانحدار و الارتفاع في هذه المراحل الخمس لكي نعود على عجل بعد سياحة سريعة إلى حاضرنا لنواجه يومنا و غدنا ببصيرة مفتوحة و فكر مستنير .

إن المراحل الخمس التي مرَّ بها تاريخنا خلال أربعة عشر قرنا يمكن أن توجز في :

أولا : عصر النبوة و الخلافة الراشدة .

ثانيا : عصر الدولة الأموية .

ثالثا : عصر الدولة العباسية .

رابعا : عصر الدولة العثمانية .

خامسا : عصر الانحلال و التمزق و الفرقة و التقسيم الذي بدأ منذ الهجوم الاستعماري على الدولة التركية و إسقاط الخلافة العثمانية ، و تحويل المسلمين في أرجاء العالم إلى أمة ممزقة لا يجوز أن تجتمع على دينها ولا أن يرتفع لإسلامها علم واحد .

هذه هي المراحل الخمس في تاريخنا الطويل .

فإذا نظرت إلى عصر النبوة وجدت أن محمداً عليه الصلاة و السلام — كما قلت بإيجاز — ربّاه الله جلّ جلاله ليرى العرب به ، و ربّي العرب به ليرى بهم الناس أجمعين !!

فاستطاع خلال حياة الرسالة — التي لا تتجاوز ثلاثا و عشرين سنة — أن يوحد الأمة العربية و كانت قبائل نافرة و طباعا شرسة غليظة و قوى مبعثرة هنا و هناك .

استطاع هذا النبي الكريم — بوحى الله ، وبإشراق النبوة ، وبصفاء الرسالة — أن يجمع العرب قبل أن يموت فما تركهم إلا وهم أمة : الحق روحها ، والإخلاص هو الذى يدور فى جهازها العصبى ، والانطلاق لله هو الذى يحدوها تتحرك به أو تسكن ، فجاءت دولة الخلافة ، وكانت دولة التكوين للنواة الإسلامية ، دولة الصراع مع الباطل ، دولة التطبيق لمبادئ الإسلام وتعاليمه .

ويلاحظ أن دولة الخلافة منحت المسلمين حقوقا رحبة ، وفهم المسلمون — لأول مرة فى تاريخ الدنيا — أن الحاكم — بلغة عصرنا — موظف عمومى ، أجير للناس ، يكدح لهم ، ويأخذ مرتبه نظير عرق جبينه الذى يتصبب وهو يخدم الأمة ويسعى فى مصالحها ، وليس له حق مقدس ، وليس له حق السمع والطاعة إلا فيما يرضى الله .

وعرف عن دولة الخلافة الراشدة أنها وفّرت للفرد امتداده المطلق ، وعزته الموفورة ، فكان الأمير يقول للناس : « أيها الناس : إني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني » (١) .

وعُرف فى تاريخ الدولة الراشدة أن المال كان لمصلحة الأمة جمعاء ، فما توافر فى بيت ليحتكر أو يستبد به أحد ، وما ضاعت أسرة أو قبيلة من الناس وفى الأمة مال موفور .

كانت الأمة الإسلامية تمثل الرشد السياسى فى العالم يومئذ ، ولم يعرف فى تاريخ الأولين والآخرين عدل سياسى أو اجتماعى كالعدل الذى توافر للأفراد يومئذ !!

إلا أن شيئا حدث يعتبره المؤرخون النقطة عيبا للجماهير ، إن الجماهير — أحيانا — تخطئ فى استغلال الحريات الكثيرة التى تمنحها ، وربما أسرفت فى استعمال هذه الحرية إلى حد يسيء إليها ، وبعض الملاحظين

(١) جزء من خطبة لأبى بكر رضى الله عنه رواها ابن اسحاق بإسناد صحيح . كذا فى البداية والنهاية لابن كثير ج ٦ ص ٣٠١ .

يقول : إن العمال في « انكلترا » يستغلون السعة والمرح والعدالة والأمانة ووفرة الكرامة البشرية هناك لإملاء مطالب شخصية .

قد يكون ذلك صحيحاً أو خطأ ، ليس هذا شأنى ولا هو موضوعى ، إنما الذى أوجه النظر إليه أن جماهير المسلمين فى عهد الخلافة الراشدة عُبَّت من الحرية حتى بطرت ، وبلغ من حريتها أنها زحفت على المدينة المنورة تريد أن تناقش الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضى الله عنه بعض تصرفات نسبت إليه ، وأياً كانت هذه التصرفات فما كانت تبيح فتنة ولا تسبب ثورة ، ولكن عثمان بن عفان رضى الله عنه كان خليفة راشداً ، ما فكر فى أن يستغل عصيته ولا أن يستثير أحبابه وأنصاره وأقاربه لضرب الثورة — أو بتعبير العصر الحديث لإطلاق الرصاص على المتظاهرين — لا ، كان الرجل أعف نفساً ، وأشرف طبعاً ، وأشدّ تقديرًا لحرىات الجماهير مما يتصور الناس ، فقتل بهذه السياسة (١) .

وجاء بعده على بن أبى طالب رضى الله عنه فشغب عليه بعض المنتطعين من أتباع الإسلام أو ممن يدعون التقوى والتوغل فى العبادة من الخوارج وأشباههم ، فكانت فترة حكمه التى قضاها فى الخلافة — وهى خمس سنوات — فترة إعياء نفسى ، وإرهاق عصبى ، وتعب موصول ، وكان أصدق ما قيل فى على بن أبى طالب وهو يذهب إلى ربه بعد أن قُتل غدرا البيت الذى تمثلت به السيدة عائشة رضى الله عنها عندما بلغها مقتل على :

فَأَلَقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوْى كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ الْمَسَافِرِ (٢)

(١) فقد رووا أن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال للذين عنده فى الدار من المهاجرين والأنصار — وكانوا قريباً من سبعمائة ، فيهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسن والحسين ومروان وأبو هريرة وخلق من مواليه ، ولو تركهم لمنعه فقال لهم : أقسم على من لى عليه حق أن يكف يده وأن يتطلق إلى منزله ، وقال لرفيقه : من أغمد سيفه فهو حر !! (البداية والنهاية لابن كثير : ج ٧ ص ١٨١) .

(٢) قال ابن بربى : هذا البيت لعبد ربه السلمى ، ويقال لسليم بن ثمامة الحنفى (لسان العرب : ج ١٥ ص ٦٥) .

استراح الرجل كما يستريح المسافر المتعب عندما يصل إلى بيته ويلقى
رحاله ويريد أن يطمئن إلى يومه قبل غده .

المهم أن الدولة انتهت وجاء بعدها حكم سياسي استبدادي ، وهو
ما يقع غالبا في أعقاب الحريات الكثيرة التي لا تحسن الجماهير استغلالها ،
فجاء الحكم الأموي ، وتميز هذا الحكم بأمور تحسب له وأمور تحسب
عليه .

فأما ما يحسب له : فقد مضى في طريق التحرير والفتح ، واستطاع أن
يمد رقعة الإسلام شرقا وغربا إلى أبعد ما وصلت إليه تقريبا ، وصل إلى
« الصين » شرقا ، وإلى « فرنسا » غربا ، وتوغل في « فرنسا » وفي
جنوب « سويسرا » ، وتميزت الدولة الأموية أيضا بأن الطابع العربي كان
واجهتها وصبغتها .

وأما ما يحسب عليه : فقد وقع نوع من الاستبداد السياسي ، ومع
الاستبداد السياسي حدثت أخطاء أطاحت بالحكم الأموي ، ذلك أن طبيعة
الاستبداد السياسي حصر الحكم في أسرة ، وحصر الملك في أفراد معينين ،
وبناء طبقات أو بيوتات تعيش على هامش هذا الملك العضوض ، ثم
الافتيات على الناس في الأموال وفي الحريات ، ثم التنكر للكفايات الكبيرة
عندما تظهر هنا وهناك ، ثم انضم إلى هذا أن الواجهة العربية تجهمت
للأجناس الأخرى ، وهذا خطأ ، فإن العروبة في الإسلام ليست قرابة
جنس ، ولا عرقا دمويا يصل بين جماعة من الخلق ، إن العروبة في الإسلام
لساناً أو لغة هي وعاء الوحي ، فمن آجاد اللغة ودخل في الدين فهو عربي
مسلم ولو كان أبوه أمريكيا .

هذه التصرفات أنشأت حالة من البلبلة ، فإن كبار القادة لم يجدوا
التكريم الذي ينبغي أن يوفر لهم ، ف « محمد بن القاسم » (١) — شاب في

(١) محمد بن القاسم بن محمد الثقفي : فاتح « السند » ووالها من كبار القادة ، ومن رجال
الدهر في العصر المرواني ، ويعنيه حمزة بن يعض الحنفى بقوله :
« قاد الجيوش لسبع عشرة حجة »

العشرين من عمره — قاد جيشا فتح به « السند » — لو أن هذا القائد في بلد كفرنسا لجعلته مثل « نابليون » ، لو أنه في إنجلترا لجعلته مثل « ولسن » ولكنه في بلد تأكل الكفايات أو في جو يحتقر العبقریات ، فقال الرجل متمثلا وهو يعذب :

أضاعوني وأى فتى أضاعوا ليوم كربه وسداد ثغرا !!
وفاتح الأندلس رجع مهانا (١) !!

لم ؟ لأن الحكم الاستبدادى يعطى منافعه من حوله ، ويرمى بالمغارم على الآخرين ، ولا يكرم إلا من يخضع له أو يجعل ذمته أجيرة للتافهين الذين يحكمون .

المهم أن الدولة الأموية انهارت بخيرها وشرها ، وجاءت الدولة العباسية ، وهذه هي المرحلة الثالثة ، وهي مرحلة تحتاج إلى شيء من الدراسة ، لماذا ؟ لأن هذه الدولة فتحت أبواب الترجمة من أقطار الدنيا ، واطلاع المسلمين على ثقافات الأجانب وعلى أنواع المعرفة التى تشيع بين الناس..شئ مطلوب ولكن فى حدود وإلى نطاق معين لا يعدوه .

إن الإسلام دين الفطرة السليمة ، ودين العقل الراشد ، وهو بهذه الطبيعة الفطرية الفكرية مفتوح لجميع الثقافات ومفتوح أمام جميع الحضارات والأجناس ، ولكن على أساس التمييز والنقد وميز الصواب

= كان أبوه والى البصرة للحجاج ، وولى الحجاج محمداً ثغر السند فى أيام الوليد بن عبد الملك ، وانسبط يده فى البلاد فتحا وتنظيما إلى أن كان فى « الملتان » وجاءته الأنباء ب وفاة الحجاج ثم الوليد ابن عبد الملك ، وولاية سليمان بن عبد الملك ، وكان سليمان شديد النعمة على الحجاج وعماله ، فلما ولى بعد موت الحجاج عمد إلى أقربائه وكتابه وعماله فنكبهم ، وعزل محمد بن القاسم ، وأمر بحمله من السند مقيدا ، فحمل إلى « واسط » وعذب بها ، فقال شعرا يعاتب به بنى مروان ، فأمر سليمان بإطلاقه فأطلق ، ثم قتله معاوية بن يزيد بن المهلب ، وقيل : مات فى العذاب (الأعلام : ٣٣٣/٦) .

(١) موسى بن نصير ، عزله سليمان بن الوليد ، فانصرف إلى وادى القرى بالحجاز وأقام فى حالة غير مرضية إلى أن توفى فى سنة ٩٧ هـ وكان شجاعا عاقلا كريما تقيا ، لم يهزم له جيش قط ، أما سياسته فى البلاد التى تم له فتحها فكانت قائمة على إطلاق الحرية الدينية لأهلها وإبقاء أملاكهم وقضائهم فى أيديهم (الأعلام : ٣٣٠/٧) .

خطب الغزالي — المجلد الثانى

من الخطأ ، على أساس ألا تطرح ما عندك وتعجب بما عند غيرك وإن كان خرافة .

والذى حدث أن فلسفة اليونان والثريان وسخافات الرومان ومن إليهم من أهل الأرض دخلت بلادنا واختلطت مع الثقافة الإسلامية اختلاطا أساء إليها .

ثم وقعت الحضارة الإسلامية فريسة بين نوعين من التصرفات : نوع المنحليين الذين يبحثون عن الشهوات واللذات .

ونوع المتزمطين المعزولين ممن تركوا الدنيا تسير وفق هواها وهم المتصوفون الذين أخذوا جانبا في صوامعهم أو بيوتهم وأخذوا يعبدون الله جانبا !!

وانتهزت الصليبية العالمية المتربصة هذه الميوعة الفكرية وهذا الاضطراب النفسى ، وهجمت على بلاد الإسلام هجوما اكتتبت أوربا كلها في فرقه، وأسهمت جميعها في إمداده بالقوى المالية والعسكرية التى تعين عليه ، فكان الإنكليز إلى جانب الفرنسيين إلى جانب الإسبان والطيلىان إلى جانب النمساويين، كان هؤلاء جميعا فى صف واحد ، وانطلق هذا السيل المجنون يولى وجهه شطر بلادنا ، ويحاول — خلال مائتى سنة — أن يدمر ما أمامه وأن يسقط أعلام التوحيد تحت سنابك خيله !! وانتهت الحروب بعد كُرٍّ وفُرٍّ وهزائم وانتصارات بأن خسرت أوربا هذه الجولة وعادت كسيرة النفس مقهورة لا تلوى على شيء .

وكان ينبغى أن يفكر المسلمون يومئذ ، وأن يقفوا على أعتاب الماضى ليدرسوا ما الذى حدث ، ما الذى سبب لهم تلك النكبات ، ما الذى أنقذهم أخيرا من هذه الورطات ، إلا أن العرب كانوا فى حال من البلبلة والهوان جعلهم لا يحسنون التصرف ، فنهض الجنس التركى بالخلافة الإسلامية ، وأشرف على مستقبل المسلمين فى القارات الثلاث المعمورة يومئذ : آسيا وإفريقيا وأوربا .

وهنا نجد أنفسنا أمام المرحلة الرابعة من التاريخ الإسلامى ، هذه

المرحلة تميزت بأمور خطيرة ، فإن الجنس الحاكم جنس تركي تعصب لتركته لغة ودما ، وبذلك وقعت فجوة غائرة عميقة بين الأتراك وبين الإسلام والجنس العربي والأجناس الأخرى . لم ؟ لأن الإسلام عربي في مصادره التربوية والتوجيهية والاجتماعية والسياسية ، القرآن عربي ولا يمكن أن يترك ، والسنة عربية لأن الرسول عليه الصلاة والسلام عربي ، ومصادر الثقافة الإسلامية عربية ، وأحد أمرين : إما أن ينسلخ القائد الذي يقود المسلمين من تركيته ليكون عربيا ويقود العرب ويقود الإسلام والمسلمين ، وإما أن يتخلى عن القيادة للقادرين عليها من العرب ، وهذا ما لم يفعله الترك ، ولذلك حدث ما يأتي :

بدأ المسلمون في أنحاء الأرض يضعفون ماديا وأديا ، وبدأت مصاييح الثقافة تنطفئ في مدائن الإسلام وقراه ، وفي الوقت الذي أخذ فيه عصر الإحياء يصعد بالأوربيين في سُلّم الترقى كان الحكم التركي يهبط بالمسلمين في سُلّم التردى ، وبعدت مسافة الحضارة بين المسلمين من ناحية وبين الأوربيين من ناحية .

صحيح أن الأتراك كانوا مسلمين متعصبين للدين ، يحبونه ويسفكون دمهم من أجله ، ولكن العاطفة وحدها لا تكفى في نصرة عقيدة ولا في إقامة دولة ولا في بناء حضارة ..

لقد رووا أن جنديا تركيا كان ينام يوما فصحبا في جوف الليل فوجد قدميه تتجهان إلى نافذة فيها مصحف ، ففزع الرجل ووقف طول الليل على قدميه شاهراً سيفه يقول : مصحف شريف !

الرجل خاف على نفسه من الله أو ظن أن اتجاه أقدامه إلى المصحف كفر !

فكانت النتيجة أن استيقظ طول الليل وترجم عن حبه أو عن إكرامه للمصحف بهذا الأسلوب ، كان الأتراك متدينين ، وعندما أعيد الأذان إلى بلادهم من بضع سنين كانوا يكون في الشوارع ! لكن العاطفة الدينية لا تكفى ، بل يجب مع العاطفة أن يكون هناك عقل نير وعلم واسع وتجربة

حصيفة وتمكن من الدنيا راسخ ، يجب أن يكون مع العاطفة ما يعين على نجاحها .

وما يستطيع الترك — وهم متعصبون لجنسهم ولغتهم — أن يكونوا القادة الحقيقيين للعالم الإسلامي ، وكان الأوربيون يدرسون هزائمهم ، فلما هجموا على الأتراك وعلى العالم الإسلامي كله كانت الكفة في جانب الهاجمين .

حقاً استمات الأتراك وغير الأتراك من الأجناس المحكومة في الدفاع وقتل كثيرون ..

من مائة وأربعين سنة قرر الحاكم الفرنسي في « الجزائر » أن يستولى على أجمل مسجد في العاصمة — مسجد « كينشاوة » (١) — وأن يحوله إلى كنيسة ، وفعلاً تحرك سلاح المدفعية الفرنسي ومعه سلاح المهندسين وهجما على المسجد ، وقتل وراء الأبواب نحو أربعة آلاف عربي (٢) وهم يقاومون هذا الجنون من التعصب والحقْد !! ولكن تمت الهزيمة وتحول المسجد إلى كنيسة ، ولم يستطع الأتراك أن يصنعوا شيئاً ، وكل ما حدث أنه بعد استقلال الجزائر حوّل المسلمون الكنيسة مرة أخرى إلى مسجد ، هذا كل ما أمكن صنعه .

لكن الذى حدث أن الهجوم الاستعماري في هذه المرحلة الخامسة والأخيرة استطاع أن ينتهى إلى رمى الخلافة في البحر وإسقاط علم الإسلام في المجال السياسى العالمى ، وتحويل المسلمين إلى أمة يتيمة ليست لها أبوة ثقافية ولا عسكرية ولا حكومية تحمل آلام الإسلام أو تترجم عن مآربه ورغائبه .

(١) يقوم هذا المسجد المشهور في حي كينشاوة من أحياء مدينة الجزائر ويرجع تأسيسه إلى سنة ١٠٢١/١٦١٢ ثم أعاد ترميمه وأكملته الداي حسن سنة ١٢٠٩/١٧٩٤ (المساجد لحسين مؤنس ص ٢٤٣) .

(٢) عند هذه العبارة لم يتمالك الشيخ الجليل أن يكى ، وحق لإنسان مشغول القلب بالإسلام وقضاياه أن يكى ، والعجيب أن المسلمين الذين قتل لهم هذا العدد — وهو قليل من كثير — ينبعثون لطلب اللذات والملاهى ..

أمور يضحك السفهاء منها ويكفى عندها الحبر اللبيب

جاء عصر المرحلة الخامسة — عصر التمزيق — وهذا العصر كتب فيه على المسلمين أن يعيشوا في بلادهم حيث كانوا، لكن على أساس أن لا يكون الرباط الإسلامى منظورا إليه فى تأسيس قرابة مشتركة بينهم وبين غيرهم !! المسلم فى « الفلين » إذا ذُبِح يُذبح ، من يكى له ؟ لا أحد إلا بعض الأفراد الذين فى نفوسهم عاطفة وفى قلوبهم بقايا من الشعور بالأخوة الإسلامية ومن الإحساس بقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى » (١) .

المرحلة الخامسة تتميز بأن المسلم حيث كان يدرس تاريخ بلده دون أن يصل هذا التاريخ بالتاريخ الإسلامى ، فالمسلمون فى « نيجيريا » — وفى نيجيريا أربعون مليوناً من المسلمين — قد يدرسون شئون بلدهم ، فإذا درسوا الجزيرة العربية — إذا حدث أن درسوها — فإنهم يدرسونها كما يدرسون الجزائر البريطانية ، أما أنها منبت محمد عليه الصلاة والسلام ومصدر الإسلام وأساس الرباط الذى يجمع مسلمى نيجيريا بمسلمى مصر بمسلمى السعودية بمسلمى الهند فلا !!

فى هذا العصر — عصر التمزيق — يسمح للفلسفات والمبادئ الفكرية أن تنتعش وأن تنتشر وأن تجد من يدعو لها ، ولكن لا يسمح للكيان الإسلامى أن يتلاقى .

أشبه المسلمون رجلاً ضرب بالنار وشئت أولاده فى بلاد كثيرة وقيل لكل منهم : احذر أن تلتقى بأخيك ، بل قيل لكل منهم : إذا حاولت — حيث كنت — أن تشير إلى الماضى قتلناك !! هذه سياسة أوربا الاستعمارية نحو العالم العربى والإسلامى .

بعد هذه المراحل الخمس أحب أن أذكر حقيقة دينية : إن الأمة الإسلامية قد تمرض ولكنها لا تموت ، إن الأمة الإسلامية قد تبلى ولكنها

(١) رواه البخارى فى الأدب — باب رحمة الناس والبهائم ١٢/٨ ومسلم فى البر — باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٢٠/٨ .

تجدد ، وفعلاً مع أودية الموت التي وجد المسلمون أنفسهم داخلها ، ومع أسباب التلف التي أحاطت بهم من كل ناحية كان هناك من يقاوم بجبروت هذا الزحف: بالقلم ، باللسان بالتربية بالتوجيه ، بالحكم ، بكل ما لديه من طاقة ، ولم يمت العملاق ، لم يمت الإسلام ، بل الذين يرقبون الأحداث من الأوروبيين — على اختلاف ألوانهم — يعلمون أن العالم الإسلامي يوشك أن يتمخض عن نهضة كبيرة ، وأن المسلمين يشبهون جذوة نار تحت تراب ، لا بد أن ينفخ هذا التراب ثم تكشف الجذوة عن دفئها وحرارتها وتألقها .

الأمة الإسلامية بدأت تنتعش ، ومظاهر الوحدة التي تبدأ ، ومرحلة الوحدة التي لحنا بشايرها الآن نستقبلها بحفاوة لأنه لا معنى لبقاء الخطوط التي وضعها المستعمرون من إنكليز وفرنسيين وطيّان وغيرهم ، لا معنى لبقاء هذه الفرقة .

لكن ينبغي أن نعلم أنفسنا أن نبض الوحدة بين العرب وبين المسلمين كلهم هو الدين ، وأن أعداءنا سوف يستميتون ليصلوا إلى أحد أمرين : إما أن يقتلوا هذه الوحدة فلا توجد أبداً ، وإما أن يجعلوها وحدة بلا دين فتموت تلقائياً. كما ماتت الوحدة بين مصر وسوريا ، لأن بعض السوريين فرض أن يكون الإسلام بعيداً عن الوحدة ، فلما وضع دستور الوحدة لم يحىء في نصوصه ما يشير إلى أن الإسلام دين الدولة !!

أما الآن فنحن في مصر قررنا أن الإسلام دين الدولة ، وقررنا إلى جانب ذلك أن الإسلام المصدر الرئيسي للتشريع ، وإخواننا في ليبيا قرروا كذلك أن يكون الإسلام ديناً للدولة ، وتعاونوا مع بعض الفقهاء والمفكرين الإسلاميين أن يجعلوا الشريعة قانوناً ، وبدأ العمل العلمي في هذا .

إذن نحن نستبشر أن توجد وحدة في إطار الإسلام ، تتبع من روحه ، وتتدفق إلى غايته ، وتلف الجماهير حول راية التوحيد وهي مطمئنة إلى وفائها وبذلها وتضحيتها .

يجب أن نرقب بدهاء وبصيرة ويقظه دسائس أعداء الإسلام — وما أكثرهم — إنهم سيستميتون إما لمنع الوحدة أو لجعلها تولد سقطاً أو

جنينا ميتا بأن تكون بعيدة عن الإسلام .

يجب أن نذود هؤلاء الوحوش عن وحدتنا ، عن تراثنا ، عن ماضينا وحاضرنا ، عن شرفنا في الدنيا ووجاهتنا عند الله .

إن الإسلام هو ديننا الذي تبيّضُ به وجوهنا يوم أن نلقى ربنا ، وهو أيضا مصدر قوتنا عندما نلقى أعداءنا في هذه الأرض ، والعصر عصر العقائد المتناحرة ، يخدعكم ويكذب عليكم من يقول : إن النصرانية تركت نفسها ، إن اليهودية تركت ذاتها ، إن الهندوكية تجردت أو تمردت على تعاليمها .

إن هذا العصر هو عصر العقائد ، استيقظت اليهودية بكل ما لديها من أحقاد تاريخية وخرافات دينية ، واستيقظت كذلك جميع النزعات والديانات الأخرى .

فالقول بأن الإسلام يضعف في وقت يقوى فيه غيره ، أو ينحى جانبا فلا يتولى الزمام بينما تولت الزمام في أجناس الأرض الأخرى عقائدها وأديانها ، فهذا مالا يسمع ومالا يقبل ، واحذروا على دينكم الخطافين من حملة الأقلام والدساسين من رجال السياسة الذين يحاولون أن يجعلوا من وحدتنا وحدة ميتة بإبعادها عن الإسلام وعقائده وشرائعه .

ديننا إيمان ونظام ، عبادة ومعاملة ، عقيدة وشرعة ، بتعبير العصر الحديث : دين ودولة ، وعلى هذا سرنا ، ونحن ندعو الله أن يبارك الخطى الطيبة التي بدأت .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .
وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، إمام الأنبياء وسيد المصلحين .
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

أيها الإخوة : وأنا جالس هنا استمعت إلى القرآن المذاع ، وأظنه مذاعا من الاسكندرية لأنني أظن الخطبة هناك ، استغربت موقف المسلمين من كتابهم ، القارئ صوته جيد وله استعراضات فنية واضحة ، المستمعون ما أظن أن المعاني خطرت ببالهم ، لأنني عندما استمعت إلى قوله تعالى : ﴿ كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ [الرحمن : ٢٦ ، ٢٧] .

جرى خاطري في هذه الدنيا كيف أن خضرتها ستجف ، وأن حركتها ستهدم ، وأن عمرانها سيخرب ، وأن ستارة ستنهى الرواية الطويلة العريضة بكل ما فيها من ضحك وبكاء ، وفرح وحزن ، ويحتكم بعد ذلك البشر إلى ربهم ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ [الشورى : ٧] .

لكن هذا الخاطر الذي مر في طارده وطواه صوت الناس الذين يستمعون لأنه صوت مجنون ، كانوا يحيون القارئ طبعاً ، أما المعنى فلا .

لو أن إنساناً عبّر عن المعنى بصوت لتأوه من الألم ، لأن كون الموت يعدو على الحياة ويفض أعراسها ويحوّلها إلى مآتم مسألة محزنة ، لكن لا تأوه .

يجب على أمتنا أن تغير موقفها من القرآن ، القرآن ليس كتاب أغان يتلوى القارئ به ويطرب المستمع إلى نغماته وترانيمه ، القرآن لغير هذا

نزل ، القرآن كتاب حياة ، الكتاب الذى نقرؤه على الموتى يقول الله فيه ﴿ لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ﴾ [يس : ٧٠] .
وأخيرا أيها الإخوة : فإن لى رجاء أبسطه إلى كل إنسان منكم ، إن
الحب فى الله عاطفة يباركها رب العالمين ، وفى الحديث الشريف :
« ما تحاب اثنان فى الله تعالى إلا كان أفضلهما أشدهما حبا
لصاحبه » (١) .

وأنا أعرف أن الله سترنى فجعل ناسا كثيرين يحبوننى ، لكننى أرجو أن
يخففى تقبيل اليد من هذا المسجد ، أرجو بإلحاح ألا تقبل يدى ، أرجو أن
نشغل بختم الصلاة ، أرجو أن يمتنع تقبيل اليد ، إننى أتقدم بهذا الرجاء ولى
أمل أن ينفذه كل مسلم فى هذا المسجد ، فإن تقبيل اليد تحول إلى دلالة
أكرهها ويكرهها المسلمون ، ليس فى ديننا كهانة ولا تسلط على الناس
بأى معنى من المعانى ، ثم ما يعرف أحد منا ما مصيره عند ربه ولا
ما مكانه عنده ، فترجو أن ينتهى هذا التقليد .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا
التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا ، واجعل الحياة
زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (٢) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا
غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .
عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .
أقم الصلاة

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه كذا فى الجامع
الصغير ورمز له بالصحة . وقال فى صحيح الجامع الصغير (٥٥٩٤) : صحيح . ورواه أيضا
الطبرانى فى الأوسط وأبو يعلى والبخارى بنحوه ورجال أى يعلى والبخارى رجال الصحيح غير مبارك بن
فضالة وقد وثقه غير واحد على ضعف فيه كذا فى المجمع ٢٢٦/١٠ .

(٢) رواه مسلم فى الذكر — باب التوعد من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨ .

حركة الأرنؤاد بَيْنَ الماضى والحاضر

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

٨/١٢/١٩٧٢م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شىء قدير .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

ففى بدء الدعوة إلى الإسلام كان الذين يدخلون فى هذا الدين يعتقونه مخلصين ، وتنشرح صدورهم به ، فيتحملون من أجله الأذى والتعب ، ولذلك لم يكن فى مكة نفاق .

عندما بدأت الدعوة إلى الإسلام كان الناس أحد رجلين : إما رجل آمن بالله فهو يتحمل فى سبيل إيمانه غربة الروح وتعب الذين تنكروا له وضاقوا به ، أو رجل كافر يحارب الإسلام فى صراحة ويضع العوائق فى طريقه علانية ، ومن هنا يقول التاريخ : لم يكن فى مكة نفاق .

كان الناس إما مؤمن صريح أو كافر صريح ، فلما انتقل الإسلام من مكة إلى المدينة دخل فى مرحلة أخرى ، ربما وجد ذور الأطماع الذين يطلبون المال أو الوجاهة أو المظاهر ، ربما وجدوا أنفسهم مسوقين إلى أن يلتحقوا بهذا الركب المتحرك ، وربما زينت لهم مآربهم أن مغنم الدنيا فى اللحاق به .

هؤلاء الذين التحقوا — وإيمانهم مزعوم أو واهن — أخرجتهم تعاليم الإسلام ، ذلك لأنهم تظاهروا بالإيمان وقلوبهم منه خاوية ، لكن الإيمان لا يدع أصحابه ينتسبون بأفواههم ويتمردون عليه بأعمالهم ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ [العنكبوت : ٢ ، ٣] .

وكان الاختبار الذى محّص النفوس وسبّر غورها ، وكشف المعادن ويُنّ زيفها ، كان ذلك ما تضمنته الإسلام من تعاليم كثيرة ، فإن شعب الإيمان شتى ، والمؤمن عندما ينتسب إلى الدين فإنه يُكلف بين الحين والحين أن يتردد على المسجد للصلاة ، يُكلف بين الحين والحين أن يدفع مالا يطلب منه زكاة أو نفقة ..

هذه التكاليف كانت بلاءً شديدا على ضعاف الإيمان ، فالمنافقون الذين طروا قلوبهم على الكفر — وإن أظهروا الإسلام — كان يضايقهم أن يتفقدوا بين صفوف المصلين فلا يوجدوا ، كانوا يتكاسلون عن الذهاب إلى المسجد للصلاة الجامعة ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾ [النساء : ١٤٢] .

وإذا كلفوا بنفقة فدفعوها اعتبروا ما دفعوه غرامة موجهة ، ورأوا أنفسهم مضطرين إلى دفعها فما ينتظرون عليها ثوابا ، لأنهم لا يؤمنون بالله ولا بما يدخر عنده ، إنهم مكرهون ﴿ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مفرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم ﴾ [التوبة : ٩٨] .

هذا النوع من الناس — من المنافقين — كان يخرجهم أمران شديدا جدا : الأمر الأول : الجهاد فى سبيل الله ، والأمر الثانى : الحكم بما أنزل الله .

فأما الأمر الأول : فإن الجهاد فريضة لتأمين الدعوة ، وحماية المجتمع ، وكسر علوان الطاغين ، ورفع رايه التوحيد ، هذا الجهاد — وفيه مشقات

كثيرة ، وتعريض النفس والمال للضياع — ما يرضى به أو يسرع إليه إلا مؤمن واثق من ربه مُلقٍ قياده إليه ، ولذلك يقول جل شأنه في وصف المؤمنين والمنافقين : ﴿ لا يستثنى الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين . إنما يستثنى الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ﴾ [التوبة : ٤٤ ، ٤٥] .

وكما كشف الجهاد عن طبائع المنافقين فإن إلزام الناس بشرائع الله كان يخرج القلوب الخادعة والأفئدة المناققة ، ويكشف ضعف صلتها بالإسلام ، ولذلك أنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ [النساء : ٦٥] .

انكشفت ملامح النفاق عن طريق الوحي تارة ، وعن طريق التكاليف التي حددت مواقف المؤمنين والكافرين تارة أخرى ، وانتهى أمر المنافقين على عهد النبي ﷺ إلى واحد من أمرين : إما أن يؤمنوا إيماناً صريحاً ، وإما أن يتواروا فيما هم فيه فلا يشعر بهم أحد .

لكن بعد أن لحق النبي عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى انفجر الضلال انفجاراً رهيباً في المجتمع الإسلامي ، وكشف الكفر عن وجهه صراحة إذ ارتد عدد كثير من الناس ، وأخذ الارتداد صورة من صورتين : إما الرفض الصريح للإسلام ، وإما القبول الجزئي للإسلام ، والرفض للصلة العملية التي تربط بين الناس وبين الدولة المسلمة وهي الزكاة مثلاً .

تعرض الإسلام بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام لمحنة قاسية ، غير أن الخلفاء الراشدين والسابقين الأولين والكتائب المؤمنة بربهم والرجال الذين أخلصوا قلوبهم لله وأسلموا وجوههم إليه هؤلاء جميعاً التفوا حول أبي بكر الصديق وقاتلوا المرتدين سواء كان الارتداد دعوة إلى الشرك أو رفضاً لدفع الزكاة .

أريد أن أشرح هنا شيئاً يعرف منه الارتداد ، لأن موضوعنا الذي

تدور عليه اليوم ، ونريد أن نشرحه ، ونحدد دائرته ، ونبين مواقف الناس منه ، ونحاكم المسلمين وغير المسلمين إليه هو الارتداد .

ما هو الارتداد ؟

إن أحدا يبخل بالزكاة ، لأنه بخيل ، لأن في نفسه كزازة (١) ، ولكنه إذا أكره على دفعها دفعها ويده ترتعش أو ونفسه مضطربة ، ولكنه يدفعها ويعزى نفسه بشتى الأمور يمكن أن يقبل إسلامه ، ولو أنه لم يدفعها وفر منها وتظاهر بالإسلام يمكن أن يوصف بأنه مسلم مريض القلب أو مسلم منحرف السلوك ..

أما أن يقول أحد الناس : لا أدفع الزكاة ، ولن أدفعها ، ولن أسمح لأحد أن يطلبها مني ، وسأوعز إلى الآخرين ألا يدفعوها . فمعنى ذلك أن هذا الرفض تحول إلى عداوة مكشوفة حاسمة للوحنى الإلهى والأمر الإلهى ، وأن هذا الإنسان اختار في وضوح النهار موقفه وأراد أن يجعل هذا الموقف وضعاً اجتماعياً مقررًا ..

ومن هنا فلا كلام في أنه مرتد ، ارتد عن الإسلام ولو قال إنه موحد ، ما دام قد أعلن خلعه لربقة الإسلام في ركن من أركانه أو في ما هو معلوم من الدين بالضرورة فمعنى هذا أنه كفر كفراً تاماً .

ولأضرب المثل من عالمنا الحالى : لو أن امرأة كاتبة قالت : أنا أرفض أن يكون الرجل أكثر حظاً من المرأة في الميراث، إن هذا ظلم ، إن هذا تحقير للمرأة ، إن هذا نوع من الرجعية في رسم أوضاع الأسرة !!

هذا كلام لا يقبل بته أن يكون معه إيمان ، ولا يمكن أبداً أن نعد صاحبه مسلمة ، هي بهذا مرتدة ييقن .

لو أن رجلاً من الناس رسم موقفه في الحياة على أنه لا يمكن أن تحرم الخمر ، ولا يمكن أن يحرم الزنا ، ولا يمكن أن تقطع يد السارق ، ولا يمكن أن يجلد القاذف ، ولا يمكن كذا وكذا ..

(١) رجل كثر اليدين : بخيل .

هذا النوع من الناس — بموقفه هذا — أعلن ييقين أنه انسلخ عن الإسلام ، ورمى ريقته من عنقه ، وأصبح لا دين له ولو قال في بجاجة : أنا مسلم . إنه كاذب كاذب ، هو مرتد ييقين ، اتفق العلماء على أن إنكار معلوم من الدين بالضرورة كفر بالله واليوم الآخر .

قصة الارتداد ترجع بنا إلى الورا في التاريخ الإسلامي كي نتعرف موقف الإسلام من المرتدين ، فإن بعض الناس — في عصرنا هذا — يريد أن يجعل من الارتداد لونا من حرية الرأي ، يريد أن يجعل من الارتداد نوعا من التفكير الذي ينبغي أن يأخذ حماية من القانون أو حماية من المجتمع ، وبالتالي يريد أن يفرض نفسه على أنه شيء لا ينبغي أن يستغرب ولا أن يعترض !!

قلت : إن مكة ما كان فيها نفاق ، وقلت : إن المنافقين في المدينة كشف أمرهم ، وفضحت أحوالهم وبرىء الله ورسوله منهم ، وأقيم المجتمع الإسلامي إقامة بنيت على الخُلص من المؤمنين وعلى الواضح المستقر من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

في أثناء تكوين الدولة وبناء المجتمع حدثت حركات ردة جزئية أو موضعية ، فمثلا أراد اليهود أن يعبثوا بالإسلام وأن يصدوا الناس عنه وأن يمنعوا تهمة التعصب عن أنفسهم ، فقال بعضهم للبعض الآخر : ما علينا من حرج لو أننا أعلننا الدخول في الإسلام بعض الوقت ، وحتى ينتشر هذا الإعلان ويعرف الناس أننا دخلنا في الإسلام ولسنا متعصبين ثم نرتد عنه ونقول : بدا لنا أنه دين غير صحيح ، وبدا لنا أن هذا الدين ينبغي أن يترك ، وإذن فالناس سيتركونه جميعا ويقولون : إن أهل الكتاب أعرف منا بطبائع الأديان وحقائقها ، وما كان لديهم تعصب ، فقد أسلموا ولكنهم وجدوا أن الإسلام لا يجدى فارتدوا !!

في هذا الموقف يقول رب العالمين : ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارُ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا مَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ اهْدَى اللَّهُ أَنْ يَقُولَ أَحَدٌ مَثَلًا أَوْ تَعِيمَ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ

يشاء الله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴿
[آل عمران : ٧٢ — ٧٤] .

حركات الارتداد المفتعلة من هذا النوع كان يجب أن تقاوم ولذلك
جاء حديث : « من بدل دينه فاقتلوه » (١) .

لقد كان اليهود آمنين على أنفسهم ما داموا يهودا، أما أن يفتعلوا
مؤامرة ليدخلوا الإسلام ثم ليخرجوا منه حتى يزلزلوا قواعده بهذا الأسلوب
فلا بد أن يعاقبوا .

هذه واحدة ، شيء آخر لابد أن يعرف ، وهو أن معاهدة الحديبية
عندما عقدت أراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يتخلص من كل مهزوز
الضمير ضعيف الإيمان في المدينة ، فأباح لمن يرتد أن يخرج إلى مكة دون
حرج ، وما ارتد أحد ، لقد تكشفت الأمور وعرف الناس الحق من
الباطل .

لكن الارتداد على أنه نوع من حرية الرأي مسألة يجب أن تناقش ،
ونحن نناقش علناً ، لو أن امرءا كفر بالله وحده وبني حياته الشخصية على
ذلك ، وزوى عنا جانبه ، وطوى على الضلال قلبه ، ما استطعنا أن نصنع
له شيئا ، فإن القلوب إلى الله وهو علام الغيوب ، وهو الذى يحاسب الناس
على إخلاصهم أو غشهم ، على إيمانهم أو كفرهم ، لكن الإيمان في المجتمع
الإسلامي هو وقود الدولة عندما تتحرك ، وأساس المجتمع عندما ينهض ،
والرباط الذى يشد التعاليم ويصون الأمن ويقيم الحدود ويجمع الشمل ..
بمعنى أن الإيمان عندنا ليس رأيا شخصيا ، لا ، لقد عرف القاصي والداني
أن الإسلام عقيدة وشرعة ، أن الإسلام إيمان ونظام ، أن الإسلام عبادة
ومعاملة ، وليس في الدنيا مجتمع يسمح للمتسيين إليه أن يعملوا المعاول في
جدرانها لينقضوها ويهدوها .. ليس في الدنيا دولة تقول للناس : من حق
أى إنسان أن يسقطنى أو أن يتمرد على ، أو أن لا ينفذ تعاليمى ، أو أن
يهدم قوانينى ، أو ما إلى ذلك ، ليس في الدنيا دولة تصنع هذا .

(١) رواه البخارى في استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم — باب حكم المرتد والمرتدة ١٩/٩ .

وعندما يقيم الإسلام دولته فهو يقيم حدودا ، ويضع قواعد ، وبالتالي فإن الارتداد لن يكون حركة قلب زائغ ، ولو اكتفى بهذا فإن الله يعلمه ، وهو الذى يتولاه ، ولكن الارتداد هنا سيكون محاولة لقلب نظام الدولة وهدم تعاليمها ، وهو ما يرفضه الإسلام ، وبالتالي فإن الإسلام جعل الارتداد يعاقب بالقتل .

الارتداد جريمة تسمى في العصر الحديث الخيانة العظمى ، هل تسمح دولة من الدول أن تبيع لفرد من أفرادها تسليم أسرارها لأعدائها ؟ هل تسمح دولة من الدول لواحد منها أن يعين أعداءها عليها أو ينقض نظامها ؟ هذا مالا يمكن ، وذاك السر في أن الإسلام رفض الارتداد .

الارتداد عُرِفَ فرديا ، ولكنه في العالم العربى والإسلامى الآن يشكل تيارات جماعية !! كيف ؟

إن الاستعمار العالمى عندما هجم على البلاد الإسلامية منذ قرون — أيا كان مصدره شرقيا كان أو غربيا — استهدف أن يقضى على الإسلام ، والقضاء على الإسلام لا يلجأ إليه أصحابه بوسائل صبيانة أو طفولية ، لا ، إنهم لن يقولوا للناس : كفرنا بالله لأننا لم نجده ، لن يقولوا للناس : كفرنا بمحمد لأنه بدا لنا أنه كذاب ، لن يقولوا للناس : تركنا الإسلام لأنه رجعية ..

إن هذه المشاققة الصريحة تكشف جانبهم ، وتعرى نياتهم ، وتعرضهم للفشل ، ولكنهم يريدون أن يكفروا الناس بالله وبنبيه وبتعاليم الإسلام بأساليب ملتوية وبطرق مختلفة .

عندما دخل الاستعمار العالم الإسلامى استمات في أن يلغى في العالم الإسلامى شرائعه التى يقوم عليها ، وأن يبيع فيه الخمر والخنا ، وذلك حتى ينشر في كيان الأمم الإسلامية جرائم العفن والضياع ، وقد فعل ووصل في أغلب البقاع إلى ما يريد ، لولا المقاومة الباسلة التى تبديها جماهير المؤمنين في أرجاء العالم الإسلامى ، أولئك الذين أبوا أن يخنوا رؤوسهم للضلال ، ورفضوا أن ينقادوا للتيار الآثم الفاسق الذى يتمرد على كتاب الله وسنة

رسوله ﷺ ، والذين جعلوا ولأئهم ومحبتهم لدينه وحرصهم على تعاليمه صبغة ثابتة في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ، بقى هؤلاء — إلى الآن — يقاومون التيارات الآثمة الماحجة التي تريد أن تضيع الإسلام وسط بلاده .

ثم هجم على المسلمين — وذاك قدر الله — اليهود في العصر الحديث ، وبدأ الهجوم سياسيا أولا ثم عسكريا أخيرا ، وتمكن اليهود من أن يقسموا الأرض الإسلامية قسمين ، رموا بأحدهما شرقا وبالثاني غربا ، واستطاعوا أن يفصلوا بين شرق العالم الإسلامي وغربه برأ بإسرائيل التي أنشأوها ، وهم يريدون توسيع رقعتها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا .

وظاهر أن اليهود لما هجموا لم يضعوا نقابا على وجوههم ، ولم يضعوا ستارا على نياتهم ، لقد جاءوا معلنين بأنهم يهود ، وبأنهم يريدون إقامة مملكة إسرائيل ، لقد عالنوا بهذا في وقت كان قادة الفكر العربى والإسلامى في بلادنا يحاولون إبعاد الدين عن المجتمع ، ويصفون الذين يتمسكون بالدين بالتأخر والرجعية .. ولأضرب مثلا يتكشف منه الناس بدقة ما وصلوا إليه وما يمكن أن يصلوا إليه إن لم يستيقظوا ، إن الضربات المتتابة تنزل بالعالم الإسلامى والعربى بوصفه دماغ الإسلام وقلبه ، وهذا العالم العربى يوشك أن يدخل في صراع دام مع اليهود ، وهذا الصراع الدامى إذا بقيت الأمور تمشى على النحو الذى كانت تمشى عليه قديما فإن النتيجة ستتكرر ، ونحن ما انتصرنا على اليهود في حرب إلى الآن ، لأننا ما كنا نقاومهم بدين ، بينما كانوا يهجمون علينا بدين ، وما يقُل الحديد إلا الحديد .

في بعض القرى أو في بعض الحارات يوجد ناس مجرمون أوغلوا في الجريمة ، ما يعرفون غيرها ، يجيئهم المجرم الصغير أو الغر يقول لهم : أنا آكل من اللصوصية — أنشل الركاب — ولكنى سجننت ، فيقولون له : دع أنشل ، وجرب السطو على البيوت ليلا ، ويعود بعد أن يأخذ عقوبة في السجن ، فيقولون له : جرب تزوير النقد ، ويجرب تزوير النقد ثم يعاقب ويحجى ، فيقولون له : جرب القمار ، إنهم يقولون له كل شيء إلا أن يقولوا له : جرب المشى على الصراط المستقيم ، جرب أن تكسب رزقك من

حلال ، جُرْب أن تؤمن بالله وتكذح وتأكل من عرق جبينك !! لماذا ؟
لأنهم مجرمون موعولون في الإثم ، مالايمان في قلوبهم أثر ولا لله في أفئدتهم
من وقار ولا من خشية ، فكيف ينصحون ؟

ويوجد الآن من يقول للعالم العربي : اعتمد على روسيا ، اعتمد على
أمريكا ، اعتمد على فرنسا ، اعتمد على إنجلترا ، إنهم يكتبون كثيراً في
تضليل العالم العربي وفي إتاھته عن طريق الله ، وما يقول أحدهم أبداً للأمة
المشردة الجريح المنكوبة : جري الصراط المستقيم ، جري العمل بالإسلام
والتجميع عليه ، جري أن تحاربي تحت رايه التوحيد ، جري أن يكون
القرآن المحور الذي تدور عليه حركة المقاومة وتنطلق منه جيوش التحرير ،
هؤلاء يقولون : أرسلوا للجنود صور الغانيات المومسات ، لعل الجندي
يموت وفي أحضانه صورة مومس ..

إذا كان الغراب دليل قوم * يمر بهم على جيف الكلاب
إن هؤلاء الذين يقودون حركة الفكر أو يمسون بزمام القلم في العالم
العربي إذا لم يكونوا مرتدين — وأنا أعلم أنهم مرتدون عن الإسلام — فهم
طابور خامس (١) يعمل لحساب الاستعمار العالمي أياً كان نوعه أحمر أو
أصفر ، هؤلاء خطيرون على مستقبل أمتنا ، وينبغي أن يكذبوا ويجهوا
عندما يرسمون وسائل الكفاح لبلدنا .

إن الناس تمسكوا بأديانهم ، وليس الإسلام عارا حتى يكون التمسك به
مسبة ، إن المرتدين من حملة القلم يريدون أن نهزم في حرب رابعة وفي
حرب خامسة لأنهم لا يعرفون إلا طريق الهزائم ، إن الكتاب الذين يكرهون
كل تجمع إسلامي ويضيقون به هؤلاء لابد أن يعرف أنهم ارتدوا من قديم
عن الإسلام ، ليس لهم بالله إيمان ، ما شرفت أجسادهم بسجدة لله في
محراب للعبادة ، هؤلاء يجب أن يعرفوا .

(١) يطلق هذا اللقب على الجواسيس ، وقد ابتكر هذا الاسم (الطابور الخامس) الجنرال
فرانكو الذي تمكن عام ١٩٣٦ من الاستيلاء على الحكم في اسبانيا رغم أن قواته كانت مؤلفة من
أربعة طوابير فقط ، وعندما سئل عن سبب نجاحه بهذه الطوابير الأربعة قال : كان هناك طابور
خامس ، وعني به مؤيديه وأعوانه من المدنيين .

إن العودة إلى الإسلام لا تعنى فقط نقل قضية فلسطين من الميدان العربى إلى ميدان أكبر منه ، ولكنها تعنى ما هو أخطر من ذلك ، تعنى أننا نحارب الخمول والبرود وعدم المبالاة وقلة الاكتراث والاستهانة بالقيم ، إننا نحارب البلادة الشائعة ، والفتور المنتشر ، والاختلاسات والسرقات ، والاستهانة بالمال العام .

أنا لو كنت عربيا مسيحيا ومخلصا لبلدى لقلت للعرب : يا أهل البلد إنكم فى تاريخكم الماضى ما تكونتم أمة إلا بالإسلام ، وما ارتفعت لكم راية ، ولا نضرت وجوهكم كرامة إلا بالإسلام ، وأنتم تواجهون دينا يريد أن يقص أجنحتكم بل أن يخلع قلبكم من بين أضلاعكم ، ولا بد أن تحاربوه بعقيدة ، إن القوميات إلى الآن جربت نفسها وفشلت فلم لا يترك للإيمان أن يجمع وللإسلام أن يتحرك وأن ترتفع رايته ؟

ما قال أحد من العقلاء أو دارسى التاريخ قديما وحديثا : إن حرب فلسطين حرب سياسية أو حرب تجارية ، لقد قيل قديما وحديثا : إنها حرب دينية ، حتى جاء التافهون ممن لا علم لهم ولا عقل يريدون تغيير التاريخ وتشويه الحقائق ، فسموا الحروب الصليبية القديمة حروبا تجارية أو سياسية ، أصحابها قالوا : إنها صليبية ، وآباؤنا قالوا : إنها صليبية ، والإثارات كلها كانت دينية ، حتى جاء التافهون فى هذا العصر يقولون : إنها ما كانت حربا دينية !!

هذا الكذب على التاريخ إلى متى ؟

حتى تضع العواصم كلها وتسقط المدينة المنورة فى يد اليهود ؟ لا بد أن تصحو الأمة ، لا بد أن يكون التجميع على الإسلام ، ما دامت الحرب يهودية علنية فليكن الدفاع إسلاميا علنيا ، نرى على الإسلام ، نجمع على الإسلام ، نستثير الشعوب الإسلامية فى الشرق والغرب ، إن الحرب عندنا فى فلسطين لاستنقاذ المسجد الأقصى حرب دينية ، والمسجد الأقصى ليس ملك بعض القبائل فى (الدلتا) أو فى (الصعيد) أو فى (الأردن) أو فى (سوريا) إنه بيت الله وملك المسلمين قاطبة .

الحرب دينية ، ويجب أن تأخذ طابعها ، وأن يكون التجميع باسم الإسلام وعليه ، والمسيحيون العرب بين أمرين : إن شاءوا الوفاء لذمتهم وأرضهم وكانوا إلى جوارنا في هذه الحرب فيها ونعمت ، وإلا فليتركونا وليصمتوا وما نلومهم ، وإذا كنا نحن المسلمين عجزة عن القتال إلا بهذا العون فبطن الأرض خير من ظهرها ، إما أن نحيا — كما نريد — باسم الإسلام أولمت كما نريد . أمّا أن نسمع للكذابين يكتبون في الصحف الكثير عن الحرب وأطوارها وأوهامها وما ينتظر منها وما يرجى لها ، وما يفكر أحد من هؤلاء في ذكر الله ولا العودة بالأمة إلى كتابة ولا استثارة المشاعر الدينية الراية النامية من أربعة عشر قرناً في أرضنا .. فهذا ما لا ينبغي أن يكون .

هؤلاء قادونا إلى العار قديماً ، ولا تزال دور هذه الصحف كعشعش اليوم ما ينطق فيها إلا طلاب الخراب لهذه الأمة فلنحذرهم على ديننا وعلى بلدنا .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم (١) .

(١) للأسف البالغ لم تسجل الخطبة الثانية .

أَحْوالُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْفِيلِينَ (١)

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإن موضوع الخطبة اليوم فرضه عليّ واقع لا يمكن تجاهله ، وملابسات لا نستطيع أن نتغاضى عنها ، موضوع هو في ظاهره تاريخي أو سياسي ، ولكنه في حقيقته يتصل بعقيدتنا وحاضرنا ومستقبلها .

الموضوع هو أن (بابا روما) ذهب في سفرة شاقة طويلة إلى البلاد التي يطلق عليها اسم (الفيلين) وهو اسم مزور مستعار ، وضعه الغزاة الأسبانيون على جزر كانت إسلامية مائة في المائة ، وبدأوا حركة تنصيرها من بضعة قرون ، ومضوا في طريقهم حتى استطاعوا أن يحققوا جزءا كبيرا من نياتهم وأن يبلغوا شوطا بعيدا من أهدافهم .

(١) الفيلين من الجزر الكثيرة والتي تقع في جنوب الصين وشمال شرق أندونيسيا وحدودها البحرية بحر الصين الجنوبي وبحر سولو غربا وبحر سيلبيز جنوبا والمحيط الهادى (بحر الفيلين) شرقا ومضيق باشى شمالا . ولها حدود إقليمية مع تايوان والصين وماليزيا وأندونيسيا ، وتبلغ مساحتها ١١٥٦٠٠ ميل مربع . يقطن الفيلين نحو ٥٠ مليون نسمة يعمل غالبيتهم في الزراعة والغابات والمؤسسات ويعتبر شعبا فقيرا بوجه عام . والديانات مختلفة أهمها النصارى والوثنيون والمسلمون (١٥ ٪ من المجموع العام) وقد وصلها الإسلام في القرن الثامن الهجرى عن طريق التجار المسلمين من الهند والجزيرة العربية وشرق آسيا وقد كان للمسلمين كيان كبير في البلاد وخاصة في جنوبها إذ أسسوا ممالك مستقلة قبل الحكم الأسباني في البلاد وبعده . وعرفت البلاد بهذا الاسم نسبة لفيليب ماركوس أحد ملوك أسبانيا السابقين .

الجزر ما كانت تسمى الفيلين ، ولكن (فيليب الثاني) ملك أسبانيا كان رجلا معروفا بتعصبه للكثلكة وقتله لأعدائها ، فأخذ الاسم ووضع على مجموعة من جزر الهند الشرقية ، الجزر كانت إسلامية كلها ، وكان المذهب السائد هناك مذهب الإمام الشافعي ، وكان العلماء من أهل البلاد أو ممن جاورها من جزيرتي (جاوة) (١) و (سومطرة) (٢) .

ثم جاء مبشر يعرف في تاريخنا الذي ندرسه بأنه مستكشف جغرافي ، وهو مبشر بالنصرانية اسمه (ماجلان) (٣) انتفع ماجلان بخبرة بعض التجارة العرب ووصلوا به أو وصل بهم إلى المضيق الذي يعرف في الجغرافيا الآن بأنه مضيق ماجلان ، ولما كانت الأرض التي بلغها إسلامية ، وكان الرجل مبشرا بالنصرانية فقد حاول أن يرفع الصليب على الأرض التي بلغها فقتل هنالك وانتهى أمره .

لكن أمر الجزر لم ينته ، فقد شرع الأسبان يوجهون إليها حملاتهم ويبدلون الجهود لمحو التوحيد وإقامة التثليث مكانه ، وبدأ صراع فيه مرارة وفيه حرقة ، لأن المسلمين الذين دافعوا عن دينهم لم يجدوا الكثير من العون ، ولم يسعفهم إخوانهم من أماكن كثيرة ، فقاتلوا في معركة تشبه أن تكون معركة انسحاب ، وكان ما نزل بهم فادحا مخوفا !!

ومأبذ من أن أذكر التاريخ ، ولما كنت معتل الجسم لا أستطيع أن أولف ، ولما كانت الحقائق التي أريد نشرها وثائق ، فمن الخير أن أقرأ ما ورد أو ما نشر ، وما نشر لمؤلف انكليزي ترجمه مهندس مسلم مصري هو الدكتور مصطفى مؤمن ، وقد نشرت هذه الوثائق مجلة سعودية تصدرها رابطة العالم الإسلامي .

(١) تقع هذه الجزيرة في أندونيسيا وهي جزيرة متوسطة يفصلها عن سومطرة مضيق سنلا .

(٢) تقع هذه الجزيرة أيضا في أندونيسيا وهي أكبر جزيرة في البلاد .

(٣) ماجلان (ت ١٥٢١) : ملاح برتغالي ، لقي تأييدا من أسبانيا لاقتراحه الخاص بمحاولة الوصول إلى ملقة عن طريق الغرب ، فأقلع (١٥١٩) ومعه ٢٧٠ رجلا على خمسة مراكب وعبر من الأطلنطي إلى الهادي عن طريق المضيق الذي حمل اسمه ، واتجه صوب (ش غ) ووصل الفيلين حيث قتل .

وقد بدأ غزو هذه البلاد في القرن السادس عشر — أى من أربعة قرون — وإبرازاً للغاية المنشودة منه فقد رصت جثث المقاومين الشجعان على نحو هيئة صليب وذلك سنة ١٥٧٦ ويقول المؤلف : إنه أول صليب صنع بأجساد المسلمين ونرجو أن يكون آخرها !!

وينشر المؤلف نص الأمر الصادر من الحاكم العام الأسباني « فرانسيسكو دى ساندى » لقائد الحملة المشثومة التى استهدفت غزو جزيرة « سولو » وهى جزيرة إسلامية مائة فى المائة يقول : اقرأ معى واحبس أنفاسك ولتكن آذاننا وعيونا لتفهم ، يقول الحاكم الأسباني للقائد الذى قاد المعركة :

« إننى آمرك بسد أفواه الدعاة إلى دين محمد ، إذ هو دين شرور وآثام ، وليس هناك من بديل عن النصرانية عقيدة ودينا ، ولما كان الدعاة القادمون من « بورنيو » (١) مثلهم فى الدعوة إلى الإسلام فواجبك مصارحتهم بأن غرضنا هو تعميم النصرانية ، ولدى اعتناقهم لها فسنتركهم يعملون فى أرضهم دون أن يصيبهم أذى من جانب سادتهم النصرارى الأسبان ، وترصد بقوة من يدعو لدين محمد ، وألق القبض عليه ، ثم سقه إلى مكبلا مخفورا » !!

لكن الحملة فشلت فشلا ذريعا ، وأعاد الحاكم الأسباني الكرة فى السنة الثانية ، وتتابعت الحملات حتى السادس من إبريل سنة ١٦٢٦ حيث استطاع القائد الأسباني « جواندى » أن يقتحم موقعا خلوا من السكان وأن يعتلى — ليلا — ربوة ذات مكان حصين ليفاجئ منه سكان جزيرة « سولو » بضربات مدفعية ، واستبسل السلطان المسلم « دتونا » فى الدفاع عن الأرض الطاهرة ، ولكنه لقى هو ورجاله شهادة جماعية إجماعية ، واستطاع الأسبان أن يجعلوا هذه البقعة منطلقا لحملات غزو على بقية معاقل المسلمين فى هذه الجزر .

(١) تقع فى أندونيسيا وهى شبه جزيرة حيث إن قسمها الشمالى يتبع لماليزيا .

يقول المؤلف : وردَّ السلطان « قدراك » حملة عارمة ، ثم وقع اتفاقا سنة ١٦٤٥ مع السلطات الأسبانية لضمان سلامة قوافل الطرفين وتبادل المنافع ، وفي مقابل ذلك سمح لهم ببناء كنيسة في جزيرة المسلمين ، ولكنهم نقضوا العهد بعد أعوام قلائل فتصدى لهم السلطان ولاذوا بالفرار تاركين وراءهم هيكلا كنيسة خاوية ، وفي سنة ١٨٢٥ — أى بعد مائتى سنة — فقد الأسبان مستعمراتهم عدا « عذراء ماليزيا » .

هذا كلام يحتاج إلى شرح ، فإن دولة أسبانيا التى نصّرت نحو أربعين فى المائة من السكان المسلمين بطرقها التى أشرنا إليها وقعت فى ضائقة مالية ، فماذا تصنع ؟

باعت الجزر بمن فيها وما فيها لأمرىكا !! فحلّ الأمريكيون فى الفيلبين محل الأسبان ، وبعد خمسة أشهر قرروا شراءها مقابل مائتى مليون دولار دفعوها لأسبانيا .

وهنا أعلن الشعب برمته الحرب ضد الغزاة الجدد ، واستمرت الحرب بين المسلمين والأمريكيين إلى سنة ١٩٠١ وفى تلك السنة تألفت لجنة من « الكونجرس الأمريكى » لوضع تشريعات للفيلبين ، حاولت تحويل المسلمين عن معتقداتهم دون جدوى ، فماذا تصنع ؟

رأى الأمريكيون أن خير علاج للمسلمين هو اجتثاثهم بشن الحرب « البكتيرية » عليهم وعلى ما شيتهم ، فاجتاحت أوبئة الكوليرا والجدرى والطاعون البانوى جزيرة « مينداناو » ثم جزيرة « سولو » سنة ١٩٠٣ . وبلغ ضحايا حرب الأوبئة حسب تقدير لجنة « تافت » الأمريكية مائتى ألف أو يزيدون ، ونفقت مئات الألوف من الدواب بأوبئة الحمرة وطاعون الماشية .

وهكذا خسر المسلمون أنفسهم وأموالهم بالخسيس المزرى من الغدر ، كما تعرضت للهلاك آلاف مؤلفة من الدواب العجماء التى لا تدرى شيئا . وتحولت جزيرة « عذراء ماليزيا » تحت حكم الأمريكيين المباشر ، وفى عهد الأمريكيين تكونت وزارة خاصة بشئون « مينداناو » و « سولو » وفى فترة الانتقال ألحق — فى غفلة من الزمن — المسلمون باختصاص وزارة الداخلية الفلبينية .

ويقول المؤلف كلاما كثيرا خلاصته : أن الأمريكيين رعوا شئون الفيلين على النحو الذى رعاها من قبل الأسبان — أى حرب متصلة ضد الإسلام — وتسلطت ضد الإسلام عصابات مسيحية مكونة من المتعصبين الذين يسمون « فئران » .

ويقول المؤلف : إن جماعة « ايجلاس » أو الفئران هي أخطر الجماعات الكاثوليكية وأشدّها تعصبا ضد المسلمين ، ولها تنظيم سرى هدفه الأول الاستيلاء على الأرض الإسلامية وإبعاد أهلها عنها ، ويتدرب أفراد هذا التنظيم فى إسرائيل !!

وحفزا لهم فى إلحاق الأذى بالمسلمين والتنكيل بهم وضعت تسعيرة بالمكافآت التى تصرف لمن يصيب مسلما بإحدى هذه العاهات :

- ١ — أذن المسلم ثمنها ١٠٠ بيزوس .
- ٢ — أنف المسلم ثمنها ١٠٠ بيزوس .
- ٣ — إصبع المسلم ثمنها ٥٠ بيزوس .
- ٤ — كف المسلم أو ذراعه ثمنها ٢٥٠ بيزوس .
- ٥ — عين المسلم ثمنها ألف بيزوس ، أى ما يوازى خمسة وثلاثين جنيها استرلينيا ..

ما أرخص المسلمين !!

وتشن هذه العصابة حرب إبادة على المسلمين لإخلاء الأرض منهم وتوريثها للصليبيين ، وقد أصبحت معسكرات اللاجئين المسلمين تضم ما يربو على خمسمائة ألف لاجئ أو مشرد !

وقد كشف المسلمون الأقنعة عن وجود تواطؤ خبيث بين حكومة « ماركوس » — الحاكم الحالى — وأولئك الفئران المسلحين .

ويمضى الكاتب فى عرضه لأمر ما نحتاج إلى تفاصيلها ، لكن الذى قرأته واستمعت إليه فى الإذاعات أن « بابا روما » لقى المسلمين فى جنوب « مينداناو » وقد استمعت إلى تلخيص ما قاله فوجدت أنه يريد تفاهما وحقوقا متبادلة وكلاما من هذا النوع ، ولعله قال لهم : إن الله محبة ، ولعله

قال لهم كلاما من هذا النوع الذى نعرف قيمته الشكلية ونذكر أن حقيقته جوفاء لا شيء فيها .

قلت فى نفسى : هل يعى المسلمون فى شرق العالم العربى وغربه من الأطلسى إلى الخليج هذه الحقائق ؟

لا . المسلمون لا يدرون شيئا عن تاريخ الإسلام وامتداداته فى شرق آسيا التى انتزع جزء منها وسمى « الفيلين » .

المسلمون هنا لا يدرون شيئا ، إنما الذى أذكره أن المسلمين هناك يحبون الإسلام ويدفعون عن أهلهم ، وعندما تورط العرب هنا فى حروب صليبية فإن إخوانهم المسلمين من جاوة ، وسومطرة ، وتركستان ، وأفغانستان ، وبلاد ما وراء النهر لم يتركوا العرب وحدهم ، فالذى قهر الصليبيين هو صلاح الدين الكردى ، والذى قهر التتار وهزم المغول هزيمة منكرة هو قطز وهو من تركستان .

لا بأس أن يُعرف الفارق بين ما فعله المسلمون القادمون من هذه البلاد البعيدة بعد أن انتصروا على الصليبيين وبين ما فعله غيرهم ، وينبغى أن تُعرف أخلاقنا وأخلاق غيرنا .

معى كتاب مترجم أيضا ، يتحدث الكاتب — وهو رجل إنكليزى — عما فعله صلاح الدين عندما استرد بيت المقدس ووقع نحو مائة ألف صليبي فى يده فيقول :

الواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والإنسانية ، فبينما كان الفرنج منذ ثمانٍ وثمانين سنة يخوضون فى دماء ضحاياهم ، لم تتعرض الآن دار من الدور الصليبية للنهب ، ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه ، إذ سار رجال الشرطة بناءً على أوامر صلاح الدين يطوفون بالشوارع يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين !!

وقد دهش المسلمون عندما رأوا البطريق يؤدى عشرة دنانير مقدار القدية المطلوبة منه ويغادر المدينة وحده وقد انحنت قامته لثقل ما يحمله من الذهب ، وقد تبعته العربات التى تحمل ما بحوزته من الطنافس والأواني

المصنوعة من المعادن النفيسة !! وبفضل ما تبقى من منحة الملك « هنرى
الثانى » تقرر إطلاق سراح سبعة آلاف من الفقراء !!

يقول المؤلف الإنكليزى : من المناظر التى تدعو إلى الأسى والحزن
ما حدث من التفات « العادل » — وهو لقب شقيق صلاح الدين —
التفت إلى أخيه صلاح الدين يطلب منه إطلاق سراح ألف أسير على سبيل
المكافأة عن خدماته له ، فوهبهم له صلاح الدين ، فأطلق « العادل » على
الفور سراح ألف أسير مسيحي !!

وإذا اجتهد البطريك هرقل لأن يلتبس هذه الوسيلة الرخيصة لفعل
الخير لم يسعه إلا أن يطلب أيضا هو الآخر من صلاح الدين أن يهب له
بعض الأرقاء ليعتقهم فأعطاه صلاح الدين سبعمائة أسير !! كما جعل صلاح
الدين لـ « بليان » خمسمائة أسير !!

ثم أعلن صلاح الدين أنه سوف يطلق سراح كل شيخ وكل امرأة
عجوز ، ولما أقبل نساء الفرنج اللاتى افتدين أنفسهن وقد امتلأت عيونهن
بالدموع فسألن صلاح الدين أين يكون مصيرهن بعد أن لقي أزواجهن أو
آبائهن مصرعهم أو وقعوا فى الأسر ؟

أجاب بأن وعد بإطلاق سراح كل من فى الأسر من أزواجهن ، وبذل
للأرامل واليتامى من خزائنه العطايا كل بحسب حالته !!

والواقع أن رحمته كانت على نقيض أفعال الغزاة المسيحيين فى الحملة
الصليبية الأولى !!

هذا ما كتبه المؤلف الإنكليزى ، وفى الجزء الثالث من كتابه — الذى
نشرته دار الثقافة ببيروت — يقول عن أفعال الغزاة المسيحيين : اضطروا
الغزاة إلى أن يفكروا فى ترك البلاد ، لكن صار الأسرى المسلمون مصدر
حيرة لهم ، فماذا يصنعون ؟

أعلن قائدهم فى برود شديد يوم ٣٠ أغسطس سنة ١١٩١ أن صلاح
الدين قد نقض عهده ، وأمر بالإجهاز على ألفين وسبعمائة أسير من
المسلمين كانوا على قيد الحياة ، فاشتد حماس عساكره للقيام بهذه المجزرة !!

حاول المسلمون أن يبذلوا الجهود لوقف المذبحة ولكنهم عجزوا عن الوصول إلى إخوانهم ، وعندما وصلوا لم يجدوا إلا بقعة تناثرت عليها الجثث المشوهة المتعفنة !!

هذا تاريخ ، الذى أسأل عنه : هل يدرس هذا التاريخ ؟ حقيقة الوضع فى الفيلبين أن المسلمين هناك صدرت أوامر بإخراجهم من الأرض الخصبة التى يزرعونها ، وبدأت الحكومة تقاتلهم لإخراجهم من هذه الأرض .
وتصوروا أن المصريين فى « الدلتا » صدر أمر بإخراجهم من « الدلتا » ليعيشوا فى الصحراء ، ماذا يصنعون ؟

لابد أن يقاتلوا ، وقاتلوا منذ تسع سنين إلى الآن ، الجريمة التى ترتكب فى الفيلبين جريمة إبادة جنس مما ينص على معاقبة مرتكبها قانون الأمم المتحدة ، لكن القانون لا يطبق إذا كان الذين يبادون من المسلمين !!
أين هذه البلاد التى كانت عامرة بالإسلام ؟

لا وجود لها ، كل ما ذكره الأبيات التى قالها أحد الشعراء (١) فى الأندلس :

تبكى الحنيفة البيضاء من أسف	كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خالية	قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس	ما فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكى وهى جامدة	حتى المنابر ترثى وهى عيدان
أعندكم نبأ عن أهل أندلس	فقد سرى بحديث القوم ركيان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم	أسرى وقتلى فما يهتز إنسان
ماذا التقاطع فى الإسلام بينكم	وأنتم يا عباد الله إخوان
ألا نفوس أبيات لها هم	أما على الخير أنصار وأعوان

هذا كلام أذكره على أنه تاريخ ، ولكن هذا التاريخ يمكن أن يتكرر ،

(١) هو أبو الطيب الرندى .

ويمكن أن ينتقل من مكان لمكان ، وفي دراستي لهزائم المسلمين — ابتداء من أحد — ما وجدت هزيمة وقعت بالمسلمين إلا كانوا هم سببها ، حتى إن القرآن الكريم لما حدثت المسلمين أو أجابهم عن تساؤلهم « أنى هذا » ؟ كان الجواب ﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾ [آل عمران : ١٦٥] .

الصليبية تطارد الإسلام من قديم ، وهذه حقيقة يجب أن تدرس وأن تعرف ، ومحاولة التغطية عليها محاولة سمجة وفاسقة ، ولذلك رأيت أن أكشف زيارة « بابا روما » للفيليين ، لأن الرجل يريد أن يضع طابعه على ما بقى من أرض الإسلام هناك !!

ثم انضم إلى الصليبيين في عدوانهم على الإسلام الشيوعيون ، والتمدد الشيوعى خطير ، وقد أخذ نصف العالم الإسلامى فى آسيا ، لأنه — كما ذكرت فى كتابى « الإسلام فى وجه الزحف الأحمر » — كانت « سيبيريا » مسلمة وقد قتل ملكها وفقت عينه وهو يدافع عنها ، كانت « القرم » مسلمة ، كانت « الأرال » مسلمة ، كانت « أذربيجان » مسلمة .

امتد الروس — والروس فى مساحتهم الطبيعية ما يملكون أكثر من أرض تشبه مساحة مصر — فى الشرق ، وأخذوا آسيا حتى بلد « البخارى » فى « أوزبكستان » وضعوا يدهم عليها .

الأمة الإسلامية تشبه المغفل الذى لا يحميه القانون ، لأنه لا يعرف مصلحته ، ويخيل إلى أن المسلمين أصيبوا بمرض « فقدان الذاكرة » فهم ما يدرون ما وقع لهم ، وبالتالي لا يعرفون ما سيقع لهم . وبقاء الأمة على هذا النحو خطر تتعرض له عقيدة التوحيد نفسها ، ولذلك وجدت أن الدين يفرض على أن أنفخ التراب عن هذه الحقائق ، وأن أبدى الصورة القبيحة لهذه الأوضاع حتى يراها المسلمون فيخرجوا من تفريطهم ومن نسيانهم لربهم .

أنا لا أخاف — والله — من الضغط الصليبي أو الضغط الشيوعى ، ولكنى أخاف من الغفلة الإسلامية ، وهذه الغفلة تبدو فى مظاهر كثيرة . وقد بدأت نهضة ، ولكن الذين يحاربون النهضة أخذوا يجعلون

المسلمين يفقدون فقدان الأولويات . يعنى لو أن عندك مائة جنيه وبيتك نخال من كل شيء ، فإن المائة جنيه تصرف ابتداء فى شراء تموين ، فى شراء الضرورات التى لابد منها للبيت ، فإذا ذهب المغفل واشترى راديو أو تليفزيون فماذا يصنع بهذا ؟!

الأمة الإسلامية فيها أزمة أخلاق ، فيها أزمة عبادات صحيحة ، فيها أزمة دفاع عن العقائد الحقيقية ، ومع ذلك فإن أعدادا من المسلمين يفكرون فى أمور ما يفكر فيها عاقل .

والآن وجدت أن عدوين يشقان طريقهما إلى الأرض الإسلامية :

العدو الأول يقول : الإسلام كتاب من غير سنة !!

وقد رأيت هؤلاء فى باكستان ، ورأيتهم فى السودان ، وامتدت أخطارهم أخيرا إلى القاهرة ، وقادهم — فيما أعلم — العقيد « معمر القذافى » .

والواقع أنه عندما تضيع السنة فسيضيع القرآن بعدها ، كأن العدو بلغ من خبثه أن قال : اقسم المعركة قسمين : اضرب السنة أولا ، فإذا انتهت منها ، انفردت بالقرآن فأجهزت عليه .

وضرب السنة جنون ، لأن المفسر الأول للقرآن هو محمد عليه الصلاة والسلام فى قوله وفعله وتقريره ، فإذا ضاع التفسير أو إذا ضاعت المذكرة التفسيرية للقانون فماذا يبقى ؟

العدو الثانى يقول : الإسلام دين لا دولة !!

وقد استؤجر لهذا أناس أصحاب أسماء لامعة كمصطفى كمال أتاتورك ، وجمال عبد الناصر ، أما مصطفى كمال فقد صنع له الحلفاء زعامة ليجعلوا منه رجلا ، وما كان رجلا ، كان جاسوسا مرتدا خائنا قذرا ، وأما جمال عبد الناصر فشخص متهور ، مقامر لا مغامر ، ما دس يده فى خضراء إلا يبيست ، ولا دخل معركة إلا انهزم فيها ، وقيل : إنه أبو العباقره !!

الإسلام دين ودولة ، كتاب وسنة .

الإسلام له ماضيه وحاضره ومستقبله .
الإسلام له أمة في المشرق والمغرب لا يمكن قبول تقسيمها .
باسم التثليث يخرج رجل من « روما » ليذهب إلى أقصى المحيط
الهادي ليلقى إخوان العقيدة !!
أما عقيدة التوحيد فلا رباط لها ، ولا أبوة ثقافية أو روحية تلم
شمها !!

هذه الحقائق لا بد أن تعرف ، وعلى المسلمين إذا كانوا عقلاء أن يعرفوا
الألويات ، فإذا كان أعداؤنا قد جمعوا شملهم على إذهاب قلبنا ومعتقداتنا
وأخلاقنا وتقاليدنا وشرائعنا وكل ماله أثر في حاضرتنا ومستقبلنا ، فما يجوز
بنت أن يشتغل المسلمون بالتوافه أو أن يتعاركوا على مالا معنى له .
أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .
وأشهد أن محمدا رسول الله ، إمام الأنبياء وسيد المصلحين .
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .
أما بعد :

أيها الإخوة : أضرب لكم مثلا لتعرفوا أن قلة الفقه تضع الإسلام في مأزق حرجة ، جاءني ذات يوم رجل من الناس يشكو خطيبا في أحد المساجد — وكنت يومئذ مسئولا عن المساجد — قال : الإمام يتهم الرسول بالنفاق !!

قلت له : أعوذ بالله ، يا رجل ما يفكر في هذا أحد ، ولا يخطر ببال امرئ من الناس .

قال : ذكر لنا أن عائشة رضى الله عنها قالت : « استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال : ائذنوا له بئس أخو العشيرة أو ابن العشيرة ، فلما دخل ألان له الكلام ، قلت يا رسول الله قلت الذى قلت ثم ألتيت له الكلام ، فقال : أى عائشة : إن شر الناس من تركه الناس أو ودعه الناس اتقاء فحشه » (١) .

قلت له : الحديث صحيح .

قال : أليس هذا نفاقا ؟

قلت له : أنت جهول لا تحسن الفهم ، هذا أدب اسمه مداراة السفهاء ، وهو أدب عالمي ، وكان معي المرحوم كامل كيلاني فقال : في شعر

(١) رواه البخارى في الأدب — باب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والرهيب ٢٠/٨ ومسلم في البر والصلة والآداب — باب مداراة من يتقى فحشه ٢١/٨ .

« شكسير » كلام عن مداراة السفهاء يشبه ما قاله الشاعر العربي :
لو أن كل كلب عوى ألقمته حجرا لأصبح الصخر مثقالا بدينار
مداراة السفهاء أدب عالمي لا يزال الناس مكلفين به في كل زمان
ومكان .

هذه واحدة ، أمس قرأت ردا على شيء كنت ذكرته وهو حديث :
« بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله تعالى وحده لا شريك
له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذل والصغار على من خالف
أمرى ، ومن تشبه بقوم فهو منهم » (١) .

هذا الحديث فهمه أحد الناس على أن الإسلام ينتشر بالسيف ، وجاء
آخر فكذب الحديث !

قلت : كلا الفريقين جاهل ، وقد ذكر النبي ﷺ وظيفته فقال :
« أنا محمد ، وأحمد ، والمقفى ، والحاشر ، ونبي التوبة ، ونبي الرحمة ،
ونبي الملحمة » (٢) .

يعنى أنا نبي السلام ، وأنا نبي القتال ، من سالمني سالمته ، ومن قاتلني
قاتلته ، فإذا حرض على قتال البغاة والمعتدين فهو نبي الملحمة ، وعندئذ
يقول : « بعثت بين يدي الساعة بالسيف » ، والسيف هنا محكوم بقول
الله جل جلاله : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن
الله لا يحب المعتدين ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « وجعل رزقي تحت ظل رمحي » إشارة
للمجاهدين ألا يخافوا ، فإن خسائر الحرب قد تكون مرهقة ، ولكن ثمراتها
في النهاية تكون رغدا لمن يضحكون أخيرا لأنهم يضحكون كثيرا .

(١) رواه أحمد ٥٠/٢ وأبو يعلى في مسنده والطبراني في الكبير كذا في الجامع الصغير ، وقال في
صحيح الجامع الصغير (٢٨٣١) : صحيح . وقد علق البخاري في صحيحه بعضه ٤٩/٤ وقال
الحافظ في شرحه : هو طرف من حديث أخرجه أحمد من طريق أبي منيب ... وله شاهد مرسل بإسناد
حسن أخرجه ابن أبي شيبة من طريق الأوزاعي عن سعيد بن جبلة عن النبي ﷺ بتمامه .

(٢) رواه مسلم — بدون « ونبي الملحمة » — في الفضائل — باب في أسمائه ﷺ ٩٠/٧
والزيادة عند الطبراني وأحمد ، وقال في صحيح الجامع (١٤٧٣) : صحيح .

هذا معنى الحديث ، والحديث ليس من رواية البخارى ومسلم ، ولكنه من رواية أحمد بسند صحيح .

الأمر يحتاج إلى الفقهاء ، من قديم كان هناك بعض الناس معروفين بالنزق ، يجرون وراء كل شيء بدون تثبيت ، فقال الله معاتباً هؤلاء : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء : ٨٣] .

لَعَلِمَهُ مَنْ ؟ أى صعلوك ؟ لا ، « لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ » .
للأسف يجيء ولد الآن يقول : الشافعى أفسد مصر !! ثم يقول : هم رجال ونحن رجال !!

والله الشافعى رجل وأنت عيّل .
يا مسلمون : الأمة الإسلامية فى مهبط الريح ، وهناك أولويات تتطلب أن نلتفت إليها ، أما أن تضع الفيلين ، وتبدأ إضاعة أندونيسيا ، وقد حدد لها خمسون سنة كى تضع ، أما أن أقرأ أنه قد وضع لأفريقيا أن لا ينتهى القرن العشرون إلا وثمانون فى المائة منها قد دخلوا فى المسيحية ، أما أن أقرأ هذا وذاك ثم أجد صعاليك فى ميدان الفكر الدينى تمزق الأمة بكلام تافه وقضايا محقورة وأمور لا معنى لها فإن هذا ليجعلنى أخشى على الأمة وعلى مستقبلها بل على يومها القريب لا على غدها البعيد .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .
عباد الله :

﴿ إِنْ أَمَرَ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَبَنَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

(١) رواه مسلم فى الذكر — باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل — ٨١/٨ .

الشَّخْصِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ عَوَامِلُ اضْمِحْلَالِهَا وَعَنَاصِرُ ازْدِهَارِهَا

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

١٩٨١م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد إن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فقد اهتممت بدراسة الطبيعة العربية وتعرف خصائصها النفسية والفكرية ، لم ؟ الأننى عربى ؟ ما أظن ذلك السبب الدافع ، لأننى أعلم أن العروبة لغة لادم ، وأن عربا قد يولدون فى أعماق الجزيرة لا يمثلون خصائص العروبة ولارسالتها ، بينما يولد رجل فى « بخارى » كأبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى صاحب « الجامع الصحيح » أو كصلاح الدين الكردى ومع ذلك فإن كلا الرجلين — وإن لم يكن من دم عربى — فهو أقرب إلى العروبة وأخلص لوظيفتها ورسالتها من غيره .

ثم أنا أعلم أننى مصرى ، وهل المصريون عرب ؟ هم يبقين استعربوا بالإسلام ، أى عربهم الإسلام ، لكن أهم قبل ذلك عرب ؟

ما يعيننى هذا ، ربما تحدث علماء الأجناس فى أن المصريين عرب أو غير عرب .

أنا ما يعينى أن يكون « رمسيس » عربياً أو بدوياً أو أى كائن ، إنما يعينى أن المصريين تعربوا بالإسلام ، وأصبحوا بالإسلام عرباً ، لذلك اهتمت بالطبيعة العربية عن رغبة فى دراسة الشخصية العربية وعوامل اضمحلالها وعناصر ازدهارها ، ووجدت أن الجنس العربى يمكن — بتعبير لا فلسفة فيه ولا تعقيد — أن تذكر له ثلاثة أدوار :

دور قديم هلك فيه هذا الجنس .

ودور وسيط ازدهر فيه هذا الجنس وساد .

ودور معاصر اضطرب فيه هذا الجنس ، وتنازعت أسباب الثناء والفناء فهو بينهما عَصِيٌّ طَيِّعٌ ، وهو بينهما مقبل مدبر ، والمعركة بين الصحة والمرض أو بين العافية والسقام لا تزال دائرة فى دمه وفى بيئته ، ونحن نرى — ثقة فى الله — أن العاقبة ستكون خيراً إن شاء الله .

لكن ما بد من دراسة أدوار هذا التاريخ ، لا بد أن يعرف لم باد الجنس العربى قديماً ، لأن الخصائص تتوارث أحياناً ، وعندما يقرأ المسلم الفقيه سورة الأعراف أو سورة هود أو سورة الشعراء، يجد أن الأنبياء العرب بذلوا جهوداً جبارة فى فطام العرب عن رذائلهم واقتيادهم إلى ربهم وتحميلهم رسالة الإسلام ، ولكنهم عجزوا عن الارتفاع إلى هذا المستوى ، وغلبتهم خصائص من جنسهم أو من دمائهم فأهلكتهم ، وقال الله يصف هذه الأجناس البائدة : ﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٠] .

إن الله لا يظلم جنساً من الأجناس ، وليس بينه وبين فئة من الفئات أو طائفة من الطوائف أو أمة من الأمم عداوة ، ولكن يصلح الناس فتطيب لهم الحياة ويمهدون لأنفسهم عنده ، فإذا أسفوا فإنما تدور الرحى (١) على أكبادهم لتطحنها ، وما يظلمون إلا أنفسهم .

(١) الرحى : الأداة التى يطحن بها ، وهى حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر ويدار الأعلى على قطب .

إننى أذكر هذه الخصائص التى ظهرت فى العرب البائدة لأننى — كما قلت — أرى التاريخ لا يستجد له جديد على ظهر الأرض ، يكاد يكرر نفسه ، حتى قيل فى المثل الرومانى : « لا جديد تحت الشمس » وحتى قيل فى المثل العربى (١) :

كل خليل كنت خالته لا ترك الله له واضحة
كلهم أروغ من ثعلب ما أشبه الليلة بالبارحة
نجىء إلى « عاد » ، لم هلكوا ؟

كانت لديهم كبرياء غريبة ، كان لديهم جبروت غريب ، يقول الله جل شأنه : ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين . قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين ﴾ [الأعراف : ٦٥ — ٦٧] .

سبحان الله ! نبي من أنبياء الله يخاطب بهذه اللهجة ؟!

إنه الكبر والجبروت ﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ﴾ [فصلت : ١٥] .

هذا الجبروت انتهى بهم إلى أن نزل عليهم من السماء عذاب أودى بهم ، كانوا عمالقة — وكما تحيىء عاصفة فتطوح برأس النخلة — كان هؤلاء يأتهم العذاب من عند الله فيجلد بهم الأرض ، وتطير منهم الأعناق ، ويبقون على الثرى كأنهم أعجاز نخل منقعر !!

قال تعالى : ﴿ كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر . إنا أرسلنا عليهم ريحا صريرا فى يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابى ونذر ﴾ [القمر : ١٨ — ٢١] .

نجىء إلى « ثمود » لم هلكوا وبادوا ؟

(١) صاحب هذا المثل طرفة بن العبد كما فى عيون الأخبار : ٥/٢ .

كان لديهم جحود غريب ، اقترحوا أن تحيئهم ناقة من الصخر ،
فانشق الصخر عن ناقة — كانت معجزة واضحة — ﴿ وآتينا ثمود الناقة
مبصرة فظلموا بها ﴾ [الإسراء : ٥٩] .

جحدوا بعدما أتهم البيئات ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى
على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾
[فصلت : ١٧] .

ثم إن الكلام يطول في شمال الجزيرة حيث كانت الأيكة وقرى مدين
وشعيب الذى يسمى خطيب الأنبياء ، وكيف نصح قومه ألا يبخسوا
الناس حقوقهم ، وألا يفتاتوا عليهم ، وأن بقية الله خير لهم ، هذا إلى جانب
القرى الشاذة التى استمرت الفساد ، وارتكبت فى ناديتها المنكر ، واقترفت
الآثام .

فالجنس العربى فى بداية تاريخه فسق عن أمر الله ف ضرب ضربة أطاحت
به وانتهى أمره ، ويقول القرآن الكريم فى سورة هود — وهى سورة تحدثت
عن الأنبياء العرب — ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون
عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنحينا منهم واتبع الذين ظلموا ما
أترفوا فيه وكانوا مجرمين . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها
مصلحون ﴾ [هود : ١١٦ ، ١١٧] .

هذه مرحلة للجنس العربى ، ثم جاءت مرحلة أخرى ، انتهت العرب
البائدة ، واصطفى رب العالمين إنسانا مطهرا مبرءا مصونا نبلا مجيدا ،
اختار محمدا ، ورباه ليربى العرب به ، وربى العرب به ليربى الناس جميعا
بهم ، وكانت المعجزة أن القبائل التى هلكت فى الأولين وباد تاريخها
أصبحت بأثر هذا النبى المبارك وبالتربية الراشدة التى وضع أسسها
واتضح معالمها فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تدوس أكفانها القديمة ،
وترتدى حلة قشبية ، وتخرج على الناس بمبادئ جديدة تقول : « إنه لا
قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعص » (١) .

(١) رواه ابن ماجه فى الصدقات — باب لصاحب الحق سلطان ٨١٠/٢ وقال فى صحيح
الجامع (٢٤٢١ — ١١٠٣) : صحيح . متعص : أى من غير أن يصيبه أذى يقلقه أو يزعجه .

خرجت بمبادئ جديدة يقول فيها رئيس الدولة أبو بكر رضى الله عنه : « أما بعد : أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أرجع إليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله » (١) .

ولذلك وقف بدوى فى بلاط كسرى — هو ربيعى بن عامر — يقول للفرس ويقول لغير الفرس ممن ورثوا جبروت الملك ، وفساد الحكم ، واستبداد الفرد ، وسيطرة العصبية العمياء ، يقول لهم :

« إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » (٢) .

إن كلمة التوحيد وضعت أسسا مكيئة لما يسمى فى عصرنا : حقوق الإنسان . هذه الحقوق جعلت رجلا — قهر الجبابرة ، هزم الروم والفرس — كعمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى قاتل أخيه فقال له — بطبيعة الإنسان الذى يرى قاتل أخيه ، وقد أسلم — : والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم !!

فيقول له الأعرابى : يا أمير المؤمنين أيمنعنى هذا حقى ؟ قال : لا (٣) . هبنى أكرهك لكن حقك يصل إليك كاملا ، لا دخل للكره ولا للحب فى مجابة أو ظلم أو إثارة ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خير بما تعملون ﴾ [المائدة : ٨] .

ولذلك كانت الخلفية وراء ربيعى بن عامر مشرفة عندما يقول للناس : جئنا نخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام !!

(١) رواه ابن اسحاق بإسناد صحيح كذا فى البداية والنهاية لابن كثير : ٣٠١/٦ .

(٢) انظر البداية والنهاية : ٣٩/٧ والكامل فى التاريخ : ٣٢٠/٢ .

(٣) انظر البيان والتبيين : ٤٣/٣ .

كانت الخلفية — فعلا — مشرفة ، لأن الناس تسامعوا أن عمر وأبا بكر من قبله وأن الحكام المسلمين كانوا — فعلا — نماذج لتقوى الله ، والسبب في هذا الإسلام .

هذا الإسلام جعل سادة الأمصار العربية من الأعاجم (١) ، سأل الخليفة الأموي الوليد أو سليمان : مَنْ سيد البصرة ؟ فلان . من سيد الكوفة ؟ فلان . من سيد مصر ؟ فلان . من سيد دمشق ؟ فلان ، كلهم كانوا أعاجم ، ما عدا واحدا فقط كان عربيا !!

ما الذى جعل الأعاجم يسودون ؟

الإسلام الذى ألغى التفرقة العنصرية ، وجعل الخلفاء يصلون وراء الحسن البصرى ، وما كان عربيا (٢) ، وجعلنا نتعلم كلنا من البخارى ، وما كان عربيا ، وجعلنا نحب صلاح الدين الكردي ، وما كان عربيا !! الحضارة العربية حضارة إنسانية ، شارك في صنعها فقهاء القرآن والسنة من كل جنس ، حتى الأدب العربى شارك في رفع رايته وتصفية ديباجته وإبراز جماله ألفنى شعراء فيهم الرومى والفارسي والعربى .

ومضت هذه الحضارة ، لكن اشتبكت في مسيرتها بالعداوات التقليدية ، هل نحن اشترينا عداوة اليهود أو النصارى ؟ لا ، يقول التاريخ : لولا ظهور الإسلام لباد اليهود !! فإن اليهود آووا إلى بلاد الإسلام في وجه الاضطهاد الذى نزل بهم في كل مكان حلوا فيه .

نحن — بطبيعة ديننا الفكرية — أصحاب سماحة ، وأصحاب نظر عقلي ، وأصحاب احترام للدليل ، لكن عندما يعرض بعض الناس سلعا كاسدة أو مغشوشة فينصرف الناس عنها إلى صاحب سلع جيدة وبضائع نقية فإن صاحب البضائع المغشوشة يرجع بالحقد، وقد قال الله لنبيه ﷺ : **﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ﴾** [البقرة : ١٢٠] .

(١) انظر مقدمة ابن خلدون — فصل في أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم العجم : ٣٣٧ .

(٢) محبى الحسن من أب « ميساني » يدل على أنه كان ينتمى إلى أسرة غير عربية .

لقد مضى المسلمون — في تاريخهم الطويل — يخدمون الإنسانية ، ثم بدأ التاريخ الإسلامي يترنح ، وبدأت الأمة الإسلامية تضطرب ، إنني قرأت رأى ابن خلدون في العرب ، وهو رأى شديد ، لكن يبدو أنه صحيح ، فإن ابن خلدون يقول : « إن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة » (١)

يستحيل أن ينهض العرب إلا بنبوة ، يستحيل أن تقوم للعرب دولة إلا بشرعية سماوية ، يستحيل أن يدعم للعرب كيان إلا بالإسلام ، فإذا فرط العرب في الإسلام فرطوا في مجدهم ، وفرطوا في كيانهم ، وفرطوا في حياتهم وشرفهم ، وأصبحوا ألعوبة في أرض الله ، بل أصبحوا أعداء لأنفسهم قبل أن يكون غيرهم عدوا لهم .

ولقد نظرت إلى الأمة العربية في عصرها الحاضر فوجدت أن برنامجا للارتداد العام وضع في أوروبا بشقيها : الشرق الشيوعي ، والغربي الصليبي ، وضع هذا البرنامج لجعل المسلمين يرتدون عن دينهم ، وأخذ هذا البرنامج يطبق بطريقة فيها دهاء ومكر .

وأحب أن أقول : إن تطبيق هذا البرنامج يستدعي أولا : محاربة الأخلاق الإسلامية ، محاربة التقاليد الإسلامية ، نزع الولاء لله ورسوله وجعل الولاء لشيء آخر ، وبدأ هذا التطبيق فعلا .

عندما أنظر للعرب الآن أجد أعراض المرض ظهرت كلها عليهم :

« كان في « ليبيا » شعب إسلامي احتلت أرضه « إيطاليا » ولكنه بقيادة « عمر المختار » يقاوم ، ثم جاء استقلال ، في ظل هذا الاستقلال يقاد إمام مسجد إلى السجن إذا قال : قال رسول الله ﷺ كذا !! أهذا استقلال ؟ أم أن أيام عمر المختار وأيام المقاومة الإسلامية للاحتلال الإيطالي كانت أشرف ؟

• كان في « سوريا » شعب إسلامي احتلت أرضه « فرنسا » ومع

(١) انظر مقدمة ابن خلدون : ١٢٦ ط المطبعة الأزهرية .

ذلك فإن المقاومة الإسلامية استماتت في استبقاء الإسلام ، وجاء بعد ذلك استقلال ، في ظل هذا الاستقلال رفض البعث العربى أن يكون الإسلام دين الدولة !! إذن ما يكون دين الدولة ؟! شيء آخر غير الإسلام !! أهذا استقلال ؟ أم أن المقاومة الإسلامية للاحتلال الفرنسى كانت أفضل ؟

• واستمعنا إلى من يقول : تكون فلسطين علمانية فيها اليهود والنصارى والمسلمون !!

أنا أرى أن فلسطين يوم أن ترتد عن الإسلام يكون وجودها تحت الحكم اليهودى أو وجودها ك Kafرة شيئاً يساوى بعضه البعض الآخر !!

لا قيمة لاستقلال بدون إسلام ، لا قيمة لنا إن لم ندخل في الإسلام ونؤدى حق الله علينا .

الذى حدث أن الاستعمار العالمى استمات في أن يسلب المسلمين عن دينهم ، وأن يتوسل بحكام لا دين لهم كى يبلغ أهدافه ، وظهرت الرذائل الخبوءة في الجنس العربى ليسفك العرب دم بعضهم البعض الآخر على نحو غريب .

كنت أقرأ من يومين معرة الاحتلال الانجليزى في بلدنا : « حادثة دنشواى » (١) وقلت في نفسى وأنا بين الضحك والبكاء : دنشواى ! دنشواى تمثل واحداً من الألف مما وقع في السجن الحربى في ظل جمال عبد الناصر ، دنشواى تمثل واحداً من الألف مما وقع في سجن القلعة وفي سجن أبى زعبل وفي سجن طرة ، دنشواى تمثل واحداً من الألف مما وقع في حلب وحماة وحمص !!

(١) وقع هذا الحادث في ١٣ يونيه ١٩٠٦م عندما قدم خمسة من الضباط الانجليز إلى دنشواى بمحافظة المنوفية لصيد الحمام فأصيب برصاصهم بعض الأهلىين ، ومن ثم هوجم الضباط ، فأصيب بعضهم ومات أحدهم ، فثار المعتمد البريطانى « لورد كرومر » وعقدت محكمة خاصة لمحاكمة المصريين ، فقصت بإعدام أربعة من الأهلى وجلد وحبس ثمانية منهم ، ونفذ الإعدام والجلد في دنشواى علناً . وقد أثار هذا الحادث الرأى العام العالمى .

إن الله أهلك عاداً قديماً لأنهم كانوا كما وصفهم الله ﴿ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جِبَارِينَ ﴾ [الشعراء : ١٣٠] .

فهذا البطش بطريق الجبروت ألم يظهر مرة أخرى في دمشق والقاهرة في ظل حكام لم يتقوا الله ، وكانوا عملاء للاستعمار العالمى ؟ هذا خط مشى فيه الاستعمار العالمى وأعانه عليه قوم آخرون من جلدتنا .

أيها الإخوة : إن مصر — وأنا أعلم بحقيقة مصر وخطورة وضعها السياسى والاقتصادى والعالمى — كانت الدعامة في نجاة العالم الإسلامى من الصليبية وحروبها في العصور الوسطى ، وكانت دعامة العالم الإسلامى عندما اجتاحت ألويه التتر بغداد ومضت جحافلهم تريد أن يُظلم العالم كله أمام زحفها حتى اصطدمت بالجيش المصرى في فلسطين وانهزم التتار .

إن مصر هي العاصمة الثقافية للعالم الإسلامى ، هي العاصمة الروحية للعالم الإسلامى ، ولذلك فإن المؤامرات تخفى وتظهر حيناً بعد حين كى ترتد مصر والعرب كلهم عن الإسلام .

وشُغل المسلمون بمحاقر الأمور ، وتركوا دهاقين السياسة العالمية يرسمون خططهم وينفذونها في صمت ، فماذا كانت النتيجة ؟ وجدنا الجامعة العربية تتفق مع إمبراطور الحبشة على أن يأخذ أترتيا وهي قطعة من أرض الإسلام ، وأخذها وبدأ تنصيرها ، كما بدأت سياسة تنصير عامة من آخر وادى النيل إلى القاهرة والاسكندرية .

وكان مما جعله عبد الناصر لضرب الإسلام أن أوهن قوى الأزهر وقوى الجماعات الإسلامية ، ودعم الآخرين وهياً لهم فرصاً ضخمة للظهور والنجاح والتفوق .

لعله قدر سابق ، لعلها إرادة الله الرحمن الرحيم ، لعلها مشيئة مالك القوى والإرادات أن مصر اعتصمت بحبل الله ، وقررت أن تبقى على الإسلام .

وهنا أقول بشيء من الصراحة والوضوح : إن مصر إسلامية شكلاً وموضوعاً ، وإن مصر ستبقى أرض الإسلام وموئل تعاليمه ومثابة جنده ،

وستبقى راية الإسلام فيها ، ولن يسمح بته بتغيير التربة الإسلامية في مصر ، وكل من سولت له نفسه — في أمريكا أو أوروبا أو من الشيوعيين في موسكو أو بكين — أن يصطنع من المؤامرات أو يفتعل من الحركات ما يغير به الطبيعة الإسلامية لمصر فإنه لن يلقي إلا الفشل ، وما دمنا أحياء ، وما دام أبنائنا من بعدنا ، وما دام تلامذتنا من ورائنا فإن مصر ستبقى بلد الإسلام ، وستنكسر أمواج الغزو على الشاطئ الصلب ، وسيبقى هذا البلد للإسلام بعز عزيز أو بذل ذليل ، لن نسمح أبدا بأن تتحول مصر عن الإسلام ، ولن تنجح المؤامرات التي تريد تحويل مصر عن الإسلام .

ولذلك فإننا نؤكد هذه الحقيقة لدور مصر الإسلامي ، ثم نقول : إن مصر — كأي بلد إسلامي آخر — احتضنت أقليات دينية ، وستبقى أسعد الأقليات في العالم الإسلامي ما دام الإسلام في مصر ، ولا ضمان للأقليات الدينية في العالم الإسلامي إلا إيماننا بالله واعتصمانا بكتابه واتباعنا لسنة نبيه ﷺ .

وكون الأقليات الدينية تحاول — بالاتصال بأمريكا وأوروبا — أن يكون لها عز أو شأن ، فإن ذلك لن ينجح قصدها ولن يرفع لها خسيصة ، ويستحيل أن يبقى لها مكانها إلا في وسط مصر المسلمة وكل بلد إسلامي يريد أن يوفى لربه ولتراثه ولدينه .

ونقلها صريحة . ليس في مصر مكان لـ « سعد حداد » (١) وليس في مصر مكان لـ « يعقوب حنا » (٢) جديد ، إن مصر الإسلامية ستبقى مصر الإسلامية .

(١) الراحل سعد حداد قائد الميليشيا المسيحية اللبنانية : ضابط لبناني منشق ، وعميل إسرائيل وقرينها في التعصب العنصري ، وقد ذهب إلى حيث ألفت .

(٢) ولد المعلم يعقوب في « ملوى » حوالي عام ١٧٤٥ من حنا وماريه غزال ، والتحق في عهد « علي بك الكبير » بخدمة « سليمان » أغا الانكشارية أو رئيسها ، وعندما جاءت الحملة الفرنسية على مصر .. تظاهر مع الفرنسيين ، وجعلوه ساري عسكر القبط .. فجمع شبان القبط وحلق لحاهم وزياهم بزي مشابه لعسكر الفرنسيين .. وصيرهم عسكره وغزوه وجمعهم من أقصى الصعيد ، وهدم الأماكن المجاورة لحارة النصارى — التي هو ساكن بها — خلف الجامع الأحمر ، =

ولمناسبة الأحداث الأخيرة (١) ذهبت وجملة المسؤولين عن الدعوة الإسلامية من رجال الجماعات الإسلامية والهيئات الإسلامية إلى وزير الداخلية (٢) وتكلمنا معه وقدمنا له مطالبنا ، ولأقل : إن المطالب أجيب .

حقيقة الأحداث : هناك ألفان وخمسمائة متر حاول بعض الناس اغتصابها لينوا عليها بدون إذن الدولة والشعب معبدا لغير المسلمين مع عدم حاجتهم تماما إلى هذا المعبد .

تقرر نهائيا أن يبنى المسجد ومعهد ديني في هذا المقر ، وبقي على الأزهر أن يؤدي رسالته أو واجبه ، وسيؤدي هذا ، وستعين الجماعات الإسلامية على بقاء المكان للإسلام .

أما الذين قتلوا واعتدوا وأجرموا فسوف يأخذ القضاء العادل مجراه بينهم وعلى عجل ، وشيء أخير وهو أن تجريد المعتدين من السلاح لا بد منه ، ولا بد أن يأخذ دوره وامتداده ، وقد انتهت الأمور إلى هذا .

لكني أنظر إلى الوضع بعد ذلك فأرى أن الأمة الإسلامية تحتاج إلى أن تعيد النظر في الطريقة التي تفكر بها والطريقة التي تحيا بها ، فإننا مدهولون عن المؤامرات الاستعمارية الكبرى التي تريد الإجهاز على ديننا والنيل منه ، تفكيرنا سطحي ، شغلنا بالتوافه ، والأمر يحتاج إلى أن تعرف أمتنا — كما قلت — المؤامرات العالمية الكبرى لضرب الإسلام في العالم الإسلامي وفي مصر بالذات !! .

— وبنى له قلعة ، وسورها بسور عظيم وأبراج ، وباب كبير يحيط به بدنان عظام ، وكذلك بنى أبراجا في ظاهر الحارة جهة بركة الأزبكية ، وفي جميع السور المحيط والأبراج طيقانا للمدافع وبنادق الرصاص على هيئة سور مصر الذي رمه الفرنسيون ، ورتب على باب القلعة — الخارج والداخل — عدة من العسكر الملازمين للوقوف ليلا ونهارا ، وبأيديهم البنادق على طريقة الفرنسيين » [تاريخ الجبرتي] وفور توقيع وثيقة استسلام و جلاء جيش الاحتلال الفرنسي بادر يعقوب فخرج مع جيش الاحتلال ومات في عرض البحر ووضعت جثته في برميل من الخمر حتى لا يتعفن إلى أن وصلوا إلى مارسيليا ودفنوه !! وهكذا كان يعقوب حنا الطايور الخامس المسلح الذي قاتل ضد مواطنيه الثائرين ولكنهم يريدون افتعال قضية له ، واختاروا هذا المسخ بالذات لجعلوه رائد القومية المصرية !!

(١) أحداث الزاوية الحمراء بالقاهرة في يوم الأربعاء ١٧/٦/١٩٨١ م .

(٢) محمد نبوي إسماعيل .

وهذا لا يقتضى حماسة يوم ولا فصاحة خطيب ، لا ، هذا يقتضى سياسة مدروسة بعيدة المدى ، فإن اليهود لما أرادوا اغتصاب فلسطين وضعوا خطة بعيدة المدى تنفذ على عشرات السنين ، ولا أدري ما الذى يجعل المسلمين يضعون خططاً لأيام أو لأسابيع ؟! السياسات البعيدة المدى لا بد منها ، لا بد أن يكون لنا من نتعلم منه ، ومن يشرف على نواحيها المادية والأدبية ، ويحنو على الإسلام ، ويتألم لألمه ويفكر بمشاعره وقضاياه ، لا بد من هذا كله .

إن أمتنا الإسلامية تعيش فى العالم الآن وفيها غفلة غريبة ، جاءت امرأة من الولايات المتحدة الأمريكية فى أوائل الأربعينات ، وراحت إلى أسيوط (١) ، وبدأت عملية تبشير ، وحصيلة تبشيرها الآن مستعمرة من نحو عشرين فداناً فيها نحو ألفى رجل وامرأة دخلوا المسيحية على المذهب البروتستانتي !!

المرأة — فى صمت — اشتغلت بأخذ اللقطاء وتربيتهم وتدريبهم وتعليمهم ، وهم الآن يمثلون مستعمرة داخل أسيوط ، لماذا يكون الفكر التبشيري طويل الأمد ، طويل البال ، واسع الحيلة ، بينما الفكر الدينى عند المسلمين طائش سريع ملتهب ويخمد على عجل ؟

إن المسلمين يجب أن يكون لهم — فعلاً — من يرسم لهم هذه السياسات الطويلة المدى ويصبرهم ويومهم وحاضرهم ومستقبلهم ، يصبرهم بتأريخهم الغابر وما يستفاد منه من عبر .

إن كل حكم — على أى شبر من أرض الإسلام — يخاصم الإسلام هو عميل مرتد يشتغل لحساب الشرق الشيوعى أو الغرب الصليبي ، وكلاهما الآن مسلح وذكى .

مخاصمة الإسلام لا تجوز ، الولاء كله للإسلام ، والحب كله لله ولرسوله ، وما عدا ذلك فهو تبع ، نحن نريد أن يعلم القاصي والداني أن مصر لن تكفر بالله ، لن تهجر الإسلام ، إننا لن نقبل عمالة لشرق أو لغرب .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

(١) محافظة أسيوط إحدى محافظات الصعيد المصرية .

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .
وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .
وأشهد أن محمدا رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

عباد الله : أوصيكم ونفسي بتقوى الله .

وأرى أيها الإخوة أن تنتهى المأساة التى يمر بها البلد ، فلا داعى لإشعال الحرائق ، ولا داعى للمضى فى فتن لا يعرف لها أول من آخر ، وليس معنى هذا أن نسلم أعناقنا للجزارين ، بل نكون أذكياء فى الدفاع عن أنفسنا ، حاذرين فى ألا تقع أقدامنا فى حبال الغادرين الخونة .

أيها الإخوة : إننا إن شاء الله بعد صلاة الجمعة سنصلى صلاة الغائب على من مات من المسلمين فى هذه المحنة ، وسنجمع أيضا بعض التبرعات للمنكوبين الذين ناهم ما ناهم بعدما أخذوا غدرا .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

(١) رواه مسلم فى الذكر — باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨ .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

نَظَرَاتُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ (١)

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

١٩٧٣/١١/٣٠

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإن الله جل شأنه سمى خطبة الجمعة ذكراً في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَادَى لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة : ٩] .

والذين يسعون إلى هذا المسجد إنما يجيئون كي يُكُونُوا من الحشود الماثلة فيه بين يدي الله مجلس ذكر كبير لرب العالمين .

ثم إن الوقت الذي يقضونه هنا نحاسب عليه أمام الله ، فلا يجوز أن يضيع إلا فيما هو جدٌ ونافع وجامع لثواب الدنيا والآخرة .

وقد رأيت أن أبدأ تفسير السورة الكبرى في القرآن الكريم وأنا أتمثل هذين المعنيين — أننا جئنا هذا لنذكر الله جل جلاله ، وأن أوقات الذين يجيئون هنا غالية لا يجوز أن تضيع إلا فيما هو خير .

السورة التي أردت أن ألقى نظرات عليها — هذا اليوم وأياماً أخرى إن شاء الله — هي سورة البقرة ، وهي أطول سور القرآن الكريم ، وأملؤها بالأحكام ، وأحفلها بالعبر والهدايات .

روى عن أنس رضى الله عنه : « كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جُددَ فينا يعنى عَظُمَ »^(١) أى عَظُمَت منزلته وأصبحت له مكانة ، وذلك أن الحفظ قديماً ليس كهيئتنا الآن ، نحن أشرطة حية تحفظ القرآن الكريم أحرفاً وألفاظاً ، أما الأولون فكانوا يحفظون القرآن الكريم على نحو آخر ، كانوا يستعينون على حفظه بالعمل به ، كانوا يستوعبون ما فيه من نور ، يستبطنونه في سرائرهم فهي به مُشرقة ، وهم به على درجة من الإيمان والصلاح والاستقامة يَشْرَكُون بها الملائكة الأعلى !! .

أحب أن أوجه النظر إلى خطأ شائع بين المسلمين ، إنهم يظنون أن الآيات تُجمع في السورة من السور ويُركم بعضها فوق بعض ، وكما تنظر إلى دُكَّانٍ جُمعت فيه السلع ورُمي بعضها فوق البعض الآخر دون ترتيب أو ضبط أو تنسيق ، بعض الناس يظن سور القرآن تجمعت الآيات فيها على هذا النحو : رُكَّامٌ من الأحكام ليس هناك ضابط ولا رابط في حشده وسَوِّقه ، وهذا خطأ كبير .

ولذلك اجتهدت أن ألقى نظرات على التفسير الموضوعي للقرآن الكريم من على هذا المنبر ، وتفسير سورة البقرة سنأخذ فيه هذا المنهج : أن السورة كلها وَحْدَةٌ مرتبطة متناسقة ، لها محور تدور عليه ، ولها أول يمهد للآخر ، وآخر يصدق الأول ، ومهما طالت السورة فإن المعنى الذى نقرؤه الآن يَطْرُد في سور القرآن ، ومن أول هذه السور سورة البقرة .

بينى وبين نفسى — وأنا أشرح القرآن الكريم وأفسره — سميتها — أى سورة البقرة — سورة (الأتقياء) !! .

(١) رواه أحمد ١٢٠/٣ .

وقد تسأل : لم سميت هذه السورة — بينك وبين نفسك — بهذه التسمية ؟ .

والجواب : لأنني لاحظت — فعلاً — أن السورة كلها تدور حول حقيقة التقوى ومعالمها وما يوصل إليها وأقسام الناس منها ومواقف الأولين والآخرين من حقيقة التقوى !! .

لا بد من نظرة مجملة سريعة ، ثم نظرة مفصلة قليلة ، ثم نظرات جانبية مختلفة ، فلننظر النظرة السريعة .. النظرة السريعة أن السورة بدأت تقول : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ [البقرة : ٢] .

هذا القرآن بعيد عن الشبهات ، لا تتسلل إليه ريبة ، أما الكتب الأخرى فإن الريب تكتنفها ..

إن الله صان هذا الوحي الخاتم ، وجعله منزهاً عن أى شك ، فما فيه حقائق مقطوع بها ، يستحيل أن تكون في هذا الكتاب عقائد أو عبادات أو معاملات أو أخلاق أو أحكام جزئية أو كلية فيها شيء من الخلل ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ .

أوجه النظر إلى كلمة (المتقين) فإن مفتاح السورة إنما تمسك به عندما تقف هنا وقفة متدبرة .

أولاً : من هم المتقون ؟ الجواب : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾ [البقرة : ٣ ، ٤] لكن ما التقوى بعد هذه الأوصاف الجملة للأتقياء ؟ .

هنا أخذت السورة تُفيض في شرح التقوى ، وأوجه النظر إلى أن السورة نحو خمسين صفحة ، وأنه ما من صفحة أو صفحتين إلا وكلمة (التقوى) ترد تقريباً ..

ولأضرب الأمثلة : في الصفحة الأولى ﴿ هدى للمتقين ﴾ بعد صفحة واحدة تجد التقوى أساساً في العقيدة ، أن توحد الله وتعبده عبادة مبرأة من كل شرك شاعراً بأنه الذى خلقتك وخلق أجدادك من قبلك ويخلق

أولادك من بعدك : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ [البقرة : ٢١] .

ثم يبين أن الجنة أعدت للمتقين ، ثم يبين أن الأمة التى حملت الوحي قديما - وهى أمة بنى إسرائيل - سقطت عن مستوى التقوى ، ويبين الله جل شأنه لم سقطت عن هذا المستوى ، وما الذى فعلته حتى فقدت خلق التقوى وأصبحت أمة فاجرة لا عهد لها ولا شرف ، ثم يبين للأمة التى استخلفت بعد ذلك وحملت مشعل الوحي كيف تتقى وما معالم التقوى فى سلوكها ، فوجدنا آية - وسط السورة - جامعة تبين كيف تبلغ الأمة حقيقة التقوى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين ﴾ وبهذا أكد المعنى الأول وهو الإيمان بالغيب ، فى أول السورة : ﴿ ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ هنا يحىء نفس المعنى : ﴿ وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ [البقرة : ١٧٧] ﴿ وأولئك هم المتقون ﴾ لأن السورة بدأت : ﴿ هدى للمتقين ﴾ !! ألقوا معى بآلكم فإن سورة من خمسين صفحة غاب عن كثير من الناس أنها تدور على محور واحد ، وظنوها مجموعة من الآيات رُكِّم بعضها فوق بعض على غير نظام وإلى غير هدف ، وهذا باطل .

أخذت السورة - بعد ذلك - تبين للأمة التى أنشئت بعد بنى إسرائيل وأوتمنت على رسالات السماء كيف تتقى الله ، وأوجه النظر هنا إلى أن أغلب آيات الأحكام فى هذه السورة قُرْنٌ بالتقوى ، خذ مثلا قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ [البقرة : ١٨٣] .

خذ مثلا قوله تعالى : ﴿ ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون ﴾ [البقرة : ١٧٩] ، خذ مثلا قوله تعالى : ﴿ الحج أشهر معلومات فمن فرض فىهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى

واتقون يا أولى الألباب ﴿ [البقرة : ١٩٧] ، خذ مثلاً قوله تعالى — وهو ينظم العلاقة في البيت : ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين ﴾ [البقرة : ٢٢٣] ، حتى عند تنظيم الطلاق يقول : ﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزوا واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم ﴾ [البقرة : ٢٣١] ، ويظل الأمر بالتقوى ماشياً في صفحات السورة حتى تصل إلى الصفحة الأخيرة وهو ينظم المعاملات بين الناس فيقول — بعد أكبر آية في القرآن وهي آية الدين : ﴿ وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه ﴾ [البقرة : ٢٨٣] تكررت كلمة ﴿ التقوى ﴾ في السورة نحو أربعين مرة لأن الدعامة التي نهضت عليها السورة هي : ﴿ هدى للمتقين ﴾ ، وعندما قلت : إننى — بينى وبين نفسى — رمزت للسورة في دماغى بأنها سورة (الأتقياء) إنما قصدت بذلك أن هذه السورة وضعت المواصفات لتقوى الله ، ومعنى التقوى : أن تعرف الله ، لكن أى معرفة ؟ . معرفة نظرية صورية ؟ لا . التقوى أن تعرف الله معرفة تتحول إلى خشية نفسية وخوف عاطفى وإجلال وجدانى لله جل شأنه !! .

هل التقوى معرفة وخشية كلاهما داخل النفس البشرية فقط ؟ لا ، لابد أن يظهر ذلك في السلوك : عبادة ، معاملة ، خلقاً ، لأن هذه السورة تناول المجتمع ، ففي ميدان العبادة يقال : ﴿ كتب عليكم الصيام ﴾ [البقرة : ١٨٣] وفي ميدان التشريع يقال : ﴿ كتب عليكم القصاص ﴾ [البقرة : ١٧٨] وفي ميدان السياسة والدولة يقال : ﴿ كتب عليكم القتال ﴾ [البقرة : ٢١٦] اللفظ واحد ، يشمل تشريعات عبادية واجتماعية وسياسية ، لأن التقوى لا تنقسم ولا تنفك ، فالضمير التقى هو الضمير الذى يكون الإنسان به مؤثماً على صلاته وصيامه ، على قضائه بين الناس

وحكمه في شئونهم ، على خصومته فهو ما يخاصم إلا الله ، وما يحارب إلا الله ، الكيان الإنساني كله ما يَنْضَج ولا يَعْظُم ولا يَكْرُم إلا بمقدار ما تصقله التقوى !! .

هذه نظرة مجملة على السورة ، كَأني في طائرة أطوف بمدينة كبيرة فَأنا ألقى نظرة مجملة سريعة !! .

لكن عندما أبدأ فَأُنظر نظرة متفحصة متأنية لكل جانب أجد أن السورة — وهي تتحدث عن الأتقياء — بينت أن الناس ثلاث فرق : مؤمنون أتقياء ، وكفار ملحدون فجرة ، ومنافقون هم في باطن أمرهم لا إيمان لهم ، ولكنهم في ظاهر أمرهم — ورعاية لمصالحهم — يلتحقون بِرُكْب المؤمنين !! آيتان أو ثلاث في المتقين ، آيتان في الكافرين ، ثلاث عشرة آية في المنافقين !! .

أُغفل البصر قليلاً — مع أول السورة لأجد هذه الكلمة في وصف المتقين : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ ما هو الغيب ؟ الغيب شيء وراء المحسوس ..

من قديم كان ناس يقولون : ما نؤمن إلا بالمادة ، ما نؤمن إلا بالمحسوس ، يحىء رجل إلى النبي ﷺ وفي يده عَظْمٌ وهو يُفتته ويُذريه في الهواء وهو يقول : يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ فقال : « نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار »^(١) يستطيع الذي خلق أولاً أن يخلق أخيراً !! .

لكن ما هو منطق الجاهلي ؟ هو ما يتردد الآن في بعض الصحف من أن الإيمان بالغيب ليس تفكيراً عقلياً !! .

(١) قال السيوطي في لباب القول في أسباب النزول ص ٢٢٧ : أخرجه ابن أبي حاتم عن مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي وسموا الإنسان أُنًى بن خلف . وقبل أن يسوق السيوطي هذه الرواية لابن أبي حاتم قال : أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال : جاء العاصي بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل ففتته فقال : يا محمد أبعث هذا بعد ما أرم ؟ قال : نعم يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يحْييك ثم يدخلك نار جهنم . فنزلت الآيات ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة .. ﴾ إلى آخر السورة ..

إننا نؤمن بأن الله موجود ، ونحن لا نُحسُّ الوجود الإلهي بأصابعنا ، نحن لا نُحسُّ عقولنا بأصابعنا ، نحن لا نُحسُّ أرواحنا بأصابعنا ، فكيف نتصور أن رب المادة والروح يمكن أن يُدرك بالحس العادي ؟ هذا مستحيل ، ولذلك كان الإيمان بالغيب شيئاً مستهجناً عند من عبدوا الحس ﴿ كلا إن كتاب الفجار لفي سجين . وما أدراك ما سجين . كتاب مرقوم . ويل يومئذ للمكذبين . الذين يكذبون يوم الدين . وما يكذب به إلا كل معتد أثيم . إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ [المطففين : ٧ - ١٣] أى خرافات الماضى ، والماضى يجب أن يُترك ، الإيمان بالله ، الإيمان بالوحي أساطير الأولين !! .

هذا الكلام تكرر كثيراً : ﴿ ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ [الأنعام : ٢٥] الكلام عن الماضى وأن الماضى خرافى وأن ما نرثه عن الأوائل هو الخرافات ليس كلاماً جديداً من اختراع العصر الحاضر ، لا ، هذا كلام قديم ، عندما كان الوحي الأعلى يتلى على الناس كان الملحدون يقولون نفس الكلام الذى يقال الآن فى بعض الصحف !! الإيمان بالغيب شيء لا بد منه ، لأننا نحن البشر ما نستطيع أن نرى إلا أجساماً معينة ووفق مسافات معينة فإن طالت المسافة عجزنا عن الرؤية ، وإذا دقت الأجساد أو صغرّت عجزنا عن الرؤية ، والله أكبر وأجل من أن يُرى أو يُلمس أو يُحس على هذا النحو الذى يفكر فيه الذين يصفون أنفسهم بالعلم ولا علم لهم .

هذه السورة بدأت تصف المتقين وتبين أن المتقين الذين يؤمنون بالغيب يضمون إلى ذلك أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويؤمنون بما نزل أولاً من كتب على أنبياء الله جميعاً ، وأن هذا الإيمان الشامل لا بد منه لكل من يريد استيعاب الإيمان والتصديق بما عند الله . بدأت السورة بعد ذلك تتحدث عن بنى إسرائيل ، والحديث عن بنى إسرائيل نوجه النظر إليه من وجوه :

أول هذه الوجوه أن القوم كانوا فعلاً — كما ذكرت السورة — قوماً مُفضّلين : ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين ﴾ [البقرة : ٤٧] ، لكن إسرائيل الذي فُضِّل وفُضِّل أبناؤه على العالمين بم فُضِّل وفُضِّل أولاده ؟ تقول السورة نفسها : إن إسرائيل — وهو يعقوب — كان نبياً يدعو إلى توحيد الله ، وكانت دعوته امتداداً لدعوة جده إبراهيم ، وكان هذا النداء بتوحيد الله ، والحرص على هداية الناس به كان ذلك المثل الأعلى الذي يتوارثون تبليغه والتجمع عليه : ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾ [البقرة : ١٣٣] فهل أولاد إسرائيل الآن على مستوى الرسالة التي بلغها إسرائيل ؟ لا ليسوا على المستوى ، من الناحية النظرية الكتاب الذي بين أيديهم مشوه ، ملئ بالمفاسد الخلقية ، إن الذي يقرأ سفر (نشيد الإنشاد) الذي لسليمان — وهو موجود في العهد القديم — يقرأ جُملاً عاهرة ، وعبارات سيئة رديئة مليئة بالانحلال ، مليئة بالدعوة إلى الفسق والإثم ، وما يتصور في كتاب مقدس أن ينطوى على هذه المآسى والمخازى .

وسفر (التكوين) — وهو حجر الزاوية في العهد القديم — سفر ملئ بوصف الله بالجهل والندم والتجسد والأكل مع البشر والمصارعة لبعض الخلق وما إلى ذلك مما لا يمكن أن يكون كلاماً مقبولاً ولا معقولاً !! .

ثم إن فكرة إسرائيل التي قامت على أساسها الدولة فكرة مليئة بالشُرور والفطرسية ، وعندما كنت في (المغرب) ثَقُلَ لي صديق — يعرف الفرنسية — تصريحاً لـ (بن غوريون) — وهو شيخ مشلول الآن بين يدي ربه — يقول : إن الله خلق الكون في ستة أيام ولم يكن لديه وقت لإصلاحه فنحن الذين نتولى إصلاحه بدلاً عن الله !! .

هذا الكلام سجله صديق لي في مجلة سويسرية معروفة الاسم ورقم العدد .

ماذا أثمر هذا الكلام ؟ .

أُثِرَ أن اليهود في العالم كله من وراء اضطرابه النفسى والخلقى والاجتماعى ، ولذلك فإن القرآن عندما خاطب هؤلاء قال لهم : ادعوا ما لديكم واتبعوا النبى الجديد الذى يعلمكم ، إن كانت لكم مكانة فيستحيل أن تبلغوها إلا إذا تبعتم الصالحين وإمام الصالحين محمد بن عبد الله : ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً وإياى فاتقون ﴾ [البقرة : ٤٠ ، ٤١] .

هذه المعانى كما ذكرت لبنى إسرائيل ذكرت كذلك بالنسبة للمسلمين ، ما معنى هذا ؟ .

من إنصاف القرآن أنه عندما يُشرِّح كيان الأمم الهالكة يذكر محامدها ومعانيها على سواء ، وعندما يذكر الأمة التى تحمله وتبلغه — وهى الأمة الإسلامية — يذكرها كذلك بأنها إن لم تؤد ما عليها ضاعت ، وإن لم تلتزم السنن المرسومة زاعت ، ولذلك يقول للمسلمين : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون . فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾ [البقرة : ١٥١ ، ١٥٢] ومعنى ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾ أنكم إذا نسيتمونى فسأنساكم ، إذا لم تؤدوا حقى فلا عهد لكم عندى ، إذا لم تلتزموا منهج التقوى الذى رسمته — فى هذه السورة — فإنكم سينطبق عليكم ما ينطبق على الأمم قبلكم !! .

عندما نستعرض السورة تفصيلاً سنجد أن التقوى شملت نظام الأسرة ، نظام البيع والشراء ، نظام الزواج والطلاق ، نظام الرضاعة ، نظام اليمين ، نظام الإيلاء — وهو الحلف على شىء معين بالنسبة للمرأة .

السورة هنا شملت أغلب الأحكام التى ورد بها القرآن الكريم ، وبينت أن إقامة هذه الأحكام فى جملتها هى التى تجعل المجتمع الإسلامى تقياً ، وتجعل الأمة الإسلامية جديرة برعاية الله .

بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها
وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء
والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴿ [البقرة : ١٦٤] .

سورة البقرة ، يمكن أن نقول بإجمال : إنها تحدثت عن التقوى في أول
صفحة منها ثم أخذت بعد ذلك تصف معالم التقوى ، ووسائل بلوغ
التقوى ، ومن هم الأتقياء ، وغير الأتقياء وأحوال الأمم القديمة ، وأولها أمة بنى
إسرائيل ، كيف سقطت عن مستوى التقوى ، كيف جاءت الأمة
الإسلامية بعد ذلك ، وكيف ورثت الوحي الأعلى ، وكيف تتقى الله ،
كى تؤدي رسالته ، وكى تكون أهلاً للاستخلاف فى الأرض ، وكيف
تعتمد على الله فى إيمانها وعبادتها ، وفى النهوض بالتكاليف التى حُمِلَتْها ..

إن الله جل شأنه عندما أمرنا أن نقوم بما أوجب علينا خلال هذه
السورة المطولة من عبادات ومن أعمال ومن تكاليف فإنه كلفنا أن نبذل
وسعنا ، وطلب منا أن نستغفره فيما نخطئ فيه أو ننساه وطلب منا كى
نثبت على الدين وكى نتمكن من العيش به أن نستمد منه العون فى الانتصار
على الكافرين الذين يحاربون هذا الدين والمنتسبين إليه .

هذه صورة سريعة لسورة البقرة ، يحتاج الأمر بعد ذلك — كما قلت
لكم — إلى صورة مفصلة لبعض أركان هذه السورة الكبرى .

نرجو أن يوفقنا الله إلى تكوين هذه الصورة فى خطب أخرى .
أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فأريد أن أوجه النظر إلى شيء يتصل بحياة العرب والمسلمين في عصرنا الحاضر ، عندما اتجه الاستعمار العالمى إلى إقامة دولة لإسرائيل على أنقاض فلسطين كان يريد أن يبلغ هدفه عن طريقين :

أولاً : إرسال اليهود من نحو تسعين دولة إلى المقر الجديد الذى اختاره لهم .

ثانياً : إشاعة الفوضى العقائدية والأخلاقية فى الكيان القريب ، وفى الكيان الإسلامى العام ، حتى لا يستطيع هذا الكيان العربى بعد تمزيق عقائده وأخلاقه أن يقاوم السرطان الذى غرس داخله .

صار الأمران معاً ، عندما أوجد بنى إسرائيل على أنقاض فلسطين كان فى الوقت نفسه يوجد داخل أمتنا أشخاصاً وهيئات وحكومات ، وظيفتها أن تحطم عقائد الإيمان ومعاهد الفضيلة وتجعل الأمة لا إيمان لها ولا صلة لها بالله !! .

وبذلك تعجز عن مقاومة اليهود الذين جاءوا متعصبين لدينهم متمسكين بتوراتهم ، لاحظتُ أن الصراع بين الإيمان والكفر أخذ طريقاً

طويلاً ، لكن شاء الله — رحمة بنا ومنة علينا — أن يجعل هذه الأمة تثوب إلى رشدّها وترجع إلى ربّها وتستمسك بصيحة التوحيد التي أبعثت خلال صفوفها المقاتلة ، وأدرك أهل الشرق والغرب جميعاً أن العرب في معرّكتهم الأخيرة^(١) كانوا جنساً آخر لأن الإيمان عاد إلى قلوبهم ، لأن تكبير الله طهر أفواههم ، وجمع صفوفهم ، ووجد كلمتهم ، وأزال ما بينهم من جفوة^(٢) .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر »^(٣) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة ...

(١) معركة العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ هـ السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ م .

(٢) بقى تعليق بسيط للأسف لم يُسجل .

(٣) رواه مسلم في الذكر — باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨ .

نَظَرَاتٍ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ (٢)

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

١٩٧٣/١٢/٧

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فكتابنا العظيم الذي لا ريب فيه ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه مصدر اليقين الراسخ ، والإيمان البالغ ، وسائق للأدلة القوية والبراهين الدامغة !! .

هذا الكتاب ناشر الإيمان في الدنيا على وجهه الصحيح ، ومصور الحقائق التي يحتاج الناس إليها في معاشهم ومعادهم !! والناس بإزاء هذا الكتاب صنفان :

صنف آمن بما جاء فيه ، وصنف صدّ عنه وكفر به .

وفي الصحائف الأولى من سورة البقرة حديث عن الصنفين معاً : الصنف المؤمن التقى ، الحريص على مرضاة ربه ، الراغب في ادخار شيء عنده يلقاه به يوم القيامة ، هذا الصنف من الناس ندع الكلام فيه قليلاً إلى صنف آخر .

الصنف الآخر هم الذين كفروا ، وقد قسمتهم سورة البقرة قسمين :
القسم الأول : ظهر بكفره ، واستعلن بضلاله ، ولم يجد حرجاً في أن
يكون مواجهاً للناس بما عنده .

القسم الثاني : ظهر بالإيمان ولكنه أسرَّ الكفر ، ظهر بالهدى ولكنه
أبطن الضلال ، هذا الصنف سرعان ما تكشف الأيام عن خباياه ، وتفضح
سرائره ، ويبدو للناس ما اكتتم من أمره ، وهم المنافقون ، والمنافقون كفار
يقيناً ، إلا أنهم — كما قلت — لمصالح خاصة تظاهروا بغير ما في باطنهم ،
وقد تحدث القرآن عنهم في هذه السورة وفي غيرها ، في هذه السورة تناولهم
بهذا الأسلوب : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ
مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ
وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١١ - ١٣] .

ونقف وقفة قصيرة عند هذا التوضيح لموقف المنافقين والكفار ، فقد
تبين لنا من دراسة هؤلاء الكافرين أنهم صنفان : صنف يعرف الحقيقة ،
ويدرك أن رسل الله جاءوا بالبينات ولكنه لشهوة غالبة ، لمال يحتاج إليه ،
لمنصب يحرص عليه ، لطمع من أطماع الحياة العاجلة ، لشيء من هذا أو
ذاك يرفض أن يصدق وأن يستكين لله وأن يلبي مطالب الدين ، هذا النوع
من الناس يعرف الحقيقة ولكنه يرفض أن يصدق بها وأن يخضع لها !! .

في هذا الصنف يقول الله عز وجل : ﴿ وَجحدوا بها واستيقنتها
أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ [النمل : ١٤] في
هذا الصنف يقول الله عز وجل : ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في
الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشـد
لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا
بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ [الأعراف : ١٤٦] أساس هذا الكفر أن العقل
سليم عرف الحقائق ، ولكن القلب مريض رفض أن يُدعن وأن يُسلم !!
هناك نوع آخر من الكفر أساسه أن العقل نفسه لا يُحسن النظر ، البصيرة
نفسها لا تدرك الحقيقة ، صاحب هذا النوع من الكفر أعمى لا يرى ،
ولكنه يكابر معتقداً أن ما عليه حق مع أنه ضال ! .

وهذا مسلك المنافقين الذين يقال لهم :

﴿ لا تفسدوا في الأرض ﴾ فيكون جوابهم : ﴿ إنما نحن مصلحون ﴾ !! يقال لهم : ﴿ آمنوا كما آمن الناس ﴾ فيكون جوابهم : ﴿ أنؤمن كما آمن السفهاء ﴾ !! .

هذا النوع من الناس — الذى يكفر لأن له وجهة نظر سيطرت عليه وحجبت عنه الحق ، ونسجت على عينيه وقلبه غشاوة — يقول الله فيه : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقاءه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً . ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزواً ﴾ [الكهف : ١٠٣ - ١٠٦] ولن يخرج الكفر فى صورته عن هذين الصنفين :

صنف يعرف الحق ولكنه يكره أن يستجيب لندائه لغلبة الشهوات عليه ، وصنف آخر طُمست عينه وبصيرته فهو لا يرى إلا ضلاله وخباله .

وكلا الصنفين ضال لأن الإيمان الحقيقى نضارة فى العقل تجعل المؤمن حسن الرؤية للحقائق وفَحْوَةً^(١) فى القلب تجعل المؤمن إذا عرف الحق انشرح له صدره ، وأذعن له ضميره ، واستقام به فعله ، وصلحت به سريزته وعلا نيته ، ونحن ندعو الله أن يجعلنا من أولئك الذين يجمعون بين يقظة العقل ويقظة القلب .

هذا النوع من الناس هو الذى بدأت سورة البقرة تتحدث عنه ، وتبين أن الإيمان ليس تصوراً نظرياً فقط ، ولكنه إلى جانب حسن التصور للحقائق استقامة خلقية : ﴿ هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون ﴾ [البقرة : ٢ ، ٣] .

صورت السورة مواقف أهل الحق ومواقف أهل الباطل من كافرين صرحاء ومن كافرين متوارين مدهائين مخادعين . ثم بدأت السورة تعلن

(١) الفحوة : القطعة من العسل ما دام لم يعصر من شحمه .

طريق التقوى العام وهو أن الله واحد وأن محمداً نبيه ، أما أن الله واحد فدليل ذلك : هذا الملكوت الضخم ، من الذى خلقنا ؟ من الذى خلق آباءنا ؟ من الذى خلق الأرض التى نحيا فوقها ونأكل من ثمراتها ونعيش على خيراتها ؟ .

الجواب : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ [البقرة : ٢١ : ٢٢] ليس لله ند ، هو واحد أحد فرد صمد ، هذا الإله الواحد له نبي خاتم ، أحيا تراث النبيين من قبل ، ولخصه أجمل تلخيص فى الكتاب الذى نزل عليه وهو القرآن الكريم الذى بدأ الحديث عنه فى أول السورة بأنه ﴿ لا ريب فيه ﴾ ، هذا الكتاب الذى لا ريب فيه كُتب له الخلود ، هل كُتب له الخلود على أنه وعاء للهدايات الصحيحة وانتهى الأمر عند هذا الحد ؟ .

إن هذا الكتاب كتاب التحدى ، والرسول الخاتم لا بد أن يكون له إلى قيام الساعة إعجاز يدل عليه ، يدل على أنه موفد من عند الله ، مرسل إلى الخلائق كافة ، ولذلك كان التحدى بهذا الكتاب ، هذا الكتاب بين أيديكم من كان يستطيع أن يأتي بسورة منه فليفعل : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ [البقرة : ٢٤] .

بدأت الصفحات الأولى فى السورة تعلن حقائق الإيمان بالله الواحد وبالنبي الخاتم عليه الصلاة والسلام ، كان المفروض أن أولى الناس بتصديق هذا النبي والالتفاف به والاحتشاد حوله أهل الكتاب ، لكن أهل الكتاب رفضوا الإيمان ، ورفعوا راية التحدى والطغيان ، وأخذوا يهاجمون النبوة الخاتمة هجوماً أعمى ، ولذلك كان نصف السورة الأول — تقريباً — يدور حول مواقف اليهود من هذا الدين ومن صاحبه ، ولا تزال الأيام تكشف عن عظمة هذا الكتاب كأنما نزل يوم الناس هذا ، لأن حديثه المستفيض عن بنى إسرائيل ، وتقريعه المستمر لهم ، وتنديده بآثامهم وأخلاقهم كل هذا يجعل القرآن الكريم كتاب الساعة وسيظل كذلك إلى قيام الساعة !! .

خطب الغزالي - المجلد الثانى

إن الكتاب تُفسره الحوادث ، وتكشف الأيام عن أن ما يحتاج الناس إليه في شؤونهم كلها قد تعرض له وقضى فيه .

وصفت سورة البقرة بنى إسرائيل فذكرت : أولاً أنهم لا يشكرون النعمة ، وأنهم يجحدون فضل الله ، وأن تمردهم على نعم الله التي نزلت عليهم سيحيط بهم اللعنة إلى قيام الساعة ، يقول الله لبنى إسرائيل : ﴿ وَإِذْ تَأْذَنُ رَبُّكُمْ لَنُكْرِمَنَّكُمْ بِشَرْكِكُمْ وَلَكِنَّ كُفْرَكُمْ أَزِيدَكُمْ إِسْغَارًا ﴾ [إبراهيم : ٧] .

ويقول موسى عليه السلام لبنى إسرائيل : « إن الله لا يحتاج إلى شكركم ، ولكن هذا الشكر هو الذى يرشحكم للنعمة أن تنزل عليكم وأن تكثر فيكم .. فإنك أيها الإنسان ترفض أن تعطى فضلك من لا يُحسُّ به ، ومن لا يشكرك عليه ، ومن لا يهتم بما أسبغت عليه من خير ، فإنك تحرمه لأنك تقول فى نفسك : لم أعطى من لا يشعر بى ، ولا ينوه بفضلى ، ولا يذكرنى بخير ، ولا يُحسُّ أن لى عليه يداً ؟ ! » .

﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرَكُمْ أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٨] .

كانت أعراض بنى إسرائيل مستباحة لأن النساء يُتركن لحياة مجهولة المستقبل فظيعة الصورة والعرض ، أما البنون فتسفك دماؤهم وتقطع أعناقهم ويستراح منهم : ﴿ وَإِذَا نَحِينَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : ٤٩] .

بينت السورة أن الله أنقذهم من هذا الذل ، ونجاهم من هذا الهوان ، والانقاذ من الذل شيء عظيم ، يقول أبو الطيب المتنبى (١) :
واحتال الأذى ورؤية جانيه * غذاءً تضوى به الأجسام (٢)

(١) ديوانه : ٣٢٦/١ .

(٢) يقول : إن الصبر على الإساءة والإقامة على رؤية المصير يورثان دوام المشقة والكمد فيكون غذاءً للأجسام تهزل به كما تهزل بالأطعمة الخبيثة !! .

ذُلٌّ من يَغِطُ الذِّلِيلَ بِعَيْشٍ * * رَبُّ عَيْشٍ أَخْفُ مِنْهُ الْجِئَامُ (١)

نحى الله بنى إسرائيل من هذا الهوان لكنهم جحدوا هذه النعمة ونسوا صاحبها ، ولذلك يقول الله جل شأنه : ﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِنْ آيَةٍ بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَمِنْ بَدَلِ نِعْمَةِ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [البقرة : ٢١١] .

ثانياً : بعد أن بينت السورة أنهم لا يشكرون النعمة بينت أنهم لا يصدقون في التوبة ، فإن الله طلب منهم أن يسمعوا ويطيعوا ، طلب منهم أن يسارعوا إلى مرضاة ربهم وإلى فعل الخيرات وترك المنكرات لكنهم وهنت عزائمهم وتبلدت مشاعرهم ، وبلغ الأمر أن احتاجوا كي يأخذوا الدين بقوة ، بحماس ، برغبة ، بإرادة واعية ، احتاج الأمر إلى أن يرفع عليهم الطور : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [البقرة : ٦٣ ، ٦٤] .

ثالثاً : بعد ذلك بينت السورة أن النفسية اليهودية معطوبة من عدة نواح ، أول عطب فيها أنها تعصى الله عن تقصير لا عن قصور ، عن تجاهل لا عن جهل ، وهذا معنى قوله : ﴿ أَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٧٥] أى أن كفرهم بعد معرفة ، أى أن زيغهم بعد إدراك ، والذي يعصيك عن تقصير متعمد لا عن قصور غالب ، الذي يعصيك عن تجاهل بقدرك لا عن جهل سيطر عليه جريمته أكبر !! .

لكن ما السبب في هذا ؟ .

السبب في هذا :

رابعاً : أن غروراً غلبهم وملأ نفوسهم ، زعموا أنهم أولاد الأنبياء ،

(١) يقول : لا يَغِطُ الذِّلِيلُ على حياته إلا من كان ذليلاً لأن الحياة إنما هي في العز ، فإذا فقدته الإنسان كان الموت أخف محملاً عليه لخلوه عما في الذل من غصص المشقة والهوان .

وأنهم ما داموا أولاد الأنبياء فإن مكانتهم لا ترتبط بعمل يتقدمون به ولا بتقوى تصبغ أخلاقهم بالشرف : ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ [البقرة : ٨٠] وردَّ عليهم جل شأنه فين أن الناس جميعاً سواء عنده ، وأن من أصلح العمل بلغ الشأو الرفيع ، وأن من أفسد العمل سقطت مكانته : ﴿ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ [البقرة : ٨١ ، ٨٢] تناولت سورة البقرة بنى إسرائيل على هذا النحو ، لكن يجيء سؤال لماذا يحكى القرآن الكريم هذه الأحداث الكثيرة علينا نحن المسلمين ؟ .

والجواب : أن القرآن الكريم عندما يُشرح الأمم التي ماتت ، وعندما يضع تحت المجهر المدينيات التي تفسخت والحضارات التي انهارت إنما يفعل ذلك ليبين ما هي الجرائم التي فتكت بهذه الأمم وأسقطت تلك الحضارات ، وذلك حتى تستفيد الأمة الأخيرة أو الأمة الإسلامية من مصارع الأولين فلا تسلك مسلكاً يُشبههم ولا تتخلق بخلق سبق أن وقع منهم ، وقد حذر النبي ﷺ أمته تحذيراً بالغاً وبيّن أن الأمة سيغلبها التقليد الأعمى وربما تبعت مسالك من قبلها ، جاء في الحديث الصحيح : « لَتَبْعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شَبْرًا بِشِيرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبَعْتُمُوهُمْ . قلنا يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » (١) .

في سورة البقرة قصة عن بنى إسرائيل ذكرها القرآن الكريم والمقصود بها تعليمنا نحن ، فإن بنى إسرائيل — كما استمعتم — أخذ عليهم أنهم لم يشكروا النعمة ، ولم يصدقوا التوبة ، وأنهم اغتروا بجنسهم ، وتعصبوا لما لديهم ، ونسوا حقوق ربهم ، ولم يلتفتوا إلى الصواب الذى عُرض عليهم ،

(١) رواه البخارى فى الاعتصام بالكتاب والسنة — باب قول النبى ﷺ لَتَبْعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ

قَبْلَكُمْ ١٢٦/٩ ومسلم فى العلم — باب اتباع سبيل اليهود والنصارى ٥٧/٨ .

هذا كله ربما اتصل بالحياة الداخلية في المجتمعات ، لكن المجتمعات لا تحيا وحدها بل تحيا وسط عائلة دولية لها أفراد كثيرون ، وكثيراً ما تصطدم الأمم بأمم أخرى فماذا يكون الموقف ؟ وما السبب في أن أئمة تنهزم ثم تنتصر أو تنتصر ثم تنهزم ؟ .

هنا نجد سورة البقرة قد لخصت لنا في حدود صفحة ونصف قصة أمة انهارت لأسباب ثم تراجعت إليها الحياة لأسباب ، فما أسباب انهيار هذه الأمة ؟ وما طريق ازدهارها وانتصارها ؟ .

بدأ الكلام عن هذه الأمة في قوله تعالى :

﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف ﴾ لم يخرجوا ؟
﴿ حذر الموت ﴾ جناء ، لم يحسنوا الدفاع عن أرضهم تركوا الأرض دون أن يدافعوا عنها بجرأة وجسارة ، تركوها حذر الموت ، العربي قديماً كان يفضل أن تهدم داره وتتحول أنقاضاً دون أن يتركها نهياً لعدو ، يقول سعد بن ناشب^(١) :

سأغسل عني العار بالسيف جالبا
على قضاء الله ما كان جالبا
وأذهل عن داري وأجعل هدمها

لِعَرْضِي من باقى المذمة حاجباً^(٢)

لكن هذه الأمة تركت المدن وتركوا الأرض دون دفاع حقيقى ، ويبدو أن ذلك كان لأن القادة جناء ليسوا قادة مقاومة ، ولكنهم كانوا أمراء ترف ، وكانوا ساسة لهو ولعب ..

﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ﴾
خرجوا من ديارهم حذر الموت : ﴿ فقال لهم الله موتوا ﴾ التفسير
الضحيح الذى اخترناه أن الله أماتهم أديباً ، أى عاشوا في

(١) شاعر من أهل البصرة توفى نحو ١١٠ هـ انظر ترجمته في الأعلام ٨٨/٣ والبيتان من قصيدة له . انظر عيون الأخبار لابن قتيبة ٢٨٤/١ .

(٢) إشارة إلى دار له بالبصرة كان هدمها بلال بن ردة بن أبى موسى الأشعرى ، وقيل: هدمها الحجاج وأحرقها .

الدنيا لا كرامة لهم ، لا شرف لهم ، لا وزن لهم ، وهذا هو الموت :
﴿ فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ﴾ لكن ما طريق الحياة ؟ .

الإحياء هنا إحياء أدبي ، وطريق الحياة الأدبية أمران : قتال وبذل ،
قتال في سبيل الله ، وبذل للمال في سبيل الله . في القتال في سبيل الله تقول
الآية التي تلي هذه الآية مباشرة : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله
سميع عليم ﴾ [البقرة : ٢٤٤] في البذل في سبيل الله تقول الآية التي تلي هذه
الآية مباشرة :

﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله
يقبض ويسطو إليه ترجعون ﴾ [البقرة : ٢٤٥] .

إن طريق الحياة أمام الأمم بذل النفس وبذل المال .

هذه قصة لم يذكر الله فيها أنها لبني إسرائيل ، لكن هذا الإجمال في
القصة أخذ عنوانه وحقيقته في الآيات التي تلت هذه الآيات والتي
استغرقت نحو صفحة بدأت بقوله تعالى — توضيحاً وتفصيلاً : ﴿ ألم تر
إلى الملا من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً
نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا
تقاتلوا ﴾ خشي نبيهم أن يجنبوا كما جنبوا أولاً فقال لهم : أخشى إن جاء
ما تطلبون أن يفتضح كذبكم ، وأن ينكشف جنكم : ﴿ قالوا وما لنا
ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ﴾ هل كانوا
صادقين ؟ لا : ﴿ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم
بالظالمين ﴾ [البقرة : ٢٤٦] هذا أيضاً إجمال ، بدأ تفصيله وتوضيحه :
﴿ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ﴾ فكان تساؤلهم :
﴿ أأنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال
قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه
من يشاء والله واسع عليم ﴾ [البقرة : ٢٤٧] .

تحتاج هذه الآية إلى شرح مطول ، لم ؟ لأن المال له فلسفة ، وله في
الحياة أثر ، اعتبر اليهود المال أساساً حقيقياً في تقويم الأشخاص ، وفي

كسب الحياة ، وفي تسخير الدنيا ، وهذا الكلام فيه نصف الحق ونصف الباطل ، فهم المسلمون أيام جهالتهم أن المال لا لزوم له ، وأن الفقر دلالة التقوى وأحسن طريق إلى الوصول إلى الجنة !! وهذا الكلام فيه باطل كثير وضلال ضخم ، والحق غير هذا وذاك ، المال — لاشك — شديد الأثر في الحياة الفردية والاجتماعية ، وعندما سيطر اليهود عليه في عالمنا المعاصر ساقوا مائتي مليون أمريكي كقطيع غنم ، لأن المال في أيدي البنوك والشركات التي يهيمن عليها اليهود ، ولما فقد المسلمون المال أو لم يحسنوا كسبه عن طريق الاستشارة وذكاء الاستثمار عاشوا في الدنيا غرباء على الحضارة .

ما يجوز أن نزن فقد المال دليل تقوى ، ومن الخيبة أن لا تُحسن استغلاله في هذه الدنيا لرفع دينك ، وتقوية إيمانك ، ومساندة مروءتك ، وإعلاء حقك ، كونك تُكبر الغنى لأنه غنى جهل ، وكونك تتجرد من المال على أساس أن هذا طريق التقوى جهل ، خذ المال وأحسن تسخيره في خدمة دينك .

وقد بُلى المسلمون بصنفين من الناس : فقراء لا يحسنون الكسب ، وأغنياء يملكون ويبدلون في الترف .

هؤلاء اليهود قالوا لنبيهم : كيف تختار علينا ملكاً رجلاً فقيراً ؟ فقال لهم : إنه قد يكون مُقلاً في ماله ولكنه خصبٌ في مواهبه ، غنى في خصائصه ، سعة علمه ، وسعة طاقته ، وقدرته المادية والأدبية ترشحه لهذا ، وفعلاً أخذ هذا الملك يؤدي واجبه ، فكيف يعالج شعباً سرت فيه اللذة وخدرته وأذهلته عن أمور كثيرة ؟ أحياناً تبلى الأمم بعبادة الهوى والملذات والمظاهر ، والأمم التي تبلى بعبادة الملذات والمظاهر لا تصلح لا في الدفاع عن نفسها ولا في تبليغ رسالتها .

أراد طالوت أن يمحص الجيش الذي خرج كي يقاتل به : ﴿ فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلاً منهم ﴾ .

أتباع الشهوات الذين يسارعون إلى مرضاة أنفسهم رفضوا إطاعة الأمر الذى صادم رغباتهم وقالوا : لا ، لا بد أن نشرب ، نشربون ؟ لا تصلحون فى ميدان الجندية ، وإنما يصلح فى ميدان الجندية من يتحمل العطش ، ومن يقدر على نفسه إذا تطلعت ويردها إذا تحركت .

﴿ فشربوا منه إلا قليلاً منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه ﴾ كان هذا آخر اختبار : ﴿ قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ نظروا إلى أنفسهم فوجدوا أنفسهم قلة ، وعرفوا أن عدوهم كثير فى عدده وفى حُططه ، لكن منطق القتال عند حملة الحق لا يخضع للقلة ولا للكثرة ، لا يخضع للمظاهر المادية : ﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ﴾ ودارت المعركة ﴿ ولما برزوا لجالوت وجنوده ﴾ توجهوا إلى الله ﴿ قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم باذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ﴾ ثم تقرر الآيات هذا القانون الاجتماعى : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

من الذى نزل عليه هذا الدرس ؟ ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين ﴾ [البقرة : ٢٥٢] .

نزل على محمد عليه الصلاة والسلام ، محمد عليه الصلاة والسلام الذى تلا على الناس خلال صفحة ونصف من سورة مطولة كيف أن الأمم تموت أدياً إذا نكست على أعقابها ، وبخلت بأموالها ، وكيف أنها تحيا أدياً ومادياً يوم تتشجع وتتوكل على الله وتواجه عدوها دون تهيب لقواه أو لقوى من يسانده ، المهم أن تكون لك بالسماة صلة ، ولك من الله ظهير ، هذا هو الأساس : ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين ﴾ .

صفحة من هذه السورة تحمل تاريخاً سياسياً واجتماعياً ملخصاً ، اختُصرت فيه العبر ، وعُرضت على الناس فى هذا القرآن الذى بدأت السورة تتحدى به لأنه من عند الله .

هذا بعض ما فى سورة البقرة من هدايات نعرضه ولناعود إن شاء الله .
أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ..

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فقد قرأت تساؤلاً لبعض الصحفيين عن أسباب تخلف الأمة العربية والإسلامية ، وهو تساؤل ليس جديداً ، فأنا أحد الذين وجهوا هذا السؤال لأنفسهم ولغيرهم من ربع قرن تقريباً ، وكانت كتاباتنا وخطاباتنا الدينية إجابة عن هذا السؤال ، ولقد كشفت فيما كشفت عنه أن من أهم أسباب تخلف العرب والمسلمين أن نُظماً مستجدة هيمنت عليهم وصرفت أمورهم ، ولقد قررنا أن الحكم الفردى لا شرف له ، ولا دين له ، لا حرية حيث يكون هناك استبداد سياسى ، لا دين حيث يكون هناك استبداد سياسى ، لا حضارة حيث يكون هناك استبداد سياسى ، إننا معشر العرب والمسلمين أحوج أهل الأرض إلى الحرية التامة .

أقول هذا باسم الإسلام ، لأنى أعلم أن دينى ينتشر فى جو الحرية ، وأنه يُحتضر فى جو الاستبداد ، دينى قائم على العقل ، قائم على الإقناع ، ولذلك فإن أعداءه يستमितون فى جعل الحريات تختنق وتتلاشى ليصلوا إلى تشويه هذا الدين والقضاء على أتباعه محلياً وعالمياً .

إننا نحتاج — فى العالم كله — إلى جو حر ، فإن الإسلام مظلوم ،

الناس لا تعرفه ، الإسلام دين مجهول في القارات الخمس ، لقد جرى استفتاء في إنجلترا وفرنسا وهولندا وفي دول أوروبا فكانت الشعوب — من اليهود — ضدنا .

والسبب أن ديننا غير معروف ، قضايانا غير معروفة ، ما يوجد لنا أولياء أمور يعرضون هذه القضايا الدينية والمدنية ويدافعون عنها ويستغلون العلم الكثير كي ينصروها .

إن الاستبداد من عدة قرون قام على أفراد جهلة ظنوا أنفسهم علماء أغبياء ظنوا أنفسهم أذكىاء ، قاصرين ظنوا أنفسهم أصحاب باع طويل !! فكانت مصارع الإسلام والمسلمين على أيديهم .

إننا نريد الحرية ، والكتاب الذين يتساءلون الآن ما سبب التخلف ؟ هؤلاء كانوا خدماً للاستبداد ، ولذلك فأنا أنظر إلى تساؤلهم بريية وباحتقار ، إن كانوا حقاً يريدون أن تنهض أمتنا فلنجتهد في أن تسود أمتنا أجواء الحرية العقلية والدينية والمدنية .

إننا ندرك أن أمتنا الآن في حرب وأنها تواجه عدواً خسيساً غادراً من ورائه أحقاد القرون وتعصبات لا نهاية لسوادها ، وأن الأمر يحتاج إلى أن تتماسك الأمة وراء قادتها ، لكنني أقول : عندما ندرك النصر إن شاء الله أو عندما نصل إلى مرحلة حاسمة مع هذا العدو فلا بد أن نبني مجتمعنا على المعنى الذي أقول .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

(١) رواه مسلم في الذكر — باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨ .

عباد الله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة ...

★ ★ ★

نَظَرَاتُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ (٣)

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضى الله عنه
١٤/١٢/١٩٧٣ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فحديث الجمعة اليوم نظرات أخيرة في سورة البقرة — السورة التي وضعت منهاج التقوى ، وشرحت حقيقته ، وقسمت الناس بحسب عقائدهم ومسالكهم إلى مؤمنين وكافرين ومنافقين .

وسنرى — بإذن الله — كيف أن السطور الأولى في هذه السورة قد تغلغل معناها ، واطرد ما فيها من عبرة وحكمة إلى السطور الأخيرة في هذه السورة المباركة .

نبدأ بالجملة الأولى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ [البقرة : ٢ ، ٣] .

الإيمان بالغيب نوعان : نوع يتصل بالسلوك ، ونوع يتصل بالعقيدة ...

فالذى يتصل بالسلوك يمس حيناً المال ، وحيناً الحياة ...

إن الله يأمر بالصدقة ، والصدقة تجعل الإنسان ينزل عن المال الذي يملكه ، والمال حبيب إلى الإنسان ، عزيز عليه ، فإذا قيل له : أنفق في سبيل الله وسيخلف الله عليك في المستقبل . فإن نفسه سوف تحدثه : لِمَ أفقد ما بيدي اليوم في انتظار ما قد يجيء خلفاً في الغد ؟

فإذا قال الإنسان لنفسه : إن الله وعد وينبغي أن أنق في أنه سبحانه سيخلف . ربما حدثته نفسه : عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة !! هنا يتدخل الإيمان بالغيب في النفقة أو في الصدقة فيجعل الإنسان — لصدق إيمانه بربه وبوعده — يعطي ما بيده — الآن — موقناً بأن ما غاب لا بد أن يتحقق ، وأن الخلف الذي لا وجود له — الآن — هو موجود حتماً ، وسوف يجيء ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم ﴾ [البقرة : ٢٦٨] .

هذا إيمان بالغيب يتصل بالسلوك ، هناك أيضاً إيمان بالغيب يتصل بالسلوك في الجهاد أو في الكفاح أساسه أن أصحاب الدعوات — غالباً — يبدأون سلوكهم أو سيرتهم أو دعايتهم في وجه جبايرة يفرضون سلطانهم ويقذفون بالرهبة في قلوب غيرهم ، وعندما يتحرك أصحاب الحق وهم ضعاف فإن وساوس الشيطان ستتجه إليهم : ما الذي يجعلكم تناوشون الأقوياء وتعرضون لبطشهم ؟ وما الذي يجعلكم تفقدون طمأنينتكم — الآن — في انتظار نصر يعدكم الله به في المستقبل ، والمستقبل غيب لا يُدرى متى يجيء أو متى يتحقق ؟ هذا المعنى شُرح في سورة هود في قوله تعالى — وهو يجعل الداعين إليه والمتحدثين باسمه يرقبون المستقبل بأمل وتفاؤل — : ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون . والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبدوه وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ [هود : ١٢١ — ١٢٣] .

هذا الغيب إلى أن يجيء ربما تعرض حملة الحق لمتابعب في أموالهم أو أجسادهم أو أعراضهم أو حقوقهم ، لكن تجيء سورة البقرة فتقول : ليكن ﴿ أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

إنه قريب لأن كل آتٍ مُحَقَّق قريب مهما تطاول الزمن في انتظاره ،
فما دام لا بد منه فهو قريب ، ومن هنا جاء المثل العربى : « إن غدا
لناظره قريب » .

هذا نوع من الإيمان بالغيب يتصل بالسلوك ، فالإيمان برزق الله ،
والإيمان بنصر الله غيب ينبغى أن يطمئن إليه المحرومون والمحروبون .

هناك إيمان بالغيب يتصل بالعقيدة ، فإن الله عز وجل إنما يُعرف
بأوصافه ، وأوصافه إنما تُعرف بآثارها فيما بيننا ، فإن الله ليس مادة تُحسُّ
بالأيدى ، ولكن الذات الأقدس يُعرف بآثاره بيننا ، وقد صورت سورة
البقرة الغيب من هذه الناحية فيما وقع من حوار بين نبي الله إبراهيم وبين
أحد الجبابرة الذى كفر بالله لأنه مَلَك السلطة الواسعة والسطوة البالغة ،
وروت السورة القصة : ﴿ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله
الملك إذ قال إبراهيم ربي الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال
إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى
كفر والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

فإبراهيم عرَّف ربه بصفاته ، نحن الذين نؤمن بالله نعلم أن الله حاضر
فى قلوب العارفين ، وأن أنوار وجوده تتزاحم بها آفاق السموات
والأرض ، ولكن هناك ناسا نُسجت على بصائرهم غشاوات سميكة ، وعلى
عيونهم حُجب غلاظ ، هؤلاء يكفرون بالغيب ، ويكفرون بوجود الله ،
وهؤلاء موجودون فى كل زمان ومكان ، ولكن لا وزن لهم فى منطق العقل
ولا فى منطق العلم .

هذه كلمة الإيمان بالغيب ، معناها يترقرق داخل صفحات السورة فى
أماكن كثيرة شرحنا نماذج لها .

بعد الإيمان بالغيب : ﴿ ويقىمون الصلاة ﴾ [البقرة : ٣] .
جاء ذكر الصلاة مرات فى هذه السورة ، مرة فى أنها تعين على الخشية
والتحمل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع
الصابرين ﴾ [البقرة : ١٥٣] .

ومرة في أنها من أركان البر والتقوى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

وليست الصلاة عبادة فردية ينجى فيها المرء ربه وانتهى الأمر ، لا . الصلاة فى الإسلام تعاون الجماعة فى تنظيم صفوفها والاحتشاد لها وبناء مساجدها وترويج هذه الشعيرة بحيث تشرف على بقية ساعات النهار والليل وبحيث تكون ظاهرة فى البرنامج الفردى والاجتماعى للأمة ، ولذلك وجدنا هذه السورة تأمر بالصلاة فى الحرب والسلام على سواء : ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . فإن خفتم ﴾ أى عند الحرب ﴿ فرجالا أو ركبانا ﴾ أى صلوا مشاة أو راكبين ، فإذا انتهت الحرب ﴿ فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ [البقرة : ٢٣٩] .

فالصلاة ركن اجتماعى ، ولذلك — فى هذه السورة — يبين جل شأنه أن كل محاولة لجعل المساجد ثانوية فى المجتمع ، أو تدمير هذه المساجد بالحروب أو تأخير رتبها بالفسوق ، كل هذا ظلم فادح : ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ﴾ [البقرة : ١١٤] .

هكذا تحدثت سورة البقرة ، ثم أشارت السورة إلى أن بقاء المساجد عامرة بالمؤمنين هو أثر دفاع المؤمنين عن هذه الشعيرة وعن هذه البيوت التى رُفعت قواعدها فى الدنيا بذكر الله ، وهذا معنى قوله جل شأنه : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

هذا المعنى شُرح فى سورة أخرى : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم

بعض لهدمت صوامع ويح وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا
ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴿ [الحج : ٤٠] .

فإقام الصلاة شعيرة اجتماعية إلى جانب أنها شعيرة فردية ، وقد تبين —
فعلا — أن المسلمين لو أنهم أقاموا الصلوات اجتماعيا واهتم بها كيانهم العام
لضبطوا الشهوات ، وحبسوا الأهواء ، وربوا جيلا يحكم غرائزه لا جيلا
تحكمه غرائزه ، وقد وصف الله الأجيال المنهارة التي ترنو إلى الدنيا ،
وَتُنْكَسُ رُؤُوسُهَا وراء الضلالات والغوايات فقال : ﴿ فخلف من بعدهم
خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ﴾
[مريم : ٥٩] .

بعد هاتين الكلمتين ﴿ يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ﴾ تأتي
الصفة الثالثة ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ [البقرة : ٣] .

النفقة عند أغلب العلماء ما دامت مقترنة بالصلاة فهي الزكاة
المفروضة ، لكن التحقيق العلمي أنها أوسع من الزكاة المفروضة ، فإن الله
يأمر — هنا — بأن كل مسلم ينفق مما رزقه الله ، وحديثنا عن الإنفاق —
الآن — يقتصر على ناحيتين اهتمت بهما السورة اهتماماً شديداً .

فقوله تعالى — في أول السورة — : ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ جملة
قصيرة ، لكن استغرق الكلام عن الزكاة — في آخر السورة — نحو ثلاث
صفحات ، بدأ بذكر الأجر العظيم ، والأضعاف المضاعفة التي يكتبها الله
لمن أنفق .

ومن ناحية مهمة فإن الناس يتصورون — غالبا — أن العطاء حرمان ،
والحقيقة أن العطاء يشبه الشجرة عندما تُقْلَمُ ، تنقطع غصونها ، وتقل
أوراقها ، ولكنها بعد حين تعود أكثر فروعاً وأغزر أوراقاً ، كذلك العطاء
يقلل ما لديك — الآن — ولكنه بعد قليل يضاعفه : ﴿ مثل الذين ينفقون
أموالهم في سبيل الله كمثل الله كمثله حبه أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة
والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ [البقرة : ٢٦١] .

ناحية أخرى يهتم الإسلام بها جداً جداً وهي : احذر أن تعطى لثُدُل ، احذر أن تعطى لتكسير النفوس ، احذر أن تمتن بما أعطيت مهما كان كثيراً ، احذر أن تطلب وجوه الناس بما تتصدق به ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ﴾ [البقرة : ٢٦٤] .

لا تكسير نفوس الناس بما تُسديهِ إليهم من معروف فإن هذا العطاء هو حق الله عليك إذ مَوْلُك وكَثُرَ ما عندك . وقد ضرب القرآن مثلاً غريباً لحاجة الإنسان إلى ثواب معروفه حاجة ماسّة : ﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ [البقرة : ٢٦٦] .

تفسير هذا المثل : تصور نفسك أعددت لشيخوختك — من الآن — بستاناً كثير الشجر ، كثير الثمر ، مليئاً بالخير ، أعددت له لعجزك أيام الشيخوخة وضعفك أيام الكبر وحاجة أولادك — في هذه الآونة — إلى هذه الكفالة التي يَسُرُّها الله لك ، أيسُرُّك أن تجيء جائحة سماوية ، أو أن تُسْتَعِر نار مُحرقة في جَنَبَات البستان فتَقْوِضُهُ وتحوله إلى رُكام ؟

أى فجيعة تصيب من أدركته الشيخوخة عندما يفقد ماله ؟ فجيعة ضخمة ، إن الله يقول للإنسان : فجيعة هذا المخلوق في ماله الذى ارتبط به أمله هى فجيعة المُنان والمرأى فى صدقاته التى ضاع أجرها بالمن والأذى ، بالرياء والمكاثرة !!

جملة رابعة فى السورة تتغلغل ويطول تغلغل ما فى هذه الجملة من معان : ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ [البقرة : ٤] .

، والحقيقة التى ينبغى أن يعلمها الناس أن نبينا محمداً — عليه الصلاة والسلام — عندما جاء وشرّفه الله بهذا القرآن الكريم لم يجيء بدين يمكن أن يكون مع الأديان الأخرى فرعاً لها أو فرعاً مساوياً لها ، يعنى كما تقسم الكلمة إلى اسم وفعل وحرف يمكن أن تقسم الأديان إلى يهودية ونصرانية وإسلام ، لا . القرآن قال : رسالة محمد بالدين كله ، بالإسلام كله !!

خطب الغزالي — المجلد الثانى

إن هذه الرسالة استوعبت الحقائق التي تلقاها — مِنْ قَبْلُ — نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وجمهور الأنبياء !!

ولذلك — في هذه السورة — يقول الله لليهود والنصارى — عندما يجادلون أهل الإسلام وأبناء القرآن — : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . قُولُوا آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٦] .

فكأن محمداً — عليه الصلاة والسلام — جاء يقول : أنا أكرر وأؤكد وأشرح وأُنقّي الوحي الذي نزل على الأنبياء من قبلي وأومن بهم واحداً واحداً وأدعو أمتي إلى هذا الإيمان بي وبمن سبقني على أننا جميعاً — معشر الأنبياء — نمثل وحدة كاملة .

وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي ﷺ فغضب فقال : « أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به ، والذي نفسي بيده لو أن موسى ﷺ كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني » (١) .

هذه الحقيقة هي التي تجعل السورة — هنا — تقول لأهل الكتاب — في بساطة — : لماذا الجدل ؟ ﴿ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٩] .

فنحن نؤمن بالأنبياء جميعاً وبالكتب التي نزلت عليهم لا بكتب تُسببت إليهم وهم أبرياء منها .

(١) رواه أحمد ٣٨٧/٣ وقال في المجموع : رواه أحمد وأبو يعلى واليزار وفيه محالده بن سعيد ضعفه أحمد ويحيى بن سعيد وغيرهما ١٧٣/١ ، ١٧٤ والمتهوكون : المتحيرون . والمتهوك : كالتهور . والمتهوك : الذي يقع في الأمور بلا روية .

هذه الجُمْل التي رسمت منهاج التقوى انضم إليها شيء لا بد من توجيه النظر إليه وهو أن كل حقيقة ليس لها حارس يمكن أن تضيع ، وإذن لا بد من حراسة هذه الحقائق التي جاء بها الإسلام . لكن ما ضرورة الحراسة ؟ ضرورة الحراسة أن ناسا كثيرين لا تطيب خواطرهم ، ولا يهدأ بالهم ، ولا تستريح أعصابهم إلا إذا أتعبوا المسلمين وفتنواهم عن دينهم !!

هذا النوع من الناس ما خلا منه عصر من العصور ، فالذين يكفرون بالله كفراً أصلياً ، وينكرون وجوده بدءاً كالماديين — الآن — والذين يؤمنون بالله إيماناً زائغاً مزوراً على نحو ما قال القرآن : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ [يوسف : ١٠٦] .

كلا الفريقين يستमित في أن يقف حركة الإسلام ، وأن يمنع الناس من أن يدخلوا فيه !! فماذا نصنع ؟ أترك هذه الحقائق للصوص العقائد يهبونها ويأتون عليها ونعيش ضلّالاً أم ندافع عنها ؟

كان القرآن طبيعياً جداً عندما قال للناس : إن القتال صعب ، وإن فرضه يشق على المكلفين لأنه تعب ، لأنه تُرك للأوطان حيث استراح الإنسان بين أهله وأولاده وعشرائه وأصدقائه ، وتعريضٌ للتلف ، وفقدان الحياة بعضاً أو كلاً !! لكن الله جل شأنه يقول للإنسان : كذب العاطفة الأولى التي تجعلك تؤثر حياة الهدوء والراحة ، كذب هذه العاطفة فإن الذين يؤثرون حياة الهدوء والراحة لا بد أن يفقدوها ويفقدوا شرفهم معها ، قال تعالى : ﴿ كتب عليك القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

وسورة البقرة نزل أغلبها في السنتين الأوليين من الهجرة ، وفي السنتين الأوليين من الهجرة كان اشتباك المشركين مع المؤمنين في « بدر » وكان اشتباك المسلمين مع اليهود في « بنى قينقاع » تقريباً ، وسبق قبل ذلك اشتباك كلامي حول القبلة .

على كل حال حدث أن النبي ﷺ أمر بسرية من السرايا^(١) أن ترصد الطرق ، وأن تحصي على العدو حركاته ، وأن توقع به بعض الخسائر إذا كان سيتجه إلى كذا وكذا ...

وفِعْلاً أدَّت السرية واجبها ، لكن شيئاً حدث جعل عملها تكتفه ريب ومجادلات ، فقد وقع القتال في آخر رجب ، أى في الشهر الحرام !! وهنا أحدث المشركون دعايات واسعة ضد محمد ﷺ وصحبه قالوا : إن هؤلاء قد استباحوا الشهر الحرام وقاتلوا فيه وصنعوا كذا وكذا !!

وتضايق المسلمون وحزن النبي ﷺ وكثر في ذلك القيل والقال حتى نزل الوحي حاسماً هذه الأقاويل ومؤيداً مسلك عبد الله بن جحش تجاه المشركين : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ﴾ [البقرة : ٢١٧] .

كلمة « الفتنة » يظنها العوام أنها التهمة ، لا . ليس هذا صحيحاً ، المقصود بالفتنة — هنا — الضغط على المستضعفين ، ومحاولة ردهم عن دينهم ، وتحويلهم بالقوة عن إيمانهم ، والفتنة — هنا — هى ما يصنعه المستبدون بأهل الإيمان عندما ينظرون إليهم نظرة استضعاف ، ويحاولون أن يبطشوا بهم حتى يردوهم عن دينهم ، هذا معنى قوله تعالى : ﴿ والفتنة أكبر من القتل ﴾ أى أكبر من القتال ، وأكبر من قتل الأنفس ، لأنها قتل للمبادئ ، وقتل للأرواح ، وإخراج لأصحاب العقائد ، وخنق للضمائر الحية ، وترويع للمؤمنين ، وذلك كله لا يجوز .

وكشفت السورة أن الجهاد عندنا ليس جهاد عدوان ولكنه جهاد لرد العدوان : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ [البقرة : ١٩٠] وفي هذه السورة أيضاً : ﴿ لا إكراه في

(١) هى سرية عبد الله بن جحش رضى الله عنه وكانت فى رجب من السنة الثانية انظر السيرة النبوية لابن هشام تحقيق عمر عبد السلام ٢ / ٢٤٣ .

الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴿ [البقرة : ٢٥٦] .
وفي هذه السورة أيضاً : ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ [البقرة : ١٩٤] .

ولهذه الحرب ضحاياها ، وسوف يموت ناس — بغير شك — في كل صراع بين الهدى والضلال ، في كل كفاح بين الحق والباطل ، لكن ينبغي أن يعلم الأحياء جميعاً — والمؤمنون خاصة — أن الذي يُقتل في سبيل الله لا ينتقل إلى موت إنما ينتقل إلى عُرْس ، إلى حياة أرقى وأزكى وأنضر وأشرف !! ولذلك رفض الإسلام أن يسمى هؤلاء موتى ، ورفض أن يقال إنهم أموات ، ففي هذه السورة : ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون ﴾ [البقرة : ١٥٤] .

ما أكثر الذي لا نشعر به في دنيانا ، إنك في عالم وحدك من إحساسك ، لكن أنت في إحساسك الخاص لا تسمع ديب كل متحرك على ظهر الأرض وهم ملاين الملاين ، ولا تُبصر إلا ما أمامك ، لكن وجه الكرة الأرضية — وهي جزء تافه في الوجود كله — مبسوط أمام البصير بكل شيء جل شأنه !!

فنحن لا نشعر بالكثير ، ولهذا لا نشعر بوجود الشهداء ، لكنهم موجودون ، وسيبقى وجودهم مغيباً حتى تبقى فترة الاختبار في هذه الدنيا قائمة لا غش فيها ، ثم يترك الناس هذه الدنيا ليلحق ميت الغد بميت اليوم ، وهل الناس إلا كذلك ؟

هكذا الدنيا ، حقيقة لا بد منها ، وإن كان أغلب الناس لا يعترفون بها !! وصدق الحسن البصري عندما قال : ما رأيت حقاً أشبه بباطل من الموت !! هو حق ، ولكنه شبيه بالباطل ، لماذا ؟ لأن الناس لا تريد أن تعترف به !!

سورة البقرة — التي تحدثنا فيها ثلاث جُمع الآن — سورة متماسكة ،

وأنا أريد أن أنفى ما يتصوره البعض من أن سور القرآن رُكمت فيها الآيات بطريقة عشوائية جزافية ، لا . السور كلها نُظِّمت على أساس أن لها محوراً تدور عليه وهدفاً ، ولذلك فإن آخر أدعية هذه السورة ضَمَّ الإيمان بالله إلى الإيمان بالغيب إلى السلوك البشرى إلى الأخطاء التى تحتاج إلى مغفرة الله إلى الجهاد وانتظار المجاهدين أن ينصرهم الله على الكافرين ...

﴿ آمِنُ الرِّسُولِ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمِنٌ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ . لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾

[البقرة : ٢٨٥ ، ٢٨٦]

هذا النصر هو تحقيق للحراسة على حقائق الدين التى يقوم بها جمهور المجاهدين .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله : ﴿ الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المين .
وأشهد أن محمداً رسول الله ، إمام الأنبياء ، وسيد المصلحين .
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

عباد الله : أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل . وأريد أن أشرح إشارة ظهرت — على هذا المنبر — فى الأسبوع الماضى ...

لقد قلت : إن الذين عاشوا سماسة الاستبداد لا يجوز لهم أن يقترحوا إصلاحات لأمتنا . وسألنى البعض : ماذا تريد بهذه الإشارة ؟ وأنا أجيب بشيء من التوضيح : إن بعض الناس ألقوا — من أنفسهم — جماعة أطلقوا عليها « التعمير الحضارى » . وعندما نظرت إلى أسماء الذين يشتغلون بالتعمير الحضارى — كما كُونُوا أنفسهم — وجدت جماعة من الماديين الذين يكفرون بالله وينكرون وجوده ، وجماعة من الصليبيين الذين لا تنتهى أحقادهم على الإسلام ولا تُخمد نارهم يوماً !!

إن أمتنا لا تدرى — جيداً — كم يحقد الآخرون عليها ، ولو كنتم أصحاب حس دقيق لشعرتم بهذا الحقد ...

إن « بابا روما » ركب « حَنْطُورا » فى « روما » وسار به كى يؤيد إجراءات التقشف . لم يا رجل ؟ ما السبب فى هذه الإجراءات ؟ من أجل اليهود ، إن الحقد فى نفوس هؤلاء يجعلهم — لأنهم يكرهون محمداً وأمة محمد وأتباع محمد إلى آخر الدهر — يفعلون هذا !!

أما سألتهم أنفسكم : ما الذى يجعل العالم يتحمل البلاء من أجل هؤلاء اليهود ؟ السبب أنهم يكرهون محمدا والإسلام والمسلمين ، وهذه الكراهية تأخذ طريقها بأساليب ملتوية .

إننا نحن الذين ملأنا الدنيا بالحضارة ، وعرفنا الناس حريات العقل والضمير . صحيح أننا تأخرنا فى القرون الأخيرة ، لكن من الذى تقدم فى القرون الأخيرة ؟ من يكفرون بالله ؟ من يعبدون الطاغوت ؟ من يعيشون أحلاس الشهوات ؟ لا . إن الذى يعمر الحضارة الغاربة هم الذين يؤمنون بمحمد ﷺ . أما الكفرة فلا يقبل منهم هذا ، وقد رأينا هؤلاء كانوا يرسلون « زغاريد النساء »^(١) عندما كان الإيمان فى محنة فى بلدنا ، وعندما كانت كلمة التكبير جريمة تلصق أصحابها بالهوان !! الآن يتحدثون عن الحضارة !!؟

هؤلاء آخر من يتكلم عن معالم الحضارة وعن التعمير الحضارى . أنا رجل مسلم أعرف أن ديننا كفل حرية الرأى ، وأنه الدين الوحيد الذى أعطى « الأقليات » فى كنفه أن تبلغ مناصب كبيرة !! أما غيرنا فهو قاتل « الأقليات » وقاتل العقائد ، وقاتل الحقائق !!

فهل يحىء هؤلاء — وهم مرضى — ليجعلوا أنفسهم أطباء لأمة تنظر إليهم باحتقار !!؟

هؤلاء كانوا سماسرة الاستبداد ، وكانوا دعائم الإلحاد ، فلا نقبل منهم أن يعمرُوا حضارة ، وليفعلوا ما يفعلون فنحن أيقاظ لهم ، وسوف يبقى الإسلام بدعاته ورجاله وأمته إلى آخر الدهر يؤدون حق الله عليهم أداء كاملا إن شاء الله رب العالمين .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر »^(٢) .

(١) زعرد البعير : ردّد هديره فى حلقه . والمرأة : رددت صوتها بلسانها فى فمها عند الفرح .

(٢) رواه مسلم فى الذكر — باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨ / ٨١ .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

الذِّكْرُ (حَقَائِقُهُ وَوَسَائِلُهُ)

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .
أما بعد :

فإن أشرف ما يمر بالخاطر ، وأنضر ما يتحرك به اللسان ، وأزكى ما يؤثر في الأخلاق والمسالك هو ذكر الله سبحانه وتعالى .. فإن هذا الذكر يسدّد خطوات الإنسان على طريق الحياة الصحيحة ، ويبصره بالمسألة التي خلق من أجلها ، ويجعله عبداً يرتفع في مستواه إلى الملأ الأعلى ..

والذكر ليس حالة عضوية ، ولكنه حالة نفسية ، ومعنى أنه ليس حالة عضوية أن الله يقول للإنسان : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف : ٢٤] ولم يقل له : واذكر ربك إذا سكت ..

السكوت قد يكون حركة اللسان إذا توقف عن الكلام ، أما حالات الغفلة والذهول والنسيان فهي حالات نفسية ، والمقصود من الذكر أن يعالج هذه الأحوال ، ويجعل الإنسان في حال من الصحو واليقظة والإحساس بوجود الله سبحانه وتعالى وبرقائه وبشهوده الذي لا يخبر سواه على كل ذرة في الكون . وكما قالوا في علم الطبيعة : إنه لا مجال للفراغ ، بمعنى أن الإناء إذا كان ممتلئاً بالماء فهو ممتلئ بالماء ، وإذا خلا من الماء فهو ليس فارغاً ، إنه مملوء بالهواء ، لا فراغ في الطبيعة .

كذلك أوعية القلوب ، إن هذه الأوعية لا تعرف الفراغ ، فإذا لم تملأها بذكر الله امتلأت بوساوس النفس وهواجس الشيطان ، ومغريات الهوى ، إذا لم تكن لديك الطاقة التي تحرك جوارحك في طريق الاستقامة فإن الجوارح ستتحرك ولكن على طريق آخر فإنه لن يترك القلب فارغاً بل سيتحرك بشيء ما ، فإن لم يتحرك بذكر الله تحرك بغيره ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْعَمْ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ﴾ [الكهف : ٢٨] .

من لم يملأ الرحمن قلبه ملاً الشيطان قلبه ، لا فراغ ، إذن لابد من أن نراقب أنفسنا حتى يبقى الذكر دائماً ملء قلوبنا ، ولذلك كُلفنا بهذا الذكر : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] تضرعاً : تذلاً ، خيفة : رهبة ، دون الجهر من القول : أى لا تزعق ، فإن الزعيق يضيع العقل .

ولذلك عندما ذكر بعض الناس — وهم سائرون في الصحراء — بصوت عال قال لهم النبي ﷺ : « أَيُّهَا النَّاسُ ارْزُقُوا ^(١) عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا إِنْ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ » ^(٢) .

بالغدو والآصال : الغدو : أول النهار ، والآصال — جمع أصيل — آخر النهار . أى اذكر ربك باستمرار ، وفي سورة أخرى : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ . وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [الروم : ١٧ ، ١٨] .

وللذكر وسائل أو طرق شرعية ، نبدأ فنتعرض لها ونحصى ما أقدرنا الله عليه .

« من هذه الوسائل : القرآن الكريم ..

(١) أى ارققوا .

(٢) رواه البخارى في الدعوات — باب الدعاء إذا علا عتبة ١٠١/٨ ، ١٠٢ ومسلم في الذكر — باب استحباب خفض الصوت بالذكر ٧٣/٨ ، ٧٤ .

فإنه يذكر بالله وبعظمته وبحقوقه وبما ينبغي له ، ويبنى الصلة به على الرغبة والرغبة والوعد والوعيد ، وقد قال تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ [ص : ٢٩] وقال : ﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب ﴾ [إبراهيم : ٥٢] .

فالقرآن كتاب تذكير إذا نسي الفكر ، وكتاب إيقاظ إذا نام القلب ، وكتاب تسديد على الطريق إذا اعوجت الخطى وزاغ الإنسان عن سواء السبيل .

* من هذه الوسائل : الصلاة ..

فالصلاة أساس لتذكير الإنسان بربه ، فهي — أولاً — أفعال تضمنت كل ما يُحيي به العظيم ، كان الناس قديماً يحيون العظماء تارة باليد ، وتارة بالوقوف ، وتارة بالركوع ، وتارة بالقعود المهبذب ، وتارة بالسجود .

منع هذا كله للناس ، وجمع هذا كله لله ، فبين يدي الله يقوم الإنسان قائماً ويركع ويسجد ويجلس ويحيى ربه ، وهو في قيامه يقرأ القرآن ، وفي ركوعه وسجوده يسبح بحمد الله العظيم أو بحمد الله الأعلى .

ومثل هذه الصلوات تشبه أن تكون وجبات روحية دسمة ضخمة توجه الإنسان طول يومه إلى أن يبقى في حضرة ربه وإلى أن يستمد منه وإلى أن يتقيه ويخشاه ، وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾ [النكوت : ٤٥] .

يعنى أن ما تُورثه الصلاة من ذكر الله وما تتركه من طابع نقى مشرق على ضمير الإنسان يجعل الإنسان أنأى وأبعد من الإلمام بالدنايا والهبوط إلى الحضيض ، لأن الصلاة وذكر الله أكبر من ذلك .

* من هذه الوسائل : المأثورات ..

وقد ورد أن النبي ﷺ كانت له مأثورات كثيرة : قبل أن يأكل وبعد

أن يأكل ، قبل أن يلبس وبعد أن يلبس ، قبل أن يذهب إلى الخلاء وبعد أن يذهب إلى الخلاء ، قبل أن ينام وبعد أن ينام ، كانت أحواله كلها ذكراً ، فهو يتقلب في أشعة متجددة لا تنتهي أقباسها ، ولا تحمد أنفاسها من شعور مؤار بذكر الله لا ينتهي أبداً ، وهي حياة انفرد بها خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ..

كان إذا نام قال : « باسمك رب وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به الصالحين » (١) .

وتارة — إذا نام — يقول : « اللهم إني أسلمت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت ونيك الذي أرسلت » (٢) .

وكان إذا لبس ثوباً جديداً قال : « الحمد لله الذي كساني هذا الثوب ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة » (٣) .

وكان إذا طعم قال : « الحمد لله الذي أطعنا وسقانا وجعلنا مسلمين » (٤) .

وكان إذا أصبح قال : « أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله لا شريك له لا إله إلا هو وإليه النشور » وإذا أمسى قال : « أمسينا

(١) رواه البخارى في الدعوات — باب حدثنا أحمد بن يونس ٨٧/٨ ومسلم في الذكر والدعاء — باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ٧٩/٨ .

(٢) رواه البخارى في الوضوء — باب فضل من بات على الوضوء ٧١/١ ومسلم في الذكر والدعاء — باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ٧٧/٨ .

(٣) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وأحمد والحاكم والدارمى وابن السنى وقال في صحيح الجامع الصغير (٦٠٨٦ — ٢٠١٥) : حسن .

(٤) رواه أبو داود في الأطعمة — باب ما يقول الرجل إذا طعم ٣٢٩/١٠ والترمذى في الدعوات — باب ما يقول إذا فرغ من الطعام ٤٢٤/٩ ، ٤٢٥ والنسائى في عمل اليوم والليلة ص ٢٦٥ وابن ماجه في الأطعمة — باب ما يقال إذا فرغ من الطعام ١٠٩٢/٢ وأحمد ٣٢/٣ ، ٩٨ وقال في ضعيف الجامع (٤٤٤٣) : ضعيف .

وأَمْسَى الْمَلِكُ اللَّهُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَإِلَيْهِ
الْمَصِيرُ ﴿١﴾ .

وله في ذلك أذكار كُتبت في كتب مطولة ، ولا يُعرف — كما قلت —
نظير لهذا الذكر الموصول .

لكن يحتاج فهم الذكر إلى تأمل في كتاب الله وفي سنة رسول الله
ﷺ ، لماذا ؟ .

لأن الأمم المتدينة عندما ترق صلتها بدينها تأخذ الدين مظهرًا لا مخبرًا
أولفظًا لا معنى أو صورة لا حقيقة ، ولذلك لم يكن هناك بُدٌّ من العودة
بالمسلمين إلى حقيقة الذكر حتى يعرفوا ما يطلب منهم شرعًا .

فمن الذكر — الذى هو ركن في الدين — أن يحب الإنسان ربه
أكثر مما يحب ماله عندما يطالب بإخراج الركن الشرعى وهو الزكاة .

معنى ذكر الله هنا : أولاً : ذكر أمره ، ثانياً : ذكر وعده ، فقد
وعد بأن ما تخرجه من مال سيرتد إليك حتماً لأنه قال : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ
شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [سبا : ٣٩] .

وحلف النبي ﷺ فقال : « ما نقص مال عبد من صدقة .. » (٢) .

ومعنى هذا الذكر أنك يوم ترفض إخراج الركن فأنت أولاً :
لا تعترف بحق الله ، وأنت ثانياً : تكذب وعده .. ولذلك قال جل شأنه :
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ
يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَأَنْفَقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ
يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدُقْ وَأَكُنْ
مِنَ الصَّالِحِينَ . وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ
بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون : ٩ — ١١] .

(١) رواه البزار وإسناده جيد . كذا في مجمع الزوائد ١٠/١١٤ .

(٢) رواه الترمذى في الزهد — باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر وقال : حديث حسن

صحيح ٦١٥/٦ — ٦١٧ وأحمد ٢٣١/٤ وقال في صحيح الجامع (٣٠٢٤) : صحيح .

هذا ذكر من وراء إقامة الركن الشرعى الذى تنهض عليه المجتمعات الإسلامية من قديم ، وهل انتشر الإلحاد فى الأرض إلا بسبب نسيان حق الله واشتعال نيران العداوة والبغضاء فى نفوس الفقراء والمحتاجين ؟ هذا ذكر لا بد منه ، وطبعاً يمتد هذا الذكر مع ضرورات العطاء ، فعندما يكون هناك جهاد فى سبيل الله فإن الجهاد يكون بالنفس والمال ، والمال معادل للروح ، فالبخل به يكون مع غفلة عن الله أو مع نسيان للحق ، فالذكر هنا حقيقة لا بد من استصحابها شرعاً . ولا يغنى عن الإنسان أن يقول كلمة يذكر بها ربه وهو كز^(١) يمنع حق الله من أن ينطلق من ماله أو من خزائنه إلى بيوت المحتاجين والفقراء والمساكين .

هناك ذكر لله فى إبان الجهاد ، وهو ذكر لا بد منه لحماية الأمة وللدفاع عن عقيدتها وإعلاء رايها .

ما ضاع المسلمون فى مراحل هزائمهم المختلفة — إلى يومنا هذا — إلا بعد أن غلبهم حب الدنيا وكرهية الموت ، فإذا انهزم ذكر الله وأداء حقه والدفاع عن دينه والموت فى سبيله أمام حب الدنيا وكرهية الموت فقد ضاع الدين ، وما وجدت أمتنا انهزمت قديماً أو حديثاً إلا إذا علا فى ضمير الفرد حبه لنفسه عن حبه لربه ، حبه لحياته عن حبه لآخرته ، ذكره لما يشتهى ونسيانه لما كلف به وطولب .

كان سقوط « غرناطة » — آخر دولة لبنى الأحمر فى الأندلس — سقوطاً يخزى المسلمين ، لأن بعض الفدائيين من أهل النجدة والوفاء استماتوا فى إثارة الحمية الدينية وجعل المسلمين يقاتلون « فرناندو » ، « إيزابيلا » المسيحيين اللذين قاتلا الأمة الإسلامية ، ولكن الملك الصغير^(٢) الذى كان يملك الأمة الإسلامية أمضى معاهدة التسليم ، وكان إمضاء المعاهدة ، صكاً نهائياً بضيايع الإسلام من الأندلس !!

ذكر الله — هنا — يمنع من هذا الضيايع ، يقول الله جل شأنه :

(١) كز الشيء — كزازه وكزوزه — ييس وانقبض من البرد . ورجل كز اليمين : يخل .

(٢) أبو عبد الله الصغير آخر ملوك غرناطة الإسلامية .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ [الأنفال : ٤٥] .

قد يكون الذكر ركناً في الدين عندما يهمس الشيطان في قلبك : ارتكب هذه حماقة ، افعل هذا الشر ، اسقط في هذه الشهوة ..

لكن نداء الإيمان يقول لك : اتق الله ، إن الله قيوم على الناس ، إن الله رقيب على العباد ، احذر القائم على كل نفس بما كسبت .

هذا المعنى هو قوله جل شأنه : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴾ [الأنفال : ٢] .

وهذا هو معنى الحديث الشريف : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » ومن هؤلاء السبعة : « ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجهال فقال إني أخاف الله » (١) .

« هناك ذكر — أيضاً يكون ركناً في الدين — وهو ما يجعلك تثق في أن الله لن يخذلك وأنت تعمل له ، لن يضيعك وأنت تتوكل عليه ، لن يتركك وأنت تستجير به وتنتظر منه .. وهذا معنى قوله جل شأنه : ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ [رعد : ٢٨] .

الذكر هنا سناد حقيقى للتوكل على الله والاعتماد عليه والاستمداد منه والثقة فيه ، إن الآخرين قد يعتمدون على بشر ، والبشر يموتون أو يضعفون ، لكنك تعتمد على الله ، والله لا يموت : ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾ [الفرقان : ٥٨] .

وجدت — وأنا أدرس الذكر في القرآن الكريم — أن أساس الذكر

(١) رواه البخارى في الأذان — باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد ١٩٨/١ ومسلم في الزكاة — باب فضل إخفاء الصدقة ٩١/٣ .

هو معرفة الله بمعرفة أسمائه الحسنی وصفاته العلی معرفة صحيحة ، وقد لاحظت في آيات التشريع وفي آيات وصف الكون حشداً من أسماء الله الحسنی ما ذكر إلا لحكمة ، لأنه — فعلاً — نوع من التذكير نحتاج إلى فهمه .

مثلاً المهاجر في سبيل الله دفاعاً عن دينه أو طلباً للنجاة بإيمانه أو سعياً لتكوين دولة للإسلام في مكان آخر ، ماذا يرجو هذا المهاجر ؟ .
ينتظر من الله الخير ، في نفسه اشتياق إلى حالة أحسن وأمل في أن الله يعطي العطاء الأوفى .

نجد هذا المعنى مرتبطاً باسم من أسماء الله الحسنی أو بصفة من صفاته العلی ، قال تعالى : ﴿ والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقهم الله رزقاً حسناً وإن الله هو خير الرازقين . ليدخلهم مدخلاً يرضونه وإن الله لعليم حلیم ﴾ [الحج : ٥٨ ، ٥٩] .

الآيات وصفت رب العالمين بأنه خير الرازقين ، وبأنه : عليم حلیم .
ثم مضت الآيات تقول : ﴿ ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور ﴾ [الحج : ٦٠] .

قد تهاجر — كما حدث للمسلمين — وتقاتل المشركين من موطنك الجديد ، فكن عدلاً وأد ما عليك ، العفو من شيم الكرام ، كن مع الآخرين على نحو ما ذكرت الآية من وصف لله : ﴿ إن الله لعفو غفور ﴾ .

ثم مضت الآيات تقول : ﴿ ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وأن الله سميع بصير ﴾ [الحج : ٦١] أجزاء من النهار تَسْوَدُّ بعد أن كانت بيضاء وتتحول إلى ليل في الشتاء ، وأجزاء من الليل كانت سوداء تبيض وتتحول إلى نهار في الصيف !! هكذا رب الليل والنهار يصنع بالعالم ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وأن الله سميع بصير ﴾ .

ثم تمضي الآيات فتقول : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون

من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير ﴿ [الحج : ٦٢] .

ثم يُعرفك بالله عن طريق النظر في الكون : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير . له ما في السموات وما في الأرض وإن الله هو الغني الحميد . ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ [الحج : ٦٣ - ٦٥] .

وجدت أنه في سبع آيات متتابعة نحو خمسة عشر اسماً من أسماء الله الحسنى ، تُذكر به وبِعظمته وبجلاله وبنعمته وبفضله . هذا عندما يوصف الكون والحياة ، بينما نجد أن تعريف الناس بالله قد يوجد وهو يؤرخ للحياة ، فمثلاً يقول الله : ﴿ سل بني إسرائيل كم ءاتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب ﴾ [البقرة : ٢١١] .

كلمة : ﴿ ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته ﴾ شرط .

ما جواب الشرط ؟ .

جواب الشرط : يعاقبه الله .

لكن الجواب هنا يحذف ويأتي اسم من أسماء الله أو صفة من صفات الله : ﴿ ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب ﴾ !! .
مثال آخر ..

المسلمون يعتزون بدينهم ، والكافرون يضحكون من هذا الاعتزاز : ﴿ إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ﴾ فيكون الرد الإلهي : ﴿ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ [الأنفال : ٤٩] .

أصل الجواب : ومن يتوكل على الله ينصره الله ، يأخذ بيده ، يعز جانبه ..

طوى هذا الجواب ، وذكر بعض أسمائه الحسنى : ﴿ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ !! .

ختام الآيات القرآنية بأسماء الله الحسنى ليس ختاماً عشوائياً ، وإنما هو ختام مقصود به ربط الناس بربهم .

وهذا التجده في كثير من الآيات — بل كل آيات القرآن على هذا النحو — فمثلاً في سورة البقرة تقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . لَا يَأْخُذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يَأْخُذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ . لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِعَوَلْتَهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٤ — ٢٢٨] .

هنا صيغت الأحكام بطريقة تربط المسلمين بربهم ، وتجعل رقابتهم لله مستمرة .

في اعتقادي لو أن أمتنا مشيت مع كتابها في وصفه لرب العزة ، وفي تشريعه للعباد ، وفي حديثه عن الكون وآفاق العالمين ، وفي تذكيره للناس على النحو الذي عرضناه لأمكن عمل منطق علمي أشرف من المنطق الذي يسود العالم الآن .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عبادة ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، إمام النبيين وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد ..

أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل .

واعلموا أيها المسلمون أن ديننا هذا دين قيم ، وأنه لا يعرف نفاسته البُله والجهال ، وإنما يحتاج إلى علماء راسخين ليدركوا حقائقه ويبصروا بها الناس .. فإن عبادة شريفة كذكر الله وقعت بين أصابع ملوثة أو أفكار هازلة فجعلت من الذكر ما يسمى — في عرف بعض المغفلين — الرقص الديني !! .

كيف يكون في الإسلام رقص ديني ؟!

هذا الدين الذي حرّر العقل الإنساني من الخرافة ، وحرر القلب الإنساني من الهوى ، وحرّر السلوك الإنساني من العوج ، هذا الدين الذي قال للإنسان : لا تضع قدمك إلا حيث تعرف : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

هذا الدين الذي قال هذا الكلام وجدنا الأمة التي تنتسب إليه تعمل على أساس أنها لن تحاسب لا على سمع ولا على بصر ولا على فؤاد ، فهي تمشي

تخبط خبط عشواء في كل شيء ، وحولت ذكر الله إلى بعض أوراد ما أنزل الله بها من سلطان أو إلى أحفال رقص يفقد الناس فيها عقولهم ووقارهم وكرامتهم .

طبعاً الإسلام لا يعرف هذا ، لأن الآيات الأولى فيه تقول للإنسان : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ - ٥] .

والعجيب أن الدين الذي يبدأ الآيات الأولى فيه بالقراءة والقلم يتحول أتباعه إلى جماهير من الأميين يزعمون العالم الثالث ، لا ثقافة لهم ، ولا ارتقاء ، ولا نضارة في الفكر ، ولا تنظيم لمقدمات ، ولا معرفة لمنطق طبيعي !! .

لماذا ؟ لأنهم جهلوا دينهم .

قلت : كما أن السمك يموت إذا خرج من الماء — لأن حياته في الماء — أو كما أن الإنسان يموت أو يختنق إذا ضاع منه الهواء — لأنه لا يحيا بدون هواء — فكذلك الإسلام ، ما يمكن أن ينتعش وأن يقوى إلا بأدواته التي سمعتم أجزاء منها .

ذكر الله في الكون وفي الحياة وفي التاريخ وفي التشريع وفي كل شيء كيف : يختفي هذا الذكر ويتحول إلى شطح ونطح وقفز ووثب وعودة إلى الوثنيات التي يمثلها الهنود عبدة القردة وما إلى ذلك ١٢ .

أحب أن أوجه النظر إلى أن النضج الفقهي أساس لفهم الإسلام ولعرضه ، ممكن عندما ينضج العنب أن يحول إلى زبيب ويبقى له قدر من القيمة الغذائية بعد أن يجف ، ممكن بعد أن ينضج البلح أن يتحول إلى تمر وتكون له قيمة غذائية جيدة وهو تمر ، لكن ما الحال إذا جفف البلح وهو أخضر ؟ لا يصلح ..

ما الحال إذا جفف العنب قبل أن ينضج ؟ لا يؤكل .

هناك عقول إسلامية جففت قبل أن تنضج !! .

لا يمكن أن يصلح لشيء هذا النوع من الناس سواء كبر منصبه أو قل ، لأن الإسلام علم لا ينتهى .

كان نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام نموذجاً فريداً عندما قال — كما أمره ربه — : ﴿ رب زدنى علماً ﴾ [طه : ١١٥] وموسى عليه السلام — وهو من أولى العزم — قيل له هناك من يعرف أكثر منك . اجتهد الرجل وذهب وهو يقول : ﴿ لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا ﴾ [الكهف : ٦٠] ما أزهد المسلمين فى العلم ، ما أقل عناية المسلمين بالعلم ، ما أشيع الخرافات والأوهام بين المسلمين !! .

الذكر الحقيقى ليس شقشقة لسان ، وليس عمل الفم وهو يمضغ الكلام ، إنما الذكر الحقيقى لله : قلب ينبض بمشاعر الرغبة والرغبة ، ويمشى على الأرض وهو يرنو إلى السماء ، يخشى ربه ويرجو منه الوقار ، وينتظر عنده الخير ، ويؤمل فى الدار الآخرة يوم اللقاء .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .
عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة ...

(١) رواه مسلم فى الذكر — باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨ .

نَفَاحَاتُ الرَّحْمَةِ وَبُشْرِيَّاتُ الْخَيْرِ

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فقد كان سلفنا الأول مرتبطا بالقرآن الكريم على نحو يجدى عليه في الدنيا والآخرة ، كان إذا قرأه أو سمعه تدبره ، فنزلت الآية على عقله هدى وضياء ، ونزلت على قلبه برداً وسلاماً ، ولا يزال من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين يقرأون القرآن على هذا النحو .

إن الله فاوت بين الناس فيما منحهم من مواهبه ، قد تكون هناك أصوات حسنة ، وقد تكون هناك أصوات معتادة ، الذي هدى إلى ألفاظ الأذان من صحابة النبي عليه الصلاة والسلام رجل وضىء القلب ، عظيم الإيمان ، بلغ من صفائه أن نضح قلبه بإلهام من الوحي الأعلى ، ومع ذلك فإن كلمات الأذان — كما عُرِضت على النبي عليه الصلاة والسلام — تخير لها عليه الصلاة والسلام من يؤديها بصوت رقيق ، فاختار بلال بن أبي رباح وقال : « فَإِنَّهُ أُنْدَى صَوْتَا » (١) .

(١) هذه العبارة وردت ضمن حديث طويل رواه أبو داود في سننه في كتاب الصلاة — باب كيف الأذان ١٦٩/٢ والترمذي في أبواب الصلاة — باب ما جاء في بدء الأذان ، وقال : حديث حسن صحيح ٥٦٣/١ وابن ماجه في كتاب الأذان — باب بدء الأذان ٢٣٢/١ وأحمد ٤٣/١ والدارمي في كتاب الصلاة — باب في بدء الأذان ٢٨٦/١ . والصحاحي الذي هدى إلى ألفاظ الأذان هو عبد الله بن زيد بن عبد ربه بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي أبو محمد المدني صحاحي مشهور مات سنة اثنتين وثلاثين وقيل استشهد بأحد .

والقرآن الكريم يقرؤه الكثيرون ، ولعل البعض أن يكون أندى صوتاً من الآخر ، هذه مواهب ، ولعل البعض يكون بعمق إخلاصه ، وصدق أدائه ، وحلاوة ترتيله أسبق إلى القلوب ، فهو يملؤها خشوعاً لله ، واستجابة لتوجيهاته ، وكما قيل : الخط الحسن يزيد الحق وضوحاً ، والكتاب المطبوع طبعاً حسناً يمكن أن يعرض فيه الحق عرضاً مغرياً بالقبول . هذا شيء نذكره بين يدي كلام عن أثر القرآن في نفوس المستمعين .

قرأت أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج يُعَسُّ (١) بالمدينة ذات ليلة ، فمر بدار رجل من المسلمين ، فوافقه قائماً يصلي ، فوقف يستمع قراءته فقرأ ﴿ والطور ﴾ حتى بلغ ﴿ إن عذاب ربك لواقع . ماله من دافع ﴾ قال : قسم — ورب الكعبة — حق . فنزل عن حماره — هكذا يقول ابن الدنيا — واستند إلى حائط ، فمكث ملياً ثم رجع إلى منزله ، فمكث شهراً يعود الناس لا يدرون ما مرضه (٢) .

هذا رجل رقيق القلب ، شديد الإحساس بخشية الله ، شديد التكبير لما يقع منه من أخطاء ، فهو يظن أن أخطائه جبل إذا انهد على رأسه أودى به ، فهو لذلك هيب من الوعيد الإلهي .

هذا شيء ينبغي أن يذكره المسلمون عندما يستمعون إلى القرآن ، وتَمُر بهم آيات كثيرة فيها الوعيد الشديد ومع ذلك فكأن القلوب مغلقة بالرصاص أو بالحديد لا يخشع أحد ، ولا يكثر أحد ، كأن القرآن يتلى بين من لا يعي !!

ندع سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وخشيته لله عز وجل التي جعلته يمرض عندما أحس كأن لفحاً من الوعيد الإلهي قد يصيبه مع أنه رجل من المبشرين بالجنة ، ندع هذا لنرى كلاماً آخر فيه بشریات ، فالناس تحب البشريات أكثر مما تحب عناصر الرهبة والتخويف ..

(١) يعس بالمدينة : أي يطوف بالليل يحرس الناس ، ويكشف أهل الرية .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا ، قاله ابن كثير في تفسيره : ٧ / ٤٠٦ .

يروى الحاكم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : إن في سورة النساء خمس آيات ما يسرنى أن لي بها الدنيا وما فيها : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ و ﴿ إن تحببوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾ و ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ و ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ﴾ و ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ﴾ (١) .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ثمان آيات في سورة النساء هن خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت : ﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ ، ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ﴾ ، ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم ﴾ ، ﴿ إن تحببوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ ، ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ﴾ ، ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ ، ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ﴾ ، ﴿ ما يفعل الله بعذابكم ﴾ (٢) .

وعندما كنت أخطب في مسجد عمرو بن العاص كنت قد وصلت إلى هذه الآيات فيما أذكر ، وأظننى شرحتها أو أحصيتها ، فقلت : نعاود الحديث في نفحات الرحمة ، وبشريات الخير ، وآفاق الأمل التى نحتاج إليها ، لعلها تدفعنا إلى أن نقبل على ربنا ، وأن نطيع أوامره ونسير على صراطه المستقيم .

ونحن نشرح بإيجاز هذه الآيات دون ترتيب ، وإنما نريد أن نتبع المعنى ، ونريد أن نأخذ الثمرات ما اقترب منها لأيدينا .

آية ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ تجعلنا نصحح خطأ شائعا بين الناس وهو أن كل معصية هى دون الشرك .

(١) رواه الحاكم في المستدرک — كتاب التفسیر : ٣٠٥/٢ . وقال : هذا إسناد صحيح إن كان عبد الرحمن سمع من أبيه ، فقد اختلف في ذلك .
(٢) انظر القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ١٦١/٥ .

وهذا كلام يحتاج إلى تصحيح وتنقيح ، لماذا ؟
لأن هناك معاصي قد تكون مساوية للشرك تماما ، وقد تكون أشد

منه .

أولا : ما هو الشرك ؟

أن يؤمن بعض الناس بالله ، ويؤمنوا مع ذلك بآلهة أخرى يستشفع بها
إليه ، يزعمونها أولادا ، يزعمونها آباء ، يزعمونها ملائكة كجبريل ارتفعوا
به — وهو روح القدس — إلى أن يكون إلهها .

هذا شرك ، لكن ألا ترون أن هذه المعصية الكبيرة التي لا تغفر هي
دون الإلحاد في الألوهية ؟

واحد شيوعي ، أو واحد من المنتسبين إلى الحضارة المادية في الغرب
يقول : لا إله ، هل هذا مشرك ؟ هذا ليس بمشرك ، هذا معطل ، هذا شر
من المشرك ، ومعصيته وإن كانت شركا أو مساوية للشرك فلا غفران لها
بتاتا .

هناك شيء آخر يساوي الشرك تماما وهو رفض مبدأ السمع والطاعة ،
أو رفض مبدأ الخضوع لله ، إبليس كان يعرف أن الله موجود ، وكان
يعرف أن الله واحد ، ولكنه — مقبوحا مطرودا — قال لله : لا أطيعك ،
لا أسمع أمرك ، لا أنفذ لك طلبا ، فهو يعرف الله ، ويعرف أنه واحد ،
ويكلم الله ، لكن أي كلام ؟ كلام من رفض مبدأ السمع والطاعة .

ديننا يسمى الإسلام ، ومعنى الإسلام : التسليم لله ، الاستسلام
لتوجيهات الله ، ليس لي مقترحات أغير بها أمر الله أو نهيه ، معنى الإسلام :
الاستسلام والخضوع ، فليست لي إرادة أمام إرادة الله ، وفي الحديث :
« لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » (١) .

فمن رفض مبدأ السمع والطاعة فهو مساو للمشركين تماما ، ولذلك
قال علماؤنا — وصدقوا فيما قالوا — : إن من رفض واجبا ، أو استباح

(١) قال الألباني : إسناده ضعيف رجاله ثقات غير نعيم بن حماد : ضعيف لكتابة خطئه وقد اتهمه

بعضهم انظر كتاب السنة لابن أبي عاصم : ١٢/١ .

محرمًا فإنه خرج بهذا عن مبدأ السمع والطاعة ، جحوده للواجبات ، واستباحته للمحرمات تجعله منسلخاً عن الإسلام .

فمن قال : إن عقوبة الزنا وحشية ، أو إن عقوبة السرقة وحشية فهذا القائل انسلخ عن مبدأ السمع والطاعة ، وأصبح زميلاً لإبليس في رفضه لأوامر الله .

إذاً التدين الحق : إيمان بالله الواحد ، وإقامة العلاقة به على مبدأ السمع والطاعة .

هنا شيء ، قد تقوم العلاقة على مبدأ السمع والطاعة ، ولكن ينهزم الإنسان أمام شهوة غالبة ، أو أمام عقبة طارئة ، أو تنزلق قدمه في طريق لم يحسن السير فيها ، أو ما إلى ذلك من أنواع المخالفات .

ما دام مبدأ السمع والطاعة مقرراً في نفس المسلم فإن أخطائه لا تخرجه عن دين الله ، ولنضرب لذلك مثلاً ..

روى البخارى في صحيحه عن عمر بن الخطاب أن رجلاً على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله وكان يلقب حمارة ، وكان يضحك رسول الله ﷺ ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب ، فأتى به يوماً فأمر به فجلد ، فقال رجل من القوم : اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به ، فقال النبي ﷺ : « لا تلعنوه فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله » (١) .

أنا عندما قرأت الحديث ترددت فيه ، وبدأت أغلغل البصر في معناه ولا أدري ، أسأل نفسي : كيف يحب الله ورسوله ثم يشرب الخمر ؟!

وبدأت أدرس ، وأتبع التجارب ، وأذكر أحوال الناس قديماً وحديثاً ، ثم انتهيت إلى ما أذكره لكم ، وهو أن بعض الناس قد يتعطل من إرادته شيء خطير يسبب الإدمان ، يقول الطبيب لمن يشرب الدخان : ضررك وموتك في هذا ، ومع ذلك يشرب ، وقد رأيت أحد الشيوخ

(١) أخرجه البخارى في الحدود — باب ما يكره من لعن شارب الخمر وإنه ليس يخرج من

الكبار — وهو من بلدنا — أصيب بشلل ، فذهبت إليه ، وسمعتة يرجو الطبيب — وقد حرم عليه التدخين تحريماً باتاً — أن يأذن له في سيجارة أو في سيجارتين ، والدكتور يأبى ، والشيخ يرجو ويتوسل ويلح !! فاستغربت ثم علمت أن الإدمان قد يعطل شيئاً أو يصيب جانباً في المخ بالشلل فما يحسن الإنسان التصرف !! .

وقلت يوماً لرجل يسكر : لم لا تدع السكر ؟ فبكى وقال : ادع الله لي ! فأدركت أن الرجل مؤمن وأن مشيئته معطلة ، وتذكرت ما روى عن عيسى عليه السلام « .. ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب ، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد ، فإنما الناس مبتلى ومعافى ، فارجحوا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافية » (١) .

وتذكرت أن رجلاً (٢) في جند سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أخذ متهماً بسكر — وله شعر يدل على أنه يعشق الخمر (٣) — وحبس في بيت سعد ، فلما هاجت ريح الجهاد (٤) ، ودارت رحي المعركة ، كاد الرجل يجن في سجنه ، وتوسل إلى امرأة سعد يقول لها (٥) : هل لك إلى خير ؟ قالت : وما ذاك ؟

قال : أن تخلين عني وتعيريني البلقاء — وهي فرس سعد — فلهه على إن سلمني الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلي في قيدي ، فأبت ، فقال : كفى حزناً أن ترتدى الخيل بالقنا * وأترك مشدوداً على وثاقها إذا قمت عنائي الحديد وأغلقت * مصارع دوني قد تصم المناديا فرقت له امرأة سعد وأطلقته وأعطته البلقاء فرس سعد فركبها وحمل على المشركين .

(١) رواه مالك في الموطأ في كتاب الكلام — باب ما يكره من الكلام بغير ذكر الله ٩٨٦/٢ .

(٢) هو أبو عجمن الثقفي .

(٣) ذكره ابن الأثير في الكامل : ٣٣١/٢ وهو :

إذا مت فادفني إلى أصل كرمه . تروى عظامي بعد موت عروقها
ولا تدفني بالقبلة فإنني . أخاف إذا ما مت أن لا أدوقها

(٤) أي في غزوة القادسية سنة أربع عشرة .

(٥) انظر نفس المصدر .

المهم في هذا أن الرجل قال كلاماً من أثر إدمانه للسكر ، وهو قد تاب ، وتاب الله عليه ، والآية تقول : ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرَ أَنْ يَشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨]

لكن ما معنى كلمة « لمن يشاء » ؟ هل هي محاباة ؟

أولاً : من حق رب العالمين أن يعطي دون أن يقف بشر ليقول له : لم ؟ هو الملك ، ما دخلك أنت ؟

لكن الحقيقة أن المقصود بكلمة « لمن يشاء » أنه عليم بالناس ، بطوايا صدورهم ، بخنايا قلوبهم ، عليم بالشخص الذي صدرت عنه المعصية ، هل كان مغلوباً على أمره ؟ هل كانت هناك ملايسات تخفف الحكم عليه ؟

الله هو العليم بالناس ، وهو الذي يدرى بدقة من هو أهل مغفرته ، ومن هو أهل طرده من رحمته ، وعلى هذا نفهم معنى الحديث القدسي : « يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » (١) .

هذا الحديث محكوم بأن هذا عبد يدعو ويرجو ويؤمن ويعرف ربه معرفة حسنة ، ولكن قد تقع منه أخطاء يسكب الدمع عليها ويتألم لانزلاقه إليها ، فهو مسلم ، ولاشك في إسلامه .

إن الذي يجزم بطرده من رحمة الله هذا الذي يكفر بالله ، وينكر وجوده ، أو يشرك بالله ، أو يجحد معلوماً من الدين بالضرورة ، أو يستبيح محرماً رفض الإسلام أن يقع الناس فيه ، أو يسقط واجبات أمر الله العباد أن يؤدوها ، أو يرفض مبدأ السمع والطاعة .

(١) رواه الترمذي في أبواب الدعوات — باب ما جاء في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده — وقال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه (تحفة الأحوذى ٥٢٥/٩) وأحمد في المسند ١٦٧/٥ والدارمي في الرقاق — باب إذا تقرب العبد إلى الله ٤١٤/٢ .

هذا أساس للآيات الخمس التي ذكرها عبدالله بن مسعود رضى الله عنه ، ثم تجيء الآيات الأخرى بعد ذلك مكملة للمعنى الذى درنا حوله الآن .

الآية الأولى من الآيات الخمس ﴿ إن تجتبتوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾ [النساء : ٣١]
ما هي الكبيرة ؟ الكبيرة ما ورد في الإسلام مقرونا بلعن ، أو مقرونا بوعيد شديد ، أو مقرونا بعقاب فيه رهبة وفيه تخويف ، هذه هي الكبيرة . والكبائر كثيرة ، فإذا برى الإنسان من هذه الكبائر وابتعد عنها ، ثم وقعت منه صفائر — والصفاير كثيرة — فإن الله يغفر لعباده الصفاير فضلا منه ﴿ إن تجتبتوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾ [النساء : ٣١]

وهذا يجعل أدب الإسلام يسيطر علينا عندما نرى بعض المخطئين ، فما يجوز أن نتهمهم بالفسوق والكفر لأنهم ارتكبوا أشياء هي صفاير ، وهذه الصفاير مغتفرة يوم يجتنبون الكبائر .

والآية الأخرى : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ [النساء : ٤٠]

ما أظن أحدا يخاف من الله ظلما ، فإن الله عدل ، وإذا سألتنى قلت : والله نحن نخاف من العدل ، لأننا إذا عوملنا بالعدل ما ننجو من العقاب ، ماذا لو قيل لك : أنت أطعت ، وأنا أطعمت وسقيت وكسوت وآويت ؟

فبقدر ما كسوتك وآويتك وأطعمتك وسقيتك تذهب العبادات التي عبدتنى بها ، وتبقى عريان بعد ذلك تحتاج إلى الفضل الإلهي !!

إننا لو عوملنا بالعدل هلكننا ، لأننا في الحقيقة فقراء إلى فضل الله ، وإلى عفو الله ، وإلى رحمة الله ، وإلى مغفرة الله ، ممكن جدا أن نعامل بالعدل فتطيش كفتنا ويضيع عملنا ، فنحن من ناحية العدل موقنون بأن الله عدل ، ولكن الحاجة الملحة هي أن نكون أهلا لفضل الله وعفوه ورحمته ، وهذا العفو ، وهذه الرحمة ما يلقاها متكبر .

وأنا أنبه المتدينين إلى أن يكونوا أصحاب قلوب رقيقة خصوصاً مع من لا يزالون في الظلمات ، فإن رسول الله ﷺ « حدث أن رجلاً قال : والله لا يغفر الله لفلان ، وإن الله تعالى قال : من ذا يتألى على أن لا أغفر لفلان ، فإني قد غفرت لفلان وأحببت عملك » (١) .

هذا سببه أن بعض المتعبدين عنده قسوة غريبة ، أو يظن أنه ببعض العبادات — التي قام بها هو — قد ملك على الله خزائن الرحمة وأبواب الجنة !! وهذا خطأ فاحش ، وإلى هذا يشير ابن عطاء الله السكندري في حكمته : « معصية أورثت ذلاً وانكساراً خيراً من طاعة أورثت عزاً واستكباراً » .

الآية الأخرى : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ [سورة النساء : ١١٠]

ليس في الإسلام أكثر من أن الإنسان إذا اتسخ أن يغسل نفسه ، وقلب الإنسان كبده ، فكما أن البدن — على ظهر الأرض — يتعرض للغبار ولأتربة الجو ، وكما أن هناك أجهزة للعرق وللفضلات تجعل هذا الجسم محتاجاً باستمرار إلى التطهير والتنقية فكذلك القلب الإنساني يحتاج باستمرار إلى التطهير .

وعندما تخطيء لا تذهب إلى بشر لتقول له : أنا أخطأت فاغفر لي — كما يوجد في بعض الديانات — لا ، أنت أخطأت أنت الذي ترجع إلى ربك وتصطلح على سيدك ، وتستأنف حياة أنقى وأرقى .

الآية الخامسة : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ [النساء : ٦٤]

هذه الآية كشفت عن مكانة النبي ﷺ وأن استغفاره للمخطئين باب عظيم إلى التوبة عليهم ورضوان الله الذي ينتظر لهم ، كان المنافقون — كما

(١) رواه مسلم في البر والصلة والآداب — باب النهي عن تقطيع الإنسان من رحمة الله تعالى

قال الله — : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيهم يصدون وهم مستكبرون . سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ [المنافقون : ٥ — ٦] .

لكن المفروض أن المؤمن يجيء إلى الله وإلى الرسول عليه الصلاة والسلام — وكان ذلك في حياته ﷺ — فيسأل ربه الرضا ، ويطلب من نبيه ﷺ أن يغفر الله له .

وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يدعو لأهل الطاعات ، فإذا جاءه رجل بزكاة دعا له تنفيذاً لأمر الله : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم ﴾ [التوبة : ١٠٣] .

كلمة « وصل عليهم » أى ادع لهم ، فعن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنهما قال : « كان النبي ﷺ إذا أتاه رجل بصدقة قال : اللهم صل على آل فلان ، فأتاه أبى فقال : اللهم صل على آل أبى أوفى » (١) ، ومعنى الصلاة : المغفرة والبركة والثناء ورفعته الدرجة .

هذه هى الآيات الخمس التى اتفق ابن مسعود رضى الله عنه مع ابن عباس رضى الله عنهما على أنها من مفاتيح الرجاء ومن أبواب الرحمة ، وزاد ابن عباس رضى الله عنهما ثلاث آيات متتابعات هى : ﴿ يريد الله ليعين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾ [النساء : ٢٦] .

القرآن الكريم نزل ليجعل الأمة الإسلامية امتداداً للنبوات القديمة — لنوح وموسى وعيسى — فى العقائد وأصول الإيمان ومكارم الأخلاق ، أما الفروع الفقهية ، والشرائع العملية فقد قال الله تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ [المائدة : ٤٨] .

(١) رواه البخارى فى الدعوات — باب قول الله تعالى وصل عليهم ٩٠/٨ ومسلم فى الزكاة — باب الدعاء لمن أتى بصدقة ١٢١/٣ .

قد تختلف الأديان من ناحية الفروع ، أما الأديان من ناحية الأصول فهي متفقة ، فأتباع موسى غير يهود العصر الحاضر ، وأتباع عيسى غير نصارى العصر الحاضر ، يهود ونصارى العصر الحاضر صلتهم بموسى وعيسى صفر ، أما نحن فأتباع موسى وعيسى ومحمد عليهم جميعا الصلاة والسلام .

والآية الثانية : ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما ﴾ [النساء : ١٧] .

الله جل جلاله في دينه ومراده من خلقه وهديه وأمره ونهيه إنما يريد أن يرفع مستوانا ، وأن يزكى سرائرنا ، وأن يبيض صحائفنا ، أما غيره فيريد أن يزيغ بنا ، وأن نعوج عن الحق ، وأن نلوث بالأقذاء بواطننا ، وأن يبعدنا عن ربنا وولى نعمتنا .

الآية الثالثة : ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا ﴾ [النساء : ٢٨] .

رعاية للضعف البشرى ، رعاية لأننا خلقنا من طينة هذه الأرض ، رعاية لما يغلب غرائزنا من نزوات السوء ، رعاية لذلك كله عاملنا رب العالمين بهذه السماحة ، يضاعف الحسنات ، ويغفر السيئات ، ويغفر ما دون الشرك ، ويفعل الكثير رحمة منه بعباده : ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ﴾ [غافر : ٧] .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله موفق العاملين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي المؤمنين ،
وأشهد أن محمدا رسول الله سيد الأنبياء والمرسلين .
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أما بعد :

عباد الله أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل .
أيها الإخوة : نريد وقد تحدثنا عن الذنب ومغفرته ، والعصيان والتوبة
منه ، نريد أن يعرف المسلمون شيئا عن طبيعة الطاعة وطبيعة المعصية في
ديننا كما فسر ذلك المشتغلون بالتربية .

لماذا أشرح هذا ؟

لأن المخادعة بالدين أو بأداء الشعائر الشكلية أصبح شيئا في أخلاق
المسلمين الآن ، لنضرب مثلا :

الشح رذيلة ، البخل معصية ، وفي الحديث : « اتقوا الظلم فإن
الظلم ظلمات يوم القيامة » ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم
حلوا على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » (١) .

وهل انتشرت الشيوعية وانتشر ضلال كثير في الأرض إلا لأن المبتلين
بالفقر لم يجلبوا عوننا مسعفا من المبتلين بالغنى ، لم يجلبوا معاملة عادلة إن
عملوا ولا إعانة سخية إن تعطلوا .

البخل رذيلة ، فكيف نتخلّى عن هذه الرذيلة ؟

(١) رواه مسلم في البر والصلة والآداب — باب تحريم الظلم ١٨/٨ .

بالكرم ، لا توبة منها إلا بالكرم ، كيف ؟ بتدريب النفس على العطاء ، لأن الرسول ﷺ قال : « إنما العلم بالتعلم ، وإنما الحلم بالتحلم .. » (١) .

تكلف العطاء تكن يوماً ما كريماً ، قاوم شح نفسك تكن يوماً ما كريماً ، فإذا حدث أن رجلاً قال : الشح رذيلة والبخل معصية ، والعلاج أن أصوم غداً وبعد غد وأصوم ثلاثة أيام من كل شهر .

لا يصلح هذا ، فإن هذا تغطية للمرض وليس إزالة للمرض ، الكبر مرض والعناد مرض ، كيف يزولان ؟ أن تكون سمحاً ، وأن ترفض العناد ، وأن تزهد في الجدل ، لكن إذا بقيت عنيداً ومجادلاً فهل يغنى عنك أنك تصلي كثيراً أو تصوم كثيراً ؟ لا ، المرض كما هو ، كل ما حدث أن الوساخة النفسية غطيت ببعض الأوراق حتى لا تراها العين ، ولكن الذي يعلم السر وأخفى يعرف نفسك .

من هنا يجب أن نتعلم كيف نرى أنفسنا ، وكيف نبتعد عن كثير من الخطايا والهنات التي لا تليق بالمؤمنين ، والتي لا يغطيها — عند الله — أن تكثر الصلاة أو تكثر الصيام ، إنما تقبل الصلاة يوم تكون ممحاة (٢) ، تمحو سوء القول وسوء العمل ، وفحش القول وفحش العمل ، وردىء الخلق وردىء السلوك ، عندئذ تكون الصلاة تطهيراً ومغفرة ، أما انحناء الجسد وقيامه فإن هذا ما يصنع شيئاً لتطهير الإنسان .

نحن نريد أن نعرض الإسلام بأخلاقنا وأحوالنا عرضاً حسناً ، لأن التدين الشكلي أساء إلى ديننا وأساء إلى سمعتنا ، إن أسلافنا أتقنوا لغة لم يعرفوا غيرها : الخلق !! الخلق لغة عملية ، اتقنوا هذه اللغة فانفتحت لهم البلاد ودان لهم الناس ، صاحب الخلق يملك الكثير ، لكن يوم يتحول الدين إلى شكلية فإن أصحابه لن ينالوا شيئاً به ، ولن يكسبوا خيراً من ورائه ، ولن يسدوا إليه يداً حسنة في شرح الصدور به ودك حصون الضلال باسمه .

(١) بقية الحديث : « .. ومن يتحر الخير يعطه ، ومن يتق الشر يوقه » رواه الدارقطني في الأفراد والخطيب البغدادي في التاريخ وإسناده ضعيف كذا في الجامع الصغير للسيوطي (فيض القدير : ٥٦٩ ٢) وقال في صحيح الجامع الصغير (٢٣٢٨) : حسن .

(٢) المححاة : خرقه يزال بها الوسخ ، وقطعة من المطاط أو نحوه تستعمل نحو الخط .

نريد أن نعرف ديننا معرفة صالحة ، وأن تكون أخلاقنا وأعمالنا شرحاً
عملياً صالحاً لهذا الدين الذى شرفنا الله به .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا
التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة
لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا
غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى
عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل :
٩٠] .

أقم الصلاة

★ ★ ★

(١) رواه مسلم في الذكر — باب، التَّوَهُُّدِ مِنْ شَرِّ مَا عَمِلَ وَمِنْ شَرِّ مَا لَمْ يَعْمَلْ ٨١/٨ .

نَظَرَاتٍ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ (١)

العناصر الخمسة التي
تتكون منها سورة النساء

خطبة الجمعة

بجامع عمرو بن العاص
١٥/٣/١٩٧٤ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عُدوان إلا على
الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد
وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ،
والسراج المنير .

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أما بعد :

فإننا نقف اليوم وقفة استهداء وتدبر أمام سورة النساء ، وسورة النساء
سورة مدنية ، وهي السورة الثالثة في المصحف الشريف . وعلى عادتنا في
التفسير الموضوعي نحاول أن نلتقط صورة سريعة لهذه السورة المباركة ،
ونحاول أن نجمع ملامحها ونُقَرِّب معانيها في هذه اللحظات القصار التي
نؤدى فيها الخطبة .

بدأت السورة بقول الله جل شأنه — ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم : يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ [النساء : ١] تفيد هذه الآية أن الازدواج طبيعة الأحياء ، ففى عالم النبات يوجد الذكر والأنثى ، وفى عالم الحيوان يوجد الذكر والأنثى ، بل إن القرآن الكريم وجه النظر إلى أن المادة نفسها تقوم على الازدواج ، قال تعالى : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ [الذاريات : ٤٩] وظاهر من هذا الازدواج أن بقاء الإنسانية والحيوانية وامتداد العمران بهذا التكامل بين الذكورة والأنوثة ، كأن الأجناس المختلفة ما تمتد جيلاً بعد جيل إلا عن هذا الطريق — طريق التلاقى والازدواج : ﴿ سبحانه الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ [يس : ٣٦] .

ولا يبقى متفرداً بوجوده ، غير محتاج إلى آخر — لأن ذاته تفردت بوجود أرقى من كل ما نفكر فيه — إلا الله جل شأنه الذى ﴿ لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد ﴾ [الإخلاص : ٣ ، ٤] .

أما بقية الخلائق فإنها تقوم على هذا الازدواج ، فإن الإنسان يألف جنسه ، ويعيش معه ، وعن هذه المعاشة بين جنسين أو بين فردين من جنس واحد يتم امتداد الوجود .

والنظرة العامة لهذه السورة تجعلنا نلتقط عدة معان شاملة ، يمكن أن نقول : إن الصفحات الخمس أو الست الأولى فى هذه السورة تتحدث جميعاً عن قضايا الأسرة .

ثم بعد حديث عن العقيدة والأخلاق ، وبعد تنبيه إلى ضرورة تخلص النفس من الغش والرياء يبدأ فى السورة حديث آخر عن أهل الكتاب ، يبدأ هذا الحديث من قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السيل . والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً ﴾ [النساء : ٤٤ ، ٤٥] وأهل الكتاب الذين تحدث عنهم هذه السورة : يهود ونصارى ، ولكلا الجنسين خصائص برزت عندما تحدث القرآن عن كلا الفريقين على حدة .

ثم نجد حديثاً — بعد ذلك — عن المنافقين ، وحديثاً آخر عن ضعاف الإيمان ..

وما الذى يبرز النفاق ويكشف خبايا المخادعين ؟ .

وما الذى يَعْجِمُ^(١) أَعْوَادَ الْمُؤْمِنِينَ وَيُبَيِّنُ الصُّلْبَ مِنْهَا وَالْهَشَّ ؟ .

أمران : الجهاد فى سبيل الله ، والحكم بما أنزل الله .

وقد دارت السورة بعد ذلك على هذين الأمرين اللذين يكشفان نفاق المنافقين وضعف الضعفاء .

هذه سورة النساء بإجمال ..

يمكن أن نُجَمِّلَ العناصر التى تكونت منها سورة النساء فى هذه العناصر الخمسة :

١ — حديث عن الأسرة وقضاياها ، أخذ الجزء الأول من السورة فى نحو ست صفحات .

٢ — حديث عن أهل الكتاب من يهود ونصارى ، أخذ ما يلى الحديث عن الأسرة ، وُخِّمَتْ به السورة فى حديث عن النصرانية ومزاعمها .

٣ — حديث عن المنافقين وعن ضعفاء الإيمان .

٤ — حديث عن الجهاد فى سبيل الله .

٥ — حديث عن الحكم بما أنزل الله .

قلنا : إن الفائدة من الدراسة الموضوعية لسور القرآن الكريم أنها تعطيك فكرة عَجَلَى عن السورة بحيث إذا رجعت إلى نفسك وأخذت تتلو كتاب ربك وتتدبر ما أودع الله فيه من هدايات تعرف أين تسير وما الذى يواجهك ، فإن من العجز الذى وقع فيه بعض المفسرين والقراء أنهم ظنوا

(١) عَجِمَ الشيء عَجْماً وعُجْماً : عَفِىهُ لِيَعْلَمَ صَلَابَتَهُ مِنْ رَخَاوَتِهِ . ويقال : عَجِمَ فلاناً ، وعَجِمَ عوده : امتحنه واختبره .

آيات القرآن الكريم رُكْم بعضها فوق البعض الآخر دون رباط واضح ودون
خُطة بينة !! .

وهذا من العجز في تدبر القرآن والقصور في إدراك معانيه ومغازيه .
إننا بحاجة إلى تدبر سورة النساء خصوصاً هذه الأيام . لم ؟ لأن أوائل
السورة تحدثت عن قوانين الأسرة وقضاياها وعلاقة المرأة بالرجل .

وظاهر أن الإسلام يرفض الرهبانية ، ظاهر أن الإسلام لا يرى أن
الغريزة الجنسية رجس من عمل الشيطان — كما تحدثت بعض الديانات !! .
الإسلام يرى — وهو دين الفطرة — أن الزواج عبادة ، وأن علاقة
الرجل بامرأته علاقة طبيعية ينبغي أن تُصان في إطار من تعاليم الشريعة
ونطاق من حدود الله .

تصوّر بعض الناس أن الغريزة الجنسية يجب أن تُكبح إلى الأبد وأن
تقهر داخل تعليمات مشددة من رهبانية قاسية ، هذا التصور ينكره
الإسلام ، والأساس في هذا أن طبيعة الفضيلة العموم والنفع .
بمعنى أنك تقول : الصدق فضيلة ، فإذا عمّ الصدق ارتقى الناس
وانتفعوا .

الأمانة فضيلة ، فإذا عمّت الأمانة ارتقى الناس وانتفعوا .. فإذا قلت
مع القاصرين : الرهبانية فضيلة ، فإذا عمّت الرهبانية باد الجنس البشرى
وتلاشى .

فلا فضيلة إذن في هذه الرهبانية لأن نهايتها أن تقهر البشر في حرب
لا معنى لها .

إنما قام الإسلام على عمل جميل وهو ضبط الغرائز البشرية ، وضبط
الغرائز البشرية مسألة معقولة ومعروفة ، فإن الماء يروى الظمان ويحفظ
الحياة ، وهو بالنسبة إلى الأرض يروى الأرض ويُحِيل جَدْبها خصباً .

لكن متى يكون الماء كذلك ؟ .

يوم يؤخذ بقدر وتوضع له أنظمة ..

الغرائز الجنسية كذلك ، إذا أطلقت في فيضان مدمر قتلت البشر ، أما إذا وُضع لها نظام مضبوط معقول كانت مصدر حياة للناس ، وقد نظم الإسلام الغريزة الجنسية فلم يطلقها ليتحول البشر إلى حيوانات ، ولم يُقيدها التقييد الذى يبيد البشرية أو يجعل النفاق الجنسى علامة فيها والشذوذ المستقبح شارة لها ، بل أباح الزواج ورَّحَّب به ، وهشَّ له ، وأعان عليه بكل جهده .

وكما أباح الإسلام الزواج أباح التعدد لِمَ ؟ .

لأنه يرى أن الفائض النسائى بين المجتمعات كلها لا يعالج إلا بهذا الأسلوب .

يعنى إذا وجد نسوة زائدات مستعدات للزواج وكان عدد الرجال المستعدين للزواج أقل فما الحل ؟ .

الناس هنا بين أمرين : إما أن يفرضوا رهبانية على المرأة الزائدة فلا تتصل برجل أبداً ، وإما أن تتصل بالرجال عن طريق الزنا والبغاء .

وإما أن تشرك امرأة أخرى في رجل تنتسب إليه وينفق عليها ويكون أولادها منه حاملين لاسمه .

أى الحلول أشرف للمرأة ؟ .

أن تكون محبوسة إلى الأبد في سجن الرهبانية ، أو مطلقة العنان في ميدان البغاء والحيوانية أم تكون شريكة لامرأة أخرى في رجل يرعاها ويوفر لها حياة الشرف والاستقامة ؟ ! .

إن الإسلام لما أباح التعدد كان منطقياً في هذه الإباحة ، ثم هو قبل ذلك وبعده ما أباحه إلا لمن يقدر على تبعاته ويستطيع العدالة فيمن جمع بينهن في بيته .

قضايا الأسرة تحتاج إلى كلام طويل نرجعه إلى حديث آخر لأنى أريد أن ألقى نظرة شاملة عاجلة على عناصر السورة الأخرى .

لقد تحدثت السورة عن أهل الكتاب من يهود ونصارى ، بدأ حديثها عن اليهود بقول الله جل شأنه : ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيحاً مِنْ

الكتاب يشتررون الضلالة ويريدون أن تضلوا السيل ﴿ [النساء : ٤٤]
وقول الله بعد ذلك : ﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم .. ﴾ [النساء :
٤٩] وقول الله : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون
بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين
آمنوا سيلاً ﴾ [النساء : ٥١] هذا الكلام عن اليهود لا بد أن نلاحظ فيه أن
الإسلام يعتبر الضمير اليهودي ضميراً ملوثاً ، وأنه يعصى الله عن إدراك
لمعصيته ، وأنه يعرف الحق ويمجد عنه !! وذلك بعكس كثير من النصارى
فهم — إن صحَّ التعبير — مخلصون في ضلالهم !! .

تعبير مستغرب ، ولكن أحياناً يخطئ الإنسان ، ويوغل في الخطأ ،
ويتحمس لخطئه أو خطيئته وهو مغلقُ الذهن ، حائر الفكر ، مُشتت
الخطى لا يعرف له هدفاً سليماً ولا غاية صائبة ، وقد يكون هذا الحائر
الذى فقد الاستقامة في مسلكه وفكره قد يكون خطراً جداً على الحقيقة
وعلى الإيمان لأن كثيراً من الناس في هذا المضمار ينطبق عليهم قوله تعالى :
﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾ [فاطر : ٨] وقوله تعالى : ﴿ قل
هل نبئكم بالأخسرين أعمالاً . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم
يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ [الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤] اليهود مغضوب
عليهم . لماذا ؟ .

لأن شراسة طباعهم ، وقساوة قلوبهم ، وسماجة أعمالهم ، والكبر
الذى يَصِفُ سيرتهم وحياتهم يجعلهم جُراء على الله ويجعل ما يصدر عنهم
من آثام ظاهر الشر بادی القبح ، فهم مثلاً — كما تروى سورة النساء —
يُسئلون من قريش — وقريش وثنية — أنتم أهل كتاب خبراء بالوحي
تدركون طبيعة المنتسبين إلى السماء وإلى الكتب السماوية دُلُونَا : أنحن على
الحق أم محمد ؟ فيكون جوابهم اليهود : أنتم على الحق !! عجباً !! .

إذا كنتم أهل كتاب سماوى تؤمنون بالله وبموسى نبيه وبما أرسل بعد
موسى من أنبياء فإن الله الواحد لا يجوز بُتُّه أن يكون له شريك ، وأن تكون
هذه الأصنام التى لا تضر ولا تنفع والتى عكف عليها القرشيون آلهة مع الله
أو وسائط وشفعاء إليه .

يذكر القرآن الكريم الشهادة المزورة التي أعطها اليهود لإخوانهم عبدة الأصنام في قوله جلّ شأنه : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ﴾ أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ﴿ [النساء : ٥١ ، ٥٢] ومن علامات التعمق في الضلال أن هؤلاء يتمنون للمسلمين أن يتركوا كتابهم ونبيهم وألا يعرفوا ربهم وألا يشرحوا الوحدانية على النحو النضير الجليل الذي ذكره القرآن الكريم !! .

بينما نجد أن النصارى في تأليهم للمسيح وزعمهم أنه إله أو جزء إله أو شبه إله أو ابن إله أو ما إلى ذلك مما عاشوا به ونشروه وتعصبوا له نجد أن القرآن الكريم يتناول هؤلاء ليشرح لهم الحقيقة مبيناً أنهم أهل غلو وأنهم ضلوا السبيل : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً ﴾ [النساء : ١٧١] .

ثم هل يوجد في أهل السموات وأهل الأرض من يشعر بغضاضة حين يسجد لله ؟ .

كلا ، فإن البشر والملائكة وكل حي له عقل يكون في أشرف أحواله وأزكى أوصافه وأطيب أوقاته عندما يحني صلبه راكعاً أو ساجداً ليقول لربه في خشوع وإجلال وإعزاز : سبحان ربي الأعلى !! وهذا معنى الآية الشريفة : ﴿ لن يستكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ﴾ [النساء : ١٧٢] .

إن شرف العباد في عبوديتهم لله ، ما من نبي ولا ولي ولا ملك ولا بشر إلا وعظمته في أن يحني رأسه ، وأن يتجه بقلبه ، وأن يُسلم لله وجهه ، وأن يقول في أدب وتواضع لله جل شأن : أنا عبدك وأنت ربي !! .

هذه حقيقة ، وكان النبي ﷺ يؤكد هذه الحقيقة بقوله : « اللهم

إني عبدك بن عبدك بن أميتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحداً من خلقك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي» (١) هذه هي العبودية . من عيسى ؟ ومن غيره ؟ .

عباد الله لا يزيدون ولا ينقصون !! .

هكذا تناولت سورة النساء اليهود والنصارى ، وسنفصل ذلك في وقت آخر إن شاء الله .

بين تناول السورة للفريقين نجدها تناولت صنفين من الناس : الصنف الأول : منافق ، والصنف الثاني : ضعيف الإيمان .
ما الذي كشف الصنفين معاً ؟ .

كشفهما فرض الجهاد ، وتحكيم الله جل جلاله في قضايا الناس أصحاب القلوب المريضة يكرهون الحكم بما أنزل الله ، وما أكثر هؤلاء الآن ، سنتحدث في خطبة أخرى إن شاء الله عن ناس يستमितون الآن كي يُحرّموا الحلال وهو زواج الرجل بامرأة ثانية بينما هم خرس — سكوتوا سكوت القبر — عن اتصال الرجل بامرأة أخرى دون حرج !! .

لقد قرأنا في الصحف منذ أيام كيف أن فتاة حمقاء ركبت سيارة مع رجل — مع ذئب ، هو لا يستحق أن يوصف بأنه رجل — فلما انتهك عرضها وداس شرفها وذهبت إلى القضاء قيل لها : لقد ذهبت باختيارك ، لا دخل للقانون في أمرك !! .

لا يستطيع القانون أن يصنع شيئاً ، فإن القانون يبيح الزنا بالتراضي !! .

(١) رواه أحمد ٣٩١/١ ، ٤٥٢ وقال في مجمع الزوائد (١٣٦/١٠ ، ١٨٦) : رواه أحمد وأبو يعلى والبيزار إلا أنه قال وذهاب غمي مكان هي والطيراني ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان .

أنا أعجب ولا ينقضى عجبى ، أين المتحدثات عن قضايا المرأة يقلن : هذا لا يجوز ، غيروا هذا القانون واقطعوا الطريق على هؤلاء الذئاب أو الكلاب ؟ سُكوت ، سكتن سكوت القبر !! أما النطق ، أما الهيجان ، أما الأصوات الفاجرة فصد قانون الأسرة وحده !! سنتحدث إن شاء الله عن ذلك .

المهم أن الحكم بما أنزل الله كشف المنافقين ، قال جل شأنه : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً * وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ﴾ [النساء : ٦٠ ، ٦١] .

هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا برفضوا أن يُحكم الله فيهم ورسوله ، فكان الرد عليهم : هذا كفر ، ما دمتم تريدون أن تتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمرتم أن تكفروا به فلا بد أنكم كفرتم بالله ، وتمضى السورة تشرح هذا الكفر : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ [النساء : ٦٥]

الكلام عن هؤلاء المنافقين يطول .
نجىء — على عجل — إلى كلام السورة عن ضعفاء الإيمان ، ويبدأ هذا الكلام فيذكر هؤلاء الضعاف بأمرين :
الأمر الأول : حرصهم على الحياة ، خوفهم من الموت ، رغبتهم في المتع ، زهدهم في وعد الله الذى وصف فيه الدار الآخرة .

هذا المعنى تناولته السورة من أول قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً ﴾ [النساء : ٧٧] .

بين القرآن الكريم هنا أن ناساً من المسلمين أدوا الواجبات الأخرى لأنها سهلة الأداء فلما كُلِّفُوا بالقتال في سبيل الله خَشُوا على حياتهم ،

وأحبوا أن يبقوا على ظهر الأرض أطول عمر ممكن . فكان جواب القرآن لهم : إن الأجل ليس وفق رغبة الإنسان ولا هو يتعرض للأخطار أو ابتعاده عنها ، الآجال عند الله ، لا سلطان للبشر عليها ، وكما قال شوقي :
وقد ذهب الممتلى صحة * وصحَّ السقيم فلم يذهب^(١)
وقال ابن الرومي :

أعمارنا جاءت كآى كتابنا * منها طوال فُصلت وقصار
هذه مسألة إلهية ، وعندما يجيء الموت فلا يصده حصن : ﴿ أينما
تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة
يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل
من عند الله فما هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ﴾ [النساء : ٧٨]
أغلب الناس يتصور أن الحسنة والسيئة تعنى الطاعة والمعصية ، وهذا
غلط ، فإن الذين يقولون للرسول ﷺ هذا الكلام لا يقصدون إطلاقاً أن
الحسنة الطاعة والسيئة المعصية ، إنما يقصدون — وهذا تعبير القرآن في
أغلب الآيات — بالحسنة الحال الحسنة من رخاء ومن أفراح ، ويقصدون
بالسيئة الحال السيئة من أزمات ، ومن قحط ، ومن ضيق .

تأمل قول الله تعالى : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من
الثمرات لعلهم يذكرون ﴾ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم
سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم
لا يعلمون ﴾ [الأعراف : ١٣٠ ، ١٣١] .

فالحسنة : الحال الحسنة من ربيع خصب وأيام رخيّة .

والسيئة : الحال السيئة من أزمات وقحط .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى في نفس السورة : ﴿ وما أرسلنا في قرية
من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ﴾ ثم بدلنا مكان
السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مسّ آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم
بغته وهم لا يشعرون ﴾ [الأعراف : ٩٤ ، ٩٥] .

(١) الشوقيات : ١٤٨/٢ .

هذا معنى الحسنة والسيئة في الآيات هنا .

فهؤلاء الذين ضعف إيمانهم كانوا يفرون من التكاليف الشاقة خوفاً على حياتهم .

الأمر الثاني : أنهم ناس فوضويون ، خفاف طائشون .

وهذا عيب لا أزال أراه في الأمة الإسلامية ، خصوصاً بعدما ضعف إيمانها وقلّ يقينها ، وشاع الاضطراب في أمورها ، يقول الله في وصف هؤلاء الضعاف من المؤمنين : ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستبطنونه منهم ﴾ [النساء : ٨٣] .

والمعنى : أن هؤلاء يطيطون وراء كل رأى ، في أيام السلام ، أو في أيام القتال يستخفهم أى كلام يشاع فيجرون وراءه ولو كانوا أهل عقل وثبت لكان رؤساء من أهل العلم يسألونهم ويستفتونهم ثم ينزلون على رأيهم وعلى حكمهم .

والذى لاحظته في الأمة الإسلامية — وأنا آسف — أن هذه الأمة منذ فقدت الخلافة الصحيحة فقدت الوالد الحانى ، والأب العطوف ، والأستاذ المعلم ، والمرئى الصادق ، فكانت النتيجة أن أصحاب الديانات الأخرى يرجعون إلى حكمائهم كاليهود لهم حكماء صهيون تجدد التاجر اليهودى أو المهندس اليهودى يترك الأمر للحكماء ، فهؤلاء يرسمون الخطه وعلى الشعب أن يتبع ، وكذلك يفعل النصارى .

أما الأمة الإسلامية فإن أئمتها وعقلاءها إما أضاعتهم الأيام بإضاعة الخلافة الراشدة ، وإما سقط لواؤهم في المجتمع لشيوع الفسق والخيانة وضياع الدين فأصبح أمر الناس بأيدي من لا ينصح ولا يعقل ، والأمة أحوج ما تكون في سلمها وحربها إلى أن تسأل أولى الذكر كما قال تعالى : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ [الأنبياء : ٧] .

ما أحوج أمتنا إلى أهل الذكر يقودونها في سلمها وفي حربها . خمسة عناصر تلمحها — على عجل — في سورة النساء :

١ — قضايا الأسرة أولاً .

٢ — ثم كلام عن أهل الكتاب بشقيهم (اليهود والنصارى) شاع في أول السورة وآخرها .

٣ — ثم كلام عن المنافقين وعن ضعفاء الإيمان ، وسبب الكلام عنهم : الحكم بما أنزل الله^(١) ، والقتال في سبيل الله^(٢) وهما قوام السورة بعد ذلك .

هذه نظرة عَجَلِي إلى سورة النساء ، أوصي بعد ذلك من يقرأون السورة أن يقرأوها وهم يدركون كيف ينتقلون بين جنباتها ، ويغفر الله لنا ولكم .

★ ★ ★

(١) هذا هو العنصر الرابع .

(٢) هذا هو العنصر الخامس .

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ﴾ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .
أما بعد :

فأوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل .

أيها المسلمون :

أمتنا بحاجة إلى نهضة نسائية رشيدة . لم ؟ لأن هناك بعض المتدينين لا يعقلون قضايا المرأة وينظرون فيها بحماقة وقلة فقه ، ولو وُكِّل الأمر إليهم لحبسوا النساء في البيوت فلا عبادة ولا علم ولا عقل ولا فكر ولا نشاط ولا شيء !! .

هذا النوع من المتدينين الجهلة ينبغي أن يُحرم من الكلام باسم الله !! .

النهضة النسائية الرشيدة تحتاج إلى أن يُطرد نوع آخر من المتحدثين في قضايا المرأة وهم عبيد أوربا الذين يريدون إشاعة الخنا في بلادنا ، والذين لا يعنيه أمر العفة ولا أمر الأسرة ولا يبالون أن ينقلوا ما هنالك بعمى غريب !! ومع أن الأسر في أوربا أسر على ورق ، ومع أن الفرائز الجنسية جعلت الأعراض كلاً مباحاً ، مع هذا كله فإن من أعمى الله بصائرهم وأبصارهم من النساء والرجال يريدون نقل هذه الحضارة إلى بلادنا !! .

لا أريد لا تدين الحمقى الذين لا فقه لهم ، ولا انحلال الكذبة الذين
لا شرف لهم ولا عرض !! .

قضية المرأة تحتاج إلى نهضة نسائية راشدة وأقول : أنا أعرف نساء في
السلك الجامعي — أساتذة — يُشرفن الآن على بيوت الطالبات وعلى أعمال
نسائية جليلة في خدمة المرأة ، وعندما أرسلن إلى مؤتمرات كتبن تقارير
تبكى دماً على حالة الإسلام في البلاد التي ذهبن إليها .. وأعرف نساء في
وزارة التربية والتعليم كن يدعونني إلى خطبة الجمعة في المدرسة بأولياء
الطالبات مع الطالبات أنفسهن .. هؤلاء كن نُظَّار مدارس ولهن نشاط ديني
بارز ، وعطف على تعاليم الإسلام وانعطاف إليها واضح .

وأعرف أديبات مسلمات يكتبن كتباً رقيقة في خدمة الدين ورفض
التبرج ولهن أقلام رائعة .. أسأل نفسي وأسأل هذه الأمة لم لا يقود هؤلاء
النسوة الحركة النسائية في بلادنا ؟ ! .

أنا أريد أن تقود النسوة امرأة تصلي وتزكى وتصوم وتحج البيت ، أما
أن يتصدر قياد النسوة فريق من الغجر يقلن في بجاجة : إن مصر منفتحة مع
الأمزجة — دفاعاً عن شارع الهرم ومباضله ومخازيه ومعاصيه ، فهذا كلام
غريب .

نحن بحاجة إلى نهضة نسائية رشيدة ، لكن من يقود هذه النهضة ؟
اللاتي كتبن ضد الاحتشام وافترين الكذب على الطالبات العفيفات ؟ هؤلاء
يجب طردهن فوراً من ميدان النهضة النسائية ، نريد تسليم النهضة النسائية
إلى نساء عفيفات عاقلات محصنات آمارات بالمعروف ناهيات عن المنكر
حافظات لحدود الله .

إننا نعلم أن الإسلام صان المرأة وكفل لها حقوقاً عظيمة وجعل
إنسانيتها فوق الظنون .

يوم كانت مؤتمرات تنعقد في أوروبا تسأل : هل للمرأة روح أم ليس لها
روح ؟ وإذا كان لها روح فهل هي روح إنسانية أم حيوانية ؟ يوم وقع هذا
في أوروبا كان الفقهاء في الأمة الإسلامية يقولون : إن المرأة في بيت زوجها

ينبغي أن يوفر لها الزوج من يخدمها (١) !! .
هذا الكلام العجيب يطوى كله ويُردم كله ويجيء بعض النسوة الجاهلات المتبجحات يردن أن يطرحن الإسلام ظهرياً وأن يقدن حركة نسائية لا تعرفها أمتنا .

إننى أقول : إذا بقي زمام النهضة النسائية في أيدي نسوة يحاربن الفضيلة وقوانين الله ويسكتن على قوانين الزنا وقوانين العُهر فإن هذه النهضة لن يبارك لها في خطوة وسنكون لها بالمرصاد .

لقد انتهى إلى الأبد العهد الذى كان يُفرض علينا فيه من يتحدث باسمنا ونحن نرفضه ، وانتهى إلى الأبد أيضاً العهد الذى يتصدر النسوة فيه من يريد أن يتحدث باسمهن وهن لا يعرفنه .

نحن أمة مؤمنة ، الرجال مؤمنون ، والنساء مؤمنات ، فإذا كان هناك رجل لا دين له أو امرأة لا دين لها فلتحدث بأى اسم إلا اسم هذه الأمة ..

إن أمتنا تريد أن ترتبط بدينها وكتابها ، وهى تأخذ دينها لا من المتبجحات الكاذبات على الله وعلى الناس ولكنها تأخذ دينها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

قلت — ولا أزال أقول — فى الميدان النسائى الآن نسوة أساتذة فى الجامعات وفى وزارة التربية والتعليم وغيرها . ويوجد علماء لهم القول فى صياغة القوانين ، ويوجد بعد ذلك خبراء بالمجتمع الأوربى وما فى المجتمع الأوربى من فسق وانحلال .

(١) قال فى بداية المجتهد (٥٤/٢) : هل يجب على الزوج نفقة خادم الزوجة ؟ وإن وجبت فكم يجب ؟ والجمهور على أن على الزوج النفقة لخادم الزوجة إذا كانت ممن لا تخدم نفسها ، وقيل بل على الزوجة خدمة البيت ، واختلف الذين أوجبوا النفقة على خادم الزوجة على كم تجب نفقته ؟ فقالت طائفة : يتفق على خادم واحدة ، وقيل على خادمين إذا كانت المرأة ممن لا يخدمها إلا خادمان وبه قال مالك وأبو ثور . ولست أعرف دليلاً شرعياً لإيجاب النفقة على الخادم إلا تشبيه الإخدام بالإسكان فإنهم اتفقوا على أن الإسكان على الزوج للنص الوارد فى وجوبه للمطلقة الرجعية « انتهى .

فكيف يتصور بعض الناس أن القوانين الإسلامية يُلعب بها بعيداً عن هذه الحقائق كلها ؟!

هذا مستحيل ، هذا مستحيل .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

(١) رواه مسلم فى الذكر — باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨/٨١ .

نظرات في سورة النساء (٢)

المحور الذي تدور عليه السورة
إرساء قواعد المجتمع وتبيين معالمه

خطبة الجمعة

بجامع عمرو بن العاص

في ٢٢/٣/١٩٧٤ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على
الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد
وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ،
والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أما بعد :

فقد وصلنا في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم إلى سورة النساء ،
وألقينا نظرة عاجلة — ولكنها واعية — على هذه السورة الكريمة ، وبيننا أن
بنيّة هذه السورة تتكون من خمسة عناصر :

العنصر الأول والثاني :

حديث عن الأسيرة المسلمة وقضاياها وهداية الله في شأنها ، ثم حديث
عن أهل الكتاب أولاً حديث عن اليهود استعرض المآسي الخلقية والاجتماعية

التي شاعت فيهم واستفاضت بينهم .

ثانياً : حديث عن النصارى استعرض المتناقضات في العقيدة التي أذهبت لُبَّهم ، وحيرت شعبهم .

العنصر الثالث والرابع والخامس :

ثم حديث عن المنافقين الذين ضعفت شخصيتهم ، وتذبذبت وجهتهم فلم يُحسنوا أن ينضموا إلى إحدى الطائفتين فيكشفوا عن إيمان صريح أو كفر صريح ، ثم حديث عن المؤمنين الضعاف الذين لم يَقُوا الإيمان في أفئدتهم ، ولم يهيمن هيمنة وثيقة على مسالكهم وتصرفاتهم فشاع فيها بعض الخلل وكان منها لهذا المجتمع ضعف ووَهْنٌ، ثم حديث عن الحكم بما أنزل الله والجهاد في سبيل الله .

هذه العناصر — بداهة — لم تقسم تقسيماً فنياً على أجزاء السورة ، فإن القرآن الكريم لا يعرف هذه التقسيمات العلمية المحدثّة ، وإنما كان الحديث عن هذه العناصر جميعاً ملتصقاً ببعضه مع البعض الآخر ، وربما تماسك السياق في السورة كلها فرأينا حديثاً عن الأسرة يتخلل حديثاً عن هذه الطوائف .

وقد سألتني بعض الإخوة المتابعين قال : إننا أَلْفنا في التفسير الموضوعي أن نعرف المحور الذى تدور عليه السورة ، وقد كُشف فيما تناولنا من سور سابقة ، فما المحور الذى تدور عليه سورة النساء .

والجواب : أن هذه السورة — باتفاق المسلمين — نزلت في المدينة المنورة ، والوحي النازل في المدينة المنورة يتجه غالباً إلى المجتمع الإسلامى يُرسى دعائمه ويبين معالمه ، وذلك على عكس ما يُعرف في الاتجاه المكي من تناول النفس الإنسانية وغرس الإيمان في أعماقها ، وبنائها على المنافحة والمجالدة وتحمل الأذى في سبيل الله حتى يمكن أن ينهض هذا البناء المؤمن في وجه العقبات الكثيرة التي تعترضه .

أما في المدينة المنورة — بعد أن تَكُون للمسلمين مجتمع — فإن اتجاه الوحي في السور المدنية إلى دعم هذا المجتمع وإرساء القواعد التي ينهض عليها وتوضيح المعالم التي لا بد أن يصطبغ بها وأن تظهر فيها خصائص الأمة

الجديدة ، وسورة النساء — من هذه الناحية — تقوم على دعم المجتمع الإسلامي وحياطته وتبيين وسيلته وغايته .

ولما كانت الأسرة أساس كل مجتمع صالح كان لابد أن تتحدث السورة في صفحات طوال — في نحو ست صفحات — عن الأسرة وقضاياها ، ثم لما كانت الأمة في المدينة تتكون من طوائف كثيرة — من يهود ونصارى ومنافقين ومؤمنين ضعفاء يحتاجون إلى تقوية — بينت السورة هنا ما يجب على الأمة الإسلامية بإزاء هذه النزعات الموجودة خلالها .

سورة النساء وضحت نظام الأسرة توضيحاً ينطوي على كثير مما لابد من بيانه وكشفه ، لأنه خالف ما كان شائعاً بين الناس .. كتابيين وغير كتابيين .

فالإسلام — في بناء الأسرة — استحب الزواج وأباحه ويسره ، وهو يفعل ذلك لأمرين :

أولاً : لأنه يريد أن تبقى مواكب الإنسانية موصولة السعى والنشاط على ظهر الأرض ، ولا يوجد طريق محترم لبقاء الإنسانية ممتدة على مرّ السنين إلا الزواج .

ثانياً : لأن بناء الأسرة يقوم على التراحم والسكينة النفسية . ولذلك فإن الغريزة الجنسية — في نظر الإسلام — ليست رجساً من عمل الشيطان ، وليس سحقها هدفاً له ، وإنما الاعتراف بها جزء من منطق الفطرة — التي هي الصفة الأولى في الإسلام .

فكر بعض الناس — من عند أنفسهم لا من عند الله — أن يُحرّموا الزواج ، وأن يجعلوا هذه الغريزة نفثة^(١) شيطان ..

فماذا جنت الإنسانية من ذلك التفكير القاصر ؟ .

جنت الإنسانية من ذلك عوجا في السيرة واضطراباً في السريرة حتى إن العقلاء في أوربا — لما رأوا أن الرهينة لن تنتج إلا الفساد في الظلام وإلا

(١) نفث : نفخ .

أن الغريزة تسلت كي تنفس عن نفسها إلى أنواع شاذة من السلوك — رأوا تحريم الرهبانية بعد تجارب خمسة عشر قرناً من الاضطراب والحلل !! الإسلام جَنَّبنا هذا كله ، وأراحنا من تجارب بائسة ومن آلام مُرَّة وبيِّن النبي ﷺ أن الزواج سنته وسنة المرسلين من قبله : ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ﴾ [الرعد : ٣٨] .

وعندما حاول بعض أصحابه العُلُو وأرادوا أن ينشئوا ألواناً من العبادة تتجاوب مع هذا الجِماع^(١) قال النبي ﷺ^(٢) : « ... أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني »^(٣) .

الحقيقة أن الإسلام اعترف بالغريزة الجنسية وبنى لها السلوك الوحيد الذي يقبله ، قال : هذه الغريزة تُحبس إلا في بيت الزوجية ، هذه الغريزة تُقيد إلا مع الحلال الطيب : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ [المعارج : ٢٩ — ٣١] أي المعتدون .

وكما تحدثت سورة النساء عن الزواج تحدثت عن الطلاق ، وقد قال العلماء فيه — وهو رأى علمي دقيق لكثير من المؤلفين المسلمين — إن الأصل في الطلاق الحظر لقوله جل شأنه — في هذه السورة : ﴿ فَإِنْ أَطَعْتُمْ بَعُولَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلاً إِنْ كَانَ اللَّهُ كَانَ عَلَيْكُمْ كَبِيراً ﴾ [النساء : ٣٤] .

(١) جَمَعَ الفرس جَمْعَها وجموحا وجماحا : عتا عن أمر صاحبه حتى غلبه . ويقال : جمع الرجل : ركب هواه فلا يمكن رده .

(٢) بدء الحديث : عن أنس رضي الله عنه قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال أحدهم أما أنا فأني أصلي الليل أبداً ، وقال آخر أنا أصوم الدهر ولا أفطر وقال آخر أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ، فجاء رسول الله ﷺ فقال : « أنتم الذين ... إلخ » .

(٣) رواه البخاري في النكاح — باب الترغيب في النكاح ٢/٧ ومسلم في النكاح ١٢٨/٤ .

أى ما دامت المرأة مطيعة فإن الإساءة إليها جريمة ، ولا معنى لهذه الإساءة ، ثم إذا حدث أن تغيرت العاطفة فإن الرجل ينبغي أن يتهم نفسه كما أمر الله : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ [النساء : ١٩] .

ولذلك ورد أن رجلاً ذهب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال له : أريد أن أطلق امرأتى .. قال له : لم ؟ قال : لا أحبها .. قال له : ويحك أو كل البيوت بُنى على الحب ؟ فأين التذم والوفاء ؟ .
أين العهود والأخلاق والحياء والوفاء ؟ .

إن الإنسان ينبغي أن يكون فى هذا تقياً . وقد ورد أن أبا أيوب رضى الله عنه طلق امرأته فقال له النبى ﷺ : « إن طلاق أم أيوب كان حوباً » (١) أى إثماً .

والقصد من هذا أن الإسلام يريد — فعلاً — أن تبنى البيوت على أنها محاضن ، ليست فقط متنفساً للغريزة الجنسية فى جو طهور مقبول ، ولكنها أيضاً محاضن ، أى مدرسة كبيرة يُرى فيها الولد — ابناً كان أو بنتاً — تربية دينية تجعل مستقبله ينشأ فى كفالة الله وتعاليمه يتعلم فى البيت الصلاة، يتعلم فى البيت الاستئذان ، يتعلم فى البيت ستر العورات وعدم الهجوم عليها ، يتعلم فى البيت الكثير مما لا بد أن يتعلمه .

وتحدثت سورة النساء عن المواريث ، وكانت المواريث إما مضطربة فى جزيرة العرب ، أو ليست هناك تعاليم محددة تتصل بها فى الديانات الكتابية الأخرى ، فجاء الإسلام وكذب العرب فى حرمانهم المرأة من الميراث وقال فى حسم : ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قلّ منه أو كثر نصيباً مفروضاً ﴾ [النساء : ٧] .

(١) قال فى مجمع الزوائد (٢٦٢/٩) : رواه الطبرانى وفيه يحيى بن عبد الحميد الحماني وهو ضعيف .

وفرض الإسلام المواريث نظاماً اجتماعياً لو دُرس لُعرف أنه يكفل جو الأسرة من سلف لخلف ، ويُشيع الطمأنينة بين الآباء والأبناء ، وفي الوقت نفسه فإنه جزء من النظام الكوني في المواريث .

إن الشيوعيين يرفضون قضية الميراث ويقولون : ما يجوز توريث مال ، وهم في هذا يكذبون على سنن الله الكونية ، لم ؟ .
لأن سنن الله الكونية تُورث الإنسان طوعاً أو كرهاً ما هو أخطر من المال ، تورثه الذكاء أو الغباء ، تورثه الوسامة أو الدمامة ، تورثه الطول أو القصر ، تورثه المزاج الهادئ أو المزاج العنيف !! .

إن المواريث المادية — في الجسم — والأدبية والفكرية تنتقل من الآباء والأمهات إلى الأولاد ، والأموال التي تورث وفق هذا النظام الكوني ليست إلا جزءاً قليلاً مما فرض على الناس أن يرثوه ..

وإذا أردنا منع المواريث فلنمنع ميراث الأخلاق وميراث الطبائع !! وهذا مستحيل .

وتقسيم المواريث في الإسلام انفرد المولى سبحانه وتعالى به وقال — مذيلاً آية المواريث — ﴿ آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ [النساء : ١١] .

فعلّمه وحكمته أساس في التوريث ، وقد ختمت آيات المواريث بقول الله جل شأنه : ﴿ تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم » ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين ﴾ [النساء : ١٣ ، ١٤] .

وبعض الناس يعود إلى الجاهلية الأولى يريد أن يحرم البنات من المواريث ، وهذا جهل وتضليل ويدخل حتماً في الوعيد الإلهي : ﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين ﴾ [النساء : ١٤] وقد جاء في السنة : « إن الرجل لعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة فإذا أوصى حاف (١) في وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل

(١) أي جار وعدل عن نهج الصواب .

النار ، وإن الرجل لعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل في وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة » (١) .

وجاء في السنة أيضاً عن النعمان بن بشير قال : « انطلق بي أبي يحملني إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أشهد أني قد نخلت (٢) النعمان كذا وكذا من مالي فقال : أكَلْ بَنِيكَ قد نخلت مثل ما نخلت النعمان ؟ قال : لا . قال : فأشهد على هذا غيبي . ثم قال : أيسرك أن يكونوا إليك في البر سواء قال : بلى . قال : فلا إذا » (٣) .

لكن قال الفقهاء : إن بعض الأولاد قد تُزوجه في حياتك فإذا أعطيت البعض الآخر — وصية — ما يُسوى بينه وبين من تزوج فلا جور في هذا ، فهذه تسوية وليست تمييزاً ، وإذا علّمت ولداً على حساب الآخر فأعطيت من جهل زيادة فلا حرج في هذا ، فأنت بهذا تُسوى ولا تفاوت .

والمجتمع قاض أمين على هذا ، فإن كانت الوصية جوراً وجب رفضها ، وإن كانت عدلاً وجب إمضاؤها ، وفي قلب كل مسلم يؤمن بالله ما يجعله يدرك أين يضع قدمه ؟ وكيف يعامل ولده ؟ .

هذا المعنى من معاني الإسلام حُدّد في سورة النساء بدقة .

ما بدأت به سورة النساء من حديث عن الأسرة نحن نمر به على عجل كأننا في قاطرة نرقب بسرعة — وهي تمشي بنا — معالم الجانيين .

الطوائف التي يتكون منها المجتمع لا بد من معالجتها ، وسورة النساء — كما قلت — تدور على محور ، ومحورها الذي تدور عليه هو إرساء قواعد المجتمع ، وتبيين معالمه .

والمعروف أن المجتمع الإسلامي مجتمع فكرة ، أي أنه ينهض على دين

(١) رواه أحمد ٢٧٨/٢ وابن ماجه في الوصايا — باب الحيف في الوصية ٩٠٢/٢ وقال في ضعيف الجامع الصغير وزيادته (١٤٥٨ — ٤٣٩) : ضعيف .
(٢) أعطيت .

(٣) رواه مسلم في الهبات — باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة ٦٦/٥ ، ٦٧ .

ويجبا به ويحكم الآخرين عليه ، ومعنى هذا أن الصبغة الإسلامية يجب أن تسود الأمر والنهي ، ويجب أن تتضح في المدرسة وفي المحكمة وفي التقاليد ، وفي القيم ، وفي الشارع ، وفي البيت ، وفي علاقات الجوار ، وفي الملابس ، كل ما تتكون منه البيئة أو ينشأ المجتمع من تراكمه ومن تجمعه يتدخل الإسلام فيه لأنه — كما قلنا — دين ينهض على فكرة ، والفكرة التي ينهض عليها واضحة .

هذا دين يقوم على أن الله واحد ، وأن محمداً ﷺ نبيه ، وأن الإله الواحد أنزل كتاباً ينبغي أن يؤتمر بأمره ويُنهى بنهيه ، وأن النبي الخاتم ﷺ جاء بتطبيق عملي ينبغي أن يُتأسى به في هذا الميدان .. ولما كان المجتمع قائماً على الفكرة فإن قيامه على الفكرة بدأ يَغْزُ (١) المنتسبين إليه زوراً ، وذلك أن ناساً ما كان عليهم من بأس أن يزعموا الإسلام ، لكن كيف يُسلم لهم زعمهم إذا كان هذا الدين عبادة ومعاملة وعقيدة وشرعة وإيماناً ونظاماً ؟ .

هنا بدأت طبيعة الإسلام تكشف المنافقين : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً ﴾ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً . أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً ﴿ [النساء : ٦٠ - ٦٣] إذا هؤلاء — الذين يكرهون الاحتكام إلى الله وشرعه — إيمانهم زعم وليس حقاً .

هؤلاء الذين يضيقون بالفكرة الإسلامية ويريدون محوها ويريدون أن يناوشوا هذا المجتمع ليأتوا على قواعده هؤلاء يجب أن يُردعوا ، ومن حق هذا المجتمع أن يدافع عن نفسه وأن يستنقذ المستضعفين الذين وقعوا في

(١) غَزَّ الثوب أو الجسم بالإبرة ونحوها : وخزه وخزاً خفيفاً . وهذا الغَزُّ يكشف الصادق من الكاذب .

برائن الفتانين من الأقوياء ، ولذلك أمر بالقتال : ﴿ فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً ﴿ [النساء : ٧٤ ، ٧٥] إذاً لابد من قتال ، لابد من جهاد تُكوّن أجهزته وتهيأ عُدته . المنافقون — بداهة — يرفضون هذا ، ويضيقون به ، ويريدون أن يفروا ، إنهم يفرون من الرسول ﷺ وهو إمام في المسجد يصلي بالناس لأنهم — كما وصفتهم السورة : ﴿ ... إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴾ [النساء : ١٤٢]

فإذا كانوا يفرون منه وهو إمام في المسجد فهل يثبتون معه وهو رئيس دولة يأمر بالجهاد ؟ .

إنهم — بداهة — يريدون أن يفروا من أعباء القتال ومن مغارم بذل النفس والمال ، وهنا يقال للمسلمين : قاطعوا أولئك المنافقين وابتعدوا عنهم ، احذروا أن تنقسموا في معاملتهم : ﴿ فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً ﴾ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً ﴿ [النساء : ٨٨ ، ٨٩] .

السورة تبنى مجتمعاً يعيش بخلق معين ولهدف معين فمن خرج على هذا الخلق فهو خصم للمجتمع ، ومن تنكر لهذا الهدف فهو خصم للمجتمع ، ولذلك فإن الذين أرادوا المداينة وأرادوا أن يعيشوا معيشة مزدوجة الشخصية قيل لهم : لستم مؤمنين : ﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً ﴾ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتنون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً * وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله

يكفر بها ويستزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً ﴿ [النساء : ١٣٨ - ١٤٠] .

هناك أيضاً ضعفاء الإيمان ، ما هو الإيمان ؟ .

تكبير الكبير وتصغير الصغير ، إحقاق الحق وإبطال الباطل ، إنزال العالم منزلته ، سؤال أهل الذكر ، الرجوع إلى الإخصائيين فيما ينبغي أن يرجع إليهم فيه .

لكن ضعفاء الإيمان لا يحسنون العمل فإنهم يطيطون هنا وهناك دون أن يربط على قلوبهم إيمان راسخ ، ودون أن يوجه مسلكهم عقل راشد ، ولذلك وصف الله هؤلاء بأنهم طيَّاشون^(١) : ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ﴾ [النساء : ٨٣] .

للقتال قضاياها وللسلم قضاياها ، وينبغي أن يستفتى في كل قضية من هو قدير على النظر فيها وإبداء الرأي . قال تعالى — في وصف هؤلاء الذين لا يحسنون الاستفتاء والرجوع إلى أهل الذكر في حل المشكلات : ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً ﴾ [النساء : ٨٣] .

وأولو الأمر — هنا — ليسوا الحكام وإنما هم أهل الذكر الذين قال الله فيهم : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ [الأنبياء : ٧] .

الأسرة في المجتمع الإسلامي الآن — وإن كانت أشرف وأنظف من أسر الغرب يقيين فهي — لم تبلغ الذروة أو المستوى الذي رسمه الإسلام لها .

لاشك أننا الآن خير من أوروبا في نظامنا الاجتماعي ، وإن كان هناك ما يُتعبنا فهو الرُّشْح النُّجس الذي يخيئنا من الفوضى الجنسية التي تبناها بعض الإذاعيين والصحافيين .

(١) الطَّيَّاش : الأرعن المتسرَّع . ويقال : قوم طيَّاشة .

هذا هو الذى يهدد الأسرة عندنا وهو تهديد خطير لأن الرجل قد يكون مقصور النظر على أسرته سعيداً بزوجته ، ولكن فى مجتمع مهتك متبرج تُعرض فيه النساء على النحو الذى قال فيه الرافعى : « يا لحوم البحر سَلَحْلُكُ من ثيابك جَزَار .. » (١) !! عندما تُعرض صورة النساء على هذا النحو فإن الرجل قد يزهد فى امرأته لأن امرأته فى البيت — خادمتها — تُطبخ له ، تَكْنِسُ له ، تصنع الكثير له فهى ليست باستمرار متبرجة له ، لكن الشارع ملء بالمتسكعات المتبرجات لغير سبب إلا الإثارة ، وهذا نُضْحٌ من أوربا وسُخٌ مجتمعنا وهدد الأسرة فيه ، وأصحاب الغيرة الحقيقية على الأسرة يكرهون هذا التهتك الوارد من أوربا .

النظام الإسلامى نظام فطرى مُشَرَّفٌ احترم الغريزة وربَّأها فى بيت سُمِّي بيت الطاعة !! .

الإسلام احترم الغريزة واحتفى بها فى مجالها الصحيح ، وفى هذا يقول نبينا ﷺ : « .. وفى بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ » (٢) ويقول : « إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف الدين فليتق الله فى النصف الباقي » (٣) .

ويقول : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى » (٤) أى لامرأته .

أهذا الإسلام يعاب على موقفه من المرأة !؟ .

إذا محاسنى اللاتى أدلُّ بها • كانت عيوباً فقل لى كيف أعتذر !؟

(١) مصطفى صادق الرافعى : وحى القلم : ٢٥٦/١ ط دار المعارف .

(٢) جزء من حديث طويل رواه مسلم فى الزكاة — باب بيان أن إسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ٨٢/٣ وقوله : « وفى بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ » يعنى فى جماعة ، ويحصل هذا الثواب إذا نوى فيه إعفاف نفسه أو زوجته أو حصول ولد صالح .

(٣) رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن أنس وقال فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (٤٣٠ — ١٧٧) : حسن .

(٤) رواه الترمذى فى المناقب — باب فضل أزواج النبى ﷺ ٦٦٧/٥ وقال : حسن صحيح غريب ، والدارمى فى النكاح — باب حسن معاشرة النساء ٢١٢/٢ وابن ماجه فى النكاح — باب حسن معاشرة النساء ٦٣٦/١ وابن حبان « موارد » (١٣١٢) فى النكاح — باب عشرة النساء . وقال فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (٣٣١٤) : صحيح .

سورة النساء تحدثت عن الأسرة لأنه يجب أن يُبنى المجتمع — أولاً — على البيت ، وفي البيت يُربى الأولاد على العفة والشرف والصدق .

يقول عبد الرحمن بن عامر رضى الله تعالى عنه : « دعتنى أمى يوماً ورسول الله ﷺ قاعدٌ فى بيتنا فقالت : ها(١) تعال أُعطيك ، فقال لها رسول الله ﷺ : « وما أردت أن تعطيه » ؟ قالت : أعطيه تمرأ ، فقال لها رسول الله ﷺ : « أمّا إنك لو لم تُعْطِه شيئاً كُتبت عليك كَذِبَةٌ(٢) »(٣) .

بعد تنظيم البيت فى سورة النساء كشفت السورة سوءات المنافقين وبيّنت مواقفهم لأن النفاق سرطان للأُمم ولأن الدولة تقوم على مبدأ لا يعكر صفوها ولا يعرقل سيرها إلا الذين يريدون المداهنة فى هذا المبدأ ، وقد علّم رسول الله ﷺ أن يكون صريحاً فى عرض الإسلام ومحكمة أتباعه إليه ومحكمة الآخرين إليه فقال الله له : ﴿ ودوا لو تدهن فيدهنون ﴾ [القلم : ٩] .

المداهنة أو الإدهان(٤) لا يمكن قبوله فى الإسلام ، ولذلك فإننا نرى سورة النساء حاربت النفاق بقوة والذى كشف المنافقين الحكم بما أنزل الله وقتال أعداء الله وهذان أيضاً هما اللذان كشفوا ضعفاء المؤمنين . أما صلة السورة بأهل الكتاب من يهود ونصارى فلنا فيها موقف آخر إن شاء الله .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

(١) ها : للتنبيه أو اسم فعل بمعنى خذ .

(٢) كذبة : بفتح الكاف وسكون الذال أى مرة من الكذب ، أو بكسر الكاف وسكون الذال أى نوع من الكذب .

(٣) رواه أحمد ٤٤٧/٣ وأبو داود فى الأدب — باب التشديد فى الكذب (عون المعبود ٣٣٥/١٣) ورجاله ثقات خلا مولى عبد الله فإنه مجهول . وفى الحديث أن ما يتفوه به الناس للأطفال عند البكاء مثلاً بكلمات: هزلاً أو كذباً بإعطاء شيء أو بتخويف من شيء حرام داخل فى الكذب .

(٤) داهن مداهنة ودهانا : أظهر خلاف ما أضمر .

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون﴾ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿[الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد :

فقد استثار انتباهي صياح بعد الطلاب بكلمة احتاجت إلى تعقيب من رئيس الدولة ، وتحتاج إلى تعقيب منا ..

قال بعض الطلاب : لا حرية لأعداء الشعب ! .

وقال رئيس الدولة — مشكوراً — نعم لا حرية ولكن في حدود القانون . ونحن نستقبل هذه الكلمة بشيء من التأمل فيها وفي بواعثها ، فإن كلمة « الشعب » وباسم « الشعب » وأعداء « الشعب » ومن أجل « الشعب » كلمة تكررت كثيراً في حياة الأمم شرقاً وغرباً في القارات كلها قديماً وحديثاً ، ثم بدا لي وأنا أستعرض هذه الكلمة أنها — أحياناً كثيرة — تكون غطاء خسيساً بالغ الخسة لأهواء بعض الناس ونزواتهم ، كأنه إذا رأى شاب فتاة أراد أن يفسق فيها قال: باسم الشعب يجب أن تكون هذه الفتاة لي !! باسم الشعب !؟ ما علاقة الشعب بهذا !؟ لو أراد إنسان مصاب مجنون العظمة أن ينفس عن هذه الغريزة في دمه الملىء بالأحقاد والطمع على غير مؤهلات وعلى غير خصائص نفسية وثبَّ إلى الحكم ثم قال : باسم الشعب أنا أحكم !! .

أى شعب !؟ هذا أمر غريب ، قديماً كانت هناك خلافة اسمية قال

الشاعر في الخليفة الغلبان :

خطب الغزالي — المجلد الثاني

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديه ؟!

فباسم الشعب يؤكل الشعب ، وباسم الشعب يُظلم الشعب ، وباسم الشعب تُجتاح حقوق الشعب ، وباسم الشعب نجد عصابة من الناس حرمهم الله المواهب الأدبية التي تؤهل للقيادة ، وحرمهم المواهب الخلقية التي تجعل صاحبها جديراً بالتقدير تتسلط على المجتمع وتقول : باسم الشعب ! وهي تسحق الشعب ! .

إن الشيوعيين — في بلدنا هذا وخلال مدة طويلة — أحدثوا جلبة غريبة في بعض المؤتمرات وأخذوا يتحدثون عن الشعب وكأنهم أوصياء عليه ، والله تعالى يعلم والعالم كله يدرى أن جميع هؤلاء الشيوعيين لو حوكموا إلى انتخابات حرة في بلدهم لنفض الشعب يديه كليهما منهم ومن أخلاقهم ومن أنظمتهم التي ما وجد في ظلها إلا الجوع والخوف !! .

قال أحد الأدباء : دخل لص بيتاً فلما أطمأن له المُقام جلس ، فإذا رب البيت يطرق الباب ليدخل ، فقال اللص بجرأة غريبة : من هناك ؟ عجباً !! لص يسأل صاحب البيت من الداخل ؟!

هؤلاء الذين يتحدثون عن الشعب لصوص ، نحن أمة تؤمن بربها ، نحن أمة تؤمن بقرآنها ، نحن أمة ترفض رفضاً حاسماً كل ذرة إلحاد تحاول التسلل إلى مجتمعها ، فبأي حق يجيء بعض العيال ليقول : باسم الشعب نريد نشر الكفر ؟! أي شعب ؟! من الذى جعلكم يتحدثون باسم شعبنا المؤمن ؟ .

إننى أهيب بالمؤمنين أن يكونوا أيقاظاً فإن هناك إلحاداً يحاول تزوير إرادة الشعب .

شعبنا المؤمن الطيب يوم تمكن من أن يقاتل باسم الله انتصر ، ويوم حُرم من أن يقول : باسم الله ، يوم حرم من أن يكون مؤمناً يُترجم عن إيمانه في طمأنينة كانت النتيجة أن الصيَّاحين باسم الشعب خدموا إسرائيل أكثر مما خدمها « موسى ديان » .

إن رئيس الدولة رفض أن يقبل هذا وقال : الحرية للكل في حدود القانون .

والله ما داس القانون إلا هؤلاء الذين يريدون باسم الشعب أن يكفروا
بالله ورسله واليوم الآخر وكل مسلك نبيل في هذه الدنيا ؟!

يجب أن يستيقظ المؤمنون وأن يعرفوا أن المتاجرة باسم الشعب قد
انكشفت عصابتها ، والآن مراكز القوى في السجن ، ليكن ، لكن هناك
كثيرون تربوا على أيديهم واستمعوا منهم ولا يزالون يعيشون في مجتمعنا
فساداً .

قل لي في أحد البلاد : أنسمح للشيوعيين أن يقولوا ما عندهم ؟
قلت : نحن المؤمنون أصحاب حق ، وصاحب الحق لديه ألف دليل ، لكن
يخزننى أن يكون هناك كتاب شيوعى منشور ، وكتانى في الرد عليه غير
موجود .

عندما يلتقى الحق والباطل في هذا المجتمع فإن الحق — بما وضع الله في
معدنه من صلابة وبأس — سوف يسحق شبهات الباطل : ﴿ قل إن ربي
يقذف بالحق علام الغيوب ﴾ . قل جاء الحق وما يبدىء الباطل
وما يعيد ﴿ [سبأ : ٤٨ ، ٤٩] لكن انفراد هذه الكتب بالسوق ما يجوز ،
إننا ما نخاف الشيوعية إنما نخاف سرقة إرادة الأمة ، نخاف اغتصاب مشيئة
هذا الجمهور الطيب والزعم بأنه يريد الكفر ، وهو مؤمن .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا
التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا ، واجعل الحياة
زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا
غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .
عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء
والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة ...

(١) رواه مسلم في الذكر — باب التعود من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨ .

نظرات في سورة النساء (٣)

بناء المجتمع الإسلامي

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

في ٢٩/٣/١٩٧٤ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .
أما بعد :

فقد جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال (١) : « إن في سورة النساء لخمس آياته ما يسرنى أن لي بها الدنيا وما فيها :

﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ (٢) و ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾ (٣) و ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما ﴾ (٤) و ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيم ﴾ (٥) و ﴿ ومن يعمل

(١) رواه الحاكم في المستدرک — كتاب التفسير (٣٠٥/٢) وقال : هذا إسناد صحيح إن كان عبد الرحمن صحيح من أبيه ، فقد اختلف في ذلك .

(٢) النساء — ٤٠ .

(٣) النساء — ٣١ .

(٤) النساء — ٤٨ .

(٥) النساء — ٦٤ .

سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيماً ﴿١﴾ .

وفي رواية أخرى (٢) أن هذه الآيات الخمس قد انضمت إليها ثلاث آيات أخرى متتابعات تضمنتها سورة النساء وهي قوله جل شأنه : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم . والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما . يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا ﴾

[النساء : ٢٦ - ٢٨] .

والآيات التي ذكرها عبد الله بن مسعود رضى الله عنه وترجم عن مشاعره نحوها بقوله : « ما يسرني أن لي بها الدنيا وما فيها » يجمع بينها كلها عامل مشترك ، وهذا العامل هو أن رحمة الله واسعة ، وأنها سبقت غضبه ، وأنه جل شأنه يغفر لعباده ، ويفتح لهم أبواب العودة إليه إذا ما باعد الشيطان بينهم وبينه ، ولما كان الإنسان قد خُلق من عنصرين متضادين : طينة من الأرض ، وروح من السماء فإن الإنسان لا بد أن يقع في الخطأ ، لا بد أن تزل قدمه ، وقد صور هذا ابن الرومي في بيت له يقول (٣) :

ولا بد من أن ينزع المرء مرة * إلى الحمأ المسنون ضربة لازب (٤)
لكن هذه الآيات عندما نقرأها نحتاج إلى إلقاء ضوء خفيف على كل آية لنرى هل هي فعلا مدخل حقيقي لبناء المجتمع الإسلامى من الأسرة المتأسكة ، ومن الكيان الموحد القوى أم أن هذه الآيات بعيدة عنه ؟

الآية الأولى (٥) هي قوله تعالى : ﴿ إن تحببوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾ [النساء : ٣١] .

تعنى هذه الآية أن المسلم ينبغي أن يجتنب الكبائر وأن يبتعد عنها ابتعادا تاما ، وأن يجعل بينه وبينها مسافات شاسعة ، ويُنَّ جلَّ شأنه أن من

(١) النساء - ١١٠ .

(٢) عن ابن عباس رضى الله عنها ، انظر القرطبي : ١٦١/٥ وابن كثير : ١٧٨/٢ .

(٣) ديوانه : ٢١٩/١ بلفظ : ولا بد من أن يلوم المرء نازعا إلى الحمأ .. إلخ .

(٤) ضربه لازب : أى شئ لازم ، وأصل اللازب اللازم أبدلت الميم باء لتقارب المخارج صوتيا .

(٥) أى الأولى في ترتيب الآيات .

يجتنب الكبائر تغفر له الصغائر التي قد تقع منه .
والكبائر أنواع : منها ما هو متصل بالسلوك العملي كالسرقة أو الزنا أو ترك الصلاة أو ترك الصيام ، ومنها ما هو متصل بالمشاعر النفسية كالكبر والحقد والبطر وما إلى ذلك .

أنواع الكبائر نفسية كانت أو بدنية ينبغى أن يظهر المرء منها ، فإذا أخطأ بعد ذلك في نظرة لا تليق أو في كلمة بدرت منه ما تنبغى فإن الحديث الشريف يقول : « فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ تُكْفَرُهَا الصَّلَاةُ وَالصَّوْمُ وَالصَّدَقَةُ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ » (١) .

ويقول جل شأنه في آية أخرى تؤكد المعنى هنا : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٧] .

ابتعد عن المعاصي ، ابتعد عن الكبائر النفسية والسلوكية ما يُرى منها وما لا يُرى : ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٠] .
فما يُرى هو المعاصي السلوكية ، وما لا يُرى هو المعاصي النفسية ، فإذا اجتنب الإنسان ذلك كان قريباً إلى الله وغُفرت له خطاياهُ وأخطاؤه الأخرى .

الآية الثانية : ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكْ حَسَنَةٌ يَضَاعَفْهَا وَيُؤْتِ مَنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٠] .

وهي آية تفيد أن حساب السيئات عند الله محدود فهو قد يجزى السيئة بالسيئة إذا بقي عليها صاحبها ولكن حساب الله أوسع من ذلك فهو كما جاء في الحديث : « إِنْ اللَّهُ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَّ ذَلِكَ فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةٌ كَامِلَةٌ ، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضَعَفَ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةٌ كَامِلَةٌ ، فَإِنْ هُوَ هَمَّ

(١) رواه البخاري في مواقيت الصلاة — باب الصلاة كفارة ١/١٤٠ ومسلم في الفتن — باب في الفتنة التي تموج كموج البحر ٨/١٧٣ .

بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة» (١) .

المضاعف عند الله لا حدود له ، وهنا أوجه النظر إلى أن قول الله تعالى : ﴿ يَغْفِر لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ [آل عمران : ١٢٩] .
ليس معنى المشيئة القوضى ، فإن الله عز وجل أعرف بعباده وملايسات أخطائهم ، فربما تصدق شخصان بصدقة واحدة فكتب لهذا جزاء محدد ، وكتب لذلك أضعاف مضاعفة ، وربما فعل شخصان ذنبا واحدا فكتب لهذا عقاب محدد ، وغفر لذاك !! لا لأن الله يكتب الأمور فوضى بل لأن الله يعلم ما يحيط بكل إنسان من ملايسات ، فزنا الشيخ غير زنا الشاب ، وصدقة من فقير مُقِل غير صدقة من غني مُكثَر ، وذنوبه أعقبه ندم غير ذنوبه أعقبته فترة أو برودة أو قلة اكتراث .

فرب العالمين عليم بعباده ، وكتابه للحسنات واللسيئات تتفاوت .

الآية الثالثة : ﴿ إِنِ اللّٰهُ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨] .

والناس يخطئون في فهم هذه الآية ، فإن الله غفر ما دون الشرك ، ولكنه لم يغفر ما يساوى الشرك ، وهناك ذنوب أعظم من الشرك !! قد يقول أحد : وما هو الأعظم من الشرك ؟

أولا : ماهو الشرك ؟

الشرك : أن يُسَوَّى المخلوق بالخالق ، هكذا فعل المشركون عندما جاعوا بأصنامهم ثم زعموها بنات لله وسورا بينها وبين الله ، وعندما يُقذفون في جهنم يقولون : ﴿ تَاللّٰهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نَسُوْكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلُّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الشعراء : ٩٧ — ٩٩] .
لكن هناك من ينكر الألوهية أصلا ، فهم شر من المشركين يقينا ، وهم عندما يحاسبون يحاسبون على ماهو شر من الشرك .
هذه واحدة ، وشيء آخر يساوى الشرك وهو فعل المعصية استباحة لها ، وترك الواجب جحداً لأصله .

(١) رواه البخارى في الرقاق — باب من هم بحسنة أو بسيئة ١٢٨/٨ ومسلم في الإيمان — باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب ٨٣/١ .

فالناس عندما يرتكبون الذنب أصناف : فهناك من يرتكب المعصية بعد أن استمات في مدافعتها ثم أزاله الشيطان فوقع فيها ، ثم أعقب ذلك من التحسر والألم ما يمسخ هذه المعصية !!

وهناك ناس يرتكبون المعصية ثم يهزون أكتافهم ويمطون شفاههم (١) كأنهم لم يفعلوا شيئا ، الواحد منهم يترك الصلاة مثلا فإذا قلت له : لم لا تصلي ؟ نظر إليك ببرود وقال : ما الصلاة ؟! خذني على جناحك !

هذا يقينا كفر بالله ، هذا يقينا مساوٍ للشرك ، كذلك الذي يشرب الخمر أو يرتكب الزنا ثم إذا قلت له : لم تسكر ؟ أو لم تزني ؟ نظر إليك ببرود وقال : دعني مالك ولي !! هذا أيضا مساوٍ للشرك .. إن كل معصية تقتن بالاستباحة والتبجح ، وكل واجب يُهدر ويقتن إهداره بالاستهزاء والسخرية فهو يقينا انسلاخ عن الإسلام ولا يمكن بتاتا أن يدخل في هذه الآية ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾

الآية الرابعة : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيمًا ﴾ [النساء : ٦٤] .

كان المنافقون قديما إذا قيل لهم : توبوا إلى الله ، وأصلحوا نفوسكم ، وتعالوا إلى النبي يستغفر لكم ويطلب من الله أن يقبلكم رفضوا ذلك رفضا شديدا : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيهم يصدون وهم مستكبرون . سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ [المنافقون : ٦٥] .

لأنهم ناس منافقون ينتسبون إلى الإسلام زورا وليست لهم بالله علاقة قائمة ، ولو أن النبي ﷺ استغفر لكافر أو لمنافق ما قبل استغفار الأنبياء كلهم له لأن الله لا يقبل عنده إلا من آمن به ورجا رحمته وخشى عقابه .

الآية الخامسة ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيمًا ﴾ [النساء : ١١٠] .

(١) كناية عن الكبر ، يقال : تكلم فمط حاجبيه ونحده تكبرا .

هذه الآية تمثل خصائص الإسلام ، الإسلام يقول لكل امرئ : إنْ غَبَرْتُكَ الأرض بترابها تستطيع أن تعيد الطهارة إلى جسدك بالتطهر ، إنْ غَبَرْتُكَ الحياة بآثامها تستطيع أن تعيد الإشراف إلى قلبك بالتوبة ، لن يحول بينك وبين العودة إلى الله بشر ، لن تحتاج إلى بشر يقودك إلى الله أو يشفع لك أو يكون وسيطا بينك وبينه أو تعترف عنده بذنب .. ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ﴾ ..

هذا من خصائص الإسلام ، من خصائص الإسلام أنه قال لأى مخطئ : تستطيع أن تعتذر إلى الله لا تحتاج إلى أحد ، من خصائص الإسلام أنه قال لأى منحرف : تستطيع أن تستقيم على الطريق وتعود إلى الله ما تحتاج إلى كاهن ، ما تحتاج إلى قس تعترف عنده ، ما تحتاج إلى بشر يحمل عنك توبتك : « إن الله تعالى يسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » (١) .

إن الله تعالى باسط يده ليلًا ونهارًا لكل من يريد العودة إليه ، بهذا منع الإسلام الوساطات والكهنات وجعل العلاقة بين الناس وربهم علاقة مباشرة سهلة .

ما أعظم الإسلام ، ما أشرف حقائقه ، ما أيسر الطريقة التى رسمها للناس ، وما أبعد الناس عن الحق يوم يبتعدون عن هذا الدين .

انضم إلى هذه الآيات الخمس فى سورة النساء قول الله تعالى : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الدين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾ . والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما . يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا ﴿ [النساء : ٢٦ - ٢٨] .

الله يريد أن يتوب علينا ، الله يعلم ضعفنا فهو يرحمنا فلم لا نرحم أنفسنا ؟

(١) روافد مسلم فى التوبة — باب قبول التوبة من الذنوب ١٠٠/٨ .

هنا نقول : إننا قد ذكرنا في الخطبة السابقة أن محور سورة النساء الذي تدور عليه هو بناء المجتمع الإسلامي ، وأساس المجتمع الإسلامي أنه مجتمع ذو هدف ، ذو رسالة ، ذو فكرة .

ومعنى هذا بالتمثيل والتوضيح : أن هذا المجتمع يقوم على الإيمان بالله ، فإذا كان هناك من المبادئ ما يناوئ وجود الله جل شأنه منعه لأنه يقوم على الإيمان بالله .

المثل الثاني : هذا المجتمع يرفض الزنا ، ويراه منكرا وفاحشة ، فإذا كان هناك تبرج أو تهتك منعه ومنع كل ما يقرب من الزنا ، وبالتالي يُغلقُ المواخير ، ويرفض أن يكون في بنائه أى شيء من هذا الذى يُيسر المعصية أو يعين عليها .

المجتمع الإسلامي يحرم الخمر وبالتالي يُغلق الحانات ومعاصر الخمر وما إلى ذلك مما هو بعيد عن أساسه وهدفه وفكرته .

المجتمع الإسلامي يقوم على الصلاة ، ومعنى أن المجتمع يقوم على الصلاة أنه يبنى المساجد ، وأنه يسمع فيها إلى الأذان في الأوقات الخمسة ، وأنه يُغري المؤمنين بالهجرة إلى المساجد طوال هذه الأوقات .

المجتمع الإسلامي يعلن عن نفسه ، وعن إيمانه بربه ، وعن خضوعه لأمره ونهيه ، وعن التزامه بوضاياه وحدوده .

المجتمع الإسلامي يعلن عن ذلك كله في الصبغة التى يظهر بها ويُعرف في أرجاء العالمين بأنها لونه البارز الثابت ، ومعنى ذلك واضح ، قال تعالى : ﴿ وَلْيَنْصِرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴿ [الحج : ٤٠ ، ٤١] .

فطبيعة المجتمع الإسلامي أنه يصلى ويزكى ، طبيعة المجتمع الإسلامي أنه يخشى الله ويَحْسِبُ حساب الآخرة لأن الله تعالى يقول — عندما يصف المجتمعات الجاهلية التى حاربت الدين ، وأعلنت الحرب على المرسلين أجمعين — : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ

لعودون في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلك الظالمين . ولنسكتكم الأرض من بعدهم ﴿ لكن كيف يُسكنهم الأرض من بعدهم ؟ وبأى شرط يسكنون الأرض بعد فراغها من الظلمة ؟ قال : ﴿ ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ﴾ [إبراهيم : ١٣ ، ١٤] .

هناك فارق بين مجتمع إيماني ومجتمع كفراني : المجتمع الكفراني باهت لا لون له ، أو اللون الذي يسوده لا صلاة فيه ، لا صيام فيه ، لا احترام فيه لصلاة ، لا احترام فيه لصيام .

أما المجتمع الإيماني فهو مجتمع يحترم الصلاة ، ويحترم الصيام ، ويحترم حدود الله :

الإسلام يعلم أن هناك ناسا يدينون بغير دينه ، فماذا يصنع لهم ؟ يقول الإسلام في هذا : إن من أراد أن يبقى على دينه فليبق على دينه ، لكن لا يجوز منع الإسلام من أن يفرض نفسه على مجتمعه ، لليهودى أن يبقى يهوديا ما تمنعه ، للنصراني أن يبقى نصرانيا ما تمنعه ، لكن إذا حاول أن يمنع المجتمع من أن يقوم على الإسلام فإنه عندئذ يعلن الحرب على هذا الدين وعلى أتباعه ، ليس له ما دام قد بقى على دينه أن يمنع الدين الذى يعيش فى مجتمعه أن يفرض نفسه على بيئته .

وسورة النساء عندما تعرضت لليهود وغير اليهود إنما أعلنت الحرب على تصرفات لهم منكرة .

لقد استبقى الإسلام اليهود فى المدينة المنورة وفى غير المدينة المنورة من جزيرة العرب على أساس أن يحيا على عقيدتهم ، أما أن يحاولوا ضرب الإسلام فى صميمه ومنع تعاليمه أن تقوم وأن تصبغ المجتمع فهذا لا يمكن ، وتأمل قوله جل شأنه — وهو يسرد الأشياء التى جعلته يغضب من اليهود ويلعنهم — : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السيل ﴾ [النساء : ٤٤] .

لماذا تشترون الضلالة وتريدون من المسلمين أن يضلوا السيل ؟! أنتم يهود ، بقيتم على يهوديتكم ، دعوا المسلمين إذن ، دعوهم يصلون ،

دعوههم يزكون ، لماذا تحاولون ضرب هذا المجتمع ؟

موقف آخر لليهود : يسألهم المشركون — وكان الذين سألوا من قادة قريش ومن زعماء الوثنية الجاهلية العابدة للأصنام — يقولون لليهود : أنتم خبراء بالوحي تدركون طبيعة المنتسبين إلى السماء وإلى الكتب السماوية دلونا نحن على الحق أم محمد ؟ فيكون جواب اليهود : أنتم على الحق ، أنتم أفضل من محمد (١) !! لم ؟! محمد يدعو إلى التوحيد وهؤلاء عبدة أصنام !! لكنه الحق على المجتمع الإسلامي ، قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا ﴾ [النساء : ٥١ ، ٥٢] .

الخلاف إذن لم يكن بين المسلمين وبين وجود اليهود في جزيرة العرب ، فإن الإسلام استبقاهم حتى إن الرسول ﷺ « ثوفي ودرعه مرهونه عند يهودي » (٢) وثبت أن عمر رضى الله عنه عندما وجد يهودياً يتسول ذهب به إلى منزله وأعطاه شيئاً من المال ووضع عنه وعن أمثاله الجزية (٣) !!

إذن الإسلام ما غضب لأن يهودياً بقي على يهوديته ، إنما الذى أغضبه أن هؤلاء يريدون أن يُمحى الإسلام من المجتمع !! ولكي تعرفوا خطورة هذا اعلموا ما يأتى :

عندما يتكاسل امرؤ عن الصلاة فكسله جريمة فردية قد يختفى بها ، قد يتعد عن المجتمع وهو يرتكبها شاعراً بخسته عندما تقع منه ، لكن المعصية التى تُولد ميتة معصية لا يُخاف منها ، الشاب عندما يخطئ فخطؤه فى المجتمع الإسلامى — ومع روح الإيمان — يُولد ميتة ، لم ؟ لأنه مؤمن ، إيمانه قاوم الخطأ طويلاً ، فإذا انهزم فإن إيمانه يصحو مرة أخرى ليندم أو ليندم على ما ارتكب !!

(١) انظر السيوطى : لباب النقول فى أسباب النزول : ٨٣ .

(٢) رواه البخارى فى الجهاد عن عائشة — باب ما قيل فى درع النبى ﷺ ٤٩/٤ .

(٣) أبو يوسف : كتاب الخراج : ١٢٦ بتصرف .

فالجريمة هنا ميتة لا تتسلل للمجتمع لتفرض نفسها ، لكن الخطورة كلها في أن تتحول المعصية إلى تقليد قائم أو إلى تشريع قائم ، معنى هذا أن الإيمان سُحِقَ ، وأن أثره الفردي والاجتماعي تلاشى !!

المجتمع المسلم — بطبيعته — يؤذن فيه للصلاة ، لكن عندما يقال للمسلم : إذا أردت أت تصلّي الفجر فهاتِ مُنبهاً يوقظك ، فمعنى هذا أن المجتمع قد تُنكّر للصلاة وأن صوت المؤذن أصبح نايًا ترفضه طبيعة هذا المجتمع ، وأن الصلاة هنا هواية لفرد يريد أن يستيقظ مبكرا فلا يجوز له أن يوقظ الآخرين !!

القضية هنا ليست قضية إنسان تكاسل عن الصلاة في مجتمع يقوم على العبادة ، لا ، القضية هنا قضية مجتمع يريد الانسلاخ من الصلاة نفسها ، وهنا ينبغي أن يُعرف أنه يوم تُحول جريمة ترك الصلاة من معصية فردية إلى معصية اجتماعية فهذا ارتداد .

المعركة بين الإسلام وأمته من ناحية وبين الاستعمار شرقيه وغريبه من ناحية أخرى تقوم من خمسين سنة على هذا الأساس ، الاستعمار بألوانه يريد ألا يكون لون المجتمع إسلاميا ، فإذا نجح في هذا زال الإسلام يبقين ، والأمة الإسلامية مستميتة أن تبقى على دينها ، وأن يبقى الإسلام شعارا لها ، والمعركة بين الفريقين قائمة ، الذين يريدون بقاء المجتمع على الإسلام يريدون أن يبقى المسجد شارة للمجتمع الإسلامي ، وغيرهم يريد أن تراخى المدينة ذات الألف مسجد بمعايد أخرى لا حصر لها حتى يزول الشعار الإسلامي لها ، والأذان ، ينبغي أن يخرس هذا الصوت حتى تكون الصلاة صوتا منفردا لشخص غريب في المجتمع يصلّى وحده أو يكسل وحده !!

المسألة خطيرة فعلا ، خطورتها تجيء من المعنى الذى شرحته لكم ، لا يقال لمؤمن: إذا أردت أن تصلّي الفجر فهاتِ مُنبهاً يوقظك فإن معنى هذا أن المجتمع لا يريد الصلاة .

إن مجتمعنا مجتمع مؤمن يريد أن يصلّى وأن يسمع الأذان ، لكن الغزو

الإلحادى بلونيه الشيوعى والصليبي يريد ألا نصلى وأن ثَقُلُ المساجد في عاصمة الأمة الإسلامية — أى القاهرة .

الأصوات النائية التى تصدر بمنع الأذان أو بمنع مكبرات الصوت عند الأذان للفجر بالذات إنما هى امتداد لما تريده موسكو وواشنطن وبكين وباريس بالقاهرة ، تريد هذه العواصم أن يَحْرُسَ مُوَحِّدُ الله فى القاهرة !! هذا الصوت الذى ينبعث خمس مرات له فى قلوب المؤمنين متعة ، والواقع أنه عندما يُخْتَرَقُ حجاب الصمت وسكون الليل وهدأة الناس فإنه يُنْعَشُ مشاعر الإيمان فى قلوب المؤمنين وهو متعة روحية ينادون لها لأنهم يسمعون إلى صوت نبيهم ﷺ وهو يقول لهم : « بَشِّرِ المشائين فى الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة » (١) وهم عندما يسمعون إلى هذا الصوت يفتتحون به نهارهم يحسون بأن جو القاهرة يتطهر ، وأن الموجات التى تغطى جو هذه المدينة يسير فيها نداء الحق ليتجاوب مع المؤمنين الذين يريدون طاعة الله ويريدون مرضاته ، ومعروف أن أذان الفجر يتميز بكلمة تُضم إليه وهى : « الصلاة خير من النوم » (٢) يسمعها المؤمن فيلبى ويردد ويقول للمؤذن : « صدقت » إن الذى يتكاسل إنما يفقد الكثير من بركات الصباح ومن خيرات الله ومن ضمانات التوفيق ، ففى الحديث : « من صلى الصبح فهو فى ذمة الله فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء فيدركه فيكبه فى نار جهنم » (٣) .

(١) رواه أبو داود فى الصلاة — باب ما جاء فى المشى إلى الصلاة فى الظلم (عون المعبود : ٢٦٨/٢) والترمذى فى الصلاة — باب ما جاء فى فضل العشاء والفجر فى جماعة (تحفة الأحوذى : ١٤/٢) وابن ماجه فى المساجد — باب المشى إلى الصلاة ٢٥٦/١ ، ٢٥٧ وقال فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢٨٢٣) : صحيح .

(٢) قال فى نيل الأوطار (٣٨/٢) : روى ابن خزيمة والدارقطنى والبيهقى عن أنس أنه قال : من السنة إذا قال المؤذن فى الفجر : حى على الفلاح قال : الصلاة خير من النوم . قال ابن سيد الناس العمري : وهو إسناد صحيح .

(٣) رواه مسلم فى الصلاة — باب فضل صلاة العشاء والصبح فى جماعة ١٢٥/٢ وقوله « فى ذمة الله » أى فى أمانه وضمانه فى الدنيا والآخرة ، وإنما ذكر صلاة الصبح لأن فيها كلفة لا يواظبها إلا خالص الإيمان فيستحق أن يدخل تحت الأمان ، وقوله « فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء » ظاهره نهى عن مطالبة الله لكن المراد به النهى عما يوجب مطالبه الله وهو التعرض بمكروه لمن صلى الصبح أو هو ترك صلاة الصبح ، وقوله « فيدركه فيكبه فى نار جهنم » يعنى من يطلبه الله للمواخذة بما فرط فى حقه والقيام بعهده يدركه الله إذ لا يفوت منه هارب .

وكان عبد الله بن رواحة رضى الله عنه يفخر بقيام الليل وبصلاة الفجر
ويصف عبادة رسول الله ﷺ فيقول (١) :

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع
بيت يجافى جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

إذا كان أصحاب البلادة وأشباه الدواب من الخلق ينامون في شخير
وغفلة فإن أصحاب الإيمان يرتقبون ساعة النداء لينهضوا ، والشيطان نفسه
يجتهد في أن يجيء لكل إنسان يحاول أن يصرفه عن صلاة الفجر ، وفي
الحديث : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث
عقد ، يضرب كل عقدة مكانها : عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ
فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقده
كلها فأصبح نشيطا النفس وإلا أصبح خيث النفس كسلان » (٢) .

والعقد هنا عقد معنوية ، والإشارة إلى قافية الرأس إشارة إلى المخ
والمخيخ والجهاز العصبى .

وقد وصف للنبي عليه الصلاة والسلام رجل ظل نائما حتى فاتته
صلاة الصبح أداء فقال : « ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه أو قال في
أذنه » (٣) أنا لا أدري بدقة هل الذين يقاومون صلاة الفجر ونداءها هل
هؤلاء ممن بال الشيطان في آذانهم وهم كسالى عن الصلاة ؟

ربما إذا حسنا الظن بهم ، ربما كانوا مسلمين عصاة بال الشيطان في
آذانهم واحتقر همهم وجعلهم صرعى رقودهم حتى فاتهم فضل الصلاة قبل
مطلع الشمس ، ربما كان بعضهم من هذا النوع ، لكن الذى أستيقنته أن

(١) رواه البخارى في التهجد — باب فضل من تعار من الليل فصل ٦٨/٢ ، ٦٩ .

(٢) رواه البخارى في بدء الخلق — باب صفة إبليس وجنوده ١٤٨/٤ ومسلم في صلاة المسافرين —
باب ما روى فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح ١٨٧/٢ .

(٣) رواه البخارى في بدء الخلق — باب صفة إبليس وجنوده ١٤٨/٤ ومسلم في صلاة المسافرين —
باب ما روى فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح ١٨٧/٢ .

بعض الذين يهاجمون مكبرات الصوت عند الفجر ما رُئي في مسجد منذ
وُلد وما شرفته نفسه بركعة لله يحتج بها يوم الحساب !!

هناك نوع من الناس يشتغل بالسمسرة للمبادئ الأوربية من شرق أو
غرب ، همته أن يحارب الصبغة العامة للإسلام في هذا البلد !! لماذا ؟ حتى
إذا اضاعت الصبغة العامة وتحول الإسلام إلى نزعات فردية فإن القضاء على
النزعات الفردية سهل ، إن الشيوعيين أنفسهم في بلادهم قالوا : اتركوا
كبار السن بتدينهم ، سينقرضون حتماً ، تلقفوا الأجيال الجديدة وعلموها
الإلحاد في المدارس ، وعلموها الإلحاد في الجامعات والأندية ، وعلموها الإلحاد
في الصحف والمجلات والكتب ، وعلموها الإلحاد في النوادي والساحات ،
وعلموها في كل شيء ، فستشب — ما دامت الصبغة العامة ملحدة — كما
قال الله : ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا
نكدا ﴾ [الأعراف : ٥٨] .

هؤلاء يريدون أن يفقد المجتمع الإسلامي صبغته الإسلامية ، يريدون
أن تختفي شارات العبادة منه لحساب جهات معينة أنا لا أعتبر هزيمة الإسلام
أو هزيمة المصريين أمام الإنكليز في « التل الكبير » (١) ، بل أعتبر هزيمتنا
يوم استطاع القس « دنلوب » (٢) أن يضع برامج للتربية والتعليم في وزارة
المعارف فخرج جيلا من الناس يتكلم باسم موسكو وواشنطن أوقح

(١) بلدة بمحافظة الاسماعيلية المصرية ، اشتهرت في تاريخ مصر الحديث بالمعركة الفاصلة التي جرت
عندها في ليلة الأربعاء ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ م ١٢٩٩ هـ بين جيش الغزو البريطاني بقيادة الجنرال ولسلي
وبين جيش الوطنيين بزعامة أحمد عرابي وقيادة على باشا الروي وقد تم للبريطانيين مهاجمة معسكر
الوطنيين ليلا على غرة وأوقعوا بهم ، فارتد عرابي وبعض فلول جيشه إلى القاهرة بغية تحصينها ولكن
هزيمة التل الكبير كانت حاسمة فتحت أبواب العاصمة لدخول البريطانيين بدون مقاومة في اليوم
التالي ، فكان ذلك بداية الاحتلال البريطاني لمصر وهو الذي دام نحو من ٧٢ سنة .

(٢) كان اسم دنلوب من الأسماء الاستعمارية الضخمة فقد وكل إليه كرومر شؤون التعليم فكان
مستشار نظارة المعارف منذ وقت طويل وامتد نفوذه إلى قبيل الحرب العالمية الأولى . وقد اختاره
كرومر ليحقق به سيطرة النفوذ الغربى على مناهج التعليم والتربية فكان عمله أشد قسوة مما حققت
مدارس الإرساليات الأجنبية فقد استطاع إسقاط كل الجوانب التي من شأنها أن تبني العقل العربى
الإسلامى من مناهج التعليم وخاصة فيما يتعلق بالقرآن والتاريخ واللغة والأدب ، وكانت سياسة
دنلوب تهدف إلى إنهاء دور الأزهر الشريف حصن اللغة والشرعة .

وأصرح مما يتكلم به خواجه قادم من موسكو أو واشنطن ، لأنه باسم أنه مسلم يتجراً على الإسلام ويقول لك : إلى اللقاء في الجنة !! كأن الجنة حديقة حيوانات تدخلها أنواع الجاموس الذي يشتغل في دور التحرير في القاهرة !!

هذا كلام غريب واعتذار أغرب عن خطأ صفيق ، إننا نريد أن يعلم الناس هذه الحقائق ، باسم من يتكلم هؤلاء ؟ إننا نريد أن نعلم .

لقد اتصلت بى امرأة من الإذاعة — وأنا فى مكانى فى وزارة الأوقاف (١) — وقالت لى : إنها ضائقة جداً بأذان الفجر !!

ولما كان الذى يكلمنى امرأة قلت : أتلتطف مع هذه المرأة حتى أعرف ما تريد ، قلت : لعلك تضيقين بالتواشيح أو بالابتهالات ولقد أصدرنا أمراً بمنع التواشيح ومنع الابتهالات وقلنا : لا يذاع إلا الأذان فقط ، فهذه سنة رسول الله ﷺ ونحن نتبع السنة لا نزيد عليها ولا ننقص .

قالت : أنا أضيق بالأذان نفسه !! قلت لها فى هدوء : لكننا لا نقيم تقاليدنا وقوانيننا على ضيق رجل أو امرأة ، إن القاهرة بلد مسلم ، يوم يؤخذ فى انتخاب حر رأى المسلمين أيسمعون الأذان فى المكبرات أم لا يسمعون ؟ فإن تسعة وتسعين ونصف فى المائة من المسلمين سيقولون : أسعدونا بألفاظ الأذان تقال فى أطراف الليل والنهار !! فإذا كنت تضيقين بالجو فى بلد إسلامى فاذهبى إن شئت لتعيشى فى موسكو أو باريس حيث لا دين وحيث لا إسلام !! أما المجتمع هنا فمجتمع مسلم .

أنا أريد أن أقول : إن الإسلام ليس جداراً واطياً يثب عليه كل كلب فى هذا البلد !! إن الإسلام دين محترم ولن نسمح للكلاب أن تنبحه أو تنال منه ، من أراد أن يبقى فى القاهرة مسلماً مصلياً فليسلم وليصل ، ومن

(١) شغل فضيلته عدة مناصب فى وزارة الأوقاف المصرية مثل إدارة المساجد ، الإدارة العامة للدعوة الإسلامية ، وكيل وزارة الأوقاف لشئون الدعوة .

عصى ربه فيلخفف بمعصيته ولا يتبجح بهذه المعصية والا اعتبر بتبجحه
مرتدا !!

إننا لا نسمح أن يقول لنا أحد : صلوا في بيوتكم بمنبهات ، إنما نقول
لكل كلب لا يريد أن يسمع الأذان : ضع في أذنك قطنا حتى لا تسمع
ذكر الله !! أما أن تلزم مجتمعا مسلما بأن لا يسمع ذكر الله فهذه صفاقة
لا مثيل لها ، هذه سفالة غريبة أن يفرض رجل ملحد إلحاده على مجتمع
مسلم !! .

إن الإسلام يعتز بعاصمته ، ويعتز بأن الشباب مؤمن ، المثقفون في
بلادنا مؤمنون ، تسعة أعشار أساتذة الجامعات مؤمنون وأنا . خبير
بالجامعات .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمدا رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد :

فإن ديننا انفرد بأنه دعوة إلى وحدة دينية شاملة ، أساس هذه الوحدة : أن نؤمن بالله ، وأن نؤمن بكل الأنبياء الذين جاءوا ، ومحاولة التفريق بين نبي ونبي أو بين الأنبياء وربهم هي كفر ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا وأعدنا للكافرين عذابا مهينا . والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحима ﴿

[النساء : ١٥٠ — ١٥٢] .

ومع أن الإسلام قام على هذا الأساس — أساس أنه وحد رب العالمين توحيدا عاليا فإنه أعطى من لا يدين هذا الدين حق أن يحيا في كنفه بدينه المضاد للإسلام شريطة أن لا يحاول محو الصبغة الاجتماعية لديننا .

نحن ناس يقول لنا ديننا : الصلاة حق ، فليصطبغ المجتمع بها ، الزكاة حق ، فليصطبغ المجتمع بها ، الخمر حرام ، فلا بقاء لها في مجتمعنا ، الزنا حرام ، فكل ما يؤدي إليه يجب محوه ، وهكذا ، فعلى أتباع الأديان الأخرى ألا يحاولوا ضرب الإسلام في نظامه الاجتماعي لأنه دين يقوم على الشقين معا : هو عقيدة وشرعة ، هو دين ودولة ، فمن حاول غير ذلك فإنه يخون مجتمعنا ويغضب أبناء هذا المجتمع ، ويغضب الله علينا إن قبلنا ذلك كله .

أيها المسلمون : إن هدف الاستعمار العالمى أن ينقرض الجيل المؤمن
ليستطيع هو بإعلامه ، بقوانينه ، بتقاليده ، بلهوه ولعبه أن يخلق مجتمعا
جديدا يكفر بالقرآن والسنة !!

وأنا أعلم أن هناك كتاباً وإذاعيين أكل الغل قلوبهم حقداً على توحيد
الله وعلى رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ألا فليموتوا بغيظهم ، ألا
فليذهبوا إلى الجحيم ، لكننا لا نذهب معهم ، لكننا لن نصدقهم فى
كذبهم ، لكننا لن نستمع إليهم فى توجيهاتهم : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَنْ
يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنْ حَزَبَ اللَّهُ هُمْ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة :
٥٥ ، ٥٦] .

فلنحرص على ديننا ، ولنبق على صلاتنا وأذاننا ، ولنبق على أن نحارب
المنكر وعلى أن نقر المعروف وعلى أن نوفى لله الواحد ولنبيه الخاتم عليه
الصلاة والسلام .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى
فينا معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى
كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا
غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .
عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .
أقم الصلاة

★ ★ ★

(١) رواه مسلم فى الذكر — باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨/٨١ .

نظرات في سورة النساء (٤)

الدولة في الإسلام

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإن دولة الإسلام التي قامت في أعقاب الهجرة الشريفة لها شارات تتميز بها ومعالم تؤثر عنها .

ليست هذه الشارات أو المعالم مراسم جوفاء بل هي حقيقة قائمة .
فالدولة في الإسلام تقوم على التوحيد لا على الشرك ، تقوم على الإيمان لا على الإلحاد ، وتبنى مجتمعا متقيدا بتوجيهات الله مستمداً من شرائعه .
الدولة في الإسلام ليست تسليم السلطة لبشر مصاب بجنون العظمة أو مدع للألوهية .

الدولة في الإسلام دولة تشرف بقواها الخاصة والعامة على قيام المجتمع بأمر الله .

توجد الآن دول تقوم على فكرة أو على مذهب اجتماعي ، فإذا كانت الدولة مثلاً تقوم على الشيوعية فإن سيطرتها على التعليم تجعلها تبنى مناهجه

على الإلحاد ، وسيطرتها على الإذاعة والإعلام تجعلها تبنى برامجها على التحلل والإباحة والبعد عن أمر الله .

أما الدولة في الإسلام فمعنى قيامها على الإيمان والتوحيد أنها تحتضن برامج التعليم والتربية والإعلام ، وتجعل من ذلك كله محاضن ومؤشرات وموجهات لجعل الأمة كلها تستقيم على سواء السبيل .

لقد جربنا أن ينبت الشباب في بيئات لا دين لها فماذا كانت النتيجة ؟

إن الأولاد الذين ينبتون في محاضن لا ترتبط بالإيمان ولا ترتبط بتقاليده ينشأون نشأة لا شرف لها ولا خلق فيها .

إن الاضطراب الاجتماعي الذي يسود العالم الإسلامي الآن سببه أن الأجيال الشابة أو الأخلاف الناشئين لا يجدون التغذية الروحية ولا التقويم المعنوي الذي يربطهم بالإسلام ربطا محكما .

للدولة في الإسلام وظائف :

منها أنها تقوم على الشورى ، ومعنى قيامها على الشورى أنها ترفض الاستبداد ، الشورى ليست اختراعا إسلاميا ، فالشورى فضيلة يعرفها كل إنسان بفطرته . وكما تعرف البشرية كلها أن العلم خير من الجهل وأن العدل خير من الظلم تعرف البشرية أن الشورى أفضل من الاستبداد ، وهذا ما أوحى إلى رجل مثل ابن تيمية أن يقول :

« الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مؤمنة » (١) .

إن الطبيعة البشرية تعرف الحسن والقبيح والخير والشر ، ثم يحىء الدين فيصح أخطاء الفطرة وشروء المجتمع ويمنع التلفيق الذي قد يقع لخداع الطبيعة البشرية أو الفطرة الإنسانية عن الصواب .

(١) ابن تيمية : الحسبة في الإسلام : • .

ولذلك ما جاء الإسلام بجديد عندما قال : إن العدل حق ، وإن العلم حق ، وإن الشورى حق ، إنما جاء بجديد عندما جعل من هذه المعاني عبادات يُتَقَرَّبُ بها إلى الله !!

جاء الإسلام بجديد عندما جاء إلى هذه المعاني فخلطها بالكيان الإسلامى وجعل المجتمع يقوم على العلم لا على الجهل وعلى الشورى لا على الاستبداد وعلى العدالة لا على الجور والمظالم .

يقوم المجتمع في الإسلام على سيادة الحق ، وتكون للأمة كرامتها ومكانتها بقدر ما تؤمن فيها الحقوق ، فإذا ضاعت الحقوق ضاعت كرامة الأمة وحرمت من عناية الله وضمانات السماء ، وهذا معنى الحديث الشريف : « إنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متنع » (١) !!

الدولة في الإسلام تقوم على تحكيم القانون الإلهى فيما يقع بين الناس من أخطاء ، ومعنى ذلك أن القاتل يقتل ، ولا معنى لما استحدثه الجاهليون من أن القاتل لا يقتل إلا إذا كان هناك تربص وسبق لإصرار !!

ضمانات السماء في تشريع الله أن العقوبات تقع سواء كانت حقا للبشر أو حقا لله ، تقع ردعا للمجرم وتأمينا للأمة .

لقد رأيت لمحة من هذا المعنى عندما رفضت رئيسة حكومة إنجلترا أن تعطى المضربين عن الطعام الحق في معيشة حسنة ، قالت : لا ، إن هذا يهدد حياة أمين كثيرين في الخارج !!

هذا الكلام فيه رائحة من تفسير قوله تعالى : ﴿ ولکم فی القصاص حياة ﴾ [البقرة : ١٧٩] .

المجرم عندما يقتص منه يدفع ثمن ذنبه الذى ارتكبه ، وفي الوقت نفسه تحصن المجتمع بضمانات كثيرة عندما نشعر كل من تحدثه نفسه بالجريمة أنه

(١) رواه ابن ماجه في الصدقات — باب لصاحب الحق سلطان ٨١٠/٢ وقال في صحيح الجامع الصغير (٢٤٢١ — ١١٠٣) : صحيح . ومعنى متنع : أى من غير أن يصيبه أذى يقلقه أو يزعجه .

سيرد المورد وينتهي إلى هذا المصير ويقتل كما قتل أو يعاقب كما أساء .
الشرائع الإسلامية التي تحتضنها الدولة كثيرة فيما يتصل بالأفراد ، فيما يتصل بالولاء العام — ولاء المسلمين لدولتهم لأنها تقوم على الإيمان — وولاء المسلمين لإخوانهم على ظهر الأرض لأن أخوة الإسلام تناصر : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » (١) وإذا وجدته في مكان ما محتاجا إلى العون متطلعا إلى الغوث عرض عليه عونه وقدم له غوثه وبين له أن الدين تناصر بين المؤمنين .

على هذا الأساس قامت دولة الإسلام في المدينة المنورة ، قامت على الإسلام لا على الكفر ، قامت على التوحيد لا على الشرك ، قامت على مبدأ السمع والطاعة لله فيما أمر ونهى ، فإذا أقامت مجتمعا فهذا المجتمع يتلاقى أفرادها بالصلوات الجامعة ، وتصطبغ أرجاء المجتمع بالربانية التي تهتف باسم الله خمس مرات كل يوم ، فالمجتمع كله كبيره وصغيره متعاون على أن يتصل بالله ، يتلاقى في الصلوات ، ويتراحم بالزكوات ، ويحسن الحسن ، ويقبح القبيح ، ويعلى راية المعروف ، وينكس راية المنكر تحقيقا لقوله جل شأنه : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [الحج : ٤١] .

الدولة في الإسلام تقوم على تناصر الإيمان ، ولقد رأينا هذا التناصر في خلال الدولة الأولى واضحا ، لأن أعداء الإسلام اعتبروا هذا الدين خروجا على التقاليد والعرف والسلطة فقاوموه بكل ما لديهم من قوة ، فليس بغريب أن تقوم الدولة في الإسلام على أن أخوة الدين تناصر وتلاحم وتماسك وأن المسلم أخو المسلم حيث كان .

رأينا بعد قرنين من الزمن تقريبا امرأة تؤسر في دولة الروم ، فلما أسرت وأهينت صرخت : وامعتصماه !! تقصد الخليفة العباسي القائم في بغداد ، فلما رويت القصة للمعتصم جمع المسلمين وهو يقول : يا ليكاه !!

(١) رواه البخارى في المظالم — باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه ١٦٨/٣ ومسلم في البر — باب تحريم ظلم المسلم وخذله ١٠/٨ ، ١١ .

لبي النداء واقتحم بجيش كثيف أرض الروم وطوى أبعادا شاسعة
ودخل في حرب مدمرة حتى استنقذ المرأة الأسيرة بإخوة الإسلام (١) .

إن الوضع الآن تغير كما قال قائل :

رُبَّ « وامتصماه » انطلقت * لم تصادف نخوة المعتصم

الوضع تغير لأن أكثر حكام المسلمين إما عميل للشرق وإما عميل
للغرب ، ولقد رأينا عملاء لإحدى الجبهتين لا يرون حرجا أبداً من أن
يلعبوا في موسكو بينما الجيش الشيوعي يقتل إخوانهم في أفغانستان !! .

وذلك لأن أخوة الإسلام تبددت أو تلاشت أو اختفت مع نزعات
القومية العربية والبعث العربي والوطنيات الضيقة والأنساب المزورة التي
اخترعت للأمة الإسلامية كي تذهب بها وتبدد قواها وتهد كيائها .

الدولة في الإسلام ليست طبلا أجوف ، إنما هي ممثلة لتعاليم هذا الدين
عبادة ومعاملة ، أخلاقاً وقوانين .

الدولة في الإسلام هي الحزام الذي يشد شعب الإيمان السبعين والإطار
الذي يحكم تجمع هذه التعاليم ويشرف على مصالح الأمة ويسوقها إلى الغاية
التي يرتضيها رب العالمين .

هذه هي الدولة كما رسمها ديننا ، عندما بدأت في المدينة كان بديها أن
تقوم أمامها العوائق وأن يوجيد لها أعداء ومعارضون .

لقد نظرت في القرآن الكريم الذي نزل في المدينة المنورة فوجدت فيه
نماذج كثيرة لوظيفة الدولة تجاه الأعداء والمعارضين الذين يشغبون عليها
ويعملون ضدها .

واليوم تقدم نموذجا واحدا من سورة النساء ، ولعلنا في خطب أخرى
إن شاء الله تقدم نماذج من القرآن المدني يزيد ما قلناه وضوحا ويبين له
حدوده التي لا بد منها .

(١) أنظر الكامل في التاريخ ١٧٦/٦ .

عندما قامت دولة الإسلام على التوحيد لا على الشرك ، على الإيمان لا على الكفر ، على إحياء شرائع الله الخاصة بالدولة والأسرة والمجتمع التي تتصل بالسياسة والاقتصاد والأسرة والأخلاق الفردية ، عندما قامت الدولة على هذا كله كان طبيعيا أن ينبرى لها أعداء ، وأن يقوم ضدها معارضون .

ولذلك وجدت سورة النساء تحدث عن مواقف للمعارضين في خمسة مواضع ، كان التعريض بأولئك المعارضين يبدأ بهذا الاستفهام « ألم تر » ؟ خمسة استفهامات نقولها إجمالا ثم نشرحها بشيء من التعجل .

قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السيل . والله أعلم بأعدائكم وكفى بالآء ولىا وكفى بالله نصيرا ﴾ [النساء : ٤٤ ، ٤٥] .

استفهام آخر : ﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون شيئا . انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبينا ﴾ [النساء : ٤٩ ، ٥٠] .

استفهام ثالث : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبث والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا ﴾ [النساء : ٥١ ، ٥٢] .

استفهام رابع : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ﴾ [النساء : ٦٠] .

استفهام خامس : ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون شيئا ﴾ [النساء : ٧٧] .

هذه الاستفهامات الخمسة نستعرضها واحدا واحدا كي نقف وقفة تأمل أمامها .

الاستفهام الأول : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ﴾ من هم ؟ هم اليهود ﴿ أوتوا نصيبا من الكتاب ﴾ لأن ما بين أيديهم من صحائف الوحي ليس الوحي كله ، وليس الوحي الحق ، هو أولا : ناقص ، وثانيا : مغشوش ، فيه أخطاء وجهالات كثيرة ، وأهم من ذلك كله أن مسالكهم ضد الموحدين مريبة ومرفوضة !! لماذا ؟ لأن أحقادهم طفحت من أفدتهم ، فهم يودون للمسلمين أن يرجعوا كفارا بعد أن هداهم الله إلى الإيمان ، وقد تكرر هذا المعنى واتضح في سور أخرى : ﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ﴾ [النساء : ٨٩] ، وقال : ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ [البقرة : ١٠٩] .

هذه الودادة في نفوسهم جعلتهم — بتعبير القرآن — : ﴿ يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السيل ﴾ !!

هذا الحقد توارثته الدول الاستعمارية كلها ومن ينتسبون — للأسف — إلى السماء زورا ، ولقد سئل أحد المبشرين أمام رؤسائه : كم مسلما نصرته ؟ فقال الرجل : لا تسألوني كم مسلما نصرته ، ولكن سلوني : كم مسلما أفسدته على دينه ؟ أو أفسدت عليه دينه !!؟

هذا هو الذي يتجه إليه أعداء الإسلام : كيف يفسدون علاقتنا بكتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ .

الاستفهام الثاني : ﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ﴾ أى يعتبرون أنفسهم قمة الخليقة ، ويرون أنهم شعب الله المختار ، ويقولون في سلااتهم إنهم أبناء الأنبياء وإنهم أجدر الناس بالسيادة على كلتا الجبهتين في الشرق أو الغرب لعبقريتهم ولعلمهم ولغناهم ولقدرتهم السياسية والاقتصادية !!

وهذا كلام يحتاج إلى تأمل ، فالقول بأن اليهود أو بنى إسرائيل هم أبناء يعقوب كلام غير صحيح ، فإن هؤلاء اليهود من عشرات الأجناس

والدماء والألوان ، ولو فرضنا كذباً أنهم أولاد إبراهيم ما يجديهم هذا شيئاً
فإن الله جل جلاله يقول عن إبراهيم ونوح : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم
وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾
[الحديد : ٢٦] .

فالانتساب وحده للأنبياء لا يعطى وجاهة ولا يكون شرفاً ولو كانوا
أبناء محمد ﷺ نفسه ، فإن نبينا عليه الصلاة والسلام قال : « يا فاطمة
بنت محمد سليني ما شئت من مالى لا أغنى عنك من الله شيئاً » (١) ،
وقال : « ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه » (٢) .

فتزكيه النفس والقول بأن الله شعباً مختاراً كلام لا أصل له ، إنما يُزكى
الإنسان بعمله وخلقه وشرف نفسه وما يقدمه للآخرين من فضل ونبل ،
أما ما عدا ذلك فلا قيمة له .

الاستفهام الثالث : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب
يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين
آمنا سيلاً ﴾ [النساء : ٥١] .

سئل زعماء يهود — يوم ضريت الحرب بين الوثنية تقودها قريش
وبين التوحيد يقوده خاتم الأنبياء ﷺ — قال لهم رجال قريش : أنتم خبراء
بالوحي ، أنتم أهل الذكر وأهل الكتاب احكموا بيننا وبين محمد أنحن على
الحق أم هو ؟ فكان جواب أحبار اليهود وسدنة العهد القديم : أنتم على الحق
ومحمد على الباطل (٣) !!

الشرك عند هؤلاء حق والتوحيد باطل !! هذا هو الهوى الجامع
والحكم القبيح ، وسبب هذا الحكم الحقد والحسد والبغى في الأرض
والاستطالة على الناس ورب الناس .

(١) رواه البخارى فى الوصايا — باب هل يدخل النساء والولد فى الأقارب ٧/٤ ، ٨ ، ومسلم
فى الإيمان — باب فى قوله تعالى : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ ١٣٣/١ .

(٢) رواه مسلم فى الذكر — باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ٧١/٨ .

(٣) أخرجه ابن إسحاق انظر لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى : ٨٣ .

الاستفهامات الثلاثة في أهل الكتاب وفي طليعتهم اليهود .

أما الاستفهام الرابع فهو في المنافقين الذين وجدوا في المجتمع المدني ولهم باطن سيء ومظهر خادع ، هؤلاء تكشفهم دائما أمور :

أول ما يكشفهم أنهم يكرهون الدولة الإسلامية ، ويكرهون التشريع السماوي ، ويكرهون الأحكام التي أنزلها الله لتطهر المجتمع من أوساخه ، وفي الحديث الشريف : « **حد يعمل في الأرض خير لأهل الأرض من أن يمتطروا أربعين صباحا** » (١) .

هذا الحديث معناه أن البركة ليست في أن تمطر السماء الأرض ، هناك بلاد تكاد تموت جوعا من الجفاف ، والغريب أن هؤلاء طمس الله على أفئدتهم فلا يعرفون استسقاء ، هم بهائم ليس لهم رب يدعونه ، إنهم ينتظرون نجات من الشرق أو من الغرب !!

هناك الآن خوف من أزمات الجوع ومن أزمات الضيق ، والسبب ليس في أن الأرض لم تمطر ، إنها أمطرت ، ولكن السلوك البشري فوق ظهر الأرض سلوك طائش معوج محروم من عناية السماء ومن مباركة الله ، فلو أن مجتمعا أقام حدود الله بحقها لتوفرت البركات هنا وهناك وكما قال جل شأنه : ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون** ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

الاستفهام الرابع : ﴿ **ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ .

زعم : مطية الكذب ، أى أن كلامهم غير صحيح ، هم كذبة في زعمهم للإيمان ، ليس تدينهم حقيقيا ، إنما هو تدين صوري ، ولو كان تدينهم حقيقيا لصدعوا بأمر الله ولنقلوا أحكام الله ولما اخترعوا عقوبات لا

(١) رواه ابن ماجة في الخلود — باب إقامة الخلود ٧٤٨/٢ والنسائي في قطع السارق — باب الترغيب في إقامة الحد — بلفظ ثلاثين — ٧٥/٨ ، ٧٦ وأحمد — بلفظ ثلاثين — ٤٠٢/٢ وقال في صحيح الجامع الصغير (٣١٣٠) : حسن .

صلة لها بدين الله ، هي عقوبات يريدون بها محاربة الجريمة في المجتمع ، ولكن هذه العقوبات ما حمت المجتمع من عدوان المعتدين وسرقات السارقين وغش الغاشين وضلال الضالين ، وهيهات !! وقد يحلفون أنهم يريدون بهذه العقوبات الإحسان إلى الأمة أو التوفيق بين ما يحب الله وبين ما ينبغي إيقاعه بين الناس من مصلحة ، ويكذبهم القرآن في هذا كله : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا ﴾ [النساء : ٦٠ - ٦٢] .

هؤلاء يئن القرآن الرأى فيهم والحكم الفذ في شؤونهم عندما قال : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ [النساء : ٦٥] .

أما الاستفهام الخامس فهو في ضعفاء الإيمان الذين لا يعرفون حقيقة القدر ولا يحيطون علما بالأسماء الحسنى والصفات العلى فيظنون أن الهروب يطيل الأجل وأن النكوص يكثر الأرزاق وأن الإنسان يستطيع أن يعيش آمنا في سر به مطمئنا بين أهله إذا لم يقل كلمة حق وإذا لم يجاهد في سبيل ربه وإذا لم يُلَبَّ نداء الشرف عندما يطلب لمعركة الشرف ، هؤلاء يظنون أن نكوصهم وجبنهم يطيلان الآجال ويكثران الأرزاق ، وهذا كله خطأ ، فإن الأرزاق والآجال لا يمكن أن تطول بالجبن ولا أن تضعف أو تقل بالتضحية ، هيهات !

لقد سبق لرب العالمين أن حدد للناس أرزاقهم وآجالهم ، فضعف الإيمان هو الذى يجعل بعض الناس يتملق ويجبن وتخور قواه في موقف شرف وتضطرب أقدامه إذا دعى إلى الدفاع عن دينه وعن أمته وعن يومه وغده !!

كل هذا سببه ضعف الإيمان ولو كان قوى الإيمان لعلم أن الطائفة تسقط وهي مخلقة في الجو — ما يدفع أحد عن نفسه وهي ساقطة — ثم

يبين القدر عما كتب فإذا طفل أو شيخ ضعيف يبقى حيا وإذا شاب عارم القوة مخرج بدمه !! هذه آجال ما للبشر فيها دخل .

قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون شيئا . أينا تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ [النساء : ٧٧ ، ٧٨] .

إن الإيمان الحق يفرض على المسلمين أن يستسلموا لله في هذه النواحي كلها .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

المخطبة الثانية

الحمد لله موفق العاملين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولى المؤمنين .
وأشهد أن محمداً رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين .
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أما بعد :

فإن الأمة الإسلامية فى مفترق طرق ، وأعداؤها يتناولونها من كل
جانب ، وأسباب الضعف التى تلاقت فى مجتمعها كثيرة ، ولكنها تستطيع
على مر الأيام أن تمحو هذه الأسباب سبباً سبباً وأن تأخذ طريقها إلى الله
خطوة خطوة ، وأن تبدأ فترسخ الإيمان فى القلوب وتقوى التقاليد النافعة
وتذهب التقاليد الضارة وتقيم البناء الخلقى متينا فى أمتنا .

إن بناء الأخلاق شئ من صميم عمل الفرد ومن صميم نشاط
المجتمع ، وللدولة دخل فيه ، ولكنه دخل جانبي أو محدود أو على الأقل
عامل مساعد ، ولكن العامل الأساسى هو فى نشاط الفرد ونشاط الأسرة
ويقظة الجميع فى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والترفع عن الشهوات وبناء
فضائل الإيمان والوفاء والتراحم واحترام الحق واحتقار الباطل ، وما إلى
ذلك من معان مجتمعنا إليها فقير .

إننى أشعر بأن الأمريكيين كانوا علماء كبارا عندما وضعوا أقدامهم
على القمر وأن تفوقهم الحضارى بلغ حدا يثير الإعجاب ولكنى أقول
وبصراحة : إن هناك مجالا آخر ربما كان عندى أعظم من هذا التفوق وأدل
على الحضارة من هذا الغزو للفضاء !! أعنى أن رئيس دولتهم يدخل مع
رجل الشارع فى انتخابات فينهزم !!

يستعرضان معا فى الإذاعة فيعطى هذا خمس دقائق وهذا خمس دقائق ،
ليس لأحد تفوق على الآخر !!

هذا نوع من الخلق أو نوع من الكرامة الإنسانية يحتاج المسلمون إليه ولا يحتاجون إلى قبلة ذرية ولا إلى تفوق صناعي .

وليس بعامر بنيان قوم * إذا أخلاقهم كانت خرابا (١)
فلتبين الأخلاق والتقاليد الحسنة في أمتنا حتى يمكن أن نكون أهلا
لانتساب إلى الإسلام وإلى نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا التي
فيها معاشنا وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا واجعل الحياة زيادة لنا في
كل خير واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (٢) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا
غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .
عباد الله :

إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴿ [النحل : ٩٠] .
أقم الصلاة

★ ★ ★

(١) هذا البيت لأمر الشعراء أحمد شوق (الشوقيات ٦٠/١) .

(٢) رواه مسلم في الذكر — باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨١/٨ .

الْقُرْآنُ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْهَجْرَةِ

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضى الله عنه

١٩٧٣/٢/٢٩ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين . أما بعد :

فمما يروى أن أبا بكر رضى الله عنه قال يوصى عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة لاتباعهم الحق ، والحق ثقيل على النفوس ، وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة لاتباعهم الهوى .. والهوى خفيف على النفوس » !! .

والواقع أن خدمة الحق قد تكون معنئة متعبة لأن أتباع الهوى يقفون ضده ، ويكرهون مسيرته ، ويعترضون انطلاقه إلى غايته ، ثم إن الحق عندما يشق طريقه لا بد أن يشعر أصحابه بمرارة الكفاح ، وآلام الهزيمة التى لا بد أن تصيبهم فى مراحل الجهاد الطويل قبل أن يدركوا هدفهم ، ويحققوا مرادهم !!

وعندما نتأمل فى ذكرى الهجرة نجد شواهد لذلك ، وعندما نتأمل فى سيرة أولاد النبی ﷺ بعده ، ومصائبهم فى أنفسهم وأموالهم بسبب دينهم واستمساكهم بالحق نشعر بهذه المعانى حية فى ضمائرنا .

كان الحسين بن على رضى الله عنه يستطيع أن يعيش قرير العين ، وقد التقت فى ساحته حسنة الدنيا وحسنة الآخرة !! .

كان الرجل من ناحية الدنيا ممدود المال ، عريض الجاه ، جميل الوجه ، شريف النسب ، وكان من ناحية الدين عابداً ، محبباً ، مخلصاً ، يقوم الليل ، ويصوم النهار ، وما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا .

ولكن خدمة الحق كلفت الرجل أن يخرج ليؤدى واجبه ، ولينهض بأعباء الرسالة التى شعر بضرورة القيام بها ، وكلفه ذلك وكلف إخوانه أن يفقدوا حياتهم واستقرارهم ، حتى قال شاعر من شعراء الإسلام يومئذ

يقارن بين حياة الحسين رضى الله عنه وأهله ، وبين حياة ملوك أمية وتترفهم ، يقول فى البيوت التى خربت لأنها خدمت الحق ، يقول (١) :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات
وآل زياد فى القصور مصونة وآل رسول الله فى الفلوات

يقصد زينب بنت على رضى الله عنها ، لكن الحسين وأخته وأهل البيت رضى الله عنهم ، إنما سلكوا فى هذا مسلك جدتهم عليها السلام عندما هاجر ١١ .

كان يستطيع أن يعيش فى بيته ، له زوج صالحة ، ومن أسرة نبيلة ، وحوله من رغد العيش ما يطمئنه إلى حاضره ومستقبله ، ولكنه لما بدأ يحمل أعباء الرسالة ، بدأ يحمل المتاعب الثقالة ، وكان ورقة بن نوفل رجلاً خبيراً بطبائع المجتمعات ، وقضية الصراع بين الحق والباطل ، فلما بدرت بوادر الوحي ، وذهب يقص ما وجد على ورقة ، قال له ورقة : « ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك فاستغرب النبى صلى الله عليه وسلم وقال : « أَوْمُخِرْجِيْ هُمْ ؟ » قال نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى » (٢) .

إن الذين ورثوا الخرافة تعصبوا لها ، والذين اطمأنوا لأوضاع باطلة تدر عليهم السمن والعسل يحبون أن تبقى هذه الأوضاع ، وأن يعيشوا فى ظلها ، وهم يقاتلون دونها ، ولذلك عندما وجدوا ديناً يعكس صفوهم ، ويحارب إفكهم ، ويمزق خرافاتهم تنمروا له : ﴿ وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا

(١) من قصيدة دُعبل الخزاعى وهى طويلة وأولها :

مدارس آيات خلت من تلاوة	ومنزل وحي مقفر العرصات
منازل وحي الله ينزل بينها	على أحد المذكور فى السُّورَات
منازل قوم يُهتدى بهداهم	فتؤمن منهم زلة العثرات
منازل كانت للصلاة وللتنقى	وللصوم والتطهير والحسنات

إلى أن قال :

ألم ترى منذ ثلاثين حجة	أرواح وأغدوا دائم الحسرات
أرى فيهم فى غيرهم متقسماً	وأيديهم من فيهم صفرات
وآل زياد فى القصور مصونة	وآل رسول الله فى الفلوات

ديوان دُعبل الخزاعى : ١٣١ والقصيدة بنماها فى معجم الأدباء ١٠٣/١١ وكتاب أعيان الشيعة للإمام السيد الأمين ٤١٨/٦ ط دار المعارف بيروت وبعضها فى تجريد الأغاني ٢٠٨٦/٢ .

(٢) رواه البخارى فى بدء الوحي — باب كيف بدء الوحي ٣/١ ، ٤ ومسلم فى الإيمان —

باب بدء الوحي ٩٧/١ ، ٩٨ .

بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا ... ﴿ يكادون ييطشون بهم ﴾ ... قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدّها الله الذين كفروا وبئس المصير ﴿ [الحج : ٧٢]

لكن أهل الحق الذين يستميتون في الذود عنه يرزقهم الله أموراً تهون عليهم الصعب !!.

من أول تلك الأمور : نفس رفيعة تمج الباطل ، وتشمئز منه ، وتشعر بالشقاء لو أنها قارفته أو اقتربت منه ، نفس تأنس للحق ، وتهش له ، وتستحلي مرارة الدفاع عنه ، وترى في ذلك كرامتها ومجادتها وعظمتها في الدنيا والآخرة :

إن الذي خلق الحقيقة علقماً * لم يخل من أهل الحقيقة جيلاً في كل زمن يوجد من يحتضن الحق ، ويستريح إليه ، ومن هذا المعنى قول أحد العلماء وقد سئل : ما لذتك ؟ قال : في حجة تبيختر اتضحاً وشبهة تتضاءل افتضاحاً !! .

ربما كانت لذة الحيوان في أبناء آدم أكلة شهية ، أو نومة هنية !! ولكن هناك ناس يشعرون باللذة تغمر أقطار أنفسهم بالسعادة لأن للحق دليلاً قوياً ظهر ، ولأن الباطل أخذ يتبدد كما تبدد الغيوم عندما تشرق أشعة الشمس !! .

هذا أول ما يزود الله به دعاة الحق وحملته ، وفي طليعتهم وقمتهم صاحب الرسالة العظمى محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام !! إلى جانب هذا هناك أمر يضعه الله في قلوب خدام الحق ، هذا الأمر هو أنه مهما طال المدى فإلى الحق المصير ، وأن الكفاح مهما كلف من خسائر ، وحمل من عنت فإن القاعدة القرآنية لا بد أن ترسو قواعدها وهي قوله جل شأنه : ﴿ ... فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ... ﴾ [الرعد : ١٧]

وقد حدث فعلاً أن اصطدم حق وباطل من قديم ، ولكن ما الذي انتهى الأمر إليه ؟ من قاتل الحسين رضي الله عنه ؟ :

نكرة في التاريخ لا يعرف !! باء باللعنة في يومه وغده !! وذهب في خبر كان ينتظر غضب الله عندما يؤوب إليه .

أما الحسين فإن الله رفع له ذكره ، كما رفع ذكر جده عليه الصلاة والسلام !! وبقي الحق وبقي أهله ، وتبخر الباطل وتبخر خدمه !! .

هذه حقائق نذكرها بين يدي حديثنا عن الهجرة النبوية الشريفة ، لقد تناولت الهجرة النبوية في الخطبة الماضية من زاوية ، وأريد في خطبة اليوم أن أتناولها من زاوية أخرى .

ألف الناس في القرآن الكريم أنه ينزل تعليقاً على ما يكون من أحداث ، فيوجه التوجيه الذي تفتقر الأمة إليه ، إن كان الذي حدث نصراً ذكر أسبابه بحق ، وكسر الغرور الذي قد يصاحب المنتصرين ، وإن كان هزيمة ذكر الأسباب بصدق ، ومسح التراب الذي عفر جباه المهزمين !! .

على هذا النحو نجد أن سورة الأنفال نزلت في أعقاب غزوة بدر ، وأن سورة الأحزاب نزلت في أعقاب الخندق ، وأن سورة الفتح نزلت في أعقاب الحديبية ، وأن سورة آل عمران نزل نصفها الأخير في أعقاب هزيمة أحد ، قد يسأل أحد الناس: فهل نزلت في حادثة الهجرة سورة ما كما حدث ذلك في أعقاب الغزوات التي وقعت ؟ .

والجواب : لا ، لم يقع هذا ، ولكن وقع ما هو أخطر وأهم . كأن الله سبحانه وتعالى حكم بأن قصة الهجرة أكبر من أن يعلق عليها في سورة واحدة ، وأن تمر مناسبتها بهذا التعقيب وينتهي الأمر ، فحكم جل شأنه بأن تكون ذكرى الهجرة قصة تؤخذ العبر منها على امتداد الأيام ، وتذكر في أمور كثيرة ، وفي مناسبات مختلفة !! .

ولذلك فإنني أعرض من سورة البقرة، وآل عمران ، والنساء ، والتوبة ، والأنفال آيات تناولت الهجرة ، وتناول الهجرة في هذه السور المختلفة إنعاماً في إطار الدواعي ، والملايسات التي قضت بالعودة إلى ذكرى الهجرة حديثاً عنها واعتباراً بها ، ففي سورة البقرة نقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

[البقرة : ٢١٨] .

﴿ أولئك يرجون رحمة الله ﴾ يعنى أن الرجاء فى الله ليس حق الكسالى والعجزة ، إنما هو حق المهاجرين والمجاهدين .

ولم ذكر هنا أمر الهجرة والجهاد ؟ .

تنظر إلى الآية التى سبقت هذه الآية لتعرف السبب ، فإن الله تعالى يقول للمسلمين : إن أعداءكم كثيرون ، يتربصون بكم ويحاولون فتنكم عن دينكم وينتهزون الفرص لإلحاق الأذى قل أو كثر بكم !! قال تعالى : ﴿ ... ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرئد منكم عن دينه قيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [البقرة : ٢١٧] ثم قال : إن النجاة من هذا الارتداد ، ومن هذا الكفر الذى يراد إلحاقه بالمسلمين يتطلب واحداً من أمرين :

إما الجهاد حتى تنكسر صولة العدو ، وإما الهجرة إذا كان المؤمن أعجز من أن يقاتل .

هذا المعنى يستحق أن نذكر معه قول النبى عليه الصلاة والسلام : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا »^(١) ومعنى الحديث : أنه بعد أن تم فتح مكة فلا مكان للهجرة ، انتهت الهجرة ، وإنما فى أعماق المؤمنين جهاد العدوان وكسر الطغيان إلى يوم القيامة ، وإذا استنفرتم فانفروا أى إذا أعلنت الدعوة إلى القتال وظهر النفير العام فانفروا ، ومع ذلك فقد وردت أحاديث أخرى تفيد أن الهجرة باقية إلى يوم القيامة ، وتفسير ذلك : أن بعض الناس قد يكونون فى بيئات يعتزلون فيها ويستوحشون ، هؤلاء ينبغى كى يبقى الإيمان فى أعقابهم أن يلحقوا بكتلة الأمة الإسلامية ، والحقيقة أنى شعرت بهذا المعنى ، وأنا أقرب حياة بعض الذين هاجروا من مصر إلى كندا ، أو استراليا أو غيرهما من بلاد الله ، فإن بعض المسلمين هناك ضاع دينهم ، أو فقدوا فى البيئة الجديدة ما يربطهم بتراثهم وتاريخهم .

(١) رواه البخارى فى الجهاد — باب فضل الجهاد ١٧/٤ ، ١٨ ومسلم فى الإمارة — باب المياعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد : ٢٨/٦ .

ألقى الآباء أبناءهم بمدارس لا لغة فيها ولا صلاة ولا قرآن ، فشب
الأبناء على النحو الذي أتيح لهم وضاع بذلك دينهم .

الأمر يحتاج إلى علاج سريع ، إما أن يعودوا إلى إسلامهم هنا ، وإما
أن نرسل إليهم في بيئاتهم من يستبقى علائقهم بالله ورسوله والقرآن
وهداياته وإلا ضاعوا .

هذه آية من الآيات التي علقت على الهجرة بعد الهجرة بسنين ، في
سورة آل عمران نرى آية أخرى تحدثت عن الهجرة بعد هزيمة « أحد »
والهزيمة كانت مرة ووقعها كان شديداً على النفوس ، ولكن الله ينه الرجال
إلى أن المبادئ لا ينصرها المهازيل والضعاف ، من طلب عظيماً خاطر
بعظيمته ، والأمم الضائعة ، والشباب الطرى لا يمكن أن يكون سناداً لهدف
ضخم ولا حملاً لواجبات عظيمة !! .

إذن لابد أن يلحق المسلمون بعد « أحد » درساً يذكرهم بالهجرة .
قال تعالى : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من
ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم
وأوذوا في سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات
تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن
الثواب ﴾ [آل عمران : ١٩٥]

في سورة النساء ذكرت الهجرة ، ذكرت على أساس يستحق أن
ندرسه في عصرنا ، فإن الهجرة من مكة إلى المدينة كانت انطلاقاً بدعوة
محبوسة مضطهدة إلى مكان جديد أو وطن جديد تستقر فيه وتحاول
الانطلاق منه ، ولذلك كان فرضاً على كل مسلم أن يترك مكة إذا كان
يعيش في مكة ، أن يترك جنوب الجزيرة العربية إن كان يعيش في جنوبها ،
أن يترك شمالها إن كان يعيش في شمالها ، وأن يلحق بالإسلام الذي أسس
مجتمعاً له في المدينة كي يدعم هذا المجتمع الجديد ويعلى فيه راية التوحيد ،
ويرد عنه عدوان الشرك ، ويجعل قوى المؤمنين في هذا الوطن الجديد

تتأسك وتتلاقى ، ومن هنا فإن عدم الهجرة كان جريمة ، واعتُبر الذين يؤثرون الضعف في أرضهم اعتبروا حطب جهنم !! وقال فيهم رب العالمين : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً ﴾ [النساء : ٩٧] ثم استثنى القرآن أصحاب الأعذار الحقيقية فقال ﴿ إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً ﴾ [النساء : ٩٨ ، ٩٩] .

الرجال : أى الشيوخ القانين الذين لا يستطيعون الضرب في الأرض ولا التنقل من مكان إلى مكان ، ماذا تكون عقبى هؤلاء ؟ ﴿ فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ﴾ والتعبير بكلمة عسى قطع الدابر اختلاق الأعذار ، لأن صاحب العذر الحقيقي لا يدرى أيغفر الله له أم لا ؟ وإن كان الرجاء في الله محققاً ، إلا أن التعبير جاء هكذا حتى لا يفتعل أحد عذراً !! .

وفي سورة الأنفال نجد حديثاً عن الهجرة بعد النصر في معركة بدر والحديث سببه أن المسلمين بدا منهم شيء من الرفق بالأسرى حتى تركوهم ، ولكن تطهير الأرض من المجرمين لمصلحة الحياة نفسها ، إن المجرمين جرائم تنقل الخزي والذل والسرقة والأثرة والتشيع من الحرام ، ومن مصلحة الحياة نفسها أن يختفى هذا الصنف من الناس !! .

ولذلك فإن القرآن الكريم ذكر المسلمين بعد النصر بأيام الكرب والضرب التي كانت تلاحقهم في مكة وهم مضطهدون معذبون : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره وورزقكم من الطيات لعلمكم تشكرون ﴾ [الأنفال : ٢٦]

ثم يقول الله لنبيه ﷺ : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ [الأنفال : ٣٠] .

وهذه الآية تشرح المؤامرة التي حيكت خيوطها في مكة وهم يتحدثون كيف نخلص من محمد ؟ فيرى بعضهم أن يسجن ، ويرى بعضهم أن يقتل ، ويرى بعضهم أن يطرد ، إلى آخر ما يختلف القوم فيه .

ثم تأتي المناسبة الأخيرة التي ذكرت آياتها في سورة التوبة ، وربما ظن بعض الناس أن هذه الآيات نزلت في أعقاب الهجرة ، لأن الله يقول فيها : ﴿ **إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ [التوبة : ٤٠]

ناس كثيرون ربما ظنوا أن الآية بعد قصة الغار وما وقع فيها ، وهذا خطأ ، فإن هذه الآية نزلت بعد قصة الغار بتسع سنين !! نزلت في سورة براءة ، ونزلت كما أحكى لكم الآن لسبب ، فإن الله يُرجع الناس إلى قصة الهجرة ليعتبروا بها ولينتفعوا من أحداثها ، وقد حدث بعد تسع سنين من الهجرة أن استدعى ما يقتضى عرض قصة الهجرة والغار والحوار الذى دار بين النبي ﷺ وصاحبه ، عندما فرض على المسلمين علناً أن يتجمعوا لمقابلة الروم ، والروم أو الرومان كما يدرس اسمهم في التاريخ ، كانوا يومئذ الدولة الأولى في العالم ، كانوا أشبه بأمريكا الآن ، كانت دولة مرهوبة الجانب ، عظمة السلطان ، باطشة بالشمال الأفريقى كله ، وبآسيا الصغرى كلها وعندما اشتبك الإسلام معها كانت خارجة من نصر تُجرر أذياله فخراً على الدولة الأخرى ، دولة فارس ، أى أن الأجداد كلها كانت تكلل هامة الرومان ، دولة عظمى ومنتصرة ، وفي هذه اللحظات قيل للمسلمين تحركوا إلى دولة الروم لتقاتلوها !! وقع الرعب في قلوب الناس ، وقع التخاذل والقلق ، وقال المنافقون : انتهى محمد ، انتهى دينه ، سيشتبك مع الدولة الأولى في العالم وسيتلاشى !!

وشاء الله أن تنزل الآيات بعد أن تمت المعركة وبعد أن ذهب المسلمون في ثلاثين ألفاً !! ما عرفت جزيرة العرب تعبئة بهذه الضخامة في أيام مرهقة بحرها وجديها حتى سميت الغزوة غزوة العسرة ، ونزل القرآن ييكت المهزمين الضعاف ، ييكت الذين خافوا القوة المادية ونسوا قوة الله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ**

وفتحت فارس ، وجيء بسواري كسرى ، ودعا عمر بن الخطاب
رضي الله عنه سراقه وألبسه السوارين^(١) تحقيقاً لوعده رسول الله ﷺ !! .
أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم .

(١) المرجع السابق .

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦]

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإن الإسلام الذى جاهد من أجله محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام هو دين الله من الأزل إلى الأبد ، هو الدين الحق من الأزل إلى الأبد، به بشر جميع الأنبياء من قبل ، وبحقائقه أرسلوا ، وبأركانه نهضوا بين الأمم ، منذ نوح عليه السلام أى البشر الثانى ، يقول الله : ﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم اقصوا إلى ولا تنظرون . فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ [يونس : ٧١ ، ٧٢]

ويقول الله لعيسى ابن مريم عليه السلام : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ [المائدة : ١١١] .

وبين عيسى ونوح رسل كثيرون ، ذكر القرآن عناصر الوحدة الدينية التى تجمعهم كلهم والعنوان الذى عملوا تحت رايته، أى الإسلام .

لكن الإسلام عندما شرح القرآن الكريم حقيقته على هذا النحو كمل المعانى فبين أن موسى ما كذبه عيسى ولا عيسى كذب موسى ولا محمد ﷺ كذب واحداً من الاثنين .

الأول كان يمهد للثاني ، والثاني كان يصدق الأول ، هذه حقائق ، لكن الأتباع الجهلة شردوا عن رسالة موسى وعن رسالة عيسى ، ولذلك لما انحرفوا عن طريق موسى وعيسى وإبراهيم ، أصبحوا لا يستحقون وصف الإسلام ، لأن الإسلام إيمان بالله الواحد وتصديق لما جاء به موسى ، فأين ما جاء به موسى ؟ وهل صدق اليهود بما جاء به موسى ؟ .

إن الإسلام إيمان بالله الواحد وتصديق للنبيين جميعاً ، فإذا قال يهودي في إسرائيل: إن عيسى لقيط وأمّه زانية !! وإن محمداً دجال ورسالته كاذبة !! .

فهل يمكن أن يقال إن هذا اليهودي يتبع موسى ويسمى مسلماً ؟ لا ، لا ، هذا غير صحيح ، إن الإسلام الحق عبادة لله الواحد ، ولو أن عيسى حي لرفض ممن يزعمون اتباعه أن يجعلوه إلهاً مع الله ولقال لهم : إني عبد فقط !! ولا يمكن أن يسمى من يشرك بالله أو يكذب واحداً من أنبيائه مسلماً يعبد الله على طريقة موسى أو على طريقة عيسى .

إن محمداً عليه الصلاة والسلام جاء بالحقيقة الكاملة والوحدة الدينية الشاملة وهو مع ذلك وضع قاعدة إنسانية كلها رقة ، وكلها عدالة ، فبين أن الذي يرفضه - أي يرفض محمداً ﷺ - ولا يريد أن يتبعه فليرفضه وليبق على ما يريد ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ [البقرة : ٢٥٦]

فنحن نشرح الحق ونؤيده ونسانده ونستमित في الدفاع عنه ، ونرد كل فتنة تحاول أن تمسخ الدين أو أن تشوّهه ، ولكننا مع هذا الاستمسك والتشبث نعامل غيرنا كإنسان له ما لنا وعليه ما علينا !! هذا هو الفهم الواعي والشرح الدقيق للإسلام ، أما الزعم بأن الأديان كلها سواء لا خلاف بين يهودية أو نصرانية أو إسلام في عصرنا الحاضر ، فهذا لغو من القول لا يلتفت إليه .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠]

أقم الصلاة

(١) رواه مسلم فى الذكر — باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨/٨١ .

شُبُهَاتٌ حَوْلَ بَعْضِ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضى الله عنه
في يوم ١٥/٦/١٩٧٣م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ،
والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أما بعد :

فأرجو أن أوفق إلى أداء خطبة اليوم برغم ما أعانى من بعض الأمراض
المفاجئة .

موضوعنا — إن شاء الله — رد شبهات عن بعض الأحاديث النبوية
التي شاعت بين الناس وفهموها على غير وجهها .

والمسلمون بحسبهم أن أعداءهم يتربصون بهم وينالون منهم ،
فلا ينبغي أن يعينوهم على أنفسهم بسوء الفهم للدين والافتراء على وحى
الله بما لم يُرَدِّه الله ورسوله .

١ — من ذلك أن عددا كبيرا من الناس يجرى على لسانه قوله عليه
الصلاة والسلام : « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » (١) .

(١) رواه الطبراني في الأوسط والكبير وفيه أبو مشرس لم أقف له على ترجمة . كذا في

مجمع الزوائد ١٨/١ .

فيفهم من هذه الكلمة أن الإيمان يمكن أن يكون لفظا عابرا وقولا فارغا ، وأنه ما دام قد تحصَّن وراء كلمة التوحيد التي أفلتت من بين شفتيه فلا عليه أن يقصّر في جنب الله ولا عليه أن يفرط في حقوق الله !! وهذا تفكير لا أصل له في ديننا ، فإن علماء الحديث قالوا : هذا الحديث له معنيان :

المعنى الأول : أن هذا الحديث إنما قيل في صدر الإسلام يوم كانت مهمة النبي عليه الصلاة والسلام أن يحارب الوثنية السائدة ، وأن يحقر عبادة الأصنام ، وأن يقطع الناس عن الخرافات التي ألفوها ، ويرفعهم عن مستواها إلى مستوى الإيمان بالله الواحد .

فكانت الدعوة إلى التوحيد هي المهاد الأول والأساس الأوحد الذي بدأ الإسلام به ، ولكن الإسلام بعد ذلك نما وأخذت تعاليمه تنزل من لدن العلى الكبير ليعلم الناس حقيقة دينهم ، وتقام شرعهم .

ومعروف أن القرآن ظل ينزل خلال ثلاث وعشرين سنة ، وأن أركان الإسلام لم تكتمل لأول يوم جاء فيه هذا الدين الحنيف ، وإنما ظلت أوامره ونواهيه تنزل حلقة بعد أخرى حتى اكتملت سلسلتها قبل أن يذهب النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى .

ومعروف أن صوم رمضان لم يشرع إلا بعد خمسة عشر عاما من بدء الإسلام ، ولم يكن صوم رمضان معروفا في العهد المكي كله ولا كان فريضة من فرائض الدين .

ومعروف أن الصلوات الخمس ما شرعت إلا ليلة الإسراء ، وقبل ذلك كانت الصلاة ثنتين ثنتين .

ومعروف أن فريضة الحج لم تشرع إلا بعد أن استطاع المسلمون أن يفتحوا مكة ، وأن يؤمنوا طريق الحرم ، وأن يشيعوا الأمان في أرجاء الجزيرة .

عندئذ — بعد أن كانت كلمة التوحيد هي الإسلام — قيل : « بنى

الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان » (١) .

ثم جاء حديث آخر وسَّع الدائرة ويُن أن تعاليم الإسلام أعمق ، وهو : « الإسلام ثمانية أسهم : الإسلام سهم ، والصلاة سهم ، والزكاة سهم ، وحج البيت سهم ، والصيام سهم ، والأمر بالمعروف سهم ، والنهي عن المنكر سهم ، والجهاد في سبيل الله سهم ، وقد خاب من لا سهم له » (٢) .

إذن الرأى الأول أن هذا الحديث قيل في صدر الإسلام ، وأن تعاليم الإسلام ظلت تنزل خلال ربع قرن تقريبا ، فكان هذا الحديث تصويراً لأول ما بدىء تعليمه ، ثم جاءت بعد ذلك أشياء كثيرة لا بد منها ولا يتم الإسلام إلا بها ولا تعتبر أركانه مستكملة إلا إذا أداها الإنسان جميعا . هذا رأى تبناه أو فضَّله وأشار إليه العلامة « المنذرى » المحدث المشهور .

هناك رأى آخر يقول : ليس من الضروري أن تقول : هذا الحديث قيل أول الإسلام ثم جاءت بعد ذلك متممات له ، إنما المقصود بـ « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » من قالها مؤمنا بها ، موفيا بحقوقها ، وقافا عند حدودها ، نازلاً على ما يرتبط بها من آثار في النفس والمجتمع ..

والآثار المرتبطة بالإيمان كثيرة ، وقد بين النبي عليه الصلاة والسلام هذه الآثار في أحاديث شتى ، يبين أن الإيمان لا بد أن يكون مجموعة من الأخلاق الأساسية من صدق ووفاء وأمانة وضبط للمواعيد وشرف في الخصومة ..

(١) رواه البخارى في الإيمان — باب دعاؤكم إيمانكم ٩/١ ومسلم في الإيمان — باب قول النبي ﷺ بنى الإسلام على خمس ٣٤/١ .

(٢) رواه البزار ، وفيه يزيد بن عطاء وثقه أحمد وغيره وضعفه جماعة وبقيت رجاله ثقات .. كذا في مجمع الزوائد ٣٨/١ .

فإذا كان الإنسان يدعى الإيمان ثم لوحظ عليه أنه يفترى الكذب ، وأنه يتلاعب بالوعود ، وأنه يغدر بالعهود ، وأنه يخون الأمانات ، وأنه يفجر في الخصومة ، فمعنى ذلك أن إيمانه مكذوب على نحو ما قال الله جل شأنه : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ [البقرة : ٨] .

وعلى هذا النحو جاء الحديث الشريف : « أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » (١) .

فهذا الحديث يعنى أن الأخلاق من أركان الإيمان ، ويجب أن يكون الإنسان صاحب خلق حتى يعتبر إيمانه مقبولا ويقينه ناضجا .

ولابد أيضا للمؤمن من أن يؤدي الحقوق التي كتب الله عليه وهو منشرح الصدر ، مطمئن النفس ، فإذا طلبت منه زكاة رحب بما يدفع ، وإذا فرضت عليه نفقة نهض ولم يبخل ..

إن المنافقين يعتبرون الزكوات التي يدفعونها غرامة كلفوا بها ، ويعتبرون النفقات المطلوبة منهم مغارم لزمتهم وهم يودون لو قروا عنها ، وهؤلاء يقول الله فيهم : ﴿ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم ﴾ ثم قال جل شأنه : ﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم ﴾ [التوبة : ٩٩] .

يعنى أن المؤمن عندما تطلب منه النفقة يذهب بها إلى النبي عليه الصلاة والسلام ويقول له : يا رسول الله خذ ما فرض الله علينا وادع الله لنا .

(١) رواه البخارى في الإيمان — باب علامة المنافق ١/٥١ ومسلم في الإيمان — باب بيان خصال المنافق ١/٥٦ .

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يأخذ الصدقات المكتوبة ، ويدعو لمن أداها (١) كما أمره الله بذلك : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم ﴾ [التوبة : ١٠٣] .

والنفقة إذا كانت مع إيمان ضخم فإنها تعتبر لذة للإنسان ، وقد كان سعد بن معاذ رضي الله عنه — في معركة بدر — يقول للنبي عليه الصلاة والسلام : « خذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت » (٢) . هذا هو الإيمان .

أما المنافقون فإذا كانوا قد ضاقوا بالنفقات فهم أيضا يضيقون بذكر الله ، ويضيقون بالصلوات ، ويضيقون بالأذان ، وأبغض الصلوات إليهم الفجر والعشاء (٣) ، لأنهم يحبون أن يناموا وأن يستريحوا وأن لا يحتشدوا مع المؤمنين في هذه الصلوات الجامعة ، ووصفهم الله فقال : ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾ [النساء : ١٤٢] .

ولعل من المنافقين في عصرنا من يعلنون كرههم للأذان ومن يتحدثون عن الأذان بغضب ، ولقد رأيت ناسا يحيئون إلينا في الوزارة (٤) يطلبون أن لا يسمعوا أذان الفجر !!

(١) فعن عبد الله بن أبي أوفى قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقته قال : اللهم صل عليهم ، فأتاه أبي أبو أوفى بصدقته فقال : اللهم صل على آل أبي أوفى « رواه مسلم في الزكاة — باب الدعاء لمن أتى بصدقته ١٢١/٣ .

(٢) رواه ابن مردويه من طريق محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي عن أبيه عن جده . وذكره الأمامي في مغازيه . كما ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٢٦٤/٣) قال الألباني (فقه السيرة للغزالي ص ٢٤١) : وهذا مرسل ، وكذا رواه ابن أبي شيبة كما في « الفتح » (٢٣٠/٧) .

(٣) ففي الحديث : « ليس صلاة أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء .. » رواه البخاري في الأذان — باب فضل العشاء في الجماعة ١٦٧/١ ومسلم في المساجد — باب فضل صلاة الجماعة ١٢٣/٢ .

(٤) يقصد وزارة الأوقاف المصرية التي كان يعمل بها يومئذ مديرا للدعوة .

قلت لهم : ولماذا !؟

قالوا : لأننا نحب أن ننام .

قلت : لكن أذان الفجر شرع حتى لا تناموا ، وقد أودع الله فيه كلمة لم تودع في الأذان بقية الصلوات الخمس ، وهى قوله : « الصلاة خير من النوم » .

فإذا كنتم تؤثرون النوم فإن هذه طبيعة الإنسان ، وقد جاء في الحديث الصحيح : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عقدة : عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقدة ، فأصبح نشيطا طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان » (١) .

والمعنى أن الشيطان يجيء للإنسان من عند جهازه العصبى عندما يهدأ في فراشه ويستقبل النوم ، وهذا سر التعبير النبوى « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم » فإن القفا ملتقى المخ والمخيخ وما يتصل بالجهاز العصبى ، وليست — بداهة — العقد هنا عقد حبل حسى ، لا ، هذه عقد معنوية ، إن كل عقدة توغر للإنسان — وهو نائم — أن يستأنف النوم ، لأن الشيطان يهيج في نفسه يقول له : أمامك ليل طويل ، أمامك متسع للرقاد ، أمامك ما تستريح به أكثر ، وهذا كله لينيمه عن صلاة الفجر وليؤخره عن أداء حق الله .

والله لقد نظرت إلى هؤلاء الذين يعتبرون الأذان مزعجاً لهم ثم تذكرت قوله تعالى في المشركين : ﴿ وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر : ٤٥] .

لم هذا !؟

(١) رواه البخارى في التهجد — باب عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصل بالليل ٦٥/٢ ومسلم في صلاة المسافرين — باب ما روى فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح ١٨٧/٢ .

كان ينبغي أن يهش هؤلاء لذكر الله ، وأن يستجيبوا للنداء وهم يرحبون بتلبية من ينمهم ومن يوقظهم ، من يميتهم ومن يحييهم ، من يطعمهم من جوع ومن يسترهم من عرى ..

ولكن هكذا الناس في عصرنا ، يرون أن صوت المؤذن مزعج ، وأن صوت الشيطان — عندما يقول لكل منهم : عليك ليل طويل فارقد — أحب إليهم من صوت منادى الرحمن !!

كلمة « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » كلمة زور الشيطان مفهوما عند كثير من المسلمين ، والغريب أنهم يدسّون أصابعهم في كتب السنة ويستخرجون هذا الحديث دون أن يستخرجوا معه أحاديث أخرى تنبههم إلى ما يجب عليهم من سلوك وما يفرض عليهم من خطوات الكمال والترقى ..

فقد روى : « لا يدخل الجنة قتات » (١) أى نمام .

وروى أيضا : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » (٢) .

وروى أيضا : « لا يدخل الجنة قاطع رحم » (٣) .

وروى أيضا : « .. من غشنا فليس منا » (٤) .

وروى أيضا : « ليس منا من لم يجلّ كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه » (٥) .

وروى أيضا : « ليس منا من خيب امرأة على زوجها » (٦) . أى أفسدها عليه .

(١) رواه البخارى في الأدب — باب ما يكره من التهمة ٢١/٨ ومسلم في الإيمان — باب بيان غلظ تحريم التهمة ٧١/١ .

(٢) رواه مسلم في الإيمان — باب تحريم الكبر وبيان ٦٥/١ .

(٣) رواه مسلم في البر — باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها ٨/٨ .

(٤) رواه مسلم في الإيمان — باب قول النبي ﷺ من غشنا فليس منا ٦٩/١ .

(٥) رواه أحمد ٣٢٣/٥ والطبرانى وإسناده حسن . كذا في مجمع الزوائد ١٤/٨ ورواه أيضا الحاكم كما في الجامع الصغير .

(٦) رواه أبو داود في الطلاق — باب فمن خيب امرأة على زوجها ٢٢٤/٦ والحاكم في الطلاق .. وقال في صحيح الجامع (٥٤٣٧) : صحيح .

وروى أيضا : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » (١) .

فَلِمَ تُنْسَى هذه الأحاديث كلها ؟

الواقع أن هناك أحاديث لا بد من ذكر ملابساتها معها حتى تفهم على وجهها الصحيح ، وحتى لا يضل المسلمون في فهم دينهم .

٢ — من ذلك ما يسميه بعض العلماء حديث البطاقة ، وفي هذا الحديث يقول عليه الصلاة والسلام : « إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً ، كل سجل مثل مد البصر ، ثم يقول : أتتكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتى الحافظون ؟ يقول : لا يارب ، فيقول : أفلك عذر ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم ، فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فيقول : احضر وزنك ، فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فقال : فإنك لا تظلم ، قال : فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ، ولا يثقل مع اسم الله شيء » (٢) .

هذا ما روته كتب السنة ، وتعليقنا على هذا أن الأمر يحتاج إلى فهم ، فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أقاتل وأسلم ؟ فقال : أسلم ثم قاتل ، فأسلم ثم قاتل فقتل ، فقال رسول الله ﷺ : « عمل قليلاً وأجر كثيراً » (٣) .

(١) رواه مسلم في الإيمان — باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون ٥٤/١ .
(٢) رواه أحمد ٢١٣/٢ وابن ماجه في الزهد — باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ١٤٣٧/٢ والترمذي في الإيمان — باب فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله وقال هذا حديث حسن غريب ٣٩٥/٧ والبيهقي والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم . كذا في الترغيب .
(٣) رواه البخاري في الجهاد — باب عمل صالح قبل القتال ٢٤/٤ ومسلم في الإمارة — باب ثبوت الجنة للشهيد ٤٤/٦ .

هذا رجل — فعلا — كان مشركا ، وأعلن إيمانه بالله ، وقاتل مع النبي عليه الصلاة والسلام ، ومات قبل أن يصلي ، قبل أن يزكى ، لأنه ما طالت به حياة حتى يفعل شيئا من ذلك ، هنا يمكن — فعلا — أن يقال : إن كلمة التوحيد التي ختم بها حياته طهرت العمر كله ، وجعلت الرجل ينقلب إلى ربه وقد ابيضت صفحته وأصبح من أهل الجنة !!

هذا هو معنى حديث البطاقة ، أما أن يتصور المسلمون أن يفسدوا وأن يعبثوا وأن يخونوا وأن يغدروا في ظل كلمة لم يحسنوا خدمتها ولا الوفاء بها يدخلون الجنة، فهذا كلام ما قاله أحد من العلماء الراسخين أو الأئمة المحترمين ، إنما قاله الكسالى من المسلمين يوم أصبح الكسل شيمتنا ، وكانت نتيجة هذا التكاسل أو التلاعب أن سقطت الويئة وأن ضحك الناس منا وحدث للأمة الإسلامية ما حدث .

قال العلماء : إن كلمة التوحيد لكي تكون صادقة يجب أن يكون معها إيمان بأمرين وتنفيذ لأمرين :

• الرضا بأحكام الله ، وعدم الشغب عليها ، وعدم الطعن فيها ، وعدم الاعتراض على إنفاذها .

• والجهد في سبيل الله .

وكلا الأمرين لا بد منه للإيمان ، والله جل شأنه يقول : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ [النساء : ٦٥] .

وأما القاعدون عن الجهاد فإن القعود عن الجهاد كشف نفاقهم . فهل يقبل — في عصرنا هذا — أن يجيء من يتندر أو من يسخر بأحكام الله ومن ينكص ويحين عن الجهاد في سبيل الله ومن ينضم إلى حزب الشيطان معترضا على الأذان ومن ومن .. ثم يدعى بعد ذلك أنه مسلم !؟

لا ، كفى عبثا بالإسلام ، والله يقول في مثل هؤلاء : ﴿ وذر الدين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرهم الحياة الدنيا ﴾ [الأنعام : ٧٠] .

٣ — يتصل بهذا الحديث حديث آخر في معناه ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « لن يدخل أحدكم الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : لا ، ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة .. » (١) .

هذا الحديث طار به أهل الغفلة والسماجة والشغب على دين الله ، طاروا به في كل ناحية يقولون : الجنة شيء يساق إلى الناس هكذا دون عمل ! العمل ليس سببا في دخول الجنة !

وهذا من أكذب الكذب على الله ورسوله ، والعيب أن الإسلام يتعرض لشرحه — أحيانا — من لا عقل لهم ولا فقه لديهم .

أما أن العمل سبب لدخول الجنة ولا بد منه في دخول الجنة فهذا نص القرآن الكريم في مواضع كثيرة منه ، منها قوله جل شأنه في سورة الأنعام : ﴿ لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون ﴾ [الأنعام : ١٢٧] .

وقوله في سورة الأعراف : ﴿ ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ [الأعراف : ٤٣] .

وقوله في سورة النحل : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ [النحل : ٣٢] .

وقوله في سورة الزخرف : ﴿ وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون ﴾ [الزخرف : ٧٢ ، ٧٣] .

وقوله في سورة الأحقاف : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون ﴾ [الأحقاف : ١٣ ، ١٤] .

(١) رواه البخارى في كتاب المرضى — باب تمنى المريض الموت ١٥٧/٧ ومسلم في صفات المنافقين — باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ١٣٩/٨ .

ولو أردنا أن نسوق عشرات الآيات من مواضعها في سور القرآن تنص على أن العمل سبب دخول الجنة لاستعرضنا القرآن كله .

قد يسأل أحدكم : فما معنى قول الرسول عليه الصلاة والسلام إذن « لن يدخل أحدا عمله الجنة » ؟ .

والجواب أن الرسول المؤدب الكريم الرقيق المذهب يريد أن يقول للناس : احذروا الاستكبار بالعمل ، احذروا أن تغتروا بالعمل ، احذر أن تعمل شيئا ثم تقف بين يدي الله لتقول له : لقد أديت لك حقل ، وما بقي لك عندي شيء ، فعندك لي الجنة بعدئذ !! كأنها دين عليه !!

المقصود من الحديث كسر دابر الغرور وإشعار الناس بأنهم لو قطعت رقابهم في سبيل الله فما وفوا حق الله ، العمل سبب لا بد منه لدخول الجنة ، ولكنه ليس الثمن الحقيقي للجنة .

هذا معنى الحديث ، لأن الله يستطيع أن يقول لأي إنسان عمل صالحا : تعال مالك عندي ؟

عبدتني مائة سنة ؟

رزقتك مائة سنة ، فليس لك عندي شيء ، أو يقول له : ليكن رزق لك تفضلا مني ، عبدتني مائة سنة ؟ خذ في الجنة مائة سنة تنعيما وتكريما ثم أفنيك وتلاشي ولا يبقى لك وجود ، بل قد يقول الله للإنسان : لو حاسبتك على ما تقدم من عمل لاستخرجت لك من الشوائب والعلل في عملك ما يجعل عملك يرفض ، ما أرجى عمل لك بين يدي ؟ صلاتك ؟ إنك تقف مصليا بين يدي فتملأ الوسوس صدرك ، وتسرقك الشواغل من بين يدي فتسرح يمينا وشمالا ، فلو جازيتك لعاقبتك على سوء أدبك !!

إذن الحديث لا يقصد منه منع العمل كما يفهم المغفلون ، إنما الحديث يقول للإنسان : اكْدَحْ ، اغْرِقْ في سبيل الله ثم قف منتفضا بين يدي الله لأنك ما أديت حقه وهذا معنى قوله تعالى ﴿ فذرهم في غمرتهم حتى حين . أيجسبون أنما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون . إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات

ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لا يشركون . والذين يؤتون ما أتوا
وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون . أولئك يسارعون في الخيرات وهم
لها سابقون ﴿ [المؤمنون : ٥٤ — ٦١] .

إن الأحاديث النبوية تحتاج إلى أيدٍ خبيرة ، إلى أصحاب بصر ،
يعرفونها ثم يضيفون إليها ما يلحق بها من أحاديث أخرى وآيات قرآنية ، ثم
تعرض على الناس لِيُنتَفَعَ بها لا ليشغب بها على دين الله .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

★ ★ ★

الخطبة الثانية

الحمد لله : ﴿ الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمدا رسول الله ، إمام النبيين وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد ..

فإني أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل ، واعلموا أيها الناس أنه لا يصح — فى منطق عاقل أن يباع الشيء الواحد بألف جنيه وبمليم ، كيف يتصور أن يباع بأعلى الأسعار وبأزهدا وأتفهها ؟

إن الله عز وجل قال : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ [التوبة : ١١١] .

فإذا كان قد باع الجنة بالنفس والمال فأى ثمن هذا ؟

إنه ثمن كبير ، وإن كان المؤمنون قديما قالوا : نحن الرابحون ، فإن النفس هو خالقها ، والمال هو رازقه ، هو أولى بنا منا ، فإذا أخذ ما يملك ومنح الجنة نظيره فنحن الرابحون .

على أى الأحوال النفس والمال ثمن الجنة فى الآية ، فهل يتصور أن تباع الجنة بالنفس وبالمال ثم يأخذها أحد الكسالى بكلمة ما فكر فيها ولا أدى حقها ولا عرف معناها ولا طهر نفسه بسناها ؟

هذا مستحيل ، ينبغي أن نعقل فإن الإسلام تألب عليه أعداء
لا ينامون من كثرة النشاط ، لا يستبقون لأنفسهم شيئا من كثرة
التضحيات ..

اجتمع يهود العالم الأغنياء وأعطوا ألوف الملايين في ساعة من
الساعات ، فإذا كان أعداء الإسلام يتنازلون — من ثرواتهم — عن ألوف
مؤلفة من الملايين وأبناء الإسلام لهم أرصدة هائلة رهيبة تُشغّل العالم
الرأسمالي وهم يضمنون بالعطاء منها في سبيل الله فكيف يعتبر أولئك مؤمنين
يسندون الإسلام ويعتبر هؤلاء كفارا يساندون الشيطان ، ثم ينتظر أن
ينتصر البخيل بنفسه البخيل بماله على المتطوع بماله المخاطر بنفسه ؟

هذا مستحيل ، ينبغي أن يعرف المسلمون من أصحاب المال الطائل أن
الذي فرض عليهم الإسلام يطلب منهم أن ينفقوا أكثر مما ينفق الكفار في
سبيل الشيطان ، أما أن نبخل ونجبن ونعبد ، أما أن نخرج الأمور من بين
أيدينا مضطربة ثم يزعم المسلمون أن الجنة حكر عليهم فهذا كذب على الله
الذي يقول للمسلمين : ﴿ ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل
سوءاً يجزبه ولا يجده له من دون الله وليا ولا نصيرا . ومن يعمل من
الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا
يظلمون نقيراً ﴾ [النساء : ١٢٣ ، ١٢٤] .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا
التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا ، واجعل الحياة
زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا
غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .
عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

(١) رواه مسلم في الذكر — باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨/٨٩ .

الإسلام والمتغيرات الدولية

خطبة عيد الفطر المبارك

بِسَاحَةِ مَسْجِدِ مُصْطَفَى مُحَمَّدٍ

في ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

الحمد لله ذي الجلال والإكرام والعزة التي لا ترام .

﴿ غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهَ الْمَصِيرِ ﴾ [غافر : ٣] .

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِلىٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبْرَهُ تَكْبِيراً ﴾ [الإسراء : ١١١] .

الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ،
الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ،
كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرة وأصيلاً .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

كُلُّ شَيْءٍ هُوَ خَالِقُهُ ، كُلُّ حَيٍّ هُوَ رَازِقُهُ ، كُلُّ نُورٍ هُوَ مُشْرِقُهُ ..
سُبْحَانَهُ تَبَارَكَ اسْمُهُ ، سُبْحَ كُلِّ شَيْءٍ بِحَمْدِهِ ، وَخَضَعَ كُلُّ شَيْءٍ لِمَجْدِهِ ،
وَاحْتِاجَ كُلِّ شَيْءٍ لِعِطَائِهِ وَرِفْدِهِ ، سُبْحَانَهُ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ .. ﴿ فَلَلهُ

الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين • وله الكبرياء في
السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴿ [الجاثية : ٣٦ : ٣٧] .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، خيرة الله من خلقه ، وصفوته من
عباده ، أمير الأنبياء ، أول خلق الله ديناً .

صلوات الله وسلامه عليه وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أما بعد

فنحن الآن نلقى نظرة إسلامية على أحوال أمتنا والمتغيرات العالمية
حولنا ، وهي نظرة نستلهم الله فيها الرشد ، ونسأله أن يعيننا على الصدق ،
وأن ينفعنا بالعبارة التي ينبغي أن نستخلصها من هذا كله .

وقبل أن أخوض في بعض العناوين التاريخية أحب أن أقول للناس
كلهم : إن الإسلام دين يقوم على الإقناع الحر والدعوة المجردة ، لا يعرف
ضغطاً ولا إكراهاً لا مادياً ولا معنوياً ، إنه يعرض ما عنده ، ويترك لذوى
الألباب أن يتخيروا ما شاءوا .. وفي حماس العرض قد يكون الإنسان شديد
اللهجة قوى النبرة ، ولكن الله يقول لنبيه ﷺ وهو يعرض ما عنده :

﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس
حتى يكونوا مؤمنين ﴾ [يونس : ٩٩] .

وليس هذا حكراً على دين محمد ﷺ بل الأديان كلها منذ بعث نوح
عليه السلام ترفض الإكراه وتقوم على الدعوة المجردة ، ولذلك يقول نوح
لقومه : ﴿ يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده
فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ﴾ [هود : ٢٨] .

منذ بدأ محمد ﷺ دعوته ما أكره أحداً على الدخول في دينه
ولا عامل خصومه إلا بالبر والقسط : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين
الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة

الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴿ [البقرة : ٢٥٦] .

على هذا الأساس بدأت دائرة الدعوة الإسلامية تنداح في جزيرة العرب ، ودخل عرب الجزيرة في الإسلام بعد عشرين سنة وهم داخرون يعلمون أن الحرية الدينية وحدها هي الباب الذي دخلوا منه في هذا الدين العظيم ، ولكن العالم من حول الجزيرة لم يعامل العرب بالإنصاف ولا بالقسطاس ، بل وجدنا شيئاً آخر ، فإن الدولة الرومانية - وكانت الدولة الأولى في العالم يومئذ يعد أن انتصرت على الفرس في معركة هائلة استردت فيها الصليب الأعظم وفرضت سلطانها على الدنيا - أبت أن يأخذ الإسلام مدّه ، فحاصرت جزيرة العرب من الشمال .. ويقرأ المسلمون التاريخ - ولا أدري أيقروونه بعقل أم يرددون كالبغاوات ما سطر التاريخ لهم من وقائع - وفيه أن الرومان رفضوا أن تنطلق الدعوة الإسلامية من جزيرة العرب ، وأنهم أرسلوا جيشاً لهم من نحو مائتي ألف مقاتل لقتال المسلمين في « مؤتة » وأرغمهم على الانسحاب جنوباً - ومؤتة في جزيرة العرب تساوى « بنها » مثلاً أو « طنطا » في مصر .

نقول للرومان : من جاء بكم من قارتكم إلى داخل جزيرة العرب تقاتلون الإسلام وتقتلون القادة الثلاثة لهذا الجيش ؟ جاء بهم الطغيان والتعصب ، ثم انطلق المسلمون يثأرون لأنفسهم ويمدون دعوتهم وذهبوا إلى « تبوك » وتراجع الرومان قليلاً كي يلتقطوا أنفاسهم ويجمعوا قواهم ، وفوجيء المسلمون بأن النبي ﷺ قد مات ، ولكن خلفاءه رضى الله تعالى عنهم مضوا في نفس الخطة وقاتلوا الرومان لماذا قاتلنا الرومان ؟ .

إن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ [آل عمران : ١٩] فهل نفرض الإسلام على الناس ؟ .

لا ، لا ، لا ، قال تعالى : ﴿ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأمين أسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ [آل عمران : ٢٠] .

أنا أعرض الدين - كما يعرض الناس الأزياء - وأقول للناس :

هل يعجبكم هذا الدين ؟ فإن أعجبهم ودخلوا فيه فأنا أخ لهم وهم إخوة لى ، وإن قالوا : لا نريد دينك ، اشبع أنت به ، أقول لهم : أطلب منكم أمرين :

الأمر الأول : هل تتركونى بدينى دون فتنة ؟ .

الأمر الثانى : هل تسمحون لى أن أعرض الدين على غيركم ؟ .

فإن قالوا : نعم : قلت لهم كما أمرنى الله : ﴿ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يقاتلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سِيلاً ﴾ [النساء : ٩٠] .

أما إذا قالوا : إن نطقت بكلمة تدعو بها إلى الإسلام أغلقنا فمك بالسلاح ، وإذا دخل أحد فى الإسلام عذبناه حتى نرده ، ضريت الحرب بينى وبينهم ولست معتدياً ، إن قتال الاعتداء لا يعرفه ديننا أبداً : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يقاتلونكم وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

فماذا نصنع إذا كان غيرنا يريد فتننا ، ويريد إغلاق أفواهنا ، ويأبى أن يترك الإسلام بالقلم واللسان يتحرك ؟ ! .

أوجه النظر إلى أمرين :

• إن محمداً ﷺ رحمة للعالمين .

• لقد كان الاستعمار الرومانى يضغط بصدرة الثقيل على جزيرة العرب وعلى وادى النيل وعلى الشمال الإفريقى وعلى آسيا الصغرى ، فإذا كان الإسلام قد قاتل الاستعمار الرومانى وأطلق الشعوب السجينة من سجنها الكبير وأعطاهما الحرية فهل يلام لأنه حرر الشعوب ؟ .

الحقيقة أن الإسلام - بالفتوح التى قام بها - حرر شعوباً كانت سجينة ، ورفع رؤوساً كانت ذليلة ، بل إن الأقباط فى مصر استقبلوا الفاتح المسلم ببشاشة وحفاوة لأن الاستعمار الرومانى كان قد عزل البطريك وقتل أخاه حرقاً ثم رمى بجثته فى الإسكندرية على شاطئ البحر ، ففرح الأقباط

بدخول الإسلام لأنه دخل محرراً مقررأ حرية الدين ؟ ! .

إننى أقول بملء فمى وأقول بفخر واعتزاز : نحن المسلمين ابتدعنا الحرية الدينية فى الأرض ، وما كانت أوربا تعرفها ، بل يعرف العالم كله أن الكاثوليك فى فرنسا - منذ قرنين اثنين - أوقعوا مذبحة بالبروتستانت قُتل فيها ثلاثون ألف بروتستانتى فى مذبحة « سان بارثلميو » (١) وهى مذبحة هائلة عندما وقعت فرح الفاتيكان بها وصلك نقوداً تخليداً لذكرها .

هذا عمل لا يعرفه الإسلام فى تاريخه أبداً ، نحن ابتدعنا حرية الرأى وحرية الدين ولا نزال حراس الدين الحر ..

لكن أوربا بعد خمسة قرون عادت مرة أخرى فأعلنت علينا حرباً صليبية ظلت ثلاثة قرون بعد أن جرت إليها التتر ، والتاريخ الأوربى يقول : إن إسقاط بغداد كان فى معركة تترية صليبية ، وسقوط بغداد كان سقوطاً رهيباً .

والثلاثة قرون التى هوجمت فيها الأمة الإسلامية شهدت ثمانى حملات صليبية ، وأكتفى فى تلخيص هذه الحملات بكلمات لـ : « فيليب حتى » .. وهو مستشرق مارونى أمريكانى - قال : فى القرن الثانى عشر من الميلاد كان كل شىء يؤذن بزوال دين محمد ، فقد نجح الصليبيون فى اكتساح فلسطين ، وتسلبوا ودخلوا مصر ، وتسلبوا يبتغون طريقهم إلى الحجاز ، ونجح التتار فى إسقاط بغداد ، ويوشك أن تلتقى ذراعا الكماشة على العالم الإسلامى فيموت !! .

لكن المسلمين إبان الأزمات العضوض وأيام الضوائق المهلكة يتجمعون على دينهم ويتساندون على صفوفهم ، ويكونون جبهة تستميت فى الدفاع عن موروثاتهم وعقائدهم ..

(١) مذبحة سان برثلميو : مذبحة دامية جرت فى يوم عيد القديس برثلميو بباريس عام ١٥٧٢ دبرتها الملكة الأم كاترين دى ميديشى ضد البروتستانت واشترك فى تدبيرها دوق أنجو ودوق جيز وراح ضحيتها أعداد كبيرة من الفرنسيين البروتستانت بلغ عددهم نحو ٣٠ ألفاً نصفهم فى باريس ومن بينهم الأميرال كولينى .

ولذلك يقول « فيليب حتى » : فلما جاء القرن الثالث عشر للميلاد كان هناك سؤال آخر : هل سيقف شيء أمام دين محمد !! .

استعاد المسلمون بيت المقدس ، ودخل التتر في الإسلام ، وجاء القرن الثامن الهجري والأمة الإسلامية قد غسلت أرضها غسلًا من بقايا الصليبية الزاحفة ، ونجا المسلمون من البلاء الذي أريد بهم .

أَكُنَّا نحن في هذا معتدين ؟ .

غُزِينَا في عقر دارنا ، قتل التتر مليوني شخص في بغداد ، اسودَّ النهر مرة بالكتب التي أُلْقِيَتْ فيه ، واحمرَّ مرة أخرى بالدماء التي سالت إليه !! .

حدث للأمة الإسلامية ما حدث ، ثم شاء الله أن يقود الأتراك العالم الإسلامي فتأروا لما حدث وأسقطوا عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، واتجهوا في غرب أوربا حتى وصلوا إلى « فيينا » وظلوا نحو أربعة قرون يقاتلون على هذا الأساس .

لكن الذي حدث بعد ذلك – وتلك الأيام نداولها بين الناس – أن الأوربيين استردوا أنفاسهم وهجموا مرة أخرى ، وسقط العالم الإسلامي بقضه وقضيضه .

لكن هذا العالم الإسلامي – كما قلت – مرّن على أن تُجتاح أرضه ثم يلتقط أنفاسه ويصطلح مع ربه ويعود إلى قواه ، وبدأنا فعلًا حروب تحرير انتهت بأن مصر – ولله المنة – تحررت وأن العلم الإسلامي انتشر في بلاد كثيرة واستقلت أرضون كثيرة منه ، فماذا حدث ؟ .

حدث زحف آخر ، فإن الصليبية العالمية اصطلحت مع الصهيونية العالمية وأسست دولة إسرائيل على أكبادنا وأنقاضنا ، ورضى المظلوم ولم يرض الظالم ، ورضى المقتول ولم يرض القاتل ، ورضى المغتصب المسروق ولم يرض السارق المغتصب ، وأنى أن يترك للعرب مكاناً يعيشون فيه ثم قال نريد إسرائيل الكبرى ، وقبل أن أحدد ما هي إسرائيل الكبرى أقول لكم :

إن هناك قساوسة انجيليين في الولايات المتحدة الأمريكية - والولايات المتحدة الأمريكية فيها نحو أربعين مليون كاثوليكي - يقولون : إنه لا بد من أن يدخل اليهود الأرض المقدسة أرض الميعاد وأن يقيموا دولة لهم ويجب أن ننتظر مسيحهم ، بل إن قسيساً اسمه : « إيفانز » ومعهُ نفر من القساوسة أقنعوا مجلس الشيوخ والنواب في أمريكا بأنه لا بد من أن تكون القدس عاصمة لإسرائيل !! .

ولذلك تحول تسعة أعشار أعضاء مجلس الشيوخ والنواب إلى دراويش للصهيونية العالمية ، بل قرروا الإيمان بالمسيح اليهودي ، أتعرفون من المسيح اليهودي ؟ إنه المسيح الدجال الذي حذرنا منه ومن فتنته ، لقد آمن به دراويش مجلس الشيوخ ومجلس النواب الأمريكي قبل أن يظهر المسيح الملعون الإله الأعور الذي سيجيء إلى فلسطين ويحاول العبث بالمقدسات !! .

على كل حال إن الحركة الآن تتجه إلى أن إسرائيل الكبرى - كما في العهد القديم (١) - من الفرات إلى النيل ..

ومعنى هذا أن إقامة إسرائيل الكبرى يجب أن تحتاج في فضائها الحيوى وامتدادها الدينى مصر والعراق والسعودية والأردن وسوريا ولبنان وفلسطين !! .

ومعنى هذا أيضاً أن المعركة التى يريد اليهود فرضها معركة دينية ، إذا نجحوا فيها هلكنا جميعاً ، وإذا هلك العرب هلك المسلمون من بعدهم !! . أنا أعلم أن رؤساء العرب كلهم لا يريدون المعركة لأسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية ، ولكنى أقول : إن المعركة ستفرضها إسرائيل علينا شعبنا أم أيننا !! . فماذا نصنع ؟ .

(١) فى سفر التكوين - الإصحاح الخامس عشر : « فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقاً قائلاً : لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات .

يجب أن تسد الفجوات بين الحكومات العربية كلها ، يجب أن يصطلح العرب وأن يكونوا أسرة كأسرة أوروبا الغربية ، لا بد أن نردم الفجوات بين الدول العربية ، يجب أن ينسى السوريون ما صنع العراقيون وأن ينسى العراقيون ما صنع السوريون وأن ينسى المصريون ما صنع غيرهم ، يجب أن نتلاحم وأن نكون أمة واحدة .

هذه واحدة ، ويجب أن يتحرك الإسلاميون حركة تقريب ، وأنا أول من يتنازل عن حقوقه لدى من أساءوا إليه ، أنا أريد أن يتصافح الإسلاميون وأن يتعاونوا ، وأريد أن لا تكون بين الشعب وبين حكومته فجوة أو جفوة أو خصومة .

إن هذه الفجوات والجفوات هي التي سيتسلل منها الزحف اليهودي لإقامة إسرائيل الكبرى ليطحن الجيل الحاضر والجيل القادم على سواء .
إننا يجب أن نطرح الخصومات والعداوات تحت أقدامنا ، يجب أن نعلم أن الأمة الإسلامية في خطر داهم .

إن الرئيس الأمريكي « بوش » يقول : أنا فرح لأن القدر اختارنا لنشهد الخروج الكبير من روسيا إلى فلسطين !! .

إننا أيها الإخوة غافلون ، إن بواعث دينية رهيبة وراء العداوات التي تبنت الشر لمستقبلنا والظلام لحاضرنا ويومنا وغدنا .

إننا يجب أن نصطلح وأن نتعاون وأن ننسى الخصومات وأن نتآخي وأن نتدارس كيف تنتهى هذه المحنة وكيف تتلاشى هذه المآسى ، يجب أن يتحرك المسلمون حركة تقارب وتعاون وتآخ ، لا بد من هذا وإلا ضيعنا .
أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، موفق أنعاملين ، وناصر المتقين ، الله أكبر ،
الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ،
الله أكبر ، ما دار في فضائه فلك ، الله أكبر ما سبح بحمد الله بشر أو
ملك ، الله أكبر ما بسق في حقله نبات ، الله أكبر ما اهتز في مهده طفل
ينشد الحياة ، الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر والله الحمد .

وأشهد أن لا إله إلا الله . وأشهد أن محمداً رسول الله .

اللهم صل وسلم وبارك على محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

أما بعد :

أيها الإخوة : انتهى رمضان ، وأنا غير راض على الطريقة التي انتهى بها
رمضان ، والله لقد أكلنا كثيراً ، وما كان ينبغي أن نأكل كثيراً فإن رمضان
شرع للصيام لا للطعام ، والله لقد سهرنا مع ليالٍ سخيقة فيها هزل وهلو
ولعب وما كانت ليالي رمضان إلا للقيام .

وإذا كنت أودع رمضان فإنني أقول للمسلمين بيتين قيل إنهما للإمام
الشافعي وقبل أن أذكرهما أذكر هذا التمهيد لهما :

الأعمال قسمان : أعمال قلوب وأعمال جوارح ، وقد اتفق علماء
الإسلام على أن أعمال القلوب أخطر من أعمال الجوارح ، أعمال القلوب
هي الأساس ، وأعمال الجوارح هي شيء ثانوي ، معاصي القلوب هي
الهلاك ، ومعاصي الجوارح هي شيء ثانوي ، معاصي القلوب مثل الكبر
والرياء والحسد والحقد ، ومعاصي الجوارح مثل السرقة والنظرة الدنيئة .

يقول الإمام الشافعي :

وذرّة من القلب السّلي من الرضا والصدق والتوكل
أثقل عند الله من جبال شمعن من ظواهر الأعمال

* * *

ذرة من عمل القلب النقي النظيف البريء الذى يستهدف وجه الله
أفضل من جبال من الأعمال التى يقوم بها البدن فى غيبة القلب . وأنا فى
الحقيقة - لو يُسمع لقصير أمر ، وأنا قصير ، لألغيت الأعياد فى العالم
الإسلامى كله وقبلت منها الشعائر الدينية فقط ، أى أعياد والقدس ليست
بأيدينا ؟ .

كان صلاح الدين مكثباً دائماً الحزن قيل له : ما أحزنك ؟ قال :
كيف أفرح وبيت المقدس فى يد الصليبيين ؟ .

أطفال الانتفاضة يتضورون من الجوع ، مسلمو أفغانستان يقاتلون
وهم يتعرضون للتضور والعري ، فما الذى يُفرح المسلمين حتى يعيدوا
ويطبلوا ويزمروا ؟ والله هذا خراب قلوب !؟ .

خذوا من الأعياد الناحية الدينية فقط ثم قولوا : لا عيد لنا حتى نطهر
الأرض ممن وسخ أرضنا وأهان ديننا وأسقط رايتنا وجعلنا نعيش غرباء فى
هذا العالم !؟ .

إننى أطلب من المسلمين أولاً أن يصلحوا ذات بينهم ، وثانياً أن
يجتمعوا حكومات وشعوباً حتى يدرسوا كيف يغيرون عاداتهم ، وكيف
يغيرون تقاليدهم ، وكيف يغيرون أحوالهم ، وكيف يستعدون لعدو قرر
ذبحهم وهو ينتظر الوقت المناسب لتنفيذ ما قرره ، كأنه حكم علينا
بالإعدام وهو ينتظر اليوم الذى ينفذ فيه هذا الحكم ، أنام ؟ أنلهو ؟
أنضحك ؟ أنتخاصم ؟ أنتفرق ؟ أنجرب وراء القضايا الصغيرة ؟ أنتحتاج
للأمور التافهة ؟ .

يا إخوانى يجب أن نغير أحوالنا وأعمالنا ، وأنا كإنسان مسئول عن
الناحية الدينية سأقنع إخوانى الإسلاميين أن يلغوا ما بينهم من فروق وأن
يتعاونوا على البر والتقوى وأن يقولوا كما قال المجتهد الأول : رأى صواب
يحتمل الخطأ ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب !! .

وأقول للحكومات العربية كلها : تأخوا ، تعاونوا ، التصقوا
بشعوبكم ، هذا هو المستودع الذى تأخذون منه الرجال ، إن المتدين

المتحمس هو الذى سيقتل الصهيونى الذى يريد قتل فانتفعوا به
ولا تحرقوه !! .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى
فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في
كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا
غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

* * *

نَظَرَاتٌ فِي سُورَةِ "الْأَنْعَامِ"

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضي الله عنه

٨ / ١٢ / ١٩٧٢ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فقد قرأت سورة الأنعام قراءة عامة ، وفسّرتُ جُمْلَهَا تفسيراً فيه شيء من الأناة ، ثم رأيتُ — في هذه الخطبة — أن أعرض بعض الملاحظات العام التي استشعرتها وأنا أقرأ السورة وأفسرها . وسورة الأنعام يمكن أن تسمى سورة « العقائد » لأنها تحدثت عن أصول الإيمان وأوضحت معاهد الحس والقوة في شعبه المختلفة ، وأسلوب السورة في ذلك كأسلوب القرآن كله

في الحديث عن الله جلَّ شأنه ، والحديث عن الله في الكتاب العزيز بعيد عن
تقعر الفلاسفة وعن تعقيداتهم في قضاياهم المختلفة .

حديث القرآن عن الله تعريف للبشر يقوم على السهولة في العرض
وعلى توجيه الأنظار إلى ما في صحائف الكون من آثار تدل على الخالق تبارك
اسمه .

ولذلك بدأت سورة الأنعام بشرح سهل ﴿ الحمد لله الذي خلق
السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم
يعدلون ﴾ [الأنعام : ١] .

الله جلَّ شأنه هو الذي أوجد المكان والزمان ، خلق الأرض وخلق
حولها الظلمة والضوء والليل والنهار !!

ومضت السورة — في حديثها عن الله — تشرح روائع آياته في
ملكوته ﴿ إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت
من الحي ذلکم الله فأني تؤفكون ﴾ . فالفق الإصباح وجعل الليل سكناً
والشمس والقمر حساباً ذلك تقدير العزيز العليم ﴿ [الأنعام : ٩٥ ،
٩٦] .

والسورة — أحياناً — تتحدث عن المولى جلَّ وعزَّ بضمير الغائب
وهو حاضر دائماً ﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات
البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ . وهو الذي أنشأكم من نفس
واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذي
أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج
منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب
والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في
ذلکم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ [الأنعام : ٩٧ — ٩٩] الحديث عن الله
حديث يُعرف الناس ربهم تعريفاً سهلاً سمحاً بعيداً عن صناعة المنطق
المتكلف وعن غموض الفكر الفلسفي الذي يضيق جمهور الناس به .

ومع أن أسلوب القرآن سهل سمح فإن حقائقه العقلية فوق الريبة ، وقد تحدثت السورة عن الله ، ثم نفت الفكرة الوضيعة — التي شاعت قديماً ولا تزال تشيع إلى الآن — عن أن لله ولداً أو ابناً ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ﴾ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل * لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴿ [الأنعام : ١٠١ — ١٠٣] وسورة الأنعام عرضت العقائد من خلال النظرة التي أجهلها الآن ، بينت أن أصحاب الحق عندما جاءوا للناس به يسيطون حقيقته ويقررون أدلته اعترضتهم جماهير من الناس ألفت الضلال وأنست إلى الباطل يقودها طواغيت ممن يستمدون جاههم أو سطوتهم أو سلطتهم من هذا الباطل المستقر ، ولذلك يجادلون عنه ويقاتلون دونه !! .

ومن ثم وقع صراع بين الحق — يمثله الأنبياء ومن على أقدامهم من الدعاة — وبين الباطل — يمثله شرادم من الجهلة ومن على رأسهم من الطواغيت والفراعنة والفجار !! .

وقد أشارت السورة إلى ملامح هذا الصراع ، ونحن عندما نتبع هذه الملامح نستفيد أدباً و يقيناً نحن بحاجة إليهما !! قال تعالى : ﴿ ولقد استهزئ برسلك من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴿ [الأنعام : ١٠ ، ١١] .

وفي الوقت الذي يهدد فيه الضالين ويقول لهم : التفتوا إلى مصاير من سبقكم ، يقول لأهل الحق : لا بد أن تصبروا على تكاليف الدعوة وأن تؤدوا ضريبة اليقين وما تستتبعه هذه الضريبة من تضحيات وآلام ، ويوجه الكلام لسيد الرسل وحامل لواء الحق من بدء الخلق إلى نهايته ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين ﴾ [الأنعام : ٣٤]

لكن كيف ستدور المعركة بين الحق والباطل ؟ .

أهل الحق — أحياناً — يداخلهم شيء من الغرور أو لعلهم يتصورون أنهم ما داموا يساندون الحق فإن مرسل الحق ومنزله لا بد أن ينزل نصره على أهل الحق ولو فرطوا ، أو لابد أن تكون هناك خوارق عادات وأن تكون هناك أمداد غيبية غير متوقعة تنصر الحق !! وربما كان هذا التفكير سبباً في أن يتهاون أهل الحق في نصرته منتظرين من ظروف عارضة أو من قوى مغيبة أن تقوم عنهم بتنظيم فرطوا فيه أو بإعداد نكلوا عنه أو بقوى لم يحسنوا استجماعها أو استكمالها !! .

وهنا يؤدب القرآن المؤمنين على لسان خاتم المرسلين عليه الصلاة والسلام ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴾ [الأنعام : ٥٠] .

والمقصود من هذه الكلمات أن يجتهد المؤمنون ، وأن يبذلوا قواهم كلها وألا يتوقعوا نصراً يجيئهم مع تفريط ..

والذي يرقب المعارك بين المحقين والمبطلين — إلى يومنا هذا — يرى أن أتباع الإيمان إلى الآن ما يحسنون خدمته بالأساليب التي تُخدم بها في الدنيا المباديء والعقائد !! ما يزال المبطلون يتجمعون على باطلهم ، وما يزال المحقون يتفرقون حول حقهم !! .

نحن بشر ، وينبغي أن نحشد في معركتنا كل ما يطيقه البشر دون انتظار لشيء ، فإذا أدينا ما علينا وكان ما أدينا — بطبيعته — قاصراً دون بلوغ النصر فإن نصر الله يجيء حتماً ما دمنا قد أدينا كل ما طُلب منا !! وكيف يجيء النصر ؟ إن الله عز وجل يبين أنه أحياناً يُنضج الناس على لهب الأحداث كما يُنضج الطعام أو كما يُنضج الزرع تحت لهب الشمس أو لهب النار ، قال تعالى : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾ [الأعراف : ١٣٠] .

وفي سورة الأنعام — هنا — يقول لنا كلاماً يحتاج إلى بيان ، وبيانه

— أولاً وقبل أن نقرأه — أن الناس يستكبرون إذا ألقوا حالة معينة بقيت لهم يستمتعون في ظلها ويتعودون النعيم في مجبوحاتها ، ولقد شعر النبي عليه الصلاة والسلام بأن ضلال قريش وصدودها عنه يرجعان إلى أن قريشاً عاشت في شبع وفي أمان وأن الشيع أغراها بالكبر وأن الأمان أغراها بالعدوان ، إذن لو تغيرت حالها فإن طغيانها وعدوانها ينحسران ، ولذلك دعا عليه الصلاة والسلام عليهم بهذا الدعاء : « اللهم أعني عليهم بسبع كسِّع يُوسُف » (١) أي سبع سنوات عجاف تجعل كبرهم ينكسر ، وغرورهم ينحسر ، ويتواضعون لله ، ويفتحون قلوبهم للحق الذي رفضوا أن يستمعوا إليه وقالوا لصاحبه ما قالوا .

لا بد أن يفاوت القدر في أحوال الناس بين الخير والشر ، والحلو والمر ، والنصر والهزيمة لأن الأمر كما قال رب العالمين : ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير ﴾ [الشورى : ٢٧] وتصريف أحوال الناس من سلم إلى حرب ومن شدة إلى رخاء ومن نصر إلى هزيمة إنما هو تقليب لهم وغمز لأدمغتهم ونواصيهم حتى تتحرك إذا جمدت ، قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ﴾ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴿ [الأنعام : ٤٢ — ٤٥] .

إن الله تبارك وتعالى يقلب الأمم بين الأزمات والرخاء حتى تتذكر ، وربما مكر بالظلمة ووسّع عليهم كما يُسمّن الخروف حتى يُذبح ، وعندما يسمّنون وينتفخون ويغترّون يقطع دابرهم ويعلن أن الحمد لله رب العالمين !! لكن قد يطول المدى ، ومع طول المدى نجد أنواعاً من النفوس

(١) رواه البخاري في التفسير — سورة الدخان ٦ / ١٦٤ ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار — باب الدخان ٨ / ١٣٠ ، ١٣١ .

لها منطق متغاير ، لكل نفس اعتراضها وسؤالها وموقفها : هناك نفوس تستعجل ، وأولئك المستعجلون ذهبوا إلى النبي ﷺ — من باب الهزء أو من باب الكفر — وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يُنفذ فيهم وعيد الله ، وكان الجواب الإلهي على لسان النبي ﷺ حاسماً : ﴿ قل إني نهيته أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين • قل إني على بينة من ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين • قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين ﴾ [الأنعام : ٥٦ — ٥٨] .

وهناك نفوس أخرى قد تستعجل أو قد ترتد أو قد تستطيل مراحل الطريق فتفر في أوائله ، وفي هؤلاء تسمع قوله تعالى : ﴿ قل أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا ﴾ [الأنعام : ٧١] لكنه لا يجيء ، ضلّ وزاغ ، فليضل من يضل ، وليؤمن من يؤمن فإن كل إنسان سوف يجني ثمرة كدحه المادي والأدبي على سواء .

ملاحظة أخرى في العلاقة بين الحق والباطل يمكن أن تنضم إلى هذه الملاحظة وهي أن الله عز وجل — في سورة الأنعام — حرك الفكر البشري النائم لأن بعض من تحدرت عقولهم بتقاليد بالية جاءوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام يطلبون منه بعض خوارق العادات كي يؤمنوا : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون • ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ [الأنعام : ٨ ، ٩] مرة أخرى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون • ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ [الأنعام : ١٠٩ ، ١١٠] إن الخاصة الأولى للإسلام أنه دين أقام تعاليمه على عظمة الفكر البشري وعلى عظمة العقل الإنساني ، ولذلك

فإن جميع خوارق العادات التي وقعت للنبي عليه الصلاة والسلام أعطيت منزلة ثانوية لأن المعجزة الكبرى للنبي عليه الصلاة والسلام هي القرآن الكريم ، ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام : « ما من الأنبياء من نبي إلا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحى الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » (١) .

لقد قرأت سورة الأنعام وتأملت في معانيها ومبانيها وشعرت بأن هذا القرآن العظيم مشحون بالهدايات العميقة ، مليء بالعبر المذكّرة ، مليء بالقوى المفجرة لطاقات الأمم لو أن الأمم استمعت ووعت !!

وتُختم السورة بهذه الكلمات تامة للأقوال (٢) الأربعة والأربعين : ﴿ قل إنني هداي ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ . قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ [الأنعام : ١٦١ — ١٦٣] .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن — باب كيف كان نزول الوحي ٦ / ٢٢٤ ومسلم في الإيمان — باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملكته ١ / ٩٢ . . .
(٢) تكررت كلمة « قل » في السورة أربعاً وأربعين مرة .

الخطبة الثانية

الحمد لله ... الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لم عذاب شديد ﴿ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام النبيين وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإن خمسين طالباً من كلية الشريعة — آتاهم الله رشدهم ، وسدد خطوهم ، وبارك عملهم — جاءوا إلى المسجد اليوم وأقاموا فيه معسكراً لتنظيفه ، وأخذوا فعلاً يجمعون القمامات ويزيلون الأتربة ، ويحاولون أن يوفروا لبيت من بيوت الله بعض ما يجب له من توقير وكرامة ، ولكن جهودهم قاصرة حتماً !! لماذا ؟ لأنهم يعملون داخل إطار ضيق فرض عليهم !! هذا الإطار الضيق هو التعليمات التي وضعتها مصلحة الآثار !! وأنا في الحقيقة لا ينقضي عجبني من مصلحة الآثار في مصر ، فإن المجاري طافحة في صحن المسجد ، فهل المحافظة على طفح المجاري بعض ما تعمل له مصلحة الآثار في مصر ؟! لو كان هذا الأثر أثراً فرعونياً لجمعت له الأموال من كل مكان للمحافظة عليه !! ولكنه أثر إسلامي فلا حرج أن تطفح المجاري فيه ! .

ما فكرت مصلحة الآثار يوماً في أن تأمر بإعلاء أرض المسجد حتى ينقطع هذا الطفح المؤذي ! .

والمشكلة في بلدنا يجب أن تُعرف بصراحة، إنني لا أحسن الغموض ، إن إضاءة هذا المسجد وتحقير عمل ما تقرُّ به إلا عيون الاستعمار العالمي ، والذين يستبقون هذا المسجد على هذا النحو قد يكونون مصريي الجنسية

ولكن قلوبهم إما أن تكون شيوعية أو صليبية استعمارية ، لأنه ما يمكن أن تكون المحافظة على بقاء المجاري في المسجد عملاً تحافظ عليه أو تتشبث به مصلحة الآثار في مصر .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

(١) رواه مسلم في الذكر — باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨ / ٨١ .

أُولُو الْأَلْبَابِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإن العقل أنفس مواهب الرحمن عند الإنسان ، به يقدر الإنسان أن يعرف النافع من الضار والحسن من القبيح والخطأ من الصواب والسفاهة من الرشاد .

وقد وردت في القرآن الكريم نحو ثلاثمائة آية تتحدث عن العقل ووظائفه وطرقه في الفهم والاستنتاج والحكم .

لكن إذا كان العقل مناط التكليف بالإيمان والإحسان والعدل والرحمة فإن هذا هو العقل الذي يمتاز به الإنسان على الحيوان وهو العقل الكلي الكامل .

هناك ما نسميه نقصاً في العقل أو ما نسميه جنوناً جزئياً وهو خلل في التفكير ينتشر بين كثير من خلق الله .

عندما أمر الناس بالتقوى وأنا فاجر أو عندما أمر الناس بالرحمة وأنا قاس أو عندما أمر الناس بالسماحة وأنا متعصب فإن هذا شيء يدل على ضرب من الخلل يجب أن يعالج بالتذكير والهداية ، وهذا سر قوله تعالى :

خطب الغزالي - المجلد الثاني

﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ [البقرة : ٤٤] .

كأن هذا التصرف جنون جزئى يقال للإنسان معه : ألا تعقل ؟ تأمر الناس بالبر وأنت بعيد عنه شارد عن طريقه ؟ من عجائب لغتنا أنها سمت العقل بأسماء عجيبة :

سمته « التَّهْيى » (١) والنهى جمع نُهية . كأن وظيفة العقل أن ينهى الإنسان عن الإسفاف .

وسمته « الحِجْر » (٢) كأن وظيفة العقل أن يحجر على الإنسان إذا ضل وتصرف تصرفاً عابثاً حتى يكف عن عبثه .

وسمته « العقل » لأنه يعقل صاحبه عن التورط فى المهالك ، لأن العقل هو الذى يقيد الإبل والدواب حتى لا تشرذ وتنطلق على غير هدى فالعقل فى ديننا كما هو أصالة فى فهم الحقائق فهماً سليماً فهو كذلك أساس فى زجر الإنسان عن الاضطراب والفوضى إذا رغب فى الاضطراب والفوضى .

وقد رأيت وأنا أتلو القرآن الكريم أن هناك كلمة تستوقف الأنظار وينبغى أن نترث طويلاً أمامها وهى كلمة « أولى الألباب » ومعناها أصحاب العقول ، كأن اللب هو العقل أو العقل هو اللب وما عداه قشر يطير مع الريح لا وزن له .

تكررت كلمة « أولى الألباب » ست عشرة مرة ، ونحن الآن نستعين ربنا لنقف وقفة عاجلى أمام كل مرة وردت فيها لنتدبرها ونستوعب معناها وندخره فى نفوسنا .

وردت كلمة « أولى الألباب » ثلاث مرات فى سورة البقرة :

(١) وفى التنزيل العزيز : ﴿ إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾ (طه : ١٢٨) .

(٢) وفى التنزيل العزيز : ﴿ هل فى ذلك قسم لذى حجر ﴾ (الفجر : ٥) .

المرّة الأولى :

﴿ ولکم فی القصاص حياة یا أولى الألباب لعلکم تتقون ﴾
[البقرة : ۱۷۹] .

المرّة الثانية :

﴿ الحج أشهر معلومات فمن فرض فیہن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فی الحج وما تفعلوا من خیر یعلمہ اللہ وتزودوا فإن خیر الزاد التقوی واتقون یا أولى الألباب ﴾ [البقرة : ۱۹۷] .
ومعنى الكلمة هنا أن فی مناسک الحج حکماً يعرفها من يعرفها ويجهلها من يجهلها ، وأن الذين تصوروا أعمال الحج مناسک غامضة بعيدة عن التصور العقلى مخطئون .

المرّة الثالثة :

﴿ یؤتی الحکمة من یشاء ومن یؤت الحکمة فقد أوتی خیراً کثیراً وما یذکر إلا أولوا الألباب ﴾ [البقرة : ۲۶۹] .

وعندى أن الحکمة فی هذا الموضع تعنى النفقة الراشدة العاقلة التى تجعل الإنسان یحسن توزيع ماله على مطالبه الخاصة وعلى مطالب دینه وواجبات مجتمعه بحيث یكون فیما یملك مُدْخَرٌ للفقراء والمساکین ومجال للإنفاق فی سبیل اللہ .

والحکمة أوسع من هذا المعنى إذ أنها تعنى أحياناً أن یكون التعلیم مناسباً للطلاب فقد جاء : « ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة » (۱) ، « حدثوا الناس بما یعرفون أتخبون أن یُکذَّبَ اللہ ورسوله ؟ » (۲) .

(۱) رواه مسلم عن عبد اللہ بن مسعود فی مقدمة صحيحه ۹/۱ .
(۲) رواه البخاری عن علی بن أبی طالب فی کتاب العلم . باب من خص بالعلم قوماً دون قوم کراهية أن لا يفهموا ۴۴/۱ .

وقد تكون الحكمة في غير المال ونفقته وفي غير العلم وعرضه ، قد تكون في الدعوة كيف تُعرض على الناس وكيف يخاطب كل مجتمع بما يلائمه ويناسب حاجته ويوائم مستواه العقلي ، ولكنها على أية حال خير كثير يعرف قدره أولوا الألباب .

ووردت كلمة « أولى الألباب » مرتين في سورة آل عمران :

المرّة الأولى :

﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ [آل عمران : ٧] .

وقد بينت للمسلمين أن المحكم من كتابهم هو الذى حوى أصول العقيدة والأخلاق والسلوك وأن المتشابه لا معنى للخوض فيه لأنه فوق طاقة العقل أولاً وبعيد عن أن يصل الإنسان إلى خبيثته بأدواته الكليّة ثانياً ، ثم هو مثار فرقة وخلاف وينبغى أن يبقى المجتمع المؤمن موحد الرأى مسدد الهدف .

المرّة الثانية :

﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقنا عذاب النار ﴾ [آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١] .

يستطيع المسلم أن يعرف ربه وأن يستبطن خشيته وأن تفتح آفاق عقله على جوانب من عظمته عندما يتأمل فى الزمان والمكان وخمسة آلاف مليون من الخلق يعيشون فى القارات الخمس يُلهمون نفساً بعد نفس ويدفق الدم فى عروقهم شبراً شبراً أو إصبعاً إصبعاً بقدرة الخلاق الكبير الخبير بعباده أجمعين .

الموضع السادس : في سورة المائدة : ﴿ قل لا يستوى الخيـث والطيب ولو أعجبك كثرة الخيـث فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون ﴾ [المائدة : ١٠٠] .

الكيف أعظم من الكم ، كائس طريق مؤمن أعظم من ملك كافر على رأسه التاج ، رجل صالح غامض في الناس أرجح في موازين الخير عند الله وعند المؤمنين من كثرة لا خير فيها ولا تقوى لها : ﴿ قل لا يستوى الخيـث والطيب ولو أعجبك كثرة الخيـث ﴾ .

أثبت تاريخ الحياة — إلى يوم الناس هذا — أن القلة المنظمة تغلب الكثرة الفوضوية وأن القلة العاملة تغلب الكثرة العاطلة وأن الناس ليسوا بالأعداد .. قال رجل لخالد بن الوليد رضى الله عنه : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! فقال خالد : بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين ، إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان (١) .

الموضع السابع : في سورة يوسف : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ [يوسف : ١١١] .

بين رب العالمين أن القصص الذى يسوقه في الوحي المبارك ليس روايات مؤلفة ولكنه أحداث تاريخ وقع ، ويعنى ذلك أن المسلم قارىء القرآن ينبغي أن يدرس التاريخ لأنه لا جديد تحت الشمس ، ممكن أن نقيس به الحاضر على الماضى ، ممكن أن نستنتج مما كان حقيقة ما سيكون ، ولذلك أوتينا العقل لكى نعيش ونوازن ونعتبر ونتدبر .

الموضع الثامن : في سورة الرعد : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ [الرعد : ١٩] .

(١) دار هذا الحوار قبيل نشوب القتال بين المسلمين والروم في معركة (اليرموك) الحاسمة سنة ثلاث عشرة من الهجرة (٦٣٤ م) وكان المسلمون ستة وثلاثين ألف مقاتل سوى عكرمة فإنه كان ردما لهم وكان الروم في مائتى ألف وأربعين ألف مقاتل (ابن الأثير : ٢٨٢/٢) .

الناس كثيرون في هذه الدنيا ، لكن بعض الناس في أبصارهم قصور فلا يرون من بعيد ، أو في أبصارهم عمى فلا يرون شيئاً قط ، هذا الذى يكون من آفات في العيون قد يكون آفات على البصائر التى ينبغى أن تعرف الحق وأن تتبعه وأن تدرك حسنه وأن تعرف الباطل وتشمئز منه وتنفر من قبحه ، وقد بين القرآن الكريم أن الإنسان تُعرض عليه الآيات وينبغى أن يستعمل عقله وأن ينتفع بأنفس ما وهب الله له : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ [الأنعام : ١٠٤] .

الموضع التاسع : في سورة إبراهيم : ﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب ﴾ [إبراهيم : ٥٢] .

إن هذا القرآن تلاه النبي ﷺ على الناس ثم ذهب إلى الرفيق الأعلى وترك الكتاب الخالد يتلى على الناس كي يفظمهم عن الشهوات ويصدهم عن الأهواء القبيحة ، كي يتذكر من له عقل أن الله واحد وأن المرجع إليه وأن المهاد الحسن ما نعه نحن لأنفسنا عنده ، فالذين يعملون الصالحات لأنفسهم يمهّدون والذين يعملون السيئات لأنفسهم يمهّدون ولكن شر مهاد .

الموضع العاشر والحادى عشر : تضمنتهما سورة ص .

الموضع الأول : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ [ص : ٢٩] .

هذا القرآن لا تفنى عجائبه ، وكلما وقفت أمام بابه تفرع الباب لمعنى جديد وجدت خزائن الرحمة فيه سيالة ، ومن عيوب الذين ابتعدوا عن الرحمن أن حُجباً صدّهم عن الكتاب فهم ما يحسنون السماع إذا تلى ، ولا القراءة إذا اطلعوا ، أما عباد الرحمن فقد وصفهم الله بقوله : ﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً ﴾ [الفرقان : ٧٣] .

الأصم : من استمع إلى الآيات فلم ينتفع بها ، ما انتفع بحاسة السمع .

الأعمى : من قرأ القرآن فلم يستفد به ، ما أنتفع بحاسة البصر .
من عجائب التاريخ ومن غرائب العالم أن المحطات الأجنبية عموماً تذيع
القرآن الكريم على الناس !! كأنما اطمأنت إلى أن المسلمين لن يفهموا منه
شيئاً ، إنما يتبعون النغم الحلو والصوت العذب وانتهى الأمر !! .

الموضع الثاني : ﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى
الشیطان بنصب وعذاب ﴾ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴿
ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب ﴾ [ص :
٤١ - ٤٣] .

يجيء هذا الكلام فى سورة « ص » تذكيراً للبشر بعجزهم وضعفهم
وحاجتهم إلى ربهم ، وفى الحديث القدسى : « يا عبادى كلکم جائع إلا
من أطعمته فاستطعمونى أطعمکم ، يا عبادى کلکم عار إلا من كسوته
فاستکسونى أكسکم » (١) .

نحن هدف للنوائب والمتاعب ، نحن دائماً نصاب بما يُطلق ألسنتنا
بالدعاء ، المؤمن المخلص يدرك أن ما نزل به من ضر لن يكشفه إلا الله ،
المؤمن العاقل يدرك أن البشر کلهم أعجز من أن يقربوا له خيراً أو أن
يباعدوا عنه أذى أو ألماً إلا إذا أذن الله ، ومن قوانين العطاء الإلهى :
﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من
بعده وهو العزيز الحكيم ﴾ [فاطر : ٢] .

هنا فى هذا الموضع من سورة (ص) نجد أن رب العالمين يذكر عبداً
من عباده فقد أهله وماله ولكنه لم ييأس من روح الله فبقى يقرع أبواب
الرحمة حتى جاءه العطاء مضاعفاً وانساب إليه الخير غزيراً يروى ظمأه ويرد
لهفته ، حتى إذا أصاب أولى الألباب ضرر لم يلجأوا إلا لباب واحد هو باب
الله ، ولم يذلوا ويكشفوا ضراعتهم إلا عند رب العالمين وفى ساحته .

(١) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم فى البر والصلة والآداب - باب تحريم الظلم ١٦/٨ ،
١٧ .

الموضع الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر تضمنتها سورة الزمر :
الموضع الأول : ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر
الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون
إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ [الزمر : ٩] .

الحديث بدأ بمقارنة بين ليل الرسول ﷺ وليل غيره ، غيره نائم ،
جثة ملقاة على الفراش كأنها دابة لحقها الإعياء فهي تستريح ، أما هذا النبي
الكريم عليه الصلاة والسلام فإن جسده ينام وقلبه يقظان ، فإذا تحرك في
فراشه تحرك بذكر الله ثم على عجل ينهض لينتصب على قدميه يقرأ الكتاب
العزیز .

في ظلام الليل منفرداً قام يدعو الواحد الصمدا
عابد لم تُبق طاعته منه لا روحاً ولا جسداً

الموضع الثاني : ﴿ فبشر عباد • الذين يستمعون القول فيتبعون
أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ﴾ [الزمر :
١٧ ، ١٨] .

المؤمن ليس متعصباً لشيء سبق إلى عقله ، إنه إنسان يحسن الموازنة
والمقارنة بين ما يعرض عليه من مبادئ وأفكار ، ويختار ما يرى أن الشرع إليه
أقرب وأن العقل إليه أميل .

الموضع الثالث : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع
في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيح فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً
إن في ذلك لذكرى لأولى الألباب ﴾ [الزمر : ٢١] .

يذكر الله العباد بجلال قدره وعظمة قدرته وافتتانه فيما أبدع من خلقه
لأنه أحسن كل شيء خلقه ، انظر كيف يتحول الطين إلى ورود ورياحين !
انظر كيف يتحول القذى إلى سكر ونشا وحلو وأشياء أخرى معجبة وألوان
أخرى تسبي العيون !! .

الموضع الخامس عشر : في سورة غافر : ﴿ ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب ۝ هدى وذكرى لأولى الألباب ﴾ [غافر : ٥٣ ، ٥٤] .

يبدو من السياق أنه يتناول الأقدمين من بني إسرائيل ، ولا ريب أن أتباع موسى الأوائل كانوا أولى بالحق والنصرة والتكريم من فرعون وآله وجنده ، ومن هنا أعطاهم الله الكثير .

الموضع السادس عشر : في سورة الطلاق : ﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً ۝ فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً ۝ أعد الله لهم عذاباً شديداً فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً ﴾ [الطلاق : ٨ - ١٠] .

هذه الآية تشير إلى سنة كونية وهي أن الله لا يعاجل الناس بالعقوبة إذا عاجلوه بالمعصية بل هو يتأنى بهم ويعطيهم فرصة للمتاب فإذا أبوا إلا الجحاح وإذا آثروا الضلال على الهدى فإنه يضربهم الضربة التي تشيب لها النواصي .

هذه ستة عشر موضعاً تكررت فيها كلمة ﴿ أولى الألباب ﴾ في كتاب الله عز وجل لتبين أن القرآن الكريم يطلب من المسلمين أن يكونوا أصحاب عقول مستنيرة وأصحاب معرفة مستوعبة وأصحاب علم واسع .

إن الأفق الضيق شر على صاحبه وشر على المبدأ الذي بحمله وشر على العقيدة التي ينقلها إلى الناس ، ونحن نريد أن نكون على مستوى الدين .

لا أعرف كتاباً في الأولين والآخرين أعلى قدر العقل وجعل أمته أمة الحضارة العاقلة الواعية المتقدمة الهادية إلا هذا القرآن الكريم ! فاعرفوا قدر كتابكم وأحسنوا اتباعه .

هداني الله وإياكم سبيل الرشاد .

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [الشورى : ٢٥ : ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .
وأشهد أن محمداً رسول الله إمام النبيين وسيد المصلحين .
اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

أيها الناس : كلمة السياسة لها معنيان متناقضان متباعدان كلاهما غير الآخر .

قد يكون معنى السياسة أن يملك الإنسان السلطة فيسخرها في إذلال العباد ، قد يكون معنى السياسة أن يملك الإنسان السلطة فيتملكه جنون العظمة فهو لا يعرف إلا نفسه وأهله وأتباعه ، قد يكون معنى السياسة أن أتعصب لتراث أو لدم أو لأمر مما تواضع الخلق على العصية له .

هذا اللون من السياسة مرفوض ، نحن نكرهه ونوصي بكراهيته ونصرف الشباب عنه ونوصيهم بتطليقه لأن الله تعالى يقول : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾ [القصص : ٨٣] .

كل من اشتغل بالسياسة يطلب بها العلو في الأرض والكبرياء على الناس أو كل من اشتغل بالسياسة ليثير الفوضى والفساد في أنحاء البلاد فهو إنسان فاجر فاسد ، وإن طلب الدنيا فقد يصيب منها شيئاً لكنه فقد الآخرة يقيناً : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾ [هود : ١٥ ، ١٦] .

المعنى الثانى للسياسة : أن أملك السلطة فأمر بالمعروف وأنهاى عن المنكر وأقيم الصلاة وأوتى الزكاة (١) وأحسن الحسن وأقبح القبيح وأسعى فى نشر الرحمة والمودة بين الخلق وأمر من أملك أمره أن يتواصى بالحق والصبر وأن يتواصى بالرحمة .

هذه السياسة مطلوبة لأنها تجعلنى أصب المجتمع فى قالب يرضى الله وأسوق الناس إلى وظيفتهم التى خلقوا من أجلها وهى عبادة الله .

* * *

كان صاحب الرسالة العظمى عليه الصلاة والسلام يرى الناس فى المسجد على هذا المعنى ، كان يقرأ فى صلاته : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ [النساء : ٥٨] .

كان يقرأ فى صلاته : ﴿ وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً ﴾ [النساء : ٧٥] .

أليست هذه سياسة ؟ أليست الدعوة إلى مجاهدة الظلمة ومقاتلة المعتدين سياسة ؟ .

هذا اللون من السياسة هو صلب الإسلام ييقين ، نحن نكره سياسة الفوضى والشغب ، ولكننا نحب كتابنا ونبينا ونتمسك بالحضارة التى أقامها هذا القرآن نظرياً وطبقها وشادها نبيه ﷺ عملياً ثم انطلق بها السلف الأول فأناروا ظلمات القرون الوسطى وأهدوا للإنسانية خير ما تشرف به .

(١) وفى التنزيل العزيز : ﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴾ [الحج : ٤١] .

إننا نحن المسلمين لنا ماض في سياسة العالم ينضر الوجوه ، أما غيرنا فله ماض تسود به الوجوه .

نحن لا نخجل من ماضينا ولا نستحي من كتاب ربنا ولا من سنة نبينا عليه الصلاة والسلام .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠]

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

* * *

نَظَرَاتٌ فِي سُورَةِ "الْأَنْفَالِ"

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فسنلقي نظرة على أبعاد التغير الإنساني الذي يصحب المجتمعات البشرية وهي تَصْعَدُ إلى القمة مستحقة النصر والتمكين ، أو وهي تُسِفُّ إلى الأرض مستحقة الذل والهوان ، وذلك من خلال تأمل محدود في سورة الأنفال .

إن سورة الأنفال نزلت في أعقاب غزوة بدر ، ولكننا لن نتعرض

للغزوة إلا بالقدر القليل الذي يحتاج إليه توضيح المعنى .

أما المحور الذي تدور عليه السورة — فيما رأينا — فهو أن الأمم عندما تُسِفُّ وتُخْلَدُ إلى الأرض تستجمع الخصائص التي تستحق بها الهزيمة ، وأنها عندما تَصْعَدُ إلى أعلى وتطير بأجنحة من الشوق إلى مستوى من الكمال الرفيع فإنها تستحق التمكن والفوز المبين !! .

وبين يدي التأمل في سورة الأنفال — من خلال هذا المعنى — أذكر مثلاً استمعت إليه من سائح عربي ذهب إلى « أسبانيا » في أحد المؤتمرات التي انعقدت هناك ، قال لي : دخلت في المسجد بقصر الحمراء وقال لي الترجمان الذي يشرح لي الآثار : كانت هنا أمة مسلمة مكَّنها الله في الأرض يوم كانت لله خلائف ، ثم طردها من هذه الأرض يوم أصبحت في هذه الدنيا طوائف !! نعم كان للإسلام في الأندلس دولة أشرقت بها العصور الوسطى ، وقَدِّمَتْ للإنسانية عقيدة التوحيد في هالة من العلم الواسع والحضارة الزاهية فارتقت الإنسانية طويلاً بهذه الدولة الموحدة !! ثم لما عصفت الشهوات برؤوس الحاكمين وأثرفوا في هذه الدنيا ، وقَضَوْا الأعمار بحثاً عن الشهوات ، ونسوا المثل الرفيعة التي طُوبُوا بخدمتها طُردوا من هذه الأرض !! .

ماذا كان يأخذ الناس منهم بعد أن أصبحوا طوائف ؟ .

يأخذون منهم الزخارف في جدران البيوت أو المساجد ؟ .

يأخذون منهم المَوْشَّحات التي تبكي الحبيب الهاجر أو المهجور ؟ .

ماذا يأخذ الناس من الأمة الإسلامية إذا فقدت رسالتها ؟ .

شاع الكذب في هذه المجتمعات ، ووجدنا أصحاب الأقلام المتملقين وأصحاب قرض الشعر ابتغاء الجوائز والمكافآت ينسبون إلى الحمام أنه يمدح الخلفاء على هذا النحو :

إن الحمام بأيكها تشدو
هل قد عليم أو قد عهد أو كان ؟
كالمعتصم والمعتضد ملكان ؟

والمعتصم والمعتضد اللذان ورد ذكرهما في هذا المدح قال فيهما شاعر آخر (١) من حكماء الشعر البصرياء بأقدار الرجال .

مما يُزهدني في أرض أندلس ألقابُ مُعتصم فيها ومُعتضد
ألقابُ مملكة في غير موضعها كألهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد
ليس على الله بعزيز أن يطرد أمثال هؤلاء من العز وأن يحرمهم السلطة
وأن يجعلهم رعاعاً في الأرض لأنهم أبوا إلا منزلة الرعاع في أحوالهم
وأعمالهم !!

سورة الأنفال أشارت إلى هذا المعنى وهي تتحدث عن هزيمة قريش وانكسار دولتها التي كانت قائمة في مكة ، وتحدثت في الوقت نفسه عن النصر الذي ساقه الله للمؤمنين .

ونحيء للسورة من وسطها لكي نبين المحور الذي دارت عليه ، يقول الله في وسط السورة : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ [الأنفال : ٥٠ ، ٥١] .

هل الذي حدث لقادة الكفر في مكة وزعماء الوثنية في الجزيرة كان بدعاً في سنن الله الكونية ؟ لا ، بل هذا الذي حدث يتفق مع سنن الله في المجتمعات المنحلة ولذلك قال الله عقب هذه الآيات ﴿ كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب . ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمه أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم . كذاب آل فرعون والذين من

(١) هو ابن أبي شرف كما في المقدمة لابن خلدون — الفصل الثاني والثلاثون في اللقب بأمر المؤمنين .

قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين ﴿ [الأنفال : ٥٢ - ٥٤] .

لكن ما يقضي الله به من تدمير للظلمة ومن إنشاء لأمم أخرى أعدل وأعقل يحتاج إلى زمن طويل ، ومعنى طول الزمن : أن سنن الله الكونية لا تتم بين عشية وضحاها ، فقد يموت أنبياء ، وقد يموت قادة ، وقد يُستشهد مجاهدون قبل أن يتسم النصر آخر الأمر ، ولذلك يقول الله لنبيه ﷺ : ﴿ وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون ﴾ [يونس : ٤٦] ويقول : ﴿ وإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون ﴾ أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ﴿ [الزخرف : ٤١ ، ٤٢] .

لا بد أن تتناول وتتراخى أيام الصراع بين التوحيد والتثليث ، بين العقل والحماسة ، بين الحقيقة والخرافة ، بين الجهل والعلم .
لماذا هذا الطول ؟ .

لأن الله يُنضِجُ الكمال في نفوس المجاهدين مع طول الزمن وفي الوقت نفسه يُنضِجُ العناد والفسق في نفوس المعاندين والفاستقين مع طول الزمن ، فإذا كوفيء المؤمنون بالنصر فبعد أن يبلغوا قمة الخير والكمال ، وإذا كوفيء المجرمون بالعقاب فبعد أن يبلغوا قمة الشر والفساد !!

هذا المعنى وضحته سورة الأنفال في موضعين :

الموضع الأول قوله تعالى : ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ﴾ . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴿ [الأنفال : ٧ ، ٨] .

كانوا يودون الأوبة إلى المدينة بغنيمة باردة دون أن يُسفك دم ودون أن يؤدب مجرم ولكن الله قرر إنزال ضربة مهينة بالكافرين !!

الموضع الثاني قوله تعالى : ﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة

القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن
ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي
عنة وإن الله لسميع عليم ﴿ الأنفال : ٤٢ ﴾ .

رب العالمين يهلك هؤلاء بجدارة ، ويعطي هؤلاء بجدارة .

والأقدار التي تنزل بصعود هذا أو هبوط ذاك ليست حركات عابثة ،
إنها أقدار تزن بدقة هائلة مسالك الأفراد والجماعات !!

وينتقل هذا المعنى من ميدان القتال إلى ميدان السجن ، فيقول الله
للأسرى وهم في قيود الهوان والمسكنة : إنكم وحدكم الذين تصنعون
مستقبلكم ، إن انتويتم خيراً للناس انفتحت أمامكم مجالات رحبة للحركة
والعطاء وإلا فلكم الويل : ﴿ يأيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى
إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله
غفور رحيم ﴾ . وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم
والله عليم حكيم ﴿ الأنفال : ٧٠ ، ٧١ ﴾ .

إن الخونة قد يستطيعون الإساءة إلى غيرهم ردحاً من الزمان ، وقد
يتطاولون في المجتمعات ويحسبون أن الجو قد خلاهم غير أن القضاء الحكيم
يتربص بهم إلى حين ، ثم يستمكن الوثاق من أعناقهم !! .

هذا وصف للفساد وهو يهبط بنويه ، وهذا الفساد يشمل الأمم ،
يقول الله في سورة النحل : ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها
رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع
والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ [النحل : ١١٢] .

لم هذا العذاب ؟ .

لأنها أُطْعِمَتْ من جوع فما شكرت ، وأُمِنَتْ من خوف فما
شكرت ، فإذا تُسَلِّطَ عليها المخاوف والأزمات حتى تعرف قدر النعم التي
فقدتها !! .

وإنما أهلك الله السلطة التي كانت تحكم في مكة لأن العناد والجهالة

بلغت بالقوم مبلغاً عجيباً فقد قالوا مكابرين رب الكون : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [الأنفال : ٣٢] .

كان الأولى لهم أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا ووفقنا لاتباعه ، أما أن يبلغ الكره بقلب إنسان أن يكره الحق ، وأن يكره حملته ، وأن يكره الحياة به والسير على ضوئه فإن مثل هذا الإنسان ينبغي أن يُؤارى بجاهليته وعناده في مطاوي القبور ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴾ . ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ [الأنفال : ٥٠ ، ٥١] .

ننظر بعد ذلك إلى الجانب الآخر وهو المجتمع المؤمن ، لقد عاش قبل الهجرة وبعدها يحترم دينه ويقدم مطالبه على رغائبه ويحمل في الحياة شارته ويرفع رايته ، وكان خصومه يستكثرون عليه حق الحياة كما يريد ، بل كانوا يروعونه في الحرم الآمن ويرغمونه على النزوح هنا وهناك !! لقد أنالته الأقدار النصر والتمكين والسيادة ، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾ [الأنفال : ٢٦] .

إذا هؤلاء استحقوا فعلاً أن يُنصروا لأنهم تحملوا في ذات الله الكثير ، ووقفوا إلى جانب نبيهم ﷺ وهو يُطارَد ويُخَوَّف ، ولم ينهزموا بل صمدوا وظلوا على ثباتهم إلى أن انتصروا . وهنا نلاحظ أن النصر الذي ساقه الله كان فضلاً أعلى ، وكان عطيةً للقدر فيها أكبر الدخل ، وليس لعمل الناس فيها إلا الدخل المحدود ، هم قاتلوا وثبتوا وبذلوا وجاهدوا وضحوا وتحملوا وهاجروا وتركوا بلادهم وملذاتهم وثرواتهم لله ، لكن الله سبحانه وتعالى عندما أراد النصر أدار المعركة وحده : ﴿ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان

وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام * إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴿ [الأنفال : ١١ ، ١٢] .

رب العالمين بالجو الذي صنعه وبالرمال التي ثبتها وباليقين الذي أرساه في القلوب هو الذي جعل المؤمنين يكسبون المعركة على هذا النحو الغريب حتى قال قائل (١) في مكة : والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقودوننا كيف شاءوا ويأسروننا كيف شاءوا !!

وهذا مصداق قوله جلّ جلاله : ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً إن الله سميع عليم ﴾ [الأنفال : ١٧] .

لكن ما هي الخصائص التي يرق بها مجتمع حتى يستحق النصر ويتبوأ القمة ويضمن عناية السماء به ؟ .

أشارت السورة في مطلعها إلى هذه الخصائص ، قال تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ [الأنفال : ٢ — ٤] .

تلاوة الآيات قد تكون مبعث تخويف إذا هجست هواجس الشر في قلب الإنسان وإذا وَزَّ الشيطان على المعصية ، هنا يجيء ذكر الله فيبدد الغيوم ويكشف الطريق ويجعل المؤمن ينجو من الحفرة التي حفرها الشيطان له .

يجيء ذكر الله للأفراد وللأُمم وهي على طريق الكفاح والجهاد ، يجيء للفرْد عندما يقال له : عش لنفسك ، ابق لأولادك ، وفر الدنيا لأسرتك ، ماذا تصنع في مقاومة الطغاة والبعاة ؟ التفت لنفسك قبل أن يبطشوا بك ،

(١) هو أبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب وقصته عند ابن إسحاق * راجع ابن هشام ٢ / ٢٨٩ والطبري ٢ / ٤٦٢ .

هنا يجيء ذكر الله يقول له : هيهات ! ما من أمر يتم إلا إذا بَتَّ القدر الأعلى القرار فيه ﴿ قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تموتون إلا قليلاً ﴾ قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴿ [الأحزاب : ١٦ ، ١٧] . ذكر الله هنا يُعَلِّم الإنسان الثبات : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ [الأنفال : ٤٥] . قال تعالى : ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴾ [الأنفال : ٢] .

القرآن الآن انتشرت له إذاعات في العالم الإسلامي ، ولكن ما قيمة القراءات والإذاعات إذا لم تحرك الإيمان الهاجع المخدَّر الذي يضحك منه أعداء الإسلام ؟ لذلك كان من خصائص الكمال البشري أن تتحول الآيات إلى مسالك وأخلاق وإلى جهاد وأعمال ، وهذا أمر لا بد أن نعرفه لأن النهضة الإنسانية ليست كتباً تقرأ أو تحفظ ولكنها أحوال وأخلاق ، والأم الهابطة بهم بالشكل وقلمها اهتمت بالموضوع وكما قال الشاعر :

أرى حُللاً تصان على أناس وأخلاقاً تُهان ولا تُصانُ
يقولون : الزمانُ به فساد وهم فسدوا وما فسد الزمانُ

وبعد أن رسمت السورة صورة المجتمع المؤمن حقاً بَتَّت خلال القصص الواعي وعبره البالغة نداءات شتى للمؤمنين تحذوهم إلى الكمال ، ومن أجل ذلك تضمنت السورة ستة نداءات لا يستغني عنها سلف ولا خلف ، بل لعلنا اليوم أحوج الناس إلى فقهاها !! .

النداء الأول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ﴾ [الأنفال : ١٥] .

النداء الثاني : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ﴾ [الأنفال : ٢٠] .

النداء الثالث : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحيككم ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

النداء الرابع : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٧] .

النداء الخامس : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٩] .

النداء السادس : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال : ٤٥] .

الحقيقة أن شرح هذه النداءات يحتاج إلى خطبة خاصة ، لكنني أوجه النظر إلى آخر ما جاء في هذه السورة ، وآخر ما جاء في هذه السورة يبين أن للمسلمين ولاءً واحداً : ﴿ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجَرُوا وَإِنْ اسْتَتَرُوا مِنْكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ مِنْكُمْ فِيهِمْ مِيثَاقُ وَاللَّهِ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

ثم جاءت هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٣] .

الكافرون أنواع : هناك من ينكر الله ، هناك من يرى الألوهية أسرة فيها أب وابن وأم ، هناك من يرى أن الله يتجسد في صور شتى !! .

أنواع الكفر كثيرة ، والكفر كله ملة واحدة ، وقد سألت نفسي : إن اليهود يقولون عن عيسى : إنه ابن زنا وهم متهمون أيضاً — كما يزعم النصارى — بقتله ، ومع ذلك فقد رأيت الفاتيكان برأى اليهود من مقتل عيسى واصطلح الفريقان !! على من اصطالحوا ؟ على الإسلام وأمته !! والفتنة والفساد يملآن الأرض الآن لأن المسلمين لا يعرفون من يوالون ولا من يخاصمون !! .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله ... الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لم عذاب شديد ﴿ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام النبيين وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

أيها الإخوة : وأنا أقرأ قصيدة الرثاء في ذهاب الأندلس كانت أبيات منها تحرك مشاعري وتجعلني أقارن بين عصر وعصر وعهد وعهد .. قلت : ما هذه السرطانات التي شاعت في الأمة الإسلامية الآن تريد تمزيق الوحدة ، تريد تقطيع الكيان المشترك ، تريد جعل المسلمين مشغولين بالتوافه !؟ .

تذكرت قول الشاعر (١) وهو يتحدث للأندلسيين ويقول لهم :

تبكي الحنيفة البيضاء من أسف	كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خالية	قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس	ما فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة	حتى المنابر ترثي وهي عيدان
أعندكم نأ عن أهل أندلس	فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم	أسرى وقتلى فما يهتز إنسان
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم	وأنتم يا عباد الله إخوان
ألا نفوس أبيات لها همم	أما على الخير أنصار وأعوان

(١) هو أبو الطيب الرندي .

ألا يخجل الذين يشيرون بالعداوة والبغضاء الآن في نفوس المسلمين ؟ .
ألا يخجل هؤلاء الذين يريدون أن يجعلوا مصير الأمة الإسلامية على
هذا النحو ؟ .

ماذا التقاطع في الإسلام بينكم ؟ .

أما على الخير أنصار وأعوان ؟ .

ينبغي أن نتعاون فيما اتفقنا عليه — وهو كثير — وأن يعذر بعضنا
بعضاً فيما اختلفنا فيه — وهو قليل !! .

جاءني ناس قالوا : العمل في البنوك حرام ، والعمل في المحاكم حرام ،
والعمل في الشركات حرام ، والعمل في الجهاز الحكومي كله حرام !! .
ونتيجة هذا التفكير أن يملأ الصهاينة والصليبيون هذه الأجهزة وأن
يبيع المسلمون الفول والتبن !! .

هل هذه طريقة في إصلاح الأمة ؟ ! .

كان ابن تيمية — أيام احتلال بغداد — يمشي مع تلميذ له ، فوجد
التلميذ جماعة من التتر الذين احتلوا بغداد يشربون الخمر فأراد أن يتوقف
ليشتبك معهم ويمنعهم من شرب الخمر فجره ابن تيمية وقال له : مالك
ولهؤلاء ؟ دعهم في سكرهم إنهم لو صحوا لقتلونا !! .

أي تحريم هذا الذي يشغل دماغك الآن ؟ .

إذا كنت تريد إقامة الإسلام فليست إقامة الإسلام أن تمنع جنود العدو
من شرب الخمر ، إقامة الإسلام أن تقيم جهازاً إسلامياً يغلِب هذا الجهاز ،
إقامة الإسلام أن تُكوّن جيشاً للموحدين يأكل هذا الجيش ، إقامة الإسلام
أن تدخل في كل عمل وتعطي يدك مع كل مصلح حتى إذا جاء الإصلاح
للجهاز الذي أنت فيه تكون خبيراً بمتاعبه ومفاسده ، أما تعلّم الإصلاح
بعيداً عن هذا الجو فكتعلّم السباحة على الأرض !! وما يتعلم العوم على
الأرض أحد إلا إذا كان خيالياً مغفلاً .

ادخلوا في كل ميدان ، واخدموا الإسلام بقدره ، وهناك قواعد في الشريعة الإسلامية كقاعدة : مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وقاعدة ارتكاب أخف الضررين .

أيها الإخوة : إنه ليسعدنا في هذا اليوم أن يكون بيننا إخوة لنا جاءوا من السودان شرح الله بالإسلام صدورهم ، وأقام بالحق أخلاقهم وألسنتهم ، وجعلهم دعاة للخير بعد أن كانوا قد خُدعوا بالمسيحية زماً ، وعرفوا — بعد جدال حسن مع إخواننا الذين ذهبوا إليهم — أن الله واحد ، وأن محمداً نبيه ، وأن المرسلين إخوة ، وأن كل إنسان مسئول برأسه عن نفسه ، وأن أحداً لم يُقتل في سبيل خطايا الخلق ، عرفوا هذا كله وجاءوا يستكملون أواصر الأخوة والإيمان مع إخوانهم في القاهرة ، وإنا ليسعدنا أن نلقاهم وأن نحتفي بهم وأن نُسرّ لمراهم .

إننا نتمنى للإسلام مستقبلاً حسناً في جنوب السودان وفي المراتع التي انتشر فيها وباء التبشير الأجنبي مستعيناً بخيانات الحكام العملاء الذين فتحوا له الأبواب ومهلوا أمامه السبل !!

وإن شاء الله للإسلام عودة وله جولة ودولة ، والأيام بيننا ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ [الشعراء : ٢٢٧] .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

مِنْ نُبُوءَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإن هناك نبوءات في القرآن الكريم صدقتها الأيام ، وهي نبوءات تحذر عن غيب لا يعلمه إلا الله ، ثم جاء المستقبل فكشف عن صدق ما قيل .
* من ذلك أن المسلمين عندما عادوا أدراجهم منسحبين من مكة دون أن يؤدوا عمرة الحديبية كانت نفوسهم كسيرة وكانت الوسواس قد تسللت إلى أفكار بعضهم : كيف قيل لنا : إنكم ستدخلون مكة ثم تعودون أن ندخلها ؟ ! .

ونزل قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ [الفتح : ٢٧] .

هذه الآية نزلت في السنة السادسة ولم تمض سنتان حتى كان المسلمون الذين منعوا من دخول مكة ومن أداء مناسك العمرة قد عادوا وهم سبعة أضعاف ما كانوا ، ويبدى المسلمون من مظاهر القوة والبأس ما يوقع الرعب والرهيبة في أفئدة المشركين .

« هناك نبوءة أخرى أول سورة الروم ، وقصتها غريبة وتستحق التسجيل والتعليق ، فإن النزاع بين المملكتين الكبيرتين : الروم التي تعتنق النصرانية ، والفرس التي تعتنق المجوسية كان نزاعاً حاداً دمويّاً طويلاً المدى ، وشاء الله - في دور من أدوار هذا النزاع - أن ينهزم الروم هزيمة ما عُرف مثلها ، وكانت أبعاد هذه الهزيمة تمتد إلى المعروف من القارات المعمورة يومئذ ، انسحب الروم أمام زحف الفرس وتركوا مصر واليمن وفلسطين والشام وكادت عاصمتهم تسقط ، وخسروا خسائر سودت وجوههم ، ثم اضطروا إلى أن يوقعوا على صك الهزيمة وهو صك يجعل الروم ملزمين بتقديم أفواج من النساء للجيش المنتصر غير قناطير مقنطرة من الذهب والفضة !! .

فكانت نكبة الروم قد سودت وجوه النصارى وأحنت رءوسهم ، ويئس الناس من أن تكون للروم دولة أو عودة ، لكن صوتاً وحيداً غريباً كان ينبعث من مكة وحدها يقول : ﴿ غلبت الروم ﴾ في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ﴾ في بضع سنين الله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ﴾ بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [الروم : ٢ : ٦] .

لم يكن هناك ما يؤيد هذا الصوت من بقية قوة في دولة الروم أو بقية تماسك في شعوب النصرانية ، والغريب أن الآية التي قالت : إن الروم سينتصرون حددت أن الانتصار لن يتجاوز بضع سنين ، وفعلاً وقع مالم يكن في الحسبان ومالم يعرف في قوانين التاريخ ولا في أحواله ، وانتصر الروم على الفرس واستردوا جميع ما خسروا ، وكان انتصارهم غريباً معجباً معجزاً !! .

كان يجب أن يقابل الصوت الوحيد الذي تنبأ بهذا النصر مقابلة حسنة وأن يعرف لصاحبه أن الله تبارك وتعالى مَرِّقُ الغيوب عن المستقبل أمام بصيرته وأنزل عليه من الوحي ما جعله ينطق بمالم يُعرف في القارات كلها ومالم ينتظره أحد .

لكن الضمير الصليبي جعل مؤرخي النصرانية يذكرون القصة على نحو معوج كذوب ، قالوا : نعم لقد تنبأ محمد بأن الروم سينتصرون ولكن سبب النبوة حقه على الفرس لأنهم مزقوا رسالة بعث بها إلى ملكهم يدعوه إلى دينه !! .

وهذا التعليل تزوير وكذب من ألفه إلى يائه لأن سورة الروم التي ذكر فيها أن الروم سينتصرون نزلت في مكة قبل أن يبعث الرسول ﷺ برسالته إلى ملك فارس بنحو اثني عشر عاماً ، فمن الخلط وتحريف الكلم عن مواضعه وتشويه الحقيقة لغير سبب واضح أن يقال إن السر في النبوة حقد على الفرس لأنهم مزقوا رسالة بعث بها النبي ﷺ إلى ملكهم !! .

• وهناك نبوءة ثالثة جاء بها القرآن الكريم وهي قوله تعالى :

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ، ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ [الصف : ٩] .

وإذا كانت النبوءة الأولى قد استغرقت لتحقيقها نحو سنتين ، وإذا كانت النبوءة الثانية قد استغرقت لتحقيقها بضع سنين ، فإن النبوءة الثالثة استغرقت لتحقيقها قروناً ، ولا تزال هذه القرون تمتد لتبين أن الإسلام باق وأن لواء التوحيد معقود على أصحابه لن ينزل إن شاء الله !! .

قلت هذه النبوءة والإسلام غريب في جزيرة العرب تحيط به قبائل مشاكسة مشركة كما تحيط به قوى اليهود والنصارى الذين تعاونت أحزابهم جميعاً على ضرب الإسلام والكيد له .

ولكن الأسوار الحديدية التي كانت تمنع الإسلام من الانطلاق عبر الجزيرة تلاشت ، ومضى المسلمون فوصلوا أقصى الشرق وأقصى الغرب وأقصى الشمال وأقصى الجنوب ، ومضت السنون والإسلام يزيد ولا ينقص !! .

• في سورة الروم آية تبين أن الإسلام باق إلى قيام الساعة وهي قوله تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك

كانوا يؤفكون * وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴿ [الروم : ٥٥ ، ٥٦] .

* وفي سورة آل عمران آية تبين أن الإسلام باق إلى يوم القيامة وهي قوله تعالى لعيسى ابن مريم : ﴿ وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾ [آل عمران : ٥٥] .

والذين اتبعوا عيسى عليه السلام هم الذين يرونه عبداً لله ويصفونه بأنه رسول لبنى إسرائيل يمهد للرسالة العامة التي تجيء من بعده ، وأنه هو وغيره من الأنبياء إنما جاءوا منبئين بأن من عدا الله عبد له ، وأنه ليس له ابن ولا صاحبة ولا أم ولا والد ولا ولد ، أما الذين يقولون بأن لله أمماً أو صاحبة ، أو ابناً أو ما إلى ذلك فهؤلاء ليسوا أتباع عيسى وإنما أعداؤه !! فآية سورة الروم وآية سورة آل عمران كلتاهما تصدق إحداها الأخرى وتؤيد معناها وهو أن الإسلام باق حتى يأتي أمر الله وحتى يتقوض العمران على ظهر الأرض وينفض سرادق الحياة والأحياء وترجع الدنيا إلى ربها ليحكم عنده إيمانها وكفرانها وصالحها ومفسدها وملائكتها وشياطينها .

* وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده : « ليلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل عزاً يعز الله به الإسلام وذلًا يذل الله به الكفر » (١) .

* وورد في حديث آخر : « مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره » (٢) .

(١) رواه أحمد ١٠٣/٤ والحاكم في الفتن والملاحم وقال صحيح ووافقه الذهبي ، والطبراني في الكبير ٥٨/٢ ، وقال في المجمع (١٤١/٦) رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح .
(٢) رواه الترمذي في الأمثال - باب ٦ وقال هذا حديث حسن غريب ١٧٠/٨ - ١٧٢ وأحمد ١٣٠/٣ ، ١٤٣ ، ٣١٩/٤ وقال في صحيح الجامع : (٥٨٥٤) صحيح .

ولكن من باب الإنصاف العلمى أقول : إن آية سورة الروم يفسرها البعض على أساس أن كلمة ﴿ في كتاب الله ﴾ المقصود بها كتاب الأمر : الخلق والرزق والموت والحياة والعز والذل والسلام والحرب .

لله كتابان : كتاب تَضْمَنُ وحيه وهو القرآن الكريم ، وكتاب تضمن أمره في ملكوته الطويل العريض ، والمقصود بالأمر هنا تدبير شئون العباد ، وهو تدبير لا يُحصى ما يقتضيه من لفظ لأنه إذا كان على ظهر الأرض خمسة آلاف مليون من البشر فإن كلا منهم يحتاج في تنفسه وهضمه ودق قلبه ويقظة عينه أو فكره إلى أوامر متلاحقة من الله !!؟ .

قال تعالى : ﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ [يونس : ٦١] .

الكتاب المبين هنا هو كتاب الوجود أو كتاب الملكوت وهو غير القرآن الكريم . وقال تعالى : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾ [الحديد : ٢٢] .

الكتاب هنا كتاب آخر غير القرآن الكريم .

أقول هذا لأن مبشراً غيباً قرأ قوله تعالى : ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ [الكهف : ١٠٩] .

فقال : هذا كلام غلط لأن القرآن يكتب بدواة حبر !! .

ظن المغفل أن المقصود بـ ﴿ كلمات ربى ﴾ هنا كلمات الوحى ، مع أن الآية تشير إلى كلمات الإيجاد والإمداد والإحياء والإماتة المتصلة بكتاب الوجود ، لكن الجهل معرة وفضيحة لأصحابه خصوصاً عندما يتعرض هؤلاء الجهلة لكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كى ينالوا منه وهيئات هيئات !! .

ومن باب الإنصاف العلمى أيضاً أقول: إن بعض المسلمين القاصرين ربما جاءوا إلى أحاديث صحيحة فحكموا فيها أحاديث أخرى قد تكون مرحلية أو فى مناسبات معينة وينتهون إلى أن عمر الإسلام قصير وأن الإسلام كما بدأ غريباً فسيموت أو ينتهى غريباً !!؟ .

وهؤلاء الناس جهلة بقوانين التربية وبنواميس الله فى كونه وبحقائق الوحي فى جملته وتفصيله ، ولذلك فإنى أوجه النظر إلى هذا فإن الإسلام باق إلى قيام الساعة ، وقد قال صاحب تفسير « المنار » (١) يعترض هؤلاء القاصرين : يا قوم إن سورة النور لم تتحقق بعد !! ويقصد بهذا قوله تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ويمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون . لا تحسن الذين كفروا معجزين فى الأرض ومأواهم النار ولبس المصير ﴾ [النور : ٥٥ : ٥٧] .

قد تبهرك قواهم ، قد تفدحك الجيوش المعبأة والمخترعات المخزونة من أدوات الدمار لكن رب العالمين يقول : ﴿ لا تحسن الذين كفروا معجزين فى الأرض ﴾ لن يغلبونى ﴿ والله غالب على أمره ﴾ لكن مع من يكون أمر الله ولمن يكون الاستخلاف !!؟ .

قال تعالى : ﴿ يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون ﴾ .

وكلمة ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ تعنى حراسة سنته والقيام عليها والعمل بها ، وأحب أن يعرف المسلمون أن أحداً فى الأولين والآخرين لم يحصى تراثه ويراقب كلمه ويضبط كل ما صدر عنه فى بيته أو مع أهله أو

(١) الشيخ محمد رشيد رضا طيب الله ثراه .

مع أصدقائه في صحته ومرضه وسلمه وحربه كما وقع هذا لمحمد ﷺ !!
أحصيت سنته وعُرفت بدقة وقام علم السنة وقام علم الرجال وقام علم
الجرح والتعديل وقام علم الإحصاء والتسجيل لكل شيء .. لكن كل
ما نطلبه أن يكون المسلمون على مستوى السنة ، فإن السنة كان لها رجالها
الذين يحسنون فهمها ودرسها وتبويبها وتوزيعها على الأمر والنهي والواجب
والمندوب والحرام والمكروه .

« وكلمة « السُّنة » كلمة تحتاج إلى شيء من التفصيل :

قد تكون في مقابلة الفرض ويُقصد بها عندئذ النوافل .

قد تكون في مقابلة القرآن ويُقصد بها عندئذ الحديث النبوي .

قد تكون في مقابلة البدعة ويقصد بها عندئذ الأصل .

قد تكون بمعنى الدين كله أى سيرة الرسول ﷺ وقوله وعمله
وقرآنه .

وجحد السنة ضلال ، والحرب الآن على الإسلام تتناول الكتاب
والسنة ، واليوم نشرت « الأهرام » رداً على كلام كنت قد كتبت من
يومين دفاعاً عن الكتاب والسنة ، ووجدت فيما نُشر شيئاً من الجراءة على
فهم التراث الإسلامى ، فالرجل يدعى أن ابن تيمية حرّض أو أمر بمقاتلة من
يتركون سنة الفجر !! .

وأنا قرأت كتاب « السياسة الشرعية » لابن تيمية من عشرين سنة
تقريباً ، وليس فيه ما يُنسب إلى الرجل ، والرجل حكى قولين مترددين في
الفقه : من ترك سنة الفجر يقاتل أولاً يقاتل ؟ .

ومع ذلك فأنا قرأت رسالة منشورة لابن تيمية يؤكد فيها أن الدعوة
الإسلامية تقوم على الإقناع وأن الإسلام انتشر بالحق لا بالسيف وانتصر
على السيف الذى اعترض طريقه ولم يكن السيف في يده أداة إرغام أو قسر
على الدخول في الإسلام .

ثم إن ابن تيمية يعلم الحديث الصحيح الذى يفيد بأن من واظب على الفرائض والتزمها نجا ، ففي الحديث : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يُسمع دوى صوته ولا يُفقه ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « خمس صلوات فى اليوم والليلة » فقال هل على غيرها ؟ قال : « لا إلا أن تطوع » . قال رسول الله ﷺ : « وصيام رمضان » قال : هل على غيره ؟ قال : « لا إلا أن تطوع » ، وذكر له رسول الله ﷺ « الزكاة » قال : هل على غيرها ؟ قال : « لا إلا أن تطوع » فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص . فقال رسول الله ﷺ : « أفلح إن صدق » (١) .

ما أعرف فى حياتى العلمية إماماً قال بالمقاتلة على النوافل ، وأنا سأعود إلى قراءة كتاب « السياسة الشرعية » لكى أعرف بدقة تصحيح النقل الذى ذكر فإن الكاتب يغلب أن يكون كاذباً ، ودليل كذبه أنه نسب إلى الشيخ الألبانى - وهو رجل أعرفه عفاً اليد واللسان وأعرفه يأكل حلالاً وهو ممن خدموا السنة فعلاً - أنه فسر الحديث : « جعل رزقى تحت ظل رمحى » (٢) بأن للمسلمين أن يغتصبوا أرزاقهم بالرماح وأن يحصلوا أقواتهم بالسيوف !! أيقول عالم من علماء المسلمين هذا الكلام ؟ .

القضية كلها أن الكاتب يقول : إنه يحارب العنف . قلت - وأنا أحدث نفسى بمرارة - ويحك!! تحارب العنف بين الناس وما تنطق بكلمة تحارب بها العنف بين الحكومات ، إن آلاف القتلى الآن سال دمها على أرض الشام ، وقتل البعث النصيرى ألوف المسلمين ، أليس هذا عنفاً ؟ .

هل العنف أن يقول مسلم : نريد أن نحكم بكتاب الله ؟ .

إن الأمر يحتاج إلى أن يفهم المسلمون ثقافتهم على حقيقتها وأن يدركوا أن دينهم - فى هذا العصر - يناوش بطرق شتى .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

(١) رواه البخارى فى الإيمان - باب الزكاة من الإسلام ١٨/١ ومسلم فى الإيمان - باب بيان الصلوات التى هى أحد أركان الإسلام ٣١/١ .

(٢) رواه البخارى معلقاً فى الجهاد باب ما قيل فى الرماح : ٤٩/٤ .

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين .
وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أما بعد :

عباد الله أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل ، واعلموا أيها الإخوة
أن الإسلام لا تهزمه القوى الأجنبية ، إن هذه القوى مهما اشتد ساعدها
فإن نارها إلى خمود وثورانها إلى همود ، إنما يصاب الإسلام من داخل
أرضه ، إنما يصاب الإسلام إذا اشتغل الرعاع القاصرون بالفقه واشتغل
العلماء المذاكرون الدارسون بطلب الدنيا وتملق الحكام واشتغل الحكام في
طول العالم الإسلامي وعرضه بالدوران حول أنفسهم والسعى لعجالة
لا خير فيها ولا قيمة لها من هذه الدنيا .

جاءني شاب تخرج في كلية الشريعة والقانون وعرض عليه أن يكون
وكيلاً للنيابة فرفض بحجة أنه لا يريد أن يحكم بغير ما أنزل الله !! .

قلت له : إنك في ميدان النيابة وميدان القضاء ستحكم بما أنزل الله في
تسعين في المائة من القضايا التي تعرض عليك ، وإذا كان قانون الجنايات قد
اختلف مع الحدود في بعض الأمور فأقوى الناس على إصلاح هذا القانون
وعلى تخفيف شره وتقليل خطره مسلم صالح ، وإذا تركنا هذا الميدان نجىء
بجهاز صهيوني يحكم النيابة والقضاء ؟! .

أى غفلة تجعل شاباً يضيع مستقبل الإسلام في عالم القضاء بهذا الفكر
ويقاوم به آراء الأئمة الذين يرشدون الأمة ويريدون للأمة أن تأخذ تمامها
وكملها ؟!! .

هل يجيء محامون شيوعيون للدفاع عن هؤلاء الذين ألقى القبض عليهم لأنهم ينتسبون إلى جماعات تنسب إلى الإسلام لماذا لا تترك هذه الأمة أمر الفقه لمن يحسنون الفقه ؟ .

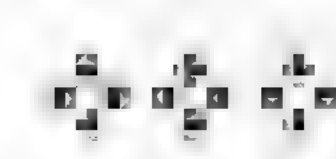
لماذا يتحدث الرعاع فيما لا يحسنون ويصوبون للأمة الخطأ ويخطئون الصواب ؟ .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .
عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة



نَظَرَاتٌ فِي سُورَةِ "يُونُسَ"

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فأول ما فكرت فيه وأنا ألقى نظرات مجملة على سورة يونس أن آخذ ظواهرها التي لا تحتاج إلى جهد وقلت : لقد تكلمت السورة عن الألوهية ، وعن الطبيعة البشرية ، وعن نبوة محمد عليه الصلاة والسلام .

فلألق مع إخواني المصلين معي أنظرات في هذه السورة تُبين لنا كيف كان الحديث عن الألوهية ، ثم كيف كان الحديث عن نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم كيف كان الحديث عن الطبيعة البشرية .

فأما الحديث عن الألوهية فإن أول ما بدأ بدأ بوصف الله جلّ جلاله بأنه الخالق لما نرى وما لا نرى من هذا الكون الكبير : ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون ﴾ [يونس : ٣] .

كلمة « العرش » كلمة لا يستطيع البشر أن يدركوا حقيقتها ، ولذلك فإن التوقف عندها من التكلف الذي نُهينا عنه ، لكن الانطباعات التي تستقر في النفس عندما نسمع الكلمة : أن الله جل شأنه نافذ الكلمة في مملكته الرحبة ، وأن سلطانه مُوطَّد في الأرض والسماء ، ما يجزوُّ بشر ولا ملك أن يعترضه ولا أن يقف في طريقه ، وأن علمه شامل مستوعب تستوي فيه الأزمنة ، فأول يوم من بدء الخلق إلى آخر يوم من انتهائه مبسوط في كتاب يستوي العلم به وضوحاً وإشراقاً ، فليس هناك قرب ولا بُعد فيما يتصل بالعلم الإلهي حتى لقد قال أحد المفسرين : إن يونس في بطن الحوت كمحمد عند سدرّة المنتهى ، كلاهما في علم الله واضح ، ليس أحد أقرب من الآخر في ذلك العلم وإن كان أحدهما أعظم من الآخر مكانة وأعلى درجة وهو محمد عليه الصلاة والسلام !! .

فإذا قيل : « استوى على العرش » فالانطباع العام أنه الملك الذي استقر ملكه ، وتوطَّد سلطانه ، واستبحرت معرفته ، واستفاضت نعمائه ، وأن أزمّة الأمور في هذا الملك من أعلاه إلى أدناه لا يُفلت أمر منها من الله عز وجل .

قال تعالى : ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ [الشورى : ٥٣] .

وقال تعالى : ﴿ وإليه يرجع الأمر كله ﴾ [هود : ١٢٣] .

ثم بينت السورة أن المُلك يكون للأشياء وللأشخاص ..

يكون للأشياء في قوله تعالى : ﴿ ألا إن الله ما في السموات والأرض ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ [يونس : ٥٥] .

ويكون للأشخاص في قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَمِنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [يونس : ٦٦] .

ثم قارنت السورة بين الإله الحق وبين الأصفار والأوهام التي تعلق بها
الافَّاكون ، قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ
السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ
يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا
بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ * كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ
فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ
اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي
إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ
لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا
إِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس : ٣١ —
٣٦] .

هذه الأسئلة أخذت أمضي في أهدافها وحقائقها ، قلت : لنعش في
أرض الواقع ، كم بشراً من أبناء آدم يسكنون الأرض ؟ .

يقول آخر إحصاء : إنهم يبلغون أربعة آلاف مليون .. قلت : أربعة
آلاف مليون فيها ثمانية آلاف مليون أذن ، وثمانية آلاف مليون عَيْن !! .

العين جهاز مُعَقَّد التركيب ، كيف يلتقط الصور ؟ كيف يقع على
المشاهد ثم يوصل بطريقة ما هذه المشاهد إلى المخ فيكون طريقاً من طرق
الإدراك للعقل البشري ؟!

السمع جهاز مركب فوق صُدْغ الإنسان يسمع الأصوات على
موجات محددة ويوصلها أيضاً إلى المخ فيكون طريقاً من طرق الإدراك
للعقل البشري !! .

هل الذي خلق السمع والبصر خلق هذه الأجهزة وتركها تعمل
وحدها ؟ .

لا إنها لحظة بعد أخرى تستمد قدرتها على العمل وطاقتها في الوظيفة من خالقها جلّ جلاله ، والأمر أشبه بالتيار الكهربائي الذي يوصل إليكم الآن الصوت ، فلو انقطع التيار انقطع الصوت ، والتيار الذي يصل يولد لحظة بعد أخرى !! إشعار البشر بأنهم يبصرون بفضل الله ويسمعون بنعمة الله أشارت إليه آية أخرى هي قول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصْرَفَ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذَفُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٦] .

في الواقع تَحَسُّسُ وسائل العظمة الإلهية ومعرفة مداها ممكنة بالعقل العادي لأن العقل العادي لن يعجزه أن يعرف كم آكلًا على ظهر الأرض انفتح فمه على رأس جهاز هضمي من نحو ثلاثين مترًا يشتغل هذا الجهاز بالقضم والهضم وتحويل الجماد الذي يأكله من النباتات إلى عظم ولحم وشحم وعصب وبصر وسمع و طاقة و حياة !! .

ويعضي السؤال في حوار يغرس الإيمان ، ويمحق الإلحاد ، ويقصم ظهر الشرك ، و يقيم دعائم الاعتقاد الصحيح : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ .

عندما بدأ الله الخلق بدأه بكلمة « كن » فإذا كل شيء وفق مراده ، وفق تخطيطه ، وفق تديره ، وإذا كل شيء يعنوا له ، يستمد منه ، يعبده ويتجه إليه طوعاً أو كرهاً ، إن عظام الكافر تسجد لربها لأنها ما تتناسك في كيانه إلا باسمه جلّ جلاله .

ثم إن الله جلّ جلاله لا يتعبه شيء ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَئْيَ بِمَخْلَقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف : ٣٣] .

﴿ وَلَمْ يَئْيَ بِمَخْلَقِهِنَّ ﴾ لم يشعر بإعياء ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ [ق : ٣٨] . أي ما مسنا من تعب ، ومع ذلك فإن بعض أصحاب العقائد الأخرى

يقولون : إن الله تعب بعد الخلق واستراح في اليوم السابع (١) ، وكان من تقديس الراحة في اليوم السابع أن التوراة حكمت برجم من يعمل يوم السبت إلى أن يموت (٢) !! .

ويمضي السؤال : ﴿ قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع آمن لا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ .

من الذي كشف الغطاء عن أعيننا ؟ .

من الذي رسم لنا الصراط المستقيم ؟ .

من الذي بعث لنا أنبياءه يعرفوننا ما ينبغي أن نعرف ؟ .

﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ ؟ .

انظروا إلى القرآن وهو يهز العقل البشري ويطلب منه أن يخجل ويقول له : أما لديك من إحساس بأن التسوية بين الذكي والبليد لا تجوز ، بين العادل والجائر لا تجوز ، بين العالم والجاهل لا تجوز ؟ فكيف تسوى الله بخلقه ؟ كيف تحكمون ؟ .

ثم يحییء الكلام عن النبوة في سورة يونس :

بدأ الكلام عن النبوة من الآية الأولى :

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ

(١) في سفر التكوين — الإصحاح الثاني : « وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل . وبارك الله اليوم السابع وقدمه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً » .

(٢) في سفر الخروج — الإصحاح الحادي والثلاثون : « وأما اليوم السابع ففيه سَبَّ عَظْمَةٌ مُقَدَّسٌ للرب . كل من صنع عملاً في يوم السبت يُقْتَلُ قِتْلًا » .

مبين ﴿ [يونس : ٢] .

هل العجب أن يكون بشر من البشر مبلغاً عن الله ؟ .

عبيد الأصنام استذكروا أن يكون محمد نبياً ؟ .

وأهل الكتاب الذين قالوا عن أنبيائهم ما قالوا استذكروا أيضاً أن يكون محمد نبياً ؟ .

فمن النبي إذا لم يكن محمد نبياً ؟ ! .

إنه المثل الأعلى للنبوة التي تعتبر همزة وصل بين الأرض والسماء !! .

وكانت سورة يونس رقيقة سهلة عندما قالت للناس : ما العجب في أن يكون محمد نبياً وهو يتلو على الناس كلاماً لا ريب فيه ولا يتسلل إليه باطل ولا ترقى إليه ريبة ؟ ! .

إنكم تناقشونه وتريدون منه كلاماً آخر ، ما دخله هو في أن يأتي لكم بما تريدون من كلام ؟ .

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ [يونس : ١٥] .

أنا أتلقى ولا أولف ، أنا أستمع ما يوحى إليّ وأبلغ ، ولست شاعراً أصوغ قصائد أو أديباً يكتب من دماغه ، ولكن الله هو الذي أقرأني فقرأت ، كنت أمياً وعشت بينكم زمناً ﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون . فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون ﴾ [يونس : ١٦ ، ١٧] .

ثم تقول له الآيات : تحمل إذا قاوموك ، وامض في طريقك ولو اعترضوك ، ولك فيمن مضى من الأنبياء أسوة فقد أتعبوا وانتصب المردة

من حملة الباطل كي يعوقوا سيرهم ويطفئوا نورهم وهيئات ! .

يقول الله له في هذه السورة : ﴿ وَاْتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ غَمَةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُونَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرٌ أَن أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٧١ ، ٧٢] .

كان نوح يدعو إلى الإسلام وهي دعوة محمد عليه الصلاة والسلام ولذلك يجيء في آخر السورة ليقول للناس : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأَمْرٌ أَن أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ١٠٤] .

هكذا تعرض الرسالة الخاتمة نفسها على الناس ، ويستحيل أن يوجد في الدنيا ذو عقل وإنصاف يُمكن من الاطلاع على رسالة محمد عليه الصلاة والسلام كما هي ثم لا يقتنع اقتناعاً يغوص في أعماق قلبه بأن محمداً حق !! .

ثم يجيء الكلام عن الطبيعة البشرية في سورة يونس : الناس لهم في حياتهم أطوار ، ولهم في دنياهم أحوال ، إن الصحة القوية والثروة الكبيرة والسلطة المطلقة قد تجعل الإنسان يطغى ويستبد ويعيش وفق الساعة التي تيسرت له وجعلته يأمر وينهى ويملك الإنفاق والإعطاء وإجابة الملذات وقضاء المآرب واللذات ، ولكن الإنسان ينكشف له ضعفه ويشعر بذله وعبوديته يوم يتجرد من أسباب قوته !! إنه لو كان ملكاً ذا جلالة أو لو كان رئيساً ذا سلطات مطلقة إنه يذله المرض ويقفه أمام ربه شاعراً بالفقر إليه ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضَّرَّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضَرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرِّهِ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ١٢] .

ثم يسمي القرآن الكريم هذا الأسلوب مكرراً ، فيقول في وصف البشر أفراداً أو جماعات : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهْمٍ إِذَا

لهم مكر في آياتنا قل الله أسرع مكرأ إن رسلنا يكتبون ما تمكرون ﴿
[يونس : ٢١] .

إن الحفظة الكرام الكاتين يحصون عليكم التناقضات التي تقع في حياتكم ، يحصون عليكم أنكم عند الشدة عرفتم ربكم ، وعند الرخاء نسيتم فضله ولم تشكروا نعمته ، ثم يوضح جل جلاله هذا المعنى فيقول :

﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنحيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ۝ فلما أنجاهم إذا هم ييغون في الأرض بغير الحق يأبىا الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فنتنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ [يونس : ٢٢ ، ٢٣] .

أنتم بهذا المسلك لا تضرون ربكم فهو غني عن شكركم ، إنه لا يزيد بطاعتكم ولا ينقص بمعصيتكم ، إنكم تضرون أنفسكم ﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ !! .

ثم يضرب الله المثل : هذه الدنيا كل شيء ازدان فيها ، لقد بدأت غرساً محدوداً ، ثم أخذ العقل البشري يكدح ويصل ويتوفيق الله أمكن لناس كثيرين أن يعمرؤا الخراب وأن يجندوا قوى الكون الهائلة لمصلحتهم ، وهذا لون من ألوان التكريم الإلهي ، لكن لهذا التكريم مقتضيات .. إن من التبجح أن تأكل وتشبع ثم لا تقول لمن أطعمك : شكراً لك ! .

إن من التبجح أن تفكر وتقدر ثم لا تقول لمن وهبك السمع والبصر والفؤاد : لك الحمد والمجد ! .

إن الحياة بدأت من الله وتنتهي إلى الله :

قال تعالى : ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاهم أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها

حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴿ [يونس : ٢٤] .

إن هذه الدنيا سيُخربُ عمرانها : ويُقوَّضُ بنيانها ، ويَحْتَكُم إلى الله كفرها وإيمانها ويومئذ ينقسم الناس قسمين : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ﴾ [الجاثية : ٢٧] .

هذه السورة فيها حديث متشابه يمكن أن يجمع هذه النظرات في إطار التفسير الموضوعي الذي ألقناه ، ونستعين الله يوماً ثم نعرض لهذه السورة في صورة تجمع شتاتها وتبين أولها وآخرها .. لكن لمناسبة أن هذه السورة قالت : ﴿ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ هناك حديث قدسي عجز البُلهُ من الناس عن إدراك حقيقته ، يقول الحديث : « من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه .. » (١) .

معنى هذه الكلمات أن الإنسان عندما يؤمن إيماناً يستغرق حواسه ، ويملاً أقطار نفسه فإن فكره سيكون لله ، وإن نظره سيكون لله ، وإن حركته في الأرض ستكون لله ، وإن كدحه سيكون لله وكما قال الله على لسان نبيه ﷺ : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنَسْكَي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣] .

وليس معنى الحديث أن الله سبحانه وتعالى يتحول إلى يد أو رجل كما يفهم الأغبياء ، لا ، إن الحديث يريد أن يُفهِمنا أن بعض الناس منذ أن يستيقظ في الصباح إلى أن يأوى إلى فراشه ربما كانت خطرات نفسه في منامه شيئاً يتصل بالدين وباللَّهِ وبالإيمان !! .

(١) رواه البخاري في الرقائق — باب التواضع ٨ / ١٣١ .

وهذا النوع من الناس هو الذي يستحق الولاية ، وهو الذي يكون لله ولياً !! .

هذا المعنى نأخذه من سورة يونس من آيتين أعقبت إحداهما الأخرى ، قال تعالى : ﴿ وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ [يونس : ٦١] .

وبعد هذه الآية التي تجعل الإنسان صاحي الذهن نُير القلب ، إذا شهد شيئاً على ظهر الأرض أحس أن الله يشهده أيضاً ويشهد ما يراه وهو معه في كل شيء !! من استصحب هذا المعنى وعاش به ارتقى إلى الدرجة التي وصفها الآية التي بعد ذلك : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾ [يونس : ٦٢ — ٦٤] .

فولاية الله ليست كما فهم المسلمون في عصور الانحطاط هذه الجهالات أو الغباوات في بعض الأجساد القذرة التي لا يمكن أن ينظر إليها مؤمن نظرة احترام ، إنما ولاية الله عقل لمّاح بصير بآفاق السماء وفجاج الأرض يرى عظمة الله في مشاهد الملكوت فتنعكس هذه المشاهد في نفسه استغراقاً وهداية وخضوعاً وتفانياً يجعل سمعه وبصره ويده ورجله وتفكيره وحركاته الظاهرة والباطنة لله !! .

سورة يونس سورة فيها خير كثير نرجو الله أن يعيننا على تفسيرها يوماً ما .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿... الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .
وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام النبيين وسيد المصلحين .
اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

أيها الإخوة : بوصفي إنساناً ممن يخدمون الدعوة الإسلامية أرى لزماً عليّ أن أعرف ما يقوله الناس عن الإسلام ودعوته ، ثم أرى لزماً عليّ أن أعرف ما يقوله المواطنون سواء كانوا على رأيي أو ضدي في الأحوال العصيبة التي نمر بها ، فلا شك أن الأمة الإسلامية تمر بفترة من أخطر الفترات في تاريخها لأن عدوها قرر — كما قلت في وضوح — أن ترتد عن دينها وأن تتنازل عن بلادها !! .

تابعت ما يقال بشأن بناء الإنسان العربي كما يقال في هذه الأيام ، ولمناسبة « ورقة العمل » التي تدرس هنا وهناك فقرأت في إحدى صحف اليوم كلاماً عن أن برامج التعليم يراد تغييرها ويُنظر في تطويرها ، ولابد ونحن نعيد النظر في هذه البرامج أن نعرف ما الزاد الذي نقدمه لأبنائنا لِنُتمّي كيانهم الأدبي ، ولِنُرشد وجهتهم في الحياة ..

وكان الكاتب منصفاً إذ قال : إن كل بيئة تمسكت بنوع معين من الزاد ، وقال : إن الروس قالوا : نحن نبني ثقافتنا على المادية الماركسية اللينينية ، وإن الغرب الأوربي له ثقافة رعى بها أجياله ، وإن الأمريكيين

صنعوا لأنفسهم ثقافة معينة ، ثم انتهى الكلام إلى : ما هو الزاد العلمي للأمة العربية ؟ ما هو المنهج التربوي للأمة العربية ؟ ما هو التوجيه الثقافي للأمة العربية ؟ وكان الجواب : لا شيء !! .

وهذا صحيح !! هناك فراغ مخيف في عقول الطلاب في مراحل التعليم المختلفة الابتدائية والإعدادية والثانوية والجامعية !! .

ليست هناك عقيدة موجهة ، ليست هناك قيم ضابطة للأخلاق ، ليست هناك هذه المثل الرفيعة التي تعلم الناس أن يقفوا عند حدود معينة ، وقد شعرنا بوضوح أن الرجل قد يحرز أعلى الإجازات العلمية وأنه يكون حاد الذكاء إلى درجة العبقرية ولكنه فارغ الفؤاد من الإيمان مقطوع العلاقات برب العالمين !! وهنا يستغل ذكاءه العبقرى في تكوين نفسه على حساب أمته ودينه .

اقترح الكاتب بعد ذلك اقتراحاً قال فيه : نريد تعليماً يعتمد على روح الإسلام !! .

كلام جميل لكنه أيضاً مريب ، لأنه ما حدود كلمة : روح الإسلام ؟ .

هل من روح الإسلام أن تُميت الأركان مثلاً فلا نكلف الشباب بالصلاة ؟ .

هل من روح الإسلام أن نبيح الخنا ؟ .

هل إذا قلنا : لا بد من تغيير القانون الذي يبيح الخنا جاء إنسان وقال : ادعوا إلى روح الإسلام ؟ .

هل إذا قلنا لا بد من وضع الصلاة كركن أساسي في منهج المدرسة والجامعة جاء إنسان وقال : ادعوا إلى روح الإسلام ؟ .

أنا أريد أن لا نلعب بالكلمات ، إن دين الله لا يؤخذ عن أفواه الجاهلين والقاصرين .

إن اليهود أبلغ من تشبههم بالشكل في دينهم أنهم وضعوا على رأس سكرتير الأمم المتحدة الطاقة اليهودية واضطر الرجل أن يخلعها بعد أن مكثت على رأسه حيناً حتى لا يقال : إنه أصبح يهودياً لكي يظهر بمظهر الحياد ولو تمثيلاً !! .

فإذا كان اليهود قد اعتبروا طاقة الصلاة شيئاً يتمسكون به فما معنى أن يجيء إنسان ليقول لنا : خذوا روح الإسلام ودعوا نصوص الإسلام ؟ ! .

إسلام بلا نصوص تضيع روحه ، إسلام بلا كتاب وسنة لا روح له بل لا عنوان له إنه أكذوبة ، ولذلك نريد أن نعود إلى ديننا موضوعاً وشكلاً ، حقيقة ومظهراً ، روحاً وجسماً ، فإن هذا التقسيم غير معروف في دين الله .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .
عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ وَحَاجَةُ الْإِنْسَانِيَةِ إِلَيْهِ

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإن جميع النبوات قبل الرسالة الخاتمة كانت نبوات محلية محدودة الزمان والمكان ، تستغرق جزءاً من الزمن لا تتجاوزه وجزءاً من الوقت لا تتعداه ، يستوى في ذلك المرسلون كلهم بدءاً من نوح عليه السلام إلى عيسى عليه السلام .

يقول الله تعالى في رسالة نوح : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [نوح : ١ ، ٢] .

ويقول في رسالة عيسى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [الصف : ٦] .

وفي إنجيل متى : « لَمْ أُرْسَلْ إِلَّا إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ » (١) .

(١) إنجيل متى الإصحاح الخامس عشر .

أما الرسالة الخاتمة فجاءت على غير ذلك ، خالفت جميع الرسائل السابقة من ناحية الأبعاد الثلاثة : طولاً وعرضاً وعمقاً ..

طولاً : استغرقت الزمن كله إلى قيام الساعة .

عرضاً : استغرقت البشر جميعاً في المعمور من أرض الله .

عمقاً : تناولت ما يحتاج إليه البشر من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق ، ووضعت القواعد العامة والمبادئ المنيرة التي توجه الناس إلى ما يضمن لهم الصالح في معاشهم ومعادهم على سواء .

وبذلك أصبحت هذه الرسالة لا معقب عليها ، وأصبح نبيها عليه الصلاة والسلام مسك الختام ، فلا وحي بعد ذلك ، ولن يجيء من عند الله هدى جديد يحمله بشر آخر .. كأن الناس قبل محمد عليه الصلاة والسلام يشبهون الغلام الذي يعيش مع أبيه فهو يأخذ بيده ويمضي به في الطرق حتى إذا بدأ الغلام يكبر قال له أبوه : لست باستمرار معك ادرس هذه الخريطة فإن لك عقلاً تستطيع أن تعيش به وأن تتعرف به الطرق وأن تدري به المزالق التي تُتلفك والمصالح التي تُجديك ، خذ هذه الخريطة وامض بها !! كذلك صنع الله للعالم مع النبي الخاتم ﷺ ، كان جل جلاله يستطيع أن يبعث في كل قرية مرسلاً ، وماذا يكلفه هذا ؟ لا يكلفه شيئاً : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥١] لكنه جل جلاله لم يشأ واكتفى بأن أرسل النبي الذي رسم الخريطة للعالم بعد ما كبر وقال له : هذا الوحي بيدك مصباح يلقي بضوئه على الطريق فتنتفع به وتعرف كيف تضع قدمك في حاضرک ومستقبلک .

وهكذا من أربعة عشر قرناً إلى الآن لم يجيء كتاب ولن يجيء كتاب ، ولم يبعث نبي ، ولن يبعث نبي ، اكتفت الحكمة العليا بهذا القرآن الكريم مع النبي الخاتم ﷺ .

ولما كان الإسلام دين الإنسانية منذ بدأت - بمعنى أن العقائد الركينة فيه هي ما بعث به المرسلون السابقون - فإن الإسلام بوصفه الجديد يعتبر دين السموات والأرض ، دين الأزل والأبد ، وليس وراء ذلك شيء له

قيمة : فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى
تصرفون ﴿ [يونس : ٣٢] .

ولأن هذا الدين ساوى الإنسانية كلها فهو كون آخر يضارع
ويساوى الملكوت الكبير الذى تعيش الدنيا تحت سمائه وفوق أرضه ،
ولذلك جاءت ثلاثة أقسام فى القرآن الكريم ، كل قسم يوجه النظر إلى
عظمة هذا القرآن تنبيهاً إلى عظمة النبی الذى بلغه وإلى ضخامة الرسالة التى
ورثنا إياها .

قال تعالى : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون
عظيم * إنه لقرآن كريم * فى كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون *
تنزيل من رب العالمين ﴾ [الواقعة : ٧٥ - ٨٠] .

مواقع النجوم : محطاتها فى مدارات الفلك الواسع .

والوحدة التى يقيس بها علماء الفلك سير الكواكب فى هذا الكون
الضخم وحدة مذهلة ، فإن السنة الضوئية تعنى المسافة التى يسيرها الضوء
فى سنة ، والضوء يقطع فى الثانية (١٨٦ ألف ميل) أو (٣٠٠ ألف كيلو
متر) (١) .

ولذلك كان الكلام للعرب الأميين : ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون
عظيم ﴾ وكيف يعلمون وهم يومئذ لا يعرفون المراصد ولا يعرفون الأبعاد
الشاسعة التى تنتقل فيها الكواكب ولكن وُجِّهَ نظرهم إلى أن هذه
الكواكب ومن فيها من أملاك وهذه الأرض وما عليها من جن وإنس يجب
أن يَعْتُو الله وجهه وأن ينحنى له صلبه وأن يخضع لأمر ربه وأن يستكين
لحكمه وأن ينفذ تعليماته : ﴿ أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى
السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ﴾ [آل عمران :
٨٣] .

(١) أى أنه يقطع فى الدقيقة (١١ مليون و ١٦٠ ألف ميل) وفى السنة الواحدة من سنيننا يقطع
(ستة ملايين مليون ميل أو ستة آلاف مليار ميل تقريباً) وهذه المسافة هى التى اصطَلَحُوا على
تسميتها (السنة الضوئية) ليعبروا بها عن أبعاد السماء الهائلة ، فمتى قيل لنا إن نجماً يبعد عنا سنة
ضوئية فهمنا أنه يبعد عنا ستة ملايين مليون ميل !! .

القَسَمُ الثاني : قسم بالمرئى وغير المرئى ، بالمبصرات وما يعجز البصر العادى عن إدراكه : ﴿ فلا أقسم بما تبصرون • وما لا تبصرون • إنه لقول رسول كريم • وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون • ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون • تنزيل من رب العالمين ﴾ [القلم : ٣٨ - ٤٣] .

والقسم الثالث : قسم بالكواكب وهى تذهب وتجيئ فى الفلك الرحب : ﴿ فلا أقسم بالخنس • الجوار الكنس • والليل إذا عسعس • والصبح إذا تنفس • إنه لقول رسول كريم • ذى قوة عند ذى العرش مكين • مطاع ثم أمين • وما صاحبكم بمجنون ﴾ [التكوير : ١٥ - ٢٢] .

سمى الله ذهابها وعودتها انحناساً وكنساً .. تنخنس : تعود . تكنس : تدخل فى فلكها الذى تدور فيه .
عسعس : رُقْ ظلامه وبدأ يختفى .

هذه الأقسام فى القرآن الكريم تعطى لمحة عن عظمة هذا الكتاب ، لكن لكى تنكشف الحقائق فى هذه اللمحة ينبغى أن نقول : إنه ما دامت الرسالة الخاتمة أُيِّدت بهذا الكتاب المعجز فلا بد أن يكون هذا الكتاب ممتداً - كما قلت - مع الأعصار المختلفة ، ومعنى هذا : أن المعجزات القديمة الحسية كان ينتفع بها من رؤاها ، فالذين رأوا عصا موسى تتحول إلى ثعبان واضح وتلتقط ألعيب السحرة يمكنهم أن يؤمنوا بل يجب أن يؤمنوا لأنهم رأوا بأعينهم كيف تلتقط العصا ألعيب السحرة ، أو كيف تضرب الحجر فينبجس منه الماء ، أو كيف تضرب البحر فيتحول إلى شاطئين بينهما طريق ييس ، إلى آخر ما زود الله به موسى أو ما زود به الأنبياء الآخرين .

طبيعة هذه المعجزات أنها تبعث الإيمان فى قلب من شاهدها ، لكن المعجزة الجديدة مكلفة بأن تبعث الإيمان فى قلوب الناس إلى قيام الساعة ، ومن هنا كان القرآن الكريم قديراً على محق الباطل ودمغه وعلى إعلاء الحق وإبرازه ، كان القرآن الكريم قديراً على حث العقل البشرى كى يؤدي

وظيفته ويُعمل فكره في استبانة هذه الحقائق التي تُعرض : ﴿ قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفأخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ﴾ [الرعد : ١٦] .

هذه آية نزلت من أربعة عشر قرناً ، لكنها تخاطب العقل الإنساني في هذا القرن : أين الآلهة التي خلقت مع الله ؟ أين الآلهة التي رزقت مع الله ؟ أين هي ؟ لا وجود لها : ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ .

عندما اقترح الكفار قديماً معجزات لكي يؤمنوا قيل لهم : لن تجابوا : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي باله والملائكة قبلاً * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ [الإسراء : ٩٠ - ٩٣] .

لماذا ينتظر البشر على ظهر الأرض أن تنزل ملائكة من السماء لتشق لهم قناة أو تُجرى لهم نهراً ؟ وما عملهم إذن على ظهر الأرض ؟ وهل زودهم الله بالعقل والمواهب وكرمهم على سائر الخلق إلا ليفجروا طاقتهم البشرية في صنع هذه القنوات وفي غرس هذه الحدائق وفي استنبات التربة حتى تُخرج البساتين وتُخرج الزروع والثمار ؟ .

هذا الدين جاء - كما قلت - ليقول للبشر : لستم في وصاية أحد ، ما تحتاجون - كما يحتاج الصبي - إلى ولي أمر يأخذ بيده وهو يمشي به في الشوارع والميادين ، كبرئتم ، سيروا وحدكم ، استغلوا عقلكم ، قدروا فكمركم .

هذا هو الذي صنعه الإسلام في معجزته الأخيرة ، ولذلك يقول النبي ﷺ - واضعاً الفرق بين معجزته ومعجزات من قبله - : « ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما

كان الذى أوتيت وحياً أوحى الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم
القيامة » (١) .

يقول الفيلسوف المسلم ابن رشد : إن الفارق بين المعجزة الجديدة
والمعجزات القديمة أن هذه من جنس القضية التى جاءت للاستدلال عليها ،
أما غيرها فلا صلة له بالقضية وموضوعها .

وضرب ابن رشد لذلك مثلاً : أرأيت إذا جاءك طبيب يقول لك : أنا
طبيب . تقول له : ما الدليل على طبك ؟ يقول لك : الدليل أنى أمشى على
الماء . فلو مشى على الماء فأنت مضطر لأن تصدقه ، ولكن ما صلة الماء
بالطب ؟ لا صلة .. لكن عندما يقول لك الطبيب أنا طبيب تقول له :
ما الدليل على طبك ؟ يقول لك : المرض العضال أشفيه ، هات ما عندك
من مرضى أعجزوا الأطباء فتجىء له بالمرضى الذين حيروا الأطباء فيداويهم
ويشفيهم ويردهم معافين سالمين يمشون على الأرض آمنين مطمئنين !! .

هذا دليل من جنس الدعوى ، هذا دليل من نفس القضية ، ولذلك
كان القرآن دليلاً على صدق صاحبه ، دليلاً من نفس الدعوى . ما هو
الدين ؟ أليس إحياء للقلوب ، أليس إنارة للفكر ؟ أليس هداية للسلوك ؟
أليس شفاء من العلل النفسية ؟ فقد فعل محمد ﷺ ذلك كله بكتابه ،
ولذلك كان هذا الدين ديناً باقياً إلى قيام الساعة ، لو أن إنساناً آخر بُعث
من السماء - فرضاً - فإنه لن يقول إلا ما قاله القرآن من أن الله واحد ،
وأن الطريق إليه هو القلب السليم والعمل الصالح ، وأن هداية الناس
ما تكون إلا بيقظة ضمائرهم وصلاح عقولهم .

ربما تساءل البعض : إن هذا الدين - فعلاً - أدى دوراً عظيماً في

(١) رواه البخارى في فضائل القرآن - باب كيف كان نزول الوحي ٢٢٤/٦ ومسلم في الإيمان -
باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته ٩٢/١ .

خدمة الإنسانية وارتقى بها ارتقاء لا يمكن إنكاره ، ولكن هل ظل العالم يحتاج إلى الإسلام ؟ .

نقول : ما يزال العالم محتاجاً إلى القلم الأحمر الذى أمسك به الإسلام ليشطب هذه الخرافات التى استولت على عقول شتى وليقول : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد ﴾ [الإخلاص : ١ - ٤] .

ليكن المسلمون فى أيام عجاف ، ولكن العالم فى شرقه وفى غربه لا يزال أفقر ما يكون إلى الإسلام رسالة تصلح له أوضاعه السياسية والاقتصادية وأوضاعه الخلقية والاجتماعية .

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ﴾ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [الشورى : ٢٥ : ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام النبيين وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

عباد الله : أوصيكم ونفسي بتقوى الله ، ثم قدروا الدين الذى شرفكم الله به ، قدروا النبوة التى حملتم رسالتها وآلت إليكم موازينها .

إن المسلمين فقراء فى ميادين شتى ، لعل أولها ميدان المعرفة ، ميدان التطبيق العلمى ، ميدان الحضارة الصناعية ، أو لعلمهم قبل ذلك قد خانوا دينهم فى مجالات شتى .

أنا لا أستطيع لو أن ملكاً مصاباً بجرب أو مصاباً بحمى خبيثة لا أستطيع أن أحمده له ملكه وهو مصاب بالحمى أو مصاب بالجرب ، لا بد أن يصح أولاً قبل أن أحترم جلده وأعترف له بعافيته . ربما كان ناس كثيرون فى هذه الدنيا على درجات ملحوظة من الحضارة أو القدرة العلمية والصناعية ، ولكنهم ما داموا يجهلون الله أو يجهلون فهم كالحيوان أو أضل سبيلاً ، لكن إذا حققنا ما وصلوا إليه من مستويات علمية فما أستطيع أن أحترم ما وصلنا إليه من منحدرات فكرية وصناعية ، لأننا نخادعنا لأننا لم نحسن العمل به .

إن القرن الخامس عشر الهجرى يحىء وبين المسلمين خلافات كثيرة تدل على أن ضمائرهم نائمة وشهواتهم يقظى تدل على أن الخرافات تغلو

وتروح في بلادهم وأن الحقائق مستغربة أو مستنكرة في أوهامهم .

إن الأمة الإسلامية في مجالات سياسية واجتماعية واقتصادية تحترف التسول أو الصعلكة ولا تحسن الأخذ من ينابيعها ولا تحسن إدراك ما لديها من نفائس !! .

لذلك يجيء هذا القرن وأنا حذر أشفق على مستقبل أمتنا ، لا أزال أهيب بكل ذي ضمير أن يفكر فإن العداوات العالمية والعداوات المحلية في كثير من الأقطار الإسلامية مخوفة ، فإن كنا سنمضي على أحوالنا هذه فإن المصير مخوف والعاقبة قلقة ، أما إذا استيقظنا وتشبثنا بموارثنا وعرفنا عظمة الكتاب الذي آل إلينا وشرف النسب للنبي العربي المحمد الذي كرمننا الله به فإننا نبدأ طريقنا صاعدين ونضع أقدامنا على أول السلم لكي نرتفع مرة أخرى .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

* * *

(١) رواه مسلم في الذكر باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨/٨١ .

نَظَرَاتٌ فِي سُورَةِ "الْحَجِّ"

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

١٩٨١ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فنستعين الله تعالى ونُلقي نظرة باحثة متدبرة على سورة الحج .

وقبل أن نتحدث عن سورة الحج نذكر أن سوراً كثيرة في القرآن الكريم يكون عنوانها مرتبطاً بشيء محدود فيها ، فمثلاً سورة المائدة سورة تستغرق بضع عشرة صفحة من القرآن الكريم ، ومع ذلك فإن كلمة

المائدة إنما تشير إلى قضية أخذت بضعة سطور ، أما السورة كلها فهي في العقود المبرمة بين العباد وربهم وبين الناس بعضهم والبعض الآخر ، وضرورة قيام الناس باحترام هذه العقود والوفاء بحقوقها .

وسورة الحج من هذا النحو ، جزء منها في الحج لا نشير إليه الآن لأن للحج مناسبة كبيرة يطول الحديث فيها عن هذه الفريضة ، أما الآن فنظرتنا إلى المعاني والقضايا والأحكام التي تتضمنها هذه السورة المباركة ، بدأت السورة فحدثت الناس عن الحكمة الأولى من وجودهم :

إنا نحن البشر خُلِقْنَا لنعبد ربنا ، خُلِقْنَا لنعيش أتقياء بررة لا أشقياء فجرة ، ويجب أن يعتبر الناس هذه الحياة مهاداً ليوم يحییء بعد ذلك يحاسب الناس فيه على كدحهم الطويل إبان عيشتهم على ظهر الأرض .

هذا المعنى — معنى التقوى وأن تكون لنا ضمائر ترقب الله وهي تعمل في هذه الحياة — هو ما بدأت به سورة الحج :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوُنَّا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسَكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج : ١ ، ٢]

فتقوى الله تعني وجود قلب خاشع بين حنايا الصدر يرقب رب العالمين فيما يفعل ، ويترك ، فيما يقدم ويؤخر .. والناس أمام هذا المعنى فرق كثيرة : بعضهم آمن بالله وصدق ببلقائه ، والحديث عن لقاء الله يكثر في القرآن الكريم ، والسبب أننا سكرى بخمرة الحياة ، نحن نعيش لدنيانا ، تغلبنا غرائزنا فما نفكر إلا في يومنا الحاضر ، فنحن محتاجون إلى تذكير مُلِحٍّ باللقاء الأخير وباعتبار هذه الدنيا تمهيداً لما بعدها .

وقد ساق القرآن الكريم — أول ما ساق — ما يمنع الريبة :

ما الذي يجعلك لا تصدق بقاء الله ؟ .

ما الذي يجعلك ترتاب في البعث ؟ .

إن كثيراً من الناس يَشْكُون في أن هناك حياة آخرة !! ما السبب ؟
السبب أنهم غافلون ، فإن الوعد بالبعث يمكن أن يُستبعد من عاجز كما أنك
ترفض أن تصدق شخصاً مُفلساً يقول لك : سأعطيك ألف جنيه !! .
من أين له ؟ إنه مفلس ، فكيف تصدقه ؟ .

لكن عندما يقول لك من يشتغل كل لحظة بالإيجاد : سوف أوجدك
مرة أخرى ! فكيف تكذبه ؟ .

نحن الآن ونحن نتكلم تكون أرحام الأمهات قد دفعت بعشرات من
الأطفال بنين وبنات في القارات الخمس !! .

من الذي أنشأ هذه الأطفال في بطون الأمهات ؟!

البشر يأكل لقمة خبز مع قطعة جبن أو مع أي أذم من الإدام فمن
الذي يحول هذا الطعام إلى حيوانات منوية في الرجل وبويضات في
الأنثى ؟!

من الذي يجعل هذه الأصول تتمثل فيها خصائص الجنس الأدبية
والمادية وتكتسب الموروثات العادية وغير العادية في الآباء والأمهات ؟!
صانع هذا — بداهة — واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن
له كفواً أحد !! .

فإذا قال لك : سأعيدك مرة أخرى فلم تستغرب ؟ إنه من الآن يوجد
من عدم ، ولذلك يقول للناس : ﴿ أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم
يعيده إن ذلك على الله يسير ﴾ . قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ
الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير ﴿
[العنكبوت : ١٩ ، ٢٠] .

وهذا ما ركزت عليه سورة الحج وهي تبني الأمة المؤمنة (١) :

(١) بناء الأمة المؤمنة هو المحور الذي دارت عليه السورة كما سيجيء في ثنايا حديث شيخنا بارك الله
فيه .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نَّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِّتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَتُوفَى وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرُدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعَمَرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِّنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥] .

الحقيقة أن هناك دورة في هذه الحياة عندما يتأمل فيها أهل العقل وأولوا الأبواب لا بد وأن يحسوا بأن من وراء هذه الدورة حكم الحكيم ولطف اللطيف وخبرة الخبير سبحانه وتعالى لأن الناس تأكل الأطعمة والحبوب واللحوم والمواالح والفواكه وشتى الأصناف التي تزحم المعد ثم تُلْفِظ هذا كُلُّهُ على نحو معروف، ثم يتحول هذا كُلُّهُ مرة أخرى إلى فواكه ناضجة وإلى حبّ الحصيد ، وإلى ألوان وطعوم حلوة ، وإلى غير ذلك مما يَسْحر العين وَيَبْهر القلب !!

من صنع هذا ؟ !

يجب على الإنسان إذا قيل له : إن البعث حق أن يقيس الغائب على الحاضر وأن يعرف أن هذا أمر سهل ، والأدلة مبعثرة في آفاق السموات والأرض :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۚ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مِّنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ [الحج : ٦ ، ٧] .

وسورة الحج — بعدما بينت كيف تُبنى الأمة الراشدة على هذه القاعدة — بينت أن هناك فرقاً أخرى ترفض هذا الكلام وتأباه :

﴿ إِن الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الحج : ١٧] .

الذين آمنوا : هم المسلمون ، والممل الأخرى ملل ضالة بعيدة عن الحق ، وقد أعطى هذا الإجمال فكرة عن اليوم الآخر وأن رب العالمين سيفصل بين هؤلاء جميعاً ، حتى يجيء بعيسى ابن مريم ويقول له :

﴿ أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾ [المائدة : ١١٦] كل إنسان سيحاسب : ﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليماً ﴾ [الأحزاب : ٨] .

هذا الإجمال هنا فصلته السورة أكثر في أماكن متعددة :

﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ﴾ [الحج : ٣] .

﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴾ ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ [الحج : ٨ — ١٠] .

ثاني عطفه : أى لاوى عنقه لأن الإنسان عندما يرفض الشيء يلتوي ويتركه استكباراً (١) .

قال العلماء : إن أسباب المعرفة في هذه الآية :

هناك عقل واضح تنشأ عنه معلومات صحيحة .

وهناك وحي صادق ينشأ عنه علم صحيح بتوقيف من السماء .

وهناك مَنْ يتبع أهل الفكر الناضج ، ومن يتبع أهل الوحي الصادق .

وهناك مَنْ لا يتبع عقلاً راشداً ولا وحيّاً صادقاً بل يتبع هواه .

(١) وهذا كقوله تعالى ﴿ وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلاطن مبين فتولى بركته وقال ساحر أو مجنون ﴾ الناريات : ٣٨ ، ٣٩ . وكقوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ﴾ المنافقون : ٥ . وقال لقمان لابنه : ﴿ ولا تصغر خدك للناس ﴾ لقمان : ١٨ .

﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ .

هذا النوع من الناس الذي لا يتبع صريح المعقول ولا صحيح المنقول هو أغلب الملحدين !! .

إن نصف العلم يقود إلى الكفر ، أما العلم كله فيقود إلى الإيمان ، هناك أنصاف متعلمين ، أو أنصاف قارئين ، أو أنصاف مثقفين ، هناك شخص قرأ بعض الكتب أو اطلع على بعض الفلسفات ولكن كما قال الشاعر (١) :

فقل لمن يدّعي في العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء
هناك ناس — فعلاً — رأيتهم يدّعون المادية أو يدّعون العقلانية
أو يدّعون الماركسية فإذا حاورتهم وتبشّط عقلهم وقدرت مسافة العمق
فيه لم أجد إلا غروراً بالجهل وضحالة في البحث وجنوناً في استخلاص
النتائج !! .

هذا نوع من الكفار تحدث عنه سورة الحج .

هناك نوع آخر تحدث عنه السورة وهو النوع الذي يعيش لبطنه أو يعيش يربط النتائج بالمكاسب فهو ممكن أن يبقى على الإسلام إذا وجد ربحاً عاجلاً أو كسباً سريعاً ، وكان بعض الأعراب يعتنق الإسلام فإذا خلّفت امرأته ذكراً أو أنتجت إبله كثيراً وأخصبت أرضه قال : هذا دين طيب ، فإذا وجد أن الأمور تغلبت عليه فخلّفت امرأته بنتاً أو لم تنتج أرضه خيراً كثيراً قال : هذا دين لا خير فيه !! (٢) .

(١) الشاعر هو : أبو نواس والبيت في ديوانه : ٧ .

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « ومن الناس من يعبد الله على حرف » قال : كان الرجل يقدّم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً وتنجت خيلاً قال : هذا دين صالح . وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيلاً قال : هذا دين سوء » البخاري — تفسير سورة الحج ٦ / ١٢٣ .

هؤلاء هم الذين تناولتهم الآية الكريمة في سورة الحج ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾ [الحج : ١١] .

على حرف : أي على طرف ، ليس متمكناً ، أو على وجه واحد في الحياة ، والحياة حلو ومر ويسر وعسر ، والله عز وجل يختبر — حتى — أحب العباد إليه بالشدائد لا لأنه يكرهه بل لأنه يعزه ، أترى سيدنا موسى عليه السلام الذي يقول الله فيه : ﴿ وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني ﴾ [طه : ٣٩] هذا الذي ألقى الله عليه محبة منه يُرمى في البحر وهو طفل وتحرم أمه من رؤيته وتُكلف بهذا الاختبار المروع لقلب أم !! لكن هكذا الحياة أساسها الاختبار ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن * وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن * كلا بل لا تكرمون اليتم ﴾ [الفجر : ١٥ — ١٧] .

كلا : ليس الأمر كذلك ، هذا كله خطأ ، هذا تفكير حائر بائر لا قيمة له ، فلا كثرة المال تدل على التكريم ولا قلة المال تدل على الإهانة ، وإنما التكريم والهوان لهما معان أخرى ، يكرمك الله عندما يتصدق عليك بذكره ، وعندما يمنحك السداد تُقوي حبلك به وتُحسِنُ علاقتك معه ، وأما الهوان — نسأل الله العافية — فهو أن يصاب الإنسان في دينه ، يصاب بقسوة القلب أو جمود العين أو اقتراف الخطأ دون مبالاة ، هذا هو الهوان ﴿ ومن ين الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴾ [الحج : ١٨] .

هذه نماذج من خلق الله كما رسمتها الصفحتان الأوليان من سورة الحج ، لكن نعود إلى تكوين الأمة المؤمنة ..

هل ستعيش الأمة المؤمنة في مواجهة الفرق الأخرى في سلام ؟ .

هل سيلقاها الضالون من كل فج بالتحية والابتسام ؟ .

لا ، بل سيكون هناك خصام في فهم الألوهية وفي الطريق الصحيح
لنجاة البشرية ، وقد أشارت السورة إلى هذا عند قوله جل شأنه :

﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ
مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ
وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ
أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ
وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَهَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُوا إِلَى
صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ [الحج : ١٩ — ٢٤] .

نحن نخاصم الآخرين ، نخاصمهم في ماذا ؟ .

نقول لهم : إن الله واحد . ويقولون : أكثر من واحد !! .

نقول لهم : إن الله ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير * له
مقاليذ السموات والأرض يسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء
عليم ﴾ [الشورى : ١١ ، ١٢] .

ويقولون في الله كلاماً آخر دون ذلك بكثير ، فلا يُشَبِّهُونَ له الكمال
الواجب ولا ينزهونه عن المحدثات والنقائص !! .

لقد خاصمنا الناس في الله وخاصموننا في الله ، وهنا نجد القرآن الكريم
يقول للمسلمين : ستكونون في رعاية الله وكلاءه يوم تشبثون بدينه
وتحافظون على عقائده وتنفذون شرائعه ، ثقوا أن الله سيؤازركم ويدفع
عنكم لأنه ظهير للمؤمنين عندما ينطلقون في هذه الدنيا يعملون له ويدعون
إليه ويتحملون في سبيله ، قال تعالى في هذه السورة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾
[الحج : ٣٨] .

إنه يحب المؤمنين ويدفع عنهم ، ويكره خونة النعمة الذين يمرحون في
فضل الله ويجحدون أياديهم على رءوسهم وأبدانهم وأرواحهم .

ثم يقول للمؤمنين : قد تتعبون من أجلي ، تحملوا فالكفاح ضريبة على

الأحياء وهو ضريبة أثقل على أهل الإيمان من قديم ، فإن حملة صحف الوحي في التاريخ الأول دافعوا عن عقائدهم ، والذين يحملون صحف الوحي ليصبحوا بها مسيرة الإنسانية حتى يوم البعث يجب أن يدافعوا عن صحفهم وعن صلواتهم وعبادتهم ، وليدركوا أنهم منصورون حتماً !! .
لكن متى يجيء النصر ؟ .

يوم ينظر الله إليهم فيجد أن إسلامهم ليس أمراً نظرياً ، وأن إيمانهم ليس خيالاً حائراً عابراً ، لكن عندما يتحول الإيمان إلى عمل ويتحول اليقين إلى سيرة تفرض نفسها على المجتمع عندئذ ينصر الله من يعملون له ، وهذا معنى قوله تعالى :

﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾
الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز * الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴾ [الحج : ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١] .

هؤلاء الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله لا بد أن يستعيدوا الأرض التي فقدوها لأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده !! .

لكن متى يستعيدون الأرض التي فقدوها ؟ .

يوم يعلم الله من أحوالهم أنهم إذا ملكوا انتشرت الصلوات ، وأدبت الزكوات ، وعلا صوت المعروف ، وخفت أو انمحي صوت المنكر . أما إذا علم الله من أحوالهم أنهم إذا عادوا إلى الأرض أو مكَّنوا فيها ما أقاموا صلاة ولا آتوا زكاة ولا رجَّحوا معروفًا ولا قبحوا منكراً فإن الله تعالى يَكِلُهُمْ إلى أنفسهم وليس هنالك إلا البوار !! ولذلك لم أستغرب صنيع القدر عندما طُرد المسلمون من الأندلس فإن آخر ناس منهم أمضوا صلحاً غير شريف .

قلت في نفسي : ليس هؤلاء أولاداً شرعيين للفتح العظيم طارق بن زياد الذي أحرق السفن وقال لطلاب الآخرة : أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر !! .

أما الذين عاشوا في الترف فإنهم سلّموا لأنهم ما يصلحون للبقاء في الأرض ، وعندما أسمع بعض الناس يقولون : نقيم دولة فلسطين علمانية . أشعر بالأذى والنكد وأقول : لن تقوم لفلسطين دولة علمانية أبداً لأن الله لا ينصر بثةً من يقولون : نقيم دولة لا دين لها بل سيهزمهم أمام من يقول : نقيم دولة يهودية لأن هؤلاء لهم دين وإن كان جائراً محرفاً مفسداً .

قد يطول الصراع بين الحق والباطل ، وهنا تقول السورة :

﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ وكأين من قرية أملت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإليّ المصير ﴿ [الحج : ٤٧ ، ٤٨] .

وكم من قصور خربت ، وكم من آبار جفت ، وكم من قرى تلاشت ، وسنة الله في كونه هكذا هزيمة ونصر ، ومد وجزر : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ وكأين من قرية أملت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإليّ المصير ﴿ [الحج : ٤٥ — ٤٨] .

بعد هذا الدرس للأمة الإسلامية جاء درس ثان وهو درس يحتاج إلى تأمل فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يبين في هذا الدرس أن أعداءه على درجة كبيرة من الجدل وطول اللسان وكثرة الكلام وسوق الحجج المزيفة ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى

بعض زخرف القول غروراً ﴿ [الأنعام : ١١٢] .

كلام مزخرف ، وصحف مليئة ، وكتب مطبوعة طبعاً جيداً ،
وأناشيد وأغان وأنغام وألحان وأشياء كثيرة تساند الباطل !! فهل يكون
الحق الذي يلقاها حقاً غيباً أو قاصراً أو ضعيف الأدوات ؟ لا ، إن جاءوا
بدليل جئهم بالدليل الأقوى ، إن جاءوا بحجة جئهم بالحجة الدامغة ، وفي
هذه السورة نجد أربع آيات متتابعة يقول الله فيها :

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى
الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم
حكيم * ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية
قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد * وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق
من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط
مستقيم * ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تاتيهم الساعة بغتة
أو ياتيهم عذاب يوم عقيم ﴾ [الحج : ٥٢ — ٥٥] .

هناك ثلاثة أقوال في هذه الآيات :

القول الأول : أن أهل الباطل لهم لسنّ وقدره على الجدل وهم
يساندون باطلهم بأنواع من الفلسفات وبرامج من التوجيه تمتلئ بها صحف
وإذاعات — وهذا ما نسميه إلقاء الشيطان — كي تُعكر رسالات الأنبياء
 والمرسلين ، ولكن أهل الحق يواجهون هذا الغزو العقلي ولا يزالون به حتى
يكشفوا زيفه ويفضحوا سوءاته ويردوا الناس عنه وهذا إلى يوم القيامة ،
وبعض المستغفلين يُخدع بالحجج الواهية والبرامج الكذوب فيتبعها ،
والبعض الآخر يتضح له الحق فيؤمن به !! .

القول الثاني : وهو قول رأيته إن كان حقاً وخيراً فهو من عند الله ، وإن
كان شراً وخطأً فهو من عندي أنا : أن الوحي السماوي يبدأ صافياً نقيّاً
فإذا شق طريقة في دنيا الناس أخذ يتلوّث ، والواقع أن نهر الثقافة الإسلامية
بدأ مع العصر الأول نقيّاً قريباً من السماء كماء النيل في مجراه الأعلى قطُرٌ
صاف ليس فيه إلا ما يروى الظمأ ويُنبِت الزرع ثم يأخذ النهر طريقه فإذا

على مَرَّ الأيام يدخل في الماء تراب وجراثيم بل أقدار وجيف للموتى وبلاء كثير ، فلو أن الناس تناولت الماء بوضعه عندما يصل إلى القاهرة مثلاً لجرَّ عليهم الأمراض والعلل !

ما بُدُّ من تنقيته حتى يعود سماوياً كما كان .

ما بُدُّ من عزل العناصر الغريبة التي عُلِقَتْ به .

وهو عندما يُعزل يعود إلى أصله الأول .

كذلك الثقافة الإسلامية عَرَضَ لها من أهواء الناس ومن جهالة المتحدثين ومن أغلاط المتفكرين ومن شهوات الحاكمين ما أساء إليها ، وعَمَلُ العلماء والمجددين أن يعيدوا الثقافة الإسلامية نقية ، وهنا يتناولها أهل الخير ، ويهتدي بها أولو الرشد ، وينتفع بها المؤمنون ، أما الذين ارتابت قلوبهم فهم يحتجون بما في هذه الثقافة من غريب أو من دخيل كي يتعلوا عنها ولا حجة لهم في هذا !!

القول الثالث : قول محذور لا قيمة له وإن ذكرته بعض كتب التفسير ، وكان على ابن كثير غفر الله له ورضي عنه أن يحمل على هذا القول حملة مشددة بدل أن يسوقه بشيء من الحياد أو من الغمز الخفيف (١) — : هذا القول هو أن النبي ﷺ قرأ بمكة سورة النجم فلما بلغ هذا الموضع : ﴿ أفرايم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى ﴾ [النجم : ١٩ ، ٢٠] ألقى الشيطان على لسانه : « تلك الغرائق (٢) العلى وإن شفاعتهن تُرتجي » قالوا : ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم . فسجد

(١) قال ابن كثير : قد ذكر كثير من المفسرين ها هنا قصة الغرائق وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا . ولكنها من طرق كلها مرسله ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح . والله أعلم « تفسير القرآن العظيم — تفسير سورة الحج : ٥ / ٤٣٨ .

(٢) الغرائق : الأصنام . وهي في الأصل : الذكور من طير الماء ، واحدها غرنوق بضم فسكون فضم النون ، وقد كان العرب يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله وتشفع لهم فشبهت بالطيور التي تعلق في السماء وترتفع .

وسجدوا، فأنزل الله عز وجل هذه الآية : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى — أي قرأ — ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ أي في قراءته !! .

هكذا شيء عجيب ، ومع هذا فإن بعض المشتغلين بالسنن — وهم ليسوا أهلاً للاشتغال بها — روجوا هذا الحديث وهو حديث مكذوب من ألفه إلى يائه ولا أساس له .

بعد أن بُنيت الأمة الإسلامية على هذه المعاني حُددت لها رسالتها — في آخر السورة — على شكل دوائر ، كل دائرة تلحقها دائرة أوسع منها :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون * وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ [الحج : ٧٧ ، ٧٨]
اركعوا واسجدوا : هذه دائرة الصلاة .

واعبدوا ربكم : هذه دائرة العبادة وهي أوسع من دائرة الصلاة .
وافعلوا الخير : هذه دائرة الخير وهي أوسع من دائرة العبادة العادية .
وجاهدوا في الله : هذه هي دائرة الجهاد وهي الدائرة الأوسع والأوسع .

وفي ثلث السورة ما يُلهم الرشد ، وما يبيّن الحق ، وما يوجه النظر إلى عظمة الله ، وجاء هذا في عدة آيات بدأت باستفهام فيه تعجيب وتفتيق للذهن وتفتيح للعقل الإنساني :

﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴾ [الحج : ١٨] .

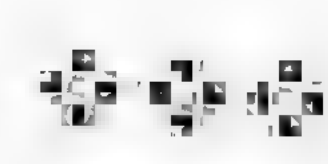
﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير * له ما في السموات وما في الأرض وإن الله هو الغني الحميد ﴾ [الحج : ٦٣ ، ٦٤] .

﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ [الحج : ٦٥] .

﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ [الحج : ٧٠] .

هكذا نلقي نظرة عامة على سورة الحج لنرى المحور الذي تدور عليه وهو : كيف يتقي المؤمنون ربهم ، وكيف يواجهون الفرق الأخرى التي لا تتقي الله ولا تحسن معرفته ، وكيف تكافح مكرها وتُبطل كيدها وتعيش إلى آخر الدهر مخلصه لكتاب ربها وسنة نبيها ﷺ ، وكيف تقدم من سلوكها نماذج في دوائر كالموج ، تقدم للناس الخير وتوضح مناهجه في كل أفق .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .



الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿... الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .
وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام النبيين وسيد المصلحين .
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإن ديننا هذا دين واضح ، كتابه لا نظير له في إنصاف الناس من أنفسهم وفي قيادتهم إلى ربهم ، وعندما نكون إيجابيين — نُشغَل بالحق كما عرفه الله لنا — لن يبقى في حياتنا مجال للباطل الذي يشغلنا الآخرون به .
وقد رأيت أن أعداء الإسلام فيهم الآن استطالة على المسلمين ، وفيهم الآن نوع من الرغبة في السخرية منهم أو الضحك عليهم .

سئلت في عدة بلاد عن ورقة يجدها الناس عندما يفتحون بيوتهم أو محالهم التجارية فيها عدد من أسماء الله الحسنى يطالبون بكتابتها ثلاثين أو أربعين مرة وإلا خُرب البيت وأفلست التجارة !! .

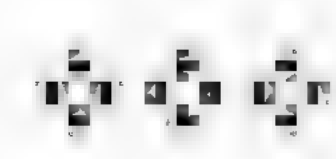
وأغلب الذين يكتبون هذه الأوراق ليسوا مسلمين بل من ملل أخرى تريد أن تشغل المسلمين ، إن كانوا طلاباً تشغلهم عن دروسهم ، وإن كانوا تجاراً تشغلهم عن محالهم .

أيها المؤمنون : لا أمر إلا ما أمر الله به ولا نهى إلا ما نهى الله عنه ، ما أستطيع أن أوجب شيئاً لم يوجبه الله — وما أستطيع أن أحرم شيئاً لم يحرمه الله .

الإيجاب العام لله وحده يبلغه نبينا عليه الصلاة والسلام .
فإذا جاءتك ورقة من هذا النوع فلا تكثر بها ولا تلتفت إليها ،
اكثر بالحق الذي كلفك الله به ، اشغل نفسك بتعاليم الدين التي وضحتها
الله لك .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي
فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في
كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .
﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا
غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .
عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .
أقم الصلاة



حَاضِرُ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ

خطبة عيد الفطر المبارك سنة ١٤٠٩ هـ

بِسَاحَةِ مَسْجِدِ مُصْطَفَى مُحَمَّدٍ بِالْجِزَةِ

الحمد لله كما يحب ربنا ويرضى ، الحمد لله حمداً دائماً طيباً كثيراً مباركاً فيه ، الحمد لله على نعمه الباطنة والظاهرة ، نحمده سبحانه وتعالى كما يليق بآلائه الباهرة ، حمداً فى السر وفى العلن ، وفى الأولى وفى الآخرة ، نحمده سبحانه وتعالى على ما أفاء من نعمه ونسأله أن يحشرنا إليه ووجوهنا ناضرة مستبشرة ، كما نسأله أن يجعل حسابنا عنده وفق وعده المبين فى كتابه الكريم : ﴿ ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون ﴾ [الزمر : ٣٥] .

الحمد لله : ﴿ وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الدل وكبره تكبيراً ﴾ [الإسراء : ١١١] .

الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر .
الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر .
كل ذرة في الأرض وكل حبة في السماء ، رب الأمكنة كلها ، ورب
الأزمنة كلها مكاناً بعد مكان وزماناً بعد زمان ﴿ قل لمن ما في السموات
والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب
فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ وله ما سكن في الليل والنهار
وهو السميع العليم ﴿ [الأنعام : ١٢ ، ١٣] .

الحمد لله ، والله أكبر ، الله أكبر ما سبح بحمده كل شيء ، وما عنا
لوجهه كل حي ، وما تطلع إلى رفده ^(١) كل كائن : ﴿ إليه يرد علم الساعة
وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه
ويوم يناديهم أين شركائي قالوا آذناك ما منا من شهيد ﴾ [فصلت :

(١) الرد : العطاء والصلة .

٤٧] . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، إمام النبيين وسيد المصلحين ، إمام الخليقة الذي أسدى للبشرية مالم يسده أحد ، ومع ذلك فإن جزاء النبي الخاتم أمير الأنبياء أن يتواصى حلف الأطلسى بجميع دوله على حماية وغد (١) ولغ في عرضه وأساء إليه وإلى أهل بيته ونال من المسلمين كلهم ، وكأن حرية الرأي هي حرية الشتم والبذاءة والإهانة ، ويبقى محمد عليه الصلاة والسلام كما قال فيه مادحه البوصيري :

كيف ترقى رقيق الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء
لم يساووك في غلاك وقد حا ل سناً منك دونهم وسناء
إنما مثلوا صفاتك لنا س كما مثل النجوم الماء (٢)

صلوات الله وسلامه على صاحب الرسالة الخاتمة ما قامت بربها الأشياء
وما دامت في وجودها الأرض والسماء .

أما بعد :

أيها المسلمون : نحن في هذه الأيام في حاجة إلى وقفة تأمل ننظر فيها إلى حاضر العالم الإسلام كي نبصر ما نحتاج إليه وكي نأخذ العبرة مما يوحى بالعبرة ، فقد شعرت بأن القوى المعادية للإسلام تُعربد قريباً منا وبعيداً عنا ، ونحن يجب أن ندرك ما يراد بنا وما يبيت لنا .

إن فلسطين لا يحف فيها دم ، وكما يطلع الناس على النشرة الجوية في كل صباح يتسمعون إلى أنباء القتل في الانتفاضة التي أمدتها الله وحده بالقوة إلى يوم الناس هذا !! .

ونرى أن القلة المارونية في لبنان - بعد أربعة عشر عاماً من الدماء المسفوقة والثورات الدائمة - تأتي إلا أن تضع يدها على الكثرة المسحوقة

(١) هو الكاتب سلمان رشدى صاحب كتاب آيات شيطانية .

(٢) ديوانه : ١ ط الحلبي .

وأن تفرض عليها ما تشاء !! .

ونرى العروبة والإسلام في السودان يحاربان حرباً شعواء حتى لكأننا نخشى أن يكون النطق بالإسلام جريمة هناك !! .

إن الأمر يحتاج إلى أن نتعرف حاضراً العالم الإسلامي الذي ضاق به أحد الشعراء فقال :

قد استردَّ السبايا كل منهن لم تبق في أسرها إلا سبايانا
وما رأيت سياط الظلم دامية إلا رأيت عليها لحم أسرانا
ولا نمت على حدِّ الظبأ أنفأ حتى لقد خجلت منا منايانا

إننا نواجه آلاماً متعبة ، ولكن الخبراء بالتاريخ الإسلامي يعرفون أن هذا التاريخ له خط بياني متعرج بشكل يستدعي الدراسة ، فهو يَهْوِي إلى القاع حتى لا يكاد يبين ، ثم يصعد إلى الأوج حتى يبلغ عنان السماء !! .

وربما كان المسلمون في أيامنا هذه في فترة المحاق من تاريخهم ، لكن الصفحة الكئيبة التي نراها لحاضر العالم الإسلامي سوف تتبعها بإذن الله صفحة مضيئة مشرقة ، ذاك شأن تاريخنا كله ، نرى هذا التاريخ يَهْوِي ثم يَصْعَد ، نرى أمتنا تمرض ثم تصحو ، وتقع ثم تثب ، وكما قال ربنا : ﴿ وتلك الأيام نداؤها بين الناس ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

شاء ربنا أن يذهب بيت المقدس في فترة من فترات الجَزُر (٢) من تاريخنا ، ولكن الجزر لا يبقى بل يعقبه مدٌّ ، وفي فترة المد - بعد قرن من الزمن - استنقذنا المسجد الأقصى وأعدنا فلسطين إلى كياننا !! وفي يوم ما سقطت بغداد تحت سنايك التار ومؤامرات الصليبيين وكانت صفحة سوداء ، ولكن التاريخ لم يقف فقد استعدنا بغداد واستطعنا بعد بغداد أن

(١) الظبأ : جمع ظَبَّة وهي حد السيف والسنان والخنجر وما أشبهها .

(٢) الجَزُر : انحسار ماء البحر عن الشاطئ ضد المد .

نستعيد القسطنطينية وأن نجعلها عاصمة للأمة الإسلامية بعد أن كانت عاصمة لدول الرومان !! .

إن تاريخنا ينخفض ويرتفع ، وقد تكون الأمة الإسلامية الآن في فترة محزنة كفترة استيلاء الصليبيين على المسجد الأقصى أو كفترة سقوط بغداد في أيدي التتار، ولكن الهزائم ما بقيت والانتصارات ما تخلفت ، وسوف نعود إلى أمجادنا التي فقدناها وسوف نسترد كل شبر ونغسله من أوضار (١) الذين لوثوه بعدوانهم .

إن نبينا عليه الصلاة والسلام بشرنا بقوله : « ليلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدبر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل عزاً يعز الله به الإسلام وذلاً يذل الله به الكفر » (٢) أى ليمتد الإسلام مع امتداد الليل والنهار ومع مساقط الظلمة والضوء على أرض الله ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ [الصف : ٩] .

لكن الخسائر التى أصابتنا كانت لها أسباب والانتصارات التى أحرزناها كانت لها مقدمات ، وعلى المسلمين إذا جدَّ جدُّهم واصطلحوا مع ربهم أن يتعرفوا ما هى أسباب الانكسارات التى أصابتنا وما هى أسباب الانتصارات التى أدركتنا وأنقذتنا ، وعندما نعلم أسباب المد والجزر فى تاريخنا فإننا نعود صُعُداً من حيث جئنا ولا حرج علينا .

أيها الإخوة : لا تظنوا الدهر لوناً واحداً ، إنما الدهر شئون وفتون ، بعد انتصار بدر وقعت هزيمة أحد ، ولم تكن هزيمة أحد قاضية علينا ، وبعد انتصار الفتح وقعت هزيمة فى حنين ثم أعقبها نصر ﴿ وتلك الأيام نداؤها بين الناس ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

(١) الوَضَر : الدَّرَن والْوَسَخ . والجمع أوضار .

(٢) رواه أحمد ١٠٣/٤ والحاكم فى الفتن والملاحم وقال : صحيح ، ووافقه الذهبى ، والطبرانى فى الكبير ٥٨/٢ وقال فى مجمع الزوائد : رواه أحمد والطبرانى ورجال أحمد رجال الصحيح ١٤١/٦ . والمراد بيت المدر والوبر : أى أهل البوادر والمن والقرى والأمصار .

شاء الله أن يكون قدر أمتنا أن نحارب في جبهتين باستمرار ، ففي أيام النبي ﷺ كانت الحرب مع المشركين وكانت مع أهل الكتاب ، وفي دولة الخلافة كانت الحرب مع الفرس وكانت مع الرومان ، وبعد ذلك كانت مع الصليبيين وكانت مع التتار !! .

إن نصرنا مرهون بجبهتنا الداخلية التي إن انتصرنا فيها كانت الخاتمة لنا ، هذه الجبهة التي ينبغي أن تنتصر فيها جبهتنا الداخلية ، صلتنا بربنا ، صلتنا بإخواننا ، صلتنا بأنفسنا ، صلتنا بالأصدقاء والخصوم على سواء .

يجب أن ندرك أن المسلمين لن يكسبوا نصراً إلا بالإسلام ، وأنهم بالإسلام وحده تعلقوا كلمتهم ما بقوا معتصمين بعروته ، فإذا خفت قبضتهم عليه وانحلت عراهم معه هبطوا وانكسرت أجنحتهم فلم يستطيعوا التحليق !! .

الإسلام هو أبونا وأمننا وهو حياتنا وعزنا ، ويجب أن نتشبث به وأن نحيا به وأن نحيا له .

أيها الإخوة : الجبهة الإسلامية تحتاج إلى يُصَح ، وقبل أن أسدى النصح لها أتكلم عن واقع مر أحسست بمرارته في فمي !! .

إن التقاليد القديمة أن يُعفى عن المسجونين أيام العيد ، فما الذي قلب الصفحة وجعل هذه الأيام على النقيض ؟ يؤخذ أبرياء ويعتقلون ويسجنون في أيام العيد ؟! إننى ما أجد إلا أن أفزع إلى الله سبحانه وتعالى وأن أدعو وأن تؤمنوا معي : اللهم أحسن خلاص المسجونين ، اللهم أحسن خلاص المسجونين ، اللهم فكِّ إسمار المعتقلين ، اللهم فكِّ إسمار المعتقلين وأرجعهم إلى أهاليهم سالمين .

أيها الإخوة : لكن المسلمين يحتاجون إلى أمور حتى ندرك ما فاتنا : لعل الأمر الأول : أن تتوحد كلمتنا في جبهة سواء ، وبغير شك وحدة الصف تعين على إدراك الغاية وتحقيق الأمل .. فإذا عزت هذه الوحدة لسبب من الأسباب فلتكن هناك وحدة الهدف ، ومعنى ذلك أن نتشبث نحن المسلمين بصفوفنا المترابطة وراء غاية واحدة .

يا عباد الله : إن حكماء صهيون يرسمون سياسة اليهود ، وإن
الفايكان ومجلس الكنائس العالمى يرسم السياسة الصليبية العالمية !! .

أريد من الأمة الإسلامية - وفي طليعتها الإسلاميون - أن تتقارب
صفوفهم ، وأن تتراص في جبهة واحدة ، وأن يواجهوا عدواً قرر أن ينال
منهم ، إن كارتز جاء من أمريكا ليزور السودان الجنوبي ، وإن مندوب
فرنسا زار لبنان ليتعهد الموارنة هناك ، فهل الإسلاميون سيظلون
متفرقين ؟!

لماذا إن فاتتهم وحدة الصف ألا يتجمعوا في وحدة هدف حتى ننقذ
الإسلام ؟ .

وهناك شيء آخر أريد أن أذكره :

إن كلمة الله العليا لا يخدمها أناس أيديهم هي السفلى ، إذا كنا
متخلفين إدارياً وتجارياً وزراعياً وصناعياً فكيف نواجه أعداء الإسلام بهذا
الضعف ؟ يجب علينا نحن الإسلاميين أن نستमित في رفع الأحوال التي
نعيش فيها حتى نستغنى عن غيرنا ، فالعربى قديماً كان يقول لزميله :

لا إبن عمك لأفضلت في حسب شياً ولا أنت ديانى فتخزوني (١)
فإذا كنا - نحن المسلمون - مدينين لأناس لا يريدون بنا خيراً
ولا يودون لنا إلا العنت فلم لا نضاعف إنتاجنا ؟ .

إننى أقول لكم بحسرة إننى قرأت في صحيفة خليجية أن إسرائيل
صدرت للشرق الأوسط مواد غذائية بعدة مليارات من الدولارات !! .

ما هذا ؟ ماذا تصنع شعوبنا ؟ ماذا تصنع حكوماتنا ؟ إن الإسلام
لا ينتصر بنا ما دمنا بهذا الضعف وما دمنا بهذا التبلد ، الأمة الإسلامية
تحتاج إلى أن تكون أمة مثمرة منتجة ، لماذا يكون الأمر عندنا على غير

(١) هذا البيت لذي الإصبع العلوانى . ومعناه : أى لست بقاهر لى فتسوس أمرى وأصل : لا إبن عمك : أى لله ابن عمك حذف منه اللام الخافضة والقصيد بأكملها فى الأغاني للأصفهاني :
١٠٤/٣ - ١٠٦ .

طبيعته في العالم كله ؟ إن العلاقة بين الحكومات العربية وبين الشعوب العربية لا تُسرُّ مؤمناً ، إنها علاقة بين خصوم وليست علاقة بين أصدقاء ، إن الإسلام يريد أن تكون الأمة جسداً حكومتها روحه ، وما يكون هذا - بَئِثٌ - إلا إذا عدنا إلى ديننا وأحسننا العمل به وأحسننا الانتماء إليه . إننا أيها الإخوة محتاجون إلى أن ندرك ما ينبغي أن ندركه من كتاب ربنا ومن سنة نبينا ﷺ .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .
وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين . اللهم صل وسلم
وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

أريد أن أقول لكم أيها الإخوة : نحن عرب أم نحن مسلمون ؟ يبدو
أننا لا عرب ولا مسلمون !! .

قد أسأل لماذا ؟ .

أقول : كان العربي قديماً إذا أصابته هزيمة حرم على نفسه المباهج
والأفراح حتى يدرك ثأره ، وفي هذا يقول تأبط شراً ، وكان قد قُتل خاله
ولم يستطع أن يدرك ثأره (١) :

إِنَّ بِالشَّعْبِ الَّذِي دُونَ سَلْعٍ لَقِتِيلاً دُمُهُ مَا يُطْلُ (٢)
خَلْفَ الْعِيبِ عَلَيَّ وَوَلَّى أَنَا بِالْعِيبِ لَهُ مُسْتَقِيلٌ (٣)
وَوَرَاءِ الثَّأْرِ مِنِّي ابْنُ أُخْتِ مَصِيعٌ عُقْدَتُهُ مَا تُحْلُ (٤)

فلما أدرك ثأره قال :

(١) ديوانه : ٢٤٧ ، ٢٤٨ قيل : قال تأبط شراً هذه الأبيات يرثي بها نفسه قبل موته لما أيقن
بالقتل يطلب فيها من ابن أخته أن يثأر له لئلا يذهب دمه هدرًا . وقيل : إن قاتلها هو ابن أخت تأبط
شراً يرثي بها خاله .

(٢) الشعب : الطريق في الجبل . سلع : اسم موضع . طُلُّ دُمُهُ : أي ذهب هدرًا أي لن يذهب
دمه هدرًا ذلك الذي وقع قتيلاً في الشعب قرب موضع سلع .

(٣) أي أنه ذهب وترك الثأر عليّ غير أني قادر على حمله غير عاجز عن إدراكه .

(٤) المصع : الشديد . عقْدته ما تحل : كناية عن قوة العزيمة .

حَلَّتِ الْخَمْرُ وَكَانَتْ حَرَاماً وَيَلَأِي مَا أَلَمَتْ تَجِلُّ (١)
فَاسْقِنِيهَا يَا سَوَادَ بَنَ عَمْرٍو إِنَّ جِسْمِي بَعْدَ خَالِي لَخَلُّ (٢)

هذه الطبيعة العربية هي التي جعلت أبا سفيان يقول عند هزيمته في بدر : لا أغتسل من جنابة حتى أدرك ثأري من محمد !! .

هذه الطبيعة العربية هي التي جعلت هند بنت عتبة تقول : لا يمس جلدي طيب حتى أدرك ثأري من محمد !! أنا أرى أن المسلمين منهزمون في السودان وفي لبنان وفي أماكن لا حصر لها وكأن كلمة الإسلام أصبحت سبّة وكأن الانتماء إلى الإسلام أصبح تستباح معه الدماء والأموال والأعراض حتى إن وغداً من الهند يحىء ليشتم نبينا ويتضافر الأوروبيون والأمريكيون على حمايته ، وأقرأ أن حفلاً أقيم له في أكسفورد !! .

سبحان الله !! كنا نقول : هذا تصرف الرعاع . فإذا العامة والخاصة والساسة والقادة يتآمرون على ديننا ؟! فما الذي يجعل المسلمين فرحين عندما يجيئهم عيد ؟ أنا أرى أن العيد إقامة الشعائر الدينية فقط ، أما أن يفرح المسلمون وأن يضحكوا وأن يتهجوا وتلك حالهم العالمية والمحلية فهذا ما لا ينبغي أبداً إذا كنا عرباً ، أما إذا كنا مسلمين فإن صلاح الدين الأيوبي رُئي وهو متجههم الوجه فقيل له : ما أحزنك ؟ قال : وكيف أبتسم والمسجد الأقصى أسير في أيدي الصليبيين ؟! إنه الآن أسير فلم الضحك ؟! .

إن أمتنا الإسلامية إذا لم تُصَحَّ على ما بها فإن آلامها ستتضاعف ، يجب أن نحاول بشق النفس أن نتخلص من الهوان المادى والأدبى الذى وقعت فيه أمتنا الإسلامية .

(١) لقد فاز بأخذ الثأر بعد بقاء ومضت مدة ، فصارت الخمر حلالاً له بعد أن حرمها على نفسه وذلك جرياً على عادتهم من تحريم الخمر وغسل الرأس قبل الأخذ بالثأر .
(٢) الخَلُّ : المهزول . يطلب شرب الخمر لأن جسمه قد هزل بعد خاله .

إن أمتنا الإسلامية أحوج أم الأرض إلى الإيمان ليملاً فراغها ويعمر خرابها .

اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

اللهم فرج كرب المعتقلين . اللهم انصر إخواننا فى أفغانستان وفى فلسطين . اللهم اجمع كلمة المسلمين . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

أيها الإخوة : انطلقوا إلى بيوتكم لا يستفزكم أحد ، لا نريد اشتباكاً فى شارع ولا فى ميدان ، ومن أراد استفزازكم فلا تستجيبوا له .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *

نَظَرَاتٌ فِي سُورَةِ "الشُّعَرَاءِ"

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

ففى هذا اليوم نستعرض سورة الشعراء أو ما تيسر منها ، نحاول أن نتبين ما أودع الله فيها من خير وحكمة .

وسورة الشعراء من القرآن الذى نزل فى مكة ، والقرآن أول ما خاطب مخاطب ناساً لم يقدرُوا الله حق قدره ، ولم يرجوا له وقاراً ، ولم يستقبلوا استقبالاً حسناً مَنْ بعث بهم إلى الناس كى يأخذوا بنواصيهم إلى الحق .. كان فى قلوب أولئك العرب الكافرين قدر غير قليل من الكبر والجفوة ، لا بأس عليهم أن يقولوا لمن أرسل إليهم : لم أرسلت أنت ؟ أو لم يكلمنا الله مباشرة ؟ أو لم يرسَل علينا ملائكته لتحدث معنا ؟ .

﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ﴾ [الفرقان : ٢١] .

هؤلاء المشركون طلبوا من صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام كى يصدقوه أن يسوق لهم جملة من خوارق العادات التى ربطوا إيمانهم بوقوعها ، ولكن الله عز وجل ساق الأمور على ما قضت به الحكمة ، وأنزل هذا القرآن على أنه المعجزة الفذة التى تشهد لصاحبها بالصدق .

وسورة الشعراء من هذه السور التي توجه النظر إلى آيات الله والتي تبين أن محمداً عليه الصلاة والسلام نبي بهذه الآيات التي تنزل عليه : ﴿ طسم . تلك آيات الكتاب المبين ﴾ [الشعراء : ١ ، ٢] .

لكن العرب لا يريدون آيات الكتاب المبين ، إنهم يريدون عصا تنقلب إلى ثعبان أو مكفوف البصر يرتد البصر إلى عينيه أو مثل ذلك ، وهذا من الخوارق ، وينزل القرآن قرآناً فقط يجلو الظلام عن العقول ، ويمزق الغشاوات عن الأفئدة ، ويلقي أشعة تكشف الطريق وتبين الاستقامة والغاية ، وتهدى الناس إلى ربهم عن طريق الفكر فماذا يصنع الرسول ﷺ بإزاء مقترحات القوم ؟ .

ليس نبي الله واعظاً يقول خطبة من الخطب ثم يذهب إلى بيته وقد أدى واجبه واستراح ، ليس مدرساً يلقي الدرس فهم الطلاب أم لم يفهموا ، يقول : أديت واجبي ويذهب إلى بيته ويهدأ ويطمئن ، لا ، إنه والد ، وكما يحزن الوالد إذا رسب ابنه أو ضل الطريق فكذلك يحزن النبي ﷺ لأن الناس لم ينتفعوا بهداه ولم يتأثروا بخطاه ، حزن حتى نال الحزن من صحته وقال الله له : أنتحر وراء قوم رفضوا الإيمان بك ؟ .

﴿ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ [الشعراء : ٤] .

نحن قادرون أن ننزل عليهم آية من السماء تقصم ظهورهم أو تحنى رؤوسهم .

وقد تسأل : وما المانع أن ترسل إليهم خوارق العادات التي طلبوها ؟ .

والجواب أن هناك موانع :

أول مانع : أن هؤلاء الناس لو أجيبوا إلى ماسألوا وتنزلت المعجزات التي اقترحوا ما آمنوا بها ، قال تعالى : ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ [الحجر : ١٤ ، ١٥] .

فلا معنى إذن لإجابتهم إلى مقترحات سوف يرفضونها يقيناً .

المانع الثاني : أن الأمم إذا كذبت بعد أن تجاب إلى مقترحاتها تهلك حتماً ، تلك سنة الله في الأولين ، والله لا يريد أن يهلك هذه الأمة بل يريد أن يستبقها حتى تعقل ، ولذلك عندما قالوا : ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ كان الجواب : ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون ﴾ [الأنبياء : ٥ ، ٦] .

الشيء الثالث : أن معجزة القرآن علاج للنفس الإنسانية ، علاج يستأصل الجرثومة ، ويضع الصحة مكان العلة ، والشفاء مكان الداء ، لأنه يجيء إلى قوم ركبوا رؤوسهم وضلوا الطريق فيضع النور في رؤوسهم ويأخذهم رويداً رويداً إلى الحق بعد أن يقنعهم به . وهذا سر ختم الرسالات بمحمد ﷺ فإن الدواء الذي تضمنته معجزته هو الدواء الحقيقي للبشرية على امتداد الزمان والمكان ، وهذا معنى قول الرسول ﷺ : « ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحى الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » (١) .

هذا القرآن يقول للناس : ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ . [الشعراء : ٢] .

فما هذه الآيات ؟ .

في سورة الشعراء نماذج للآيات التي تساق إلى الناس :

﴿ أو لم يرو إلى الأرض كم أنبتا فيها من كل زوج كريم * إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ [الشعراء : ٧ - ٩] .

(١) رواه البخارى في فضائل القرآن - باب كيف كان نزول الوحي : ٢٢٤/٦ ومسلم في الإيمان - باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس : ٩٢/١ .

أليس آية تدل على الله أن ترى القناطير المقنطرة من الفواكه الحلوة وحبوب الحصيد تخرج من الأتربة الكدرة المغيرة ؟!

أليس عجباً للناس يستدعى التساؤل أن ترى الحقائق البهيجة تنبت من الحمأ المسنون ؟ .

أليس شيئاً يلفت النظر أن ترى أصباغاً لا حصر لها من هذا الطين الأسود تتوزع على الورود والأزهار والأثمار ألواناً مختلفة فيها الحمرة القانية والصفرة الفاقعة واليباض الناصع والسواد الداكن ؟

﴿ أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتا فيها من كل زوج كريم ﴾ . إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ . وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ . كلمة ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ . وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ تكررت ثمانى مرات في سورة الشعراء :

المرّة الأولى : بعد الحديث عن أهل مكة وتساؤلهم عن خوارق العادات ورفضهم لآيات الكتاب المبين .

والمرّة الثانية : بعد قصة موسى مع فرعون .

والمرّة الثالثة : بعد قصة إبراهيم مع قومه .

والمرّة الرابعة : بعد قصة نوح مع قومه .

والمرّة الخامسة : بعد قصة هود مع قومه .

والمرّة السادسة : بعد قصة صالح مع قومه .

والمرّة السابعة : بعد قصة لوط مع قومه .

والمرّة الثامنة : بعد قصة شعيب وأصحاب الأيكة .

فقله جل شأنه : ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ جملة شرحت بثمانى آيات منها آية كونية تتصل بتوجيه النظر إلى هذه الأرض المباركة التى نعيش فوقها ، ثم آيات تاريخية تتحدث عن الأولين .

ونحن نتتبع بإيجاز حديث القرآن الكريم وهو يقص مواقف الأنبياء من أقوامهم وكيف أن هؤلاء المرسلين عرضوا حقائق الدعوة وبينوا معالم النبوة وهدوا الناس بأساليب تعرض على العرب وتعرض من بعد العرب على الإنسانية كلها ما بقي من الإنسانية يوم واحد لماذا ؟ لأن الله تعالى لما لخص أحداث التاريخ ومواقف الأمم من الأنبياء كان يعرض ذلك درساً يؤسس اليقين وعبرة تنفع الإيمان .

في قصة موسى نلمح أموراً نوجه النظر إليها :

لقد جاء قوم فرعون يدعوه ، واستغرب فرعون مجيئ موسى إليه وقال له : ﴿ ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ﴾ وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ﴿ [الشعراء : ١٨ ، ١٩] .

وفعلته التي يشير إليها هي : المصرى الذى قتله فى الصراع الذى كان يدور بين المصريين والإسرائيليين يومئذ .

رد عليه موسى : ﴿ قال فعلتها إذا وأنا من الضالين ﴾ ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى رى حكماً وجعلنى من المرسلين ﴾ وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل ﴿ [الشعراء : ٢٠ - ٢٢] .

فرعون يدعى أنه الرب ، وموسى يقول : ﴿ فوهب لى رى حكماً ﴾ ولذلك يسأل موسى : ﴿ قال فرعون وما رب العالمين ﴾ [الشعراء : ٢٣] .

وجواب موسى : ﴿ قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾ [الشعراء : ٢٤] .

استعجب فرعون و ﴿ قال لمن حوله ألا تستمعون ﴾ [الشعراء : ٢٥] .

ومضى موسى فى دعوته : ﴿ قال ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ [الشعراء : ٢٦] .

ومضى فرعون فى كبره وزيفه : ﴿ قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم مجنون ﴾ [الشعراء : ٢٧] .

فرد موسى : ﴿ قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ [الشعراء : ٢٨] .

لكن فرعون أبى ورفض .

ورسالة موسى تقوم على أمرين :

الأمر الأول : تعريف فرعون بأن الله رب العالمين .

والأمر الثانى : منع الاستعباد الذى تعرض له بنو إسرائيل .

كان موسى يعلم أن بقاء بنى إسرائيل مع المصريين شىء مستحيل لما بين الجنسين من جفوة أو من فجوة ولذلك كان طلبه :

﴿ أن أرسل معنا بنى إسرائيل ﴾ [الشعراء : ١٧] .

لكن فرعون أبى ورفض واستدعى السحرة : ﴿ قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم • يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون • قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين • يأتوك بكل سحار عليم • فجمع السحرة لميقات يوم معلوم • وقيل للناس هل أنتم مجتمعون • لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾ [الشعراء : ٣٤ - ٤٠] .

يقول العلماء : هذا منطق الرعاع والغوغاء لأنه بعيد عن الإنصاف والعقل ، لو كانوا أصحاب إنصاف وعقل لقالوا : لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين أو لعلنا نتبع موسى إن كان هو الغالب ، لكن التفكير فى اتباع موسى لم يخطر ببالهم ، إن القيود التى تشدهم إلى الوثنية شديدة ، وإن ما ورثوه فى دمائهم وأحوالهم لا يمكن أن ينفكوا عنه ، ولذلك كان الحديث الذى يدور بينهم ﴿ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾ !! .

هذا حديث الناس ، أما حديث السحرة أنفسهم فنوجه النظر إليه لما فيه من دلالة .

الحديث فى شقه الأول يصف قوماً نفعيين طلاب مال وأصحاب جشع ورغبة فى المكافآت والجوائز ، يتملقون ملكهم ويخلفون بعزته :

﴿ فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ﴾ قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين ﴾ قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ فألقوا حباهم وعصيم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾ [الشعراء : ٤١ - ٤٤] .

هكذا يعبد الناس الدنيا ويعبدون فيها المال والوجاهة ، لكن موقف السحرة تغير في الشق الثاني : ﴿ فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يؤفكون ﴾ فألقى السحرة ساجدين ﴾ قالوا آمنا برب العالمين ﴾ رب موسى وهارون ﴾ [الشعراء : ٤٥ - ٤٨] .

علق فرعون على هذا : ﴿ قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين ﴾ [الشعراء : ٤٩] .

هذا شيء عجيب في الاستبداد السياسى ، يفرض الرجل سلطانه على ضمائر الناس وعقولهم ، فإيمانهم أو كفرهم رهن بمشيئته ، لكنهم لم يبالوا بتهديداته : ﴿ قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ﴾ [الشعراء : ٥٠ ، ٥١] .

قارن أيها المسلم بين هؤلاء الرجال في موقفهم الأول وبعد أن آمنوا كانوا نفعيين يطلبون الدنيا ، فلما شرح الله بالحق صدورهم ولما تلاقت أشعة الإيمان فى نواصيهم إذا هم شيء آخر وأفق آخر ، وهذا ما يصنعه الإيمان بالناس ، إن الإيمان لو دخل قلب واحد من أولئك الذين نسميهم « خنافس » لتحول إلى رجل عملاق وتحول إلى كيان صلب وتحول إلى فدائى يضع روحه على كفه ويقاتل من أجل ربه !! .

إن الإيمان صانع العجائب ، والناس فى عصرنا هذا تذهل عن وظيفة الإيمان وأثره وتتعلق بالظواهر الفارغة والقشور الطائفة وهى لا تصنع شيئاً .

انظروا كيف حول اليقين الراسخ سحرة فرعون من أنانيين لا يفكرون إلا فى أنفسهم إلى ربانيين يغضبون لله ويتحملون فى ذات الله

التقتيل والصلب وضياع الدنيا وفقدان كل شيء !! ثم نجد وقفة أخرى في قصة موسى مع فرعون ، لقد خرج مع قومه ووجدنا أنه يمضي في طريقه فإذا هو ينظر وينظر قومه فيرون فرعون يلاحقهم بجيشه ، وهنا تسرى الشكوك في قلوب كثير من الناس وتزلزل أقدامهم ويظنون أنهم أدركوا وأحيط بهم .. ومعارك الإيمان في الدنيا كثيرة ، ويريد الله أن يوجه النظر إلى أن أهل الإيمان لا بد أن تمر بهم فترات كالحلة تنقطع فيها أسبابهم مع الدنيا ويُظلم من حولهم كل أفق .

في هذا الوقت الذي تشتد فيه الظلمة ويتضاعف الحرج يُختبر الإيمان الاختبار الحقيقي ، فمن كان راکناً إلى الله بقى ثابتاً ، ومن كان متعلقاً بغيره اضطربت نفسه وسرت الهواجس إليه تُخوفه من اليوم والغد ومن الحاضر والمستقبل ، أما المؤمن فيرى أنه مع اشتداد الظلمة سيطلع الفجر ومع تضاعف الحرج سيجيء اليقين .. ﴿ فلما تراءا الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ﴾ قال كلا إن معي ربي سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلقنا ثم الآخرين * وأنحينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين * إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ [الشعراء : ٦١ - ٦٨] .

يا طلاب الآيات من العرب ، يا من يريدون خوارق عادات ليؤمنوا ، يا من يريدون أن يروا الله أو تنزل الملائكة إليهم تدبروا قصص الماضين واعرفوا ما كان بين المصلحين والجرمين وخذوا من ذلك آية : ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ .

ثم تجيء قصة إبراهيم بعد قصة موسى مباشرة - وليس في الآيات ترتيب تاريخي إنما هو مجرد التجميع والحشد للعبارة والعظة - وقصة إبراهيم تمثل الإيمان عندما يكون فطرياً لا فلسفة فيه ولا تعقيد معه ، قصة إبراهيم تمثل الإيمان عندما يكون سجية نفس ، عندما يكون حركة قلب سليم .

الرجل يقول ببساطة : هناك آلهة كثيرة تعبدونها - يخاطب أباه

وقومه - لكن هذه الآلهة الكثيرة أنا أخاصمها : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم ﴾ إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ﴿ قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ﴾ قال هل يسمعونكم إذ تدعون ﴿ أو ينفعونكم أو يضرون ﴾ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴿ قال أفرايتم ما كنتم تعبدون ﴿ أنتم وآباؤكم الأقدمون ﴾ فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ﴿ الذى خلقنى فهو يهدين ﴾ والذى هو يطعمنى ويسقنى ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ والذى يميتنى ثم يحيين ﴿ والذى أطعم أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾ رب هب لى حكماً وألحقنى بالصالحين ﴿ واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ﴾ واجعلنى من ورثة جنة النعيم ﴾ [الشعراء : ٦٩ - ٨٥] .

هذا رسول الفطرة - جد نبينا محمد ﷺ - يعرض الإيمان عرضاً فطرياً ، وما يصد عن الإيمان إلا غيبى أو مريض القلب والعقل .. إبراهيم يُرسى منطق الفطرة ، ولذلك كان من أدعية النبي ﷺ التى علمها أصحابه : « أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص وسنة نبينا محمد ﷺ وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » (١) .

فى قصص الأنبياء الذين جاءوا بعد إبراهيم وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب نلمح عدة جمل تتكرر هى فى مطلع قصة كل نبي مع قومه وهى : ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾ إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ فاتقوا الله وأطيعون ﴿ وما أسئلكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ [الشعراء : ١٠٥ - ١٠٩] ما قاله نوح هو ما قاله هود لعاد وصالح لثمود ولوط لقرى الموثفكة وشعيب لأصحاب مدين وأصحاب الأيكة .

وهذا يعطى فكرة بينة أن أنبياء الله يبلغون ويعلمون وينذرون

(١) رواه أحمد فى المسند ٤٠٦/٣ ، ١٢٣/٥ والدارمى فى الاستعذان - باب ما يقول إذا أصبح ٣٧٨/٢ والنسائى فى عمل اليوم والليلة - ذكر ما كان النبي ﷺ يقوله إذا أصبح ص: ١٣٣ والطبرانى فى الكبير - فى الدعاء . وقال فى صحيح الجامع (٤٦٧٤) : صحيح .

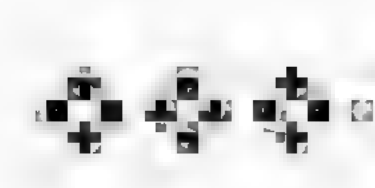
ويشرون لا يبتغون من وراء كدحهم للأمم وتعليمهم للناس وهدايتهم للجماهير أجراً من أحد ولا مكانة عند أحد ، إنهم يرجون ما عند الله ويبتغون ما عند الله ، ولذلك يعلم النبي ﷺ الدعاة إلى الله أن تكون نيتهم وجه الله وأن يكون هدفهم ما عنده وحده فيقول : « ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » (١) .

يعنى أن كل حريص على المال وعلى الدرجات ما يمكن أن يكون حرصه هذا عنصر سلامة لدينه وإيمانه ، بل سيكون هذا الحرص على المال والوجاهة مهلكاً لدينه وإيمانه كما تهلك الذئب الجائعة قطع غنم أرسلت فيه .

ولذلك كان على لسان النبي ﷺ باستمرار لقومه : ﴿ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد ﴾ [سبأ : ٤٧] .

وبقيت من سورة الشعراء شروح آيات الله في الأمم السابقة تستصحب مع النذير الخاتم عليه الصلاة والسلام لنا معها موعد .
والله ولى التوفيق ..

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .



(١) رواه الترمذى فى الزهد - باب ٣٠ وقال : هذا حديث حسن صحيح ٤٦/٧ وأحمد ٤٥٦/٣ ، ٤٦٠ والدارمى فى الرقاق - باب ما ذئبان جائعان ٣٩٤/٢ وأبو يعلى وابن حبان . وقال فى صحيح الجامع (٥٦٢٠) : صحيح .

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ﴾ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [الشورى : ٢٥ : ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المين .

وأشهد أن محمداً رسول الله خاتم النبيين وإمام المرسلين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإن علينا معشر الدعوة إلى الله أن ننصف الإسلام وأن نعرض حقيقته وضيئة لامعة لا يعيبها عيب ولا يشينها شيء .

الإسلام هو شرعة الله التى توسطت ما يدعو إليه المتطرفون من يمين أو يسار ، وكما يخرج اللبن من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين فكذلك شرعة الإسلام ما بين المغالين أقصى اليمين أو المغالين أقصى اليسار إن صح التعبير .

فإن الإسلام دين يعرض نفسه وحقائقه وفضائله وخيراته للأمم التى تأخذ به عرضاً ينبغى أن يقوم الدعوة إلى الله بتجليته حتى لا يختلط به ادعاء هؤلاء أو ادعاء أولئك .

قرأت أن نحو خمسمائة سجين قتلوا فى سجون (إيران) فى ظل ملك مسلم !! .

وقرأت أن هناك إقطاعاً طائشاً أحرق فى (المغرب) !! .

وقرأت أيضاً : أن الذين يقاومون الملك الجائر هنا والملك الجائر هناك يساريون لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر !! .

فقلت فى نفسى : كلا الطرفين لا يستحق منى تأييداً ولا تكريماً :

الذى يدعى الإيمان وبه يملك السحت وبه يقتل الأحرار وبه يؤخر الشعوب كاذب فى دعوى الإيمان ، كاذب فى نسبته إلى النبي ﷺ .

والذى يعرض الحرية أو ما يسميه بالعدالة الاجتماعية وهو متحلل من قيود الإسلام متجهم لهدايات الوحي ولوصايا الأنبياء ملخصة أدق تلخيص وأجمله فى الدرر التى ألقاها علينا صاحب الرسالة العظمى قرآناً كريماً وسنة خاتمة الذى يريد عدالة اجتماعية وهو مخاصم للنبي ﷺ ورسالته فهو كذاب دجال .

كلا الفريقين عدو لى ، والذى أعرفه : دين أتى بعبادة الله وحده وبتحرير الناس على سواء ، الذى أعرفه : دين يقول حاكمه : (أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم) (١) . ومعنى هذا أن الرباط بين الحاكم والمحكوم من جهة وبين الله جل جلاله من جهة هو الدين ، نلتقى عليه حاكماً ومحكوماً .

أما أن يجيىء حاكم – باسم الدين – ليلتهم الدنيا والآخرة فهو كاذب ولو ادعى أنه ابن النبي ﷺ ، وأما أن تجيىء شعوب تستمع إلى دعاة حُقم يقولون: إن التحرر عن طريق البعد عن الدين فهذا هو الضلال المبين .

علينا أن نعرض الإسلام لا كما يفهمه الملوك وأذناهم وحواشيهم أو حكام الجور ومن يخطط معهم ومن يحطب فى حبالهم هؤلاء جميعاً ليسوا من الإسلام فى شيء ، والذين يتصايحون برفع المستوى الاقتصادى وما إلى ذلك هؤلاء وأولئك كذبة .

الإسلام خط وسط ، جمع فى كتابه وسنته بين ما لله من حقوق لا يجوز أن تنسى أبداً وبين ما شرع الله للكادحين وأصحاب الأموال من حقوق لو عرفوها والتزموها ماكان هنالك تظالم ولا كان هنالك كفران ولا كان هنالك داع إلى الإلحاد يستجلب من شرق أو غرب .

(١) جزء من خطبة لأبى بكر رضى الله عنه ذكرها ابن كثير فى البداية والنهاية وقال : هذا إسناد صحيح ٣٠١/٦ .

أيها المسلمون : اعرفوا دينكم ، وخذوا الحق من مصادره لا من السنة الكاذبين المرتزقة ممن يعملون هنا أو هناك للملوك أو لأعداء الملوك من الشيوعيين .

الحق مع الإسلام وحده ، مع نبيه ﷺ وصحابته رضي الله عنهم والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .
عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

• • •

بمسجد السيدة زينب رضي الله عنها بالقاهرة سنة ١٤٠٦ هـ

الحمد لله حمداً مضاعفاً بالشكر والثناء والتمجيد : ﴿وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الدن ولا كنبره تكبيراً﴾ [الإسراء : ١١١] .

الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر .
الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر ما قامت بربها الأشياء وسُبِّحت
بحمده الأرض والسماء . الله أكبر ما بقى العالم أجمع محكوماً بأسمائه الحسنی
وصفاته العلی ، فما من شيء إلا وهو خالقه ، وما من أمر إلا وهو مدبره ،
ولا من خير إلا وهو سائقه ، ولا من فضل إلا وهو رازقه ، ولا من نور إلا
وهو مَشرِّقه ، سبحانك ربنا ولك الحمد كما تحب وترضى .

الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . سبحانك ربنا أنت التواب سبقت
رحمتك غضبك ، وأنت الودود لا تكسیر خاطراً لأمريء وقف ببابك ولاذ
بجنانك ، وأنت القدير لا يعجزك شيء في السموات ولا في الأرض ، وأنت
الغني لا تنفد خزائلك ، وأنت الواسع : الملكوت الرحب جزء من خلقك
الفخم الضخم ، سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

الله أكبر . ما بقيت الأدلة تتجدد على مر الزمن شاهدة بأن القرآن حق وأن محمداً ﷺ حق وأن الإسلام العظيم حق ، لقد قلت وأنت المصدوق الصادق : ﴿ سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ [فصلت : ٥٣] .

وتمر القرون بعد القرون والعصور بعد العصور لتشهد الناس على أنه ليس بعد التوحيد عقيدة ، ولا بعد الإسلام شريعة ، ولا بعد محمد ﷺ

نبوة ، ولا بعد هديه هدى ، ولا بعد البصائر التي أنارت العالمين شيء يستنير به العالمون .

الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . وإن ضاق بالتكبير من ضاق من أهل الإلحاد والظلمة ، ولكننا نكبر ربنا ونحمده ولو كره الكافرون ، سوف نعبد الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .

إن هناك أناساً أحبوا شركهم واستلذوا ضلالهم ، وكما قال ربنا : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

بهذا الحب الأشد سوف يهزم الحق بالباطل ، وسوف يمضى على طريقه المستقيم فلا ينتهى له نشاط دون الجنة التي عرضها السموات والأرض .
الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير .

ونشهد أن محمداً رسول الله ، خيرته من خلقه ، قمة العباد ، الإنسان الأول في الوجود شرفاً وإقداماً وكرماً وإعزازاً لأمر ربه وتمسكاً به حتى أتاه اليقين ، نعم هو الإنسان الأول الذى أجرى الله على لسانه : ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ﴾ لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴿ [الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣] . إنه المسلم الأول الذى تبقى هدايته فى أرض الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لا يزهدها فيها إلا هالك ، ولا يزيغ عنها إلا زائع .

صلوات الله وسلامه على نبيه المصطفى ، ونحن على هذه الشهادة لله بالوحدانية ولنبيه بالرسالة باقون أبداً ، عليها نحيا ، وعليها نموت ، وفى سبيلها نجاهد ، وعليها نلقى الله : ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون ﴾ وانتظروا إنا منتظرون . والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴿ [هود : ١٢١ - ١٢٣] .

أما بعد :

فإن الأعياد في الإسلام ليست أسواق طعام وشراب ، وليست ميادين
هو ولعب ، إن الأعياد في حضارتنا ارتبطت بذكريات عزيزة وقيم غالية ،
العيد الأول ارتبط بالشهر الذي يصوم الناس فيه ونزل القرآن الكريم فيه ،
والعيد الكبير ارتبط باكتمال الوحي في الأعم الأغلب ، ارتبط باكتمال الدين
﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم
الإسلام ديناً ﴾ [المائدة : ٣] ربما يكون اكتمال الدين - على ظاهره -
تمام القرآن الكريم ، وهذا صحيح ، فإن القرآن الكريم ظل ينزل به الوحي
المبارك نحو ربع قرن ، وانتهى مع ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت
عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ وإن كان أهل الحديث يرون
أن سورة النصر نزلت بعد ذلك ثنعي النبي ﷺ أجله ، وأن آخر آية نزلت
﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم
لا يظلمون ﴾ [البقرة : ٢٨١] .

ليكن ، فاكتمال الدين تم مع هذا العيد الكبير ، لكن الأمر الذي ينبغي
أن يعرفه المسلمون أناكتمال الدين نظرياً صحبه اكتمال البيئة التي تُصدره
لأرجاء العالم ، فالنبي ﷺ ما ترك جزيرة العرب إلا بعد أن رى جيلاً من
الخلق هو أزكى ما عرفت أقطار الشرق والغرب ، وأنقى الناس ضمائر ،
وأصحهم عقولاً ، هذا النبي الكريم ﷺ رى الجيل الذي حمل الرسالة بعده
للعالمين ، وكان بتضحيته وأخلاقه ونشاطه وشجاعته هو الذي نقل الإسلام
من جزيرة العرب لكي يستقر في القارات الخمس ، ولا يزال الإسلام
ينطلق مادة وعدداً إلى الآن ، ومع المحاولات الرهيبة لوقف المد الإسلامي ،
فإن الإحصاءات الصحيحة التي نذكرها مراغمين بها مزورى الإحصاءات
أن عدد المسلمين الآن ربع سكان الكرة الأرضية ، ففي كل أربعة
أشخاص يسكنون هذه الأرض رجل ينتمى إلى الإسلام ، لكن هذا الانتماء
يحتاج إلى شيء من المراجعة والتصحيح ، وهذا عملنا الذي نحب أن نتعارف
عليه وأن نتعاون فيه وأن نتجمع لنبلغ أهدافه ونصل إلى نهاياته .

أيها الإخوة :

يشير العيد الذي نحتفل به الآن إلى مُخلِّق كَوْنِه النَّبِيُّ ﷺ في الأمة ، وهو خلق لا بد منه لتكوين كل جماعة وتصحيح كل نهضة وإنجاح كل حركة ، وهو خلق الصبر .

إن طبيعة الحياة التي نحيهاها أنها اختبار مزعج موجه ، قد يكون اختباراً بالبأساء - الأزمات الاقتصادية - وقد يكون اختباراً بالضراء ، وقد يكون اختباراً بالناس ، يُختبر الإنسان بأخيه الإنسان ، يُختبر الحاكم بالشعب ، والشعب بالحاكم ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً ﴾ [الفرقان : ٢٠] .

إن هذا الاختبار لا بد منه لدعم الرجولات وإنشاء البطولات ، فإن مواطن الراحة لا تصنع رجولة ، والرخاء الموصول لا يكون معدناً صلباً ، يقول أحد رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية : لا تسأل الله أن يخفف حملك ولكن اسأل الله أن يقوى ظهرك . إن خفة الحمل شأن الأطفال ، أما الذي ينهض بالأحمال الثقال ويتحمل الأعباء الشداد فهم الرجال ، وعندما تغلب طبائع الناس في حب الراحة والاستجمام يحجى الوحي الأعلى لينبهم إلى الحقيقة التي يريدون تجاوزها والبعد عنها فيقول الله تعالى للمسلمين : ﴿ أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

وهذا الاختبار ليس اختباراً سهلاً ، إنه يظل مراحل من الزمان والمكان حتى تكاد الأرواح تزهق ، يضرب القرآن الكريم المثل لذلك في أماكن كثيرة .

في قصة إبراهيم مع ابنه إسماعيل ، ولا نخرج عليها لأنكم تحفظونها . وفي قصة بني إسرائيل عندما طاردتهم فرعون وخرج بقومه وراءهم وهم هاربون من ظلمه ، كان بنو إسرائيل يشعرون أنه إذا أدركهم فرعون هلكوا

وكان بطشه بهم شديداً ونكاله لعيناً ، ولكن فرعون بجيشه ظل يتعقب بنى إسرائيل الهارين حتى كاد يلحق بهم ، وشعر بنو إسرائيل بهذا ﴿ فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ﴾ قال كلا إن معى ربي سيهدين ﴾ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ وأزلفنا ثم الآخرين ﴾ وأنحينا موسى ومن معه أجمعين ﴾ ثم أغرقنا الآخرين ﴾ [الشعراء : ٦١ - ٦٦] .

وانتهت قصة البطش وأسطورة الألوهية الكاذبة ، وكم حكمت الأرض من مصارع للظلمة ، وكم سجل التاريخ من مآس لمن غالبوا الله فغلبهم وقاوموه فهزمهم ، وانتهى الأمر إلى من قال عن نفسه : ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ [الشورى : ٥٣] .

لقد كوّن النبي ﷺ جيشاً من المسلمين الأولين كانوا رجالاً ونساءً بنين وبنات مؤمنين بربهم إيماناً حسناً واثقين منه ثقة بالغة ، ولذلك انتصروا وفرضوا أنفسهم على العالمين ، كانوا قبل الإسلام العالم الثالث - بتعبير عصرنا - وبعد الإسلام أصبحت الأمة الإسلامية هي العالم الأول : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ﴾ [الأعراف : ١٣٧] .

هنا نتساءل : كم من الزمن يحتاج إليه هذا التغير أو هذا التحول ؟ يجب أن نعلم أن الزمن جزء من العلاج ، وأن من المستحيل أن تبلغ مناك بين عشية وضحاها إذا كان قدر الله أن هذه الأمانى لا تتحقق إلا خلال السنين الطوال ، وقد اختلف علماء الاجتماع فقال بعضهم : يمكن أن تكون أمة خلال أربعين سنة ، ولعلمهم نظروا في هذا إلى ما حكاه القرآن الكريم عن بنى إسرائيل عندما رفضوا أن يدخلوا الأرض المقدسة : ﴿ قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾ [المائدة : ٢٦] .

قال العلماء : خلال أربعين سنة هلكت الأجيال الجبانة وذهب الخائعون الذين يستحبون الذل ويرتضون الدنية ، ذهب هؤلاء ونشطت أجيال أخرى قادها يوشع لكي تدخل الأرض المقدسة .

قال العلماء : أربعون سنة يمكن أن تكون فترة تغيير لتحول المجتمع من الفوضى إلى النظام ، ومن الفرقة إلى الوحدة إلى غير ذلك .

لكن المعروف أن نبينا عليه الصلاة والسلام كَوْن الأمة - التي هي خير أمة خرجت للناس - خلال ثلاث وعشرين سنة !! .

قالوا : لكن هذه إمكانات محمد ﷺ الرجل الذي أوتي من طيبة النفس ونقاء القلب وذكاء العقل ونور البصيرة ما سكب في نفوس مَنْ حوله من أصحابه فإذا هم يتحولون إلى فرسان بالنهار ورهبان بالليل وإذا هم يتحولون إلى خلق آخر .

والحقيقة أن الزمن الذي تتكون فيه أمة إنما يرجع طويلاً وقصراً إلى مقدار الجهد الذي تبذله هذه الأمة شعباً وحكومة كي تنتقل من الظلمات إلى النور .

إن الشعب هو الحكومة والحكومة هي الشعب ، إنما لانريد أن نُفَرِّق بين الجسم والروح ، إنما نريد أن نقول للناس : يوم يعرف كل امرئ ما عليه بأمانة ويؤديه بثقة وقدرة فإنه يصل إلى غايته ، وهو الذي يحدد الوقت بنشاطه أو تكاسله .

إن الأمم لا تُخلق بالأوهام ، إن الأمم لا تُخلق بالخيال ، إن الأمم لا تُخلق بالكاذيب ، إذا أردت أن تبني قصراً مشيداً شاهقاً فإنك تأتى بأقوى ما في الأرض من مواد حتى تبنيه ، كذلك الأمم ، إنما تبنى بالأخلاق ، وفي بيئتنا لا أخلاق دون عقيدة ، فيوم يتوافق الشعب والحكومة معاً على أن العقيدة والأخلاق والقيم الرفيعة والتقاليد الراشدة هي شرايين الحياة في كيان جسم يريد أن ينطلق فإننا واصلون إلى غاية في أقرب وقت .

لكن الإيمان - فيما أرى - تحول إلى كلام*، الإيمان أخلاق أساسها بالنسبة إلى الله : الصبر والشكر والتوكل والحب والخوف والرجاء والورع والتوبة ، هذه مراحل تجعل صلات الناس بربهم نابضة بالقوة وليست حركة شبح عديم الحياة ، هذه أخلاق المؤمنين مع الله فهم قانتون مخبتون خاشعون ، هكذا كان سلفنا - حكومة وشعباً - موصولاً بالله .

يقول علماء الحديث : (كان عمر رضى الله عنه يكبر في قبته بمنى فيسمعه أهل المسجد فيكبرون ويكبر أهل الأسواق حتى ترتج منى تكبيراً) (١) فإذا أنت أمام دولة وأمة تتعاون كلها على أن الكبرياء لله ، والعظمة لله ، والركوع والسجود لله ، والإخبات والتوكل على الله ، والاستمداد والاستلham من الله !! .

إن أمتنا أمة التوحيد ، وهذا التوحيد يجعلها تحسن العبادة ، وترفض أن يكون في الأرض جبروت أو ملكوت لغير الواحد القهار : ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ﴾ لقد أحصاهم وعدهم عدداً * وكلهم آتيهم يوم القيامة فرداً ﴿ [مريم : ٩٣ - ٩٥] .

ثم هناك بعد ذلك الأخلاق بين الناس بعضهم والبعض الآخر ، هذه الأخلاق التي عدّها صاحب السنة المشرقة أركان الإيمان ، وعدّها انعدامها أركان النفاق : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » (٢) .

بهذه العقائد والأخلاق ، ثم بالأمانة في كل منصب يتولاه الإنسان تبنى الأمم ، ولنتدبر قول نبينا عليه الصلاة والسلام :

(١) رواه البخارى في العيدين - باب التكبير أيام منى ٢٥/٢ .

(٢) رواه البخارى في الإيمان - باب علامة المنافق ١٥/١ ومسلم في الإيمان - باب بيان خصال

المنافق ٥٦/١ .

« ما من أمير عشرة إلا يؤتى به مغلولاً يوم القيامة حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور » (١) .

وجاء في الحديث أيضاً : « إنه لا قُدّست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير مُتَمَتِّع » (٢) .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

* * *

(١) رواه البزار والطبراني في الأوسط ورجال البزار رجال الصحيح كذا في الترغيب والترهيب ١٣٩/٣ وقال في صحيح الجامع الصغير (٥٦٩٥) : صحيح .

(٢) رواه ابن ماجه في الصدقات - باب لصاحب الحق سلطان . وإسناده صحيح ٨١٠/٢ ومعنى متمتع : أى من غير أن يصيبه أذى يقلقه أو يزعجه .

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين ،
وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أما بعد :

فإن ديننا واضح ، أساسه كتاب كريم وسنة مطهرة ، والحقيقة أنى
رأيت أمتنا - وأنا أطوف في العالم قريه وبعيده - محبة لدينها حريصة عليه ،
واستيقنت من أن الصحوة الإسلامية حق ، أحسست بذلك وأنا على
شواطئ الأطلسي ، وأنا عند شواطئ الهندي في باكستان وسريلانكا ،
وكنت أحس هذا المعنى وأنا أعانق قائد جيش المسلمين في مورو في الفلبين
الذين يستमितون لعمل دولة إسلامية تحمي بيضتهم وتصون حقوقهم وتمنع
طغيان الطاغين الذي نال كثيراً منهم .

أيها الإخوة :

أخوة الإسلام رحبة لا تعرف قطراً ولا حداً ، كان للسيد محمد رشيد
رضا رحمه الله أم - لعلها تشبه المصريين في تلمسهم للنكته - عندما ترى
ابنها يستيقظ في الصباح وهو منقبض أو مكثب تقول له : مالك حزيناً
أما مسلم في الصين فأنت حزين من أجل ذلك ؟!

إن الرجل كان يحمل آلام المسلمين حيث كانوا ، وتلك طبيعة
الإسلام ، لكنني وجدت هذه النهضة أو هذه الصحوة تمضي في طريقها
بطء شديد ، إنها موجودة ولن تختفي أبداً لأن الذي قال : ﴿ إنا نحن نزلنا
الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [الحجر : ٩] لا يحفظ الذكر حبراً على
ورق ، لا يحفظ الذكر أصواتاً مسجلة ، وإنما يحفظ الذكر بأمر تعمل له
وتعمل به وتجاهد في سبيله ، فأنا أعلم أن الأمة الإسلامية قد تعطل ولكن

مهما برّحت بها العلة فلن تموت وستُرزق الأساة والدعاة والهداة الذين يمهّلون لها الطريق ويصلون بها إلى الغاية إن شاء الله .

من أسباب بطء الحركة الإسلامية أو الصحوة الإسلامية في أيامنا الأخيرة أن عدداً كبيراً من المنتمين إليها كانت لهم أصوات أكثر من اللازم ، كان لهم صياح لا يؤيده العقل ، فما الذى حدث ؟ شعر بهم خصومهم فضاعفوا الاستعداد لكبحهم وأعدوا قوًى كثيرة للنيل منهم ، ماذا عليكم يا أصحاب الصحوة الإسلامية لو لذتم بالصمت ، صابروا الأيام ، كافحوا الرغبة في الكلام .

أنا جئت من الجزائر ، وكان هناك شباب يدخل في الدعوة في الصباح وبعد يوم أو يومين يجيئني وقد وضع خطة لإعلان الحرب على الاتحاد السوفيتي !! أقول له : ويحك ، اجعل الإسلام في بيتك أولاً ، ثم في حارتك ، ثم في الشارع ، ثم في البلد ، ثم في الدولة ، ثم فكر في أن تدعو الناس ودليلك على صدقك حالتك الحسنة وإنتاجك الجيد ، أراد أن يكابرني - قلت له : ويحك ، إنه لما كان المستعمرون هنا كان الهكتار من الأرض - يشبه فدانين - ينتج خمسة وثلاثين قنطاراً ، وهو الآن ينتج سبعة قناطير !! .

إن وجهي يَسْوَدُّ عندما أرى العمل يخرج من بين أصابع الكافر كاملاً مجوداً وجيهاً ، فإذا خرج من بين أيديكم خرج ناقصاً أو مشوهاً أو سيئاً العرض !! .

علام تستعجل ؟ ابن نفسك بالإيمان والأخلاق ؟ اجعل الشارع مسلماً ، اجعل البيت مسلماً ، انصح الحاكم ، إنك مكلف من ربك بأن تحسن الكلام حتى مع أدياء الألوهية لكي لا يكون لهم عند الله عذر .

أيها الإخوة :

إن هناك أقداراً مرسومة تسيّر بها الأمم والشعوب ، هناك قوانين إلهية لا تتخلف لقوله تعالى :

﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ﴾ [آل عمران : ١٦٠] وقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾ [يونس : ٨١ ، ٨٢] وقوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ﴾ ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾ [إبراهيم : ١٣ ، ١٤] .

إن أمتنا بحاجة وهي تمتد يدها إلى ربها لينصرها أن تقيم أحكامه في البيت وفي الشارع وفي الدولة وفي الديوان وفي كل مكان ، إننا مكلفون أن ننفذ أحكام الله في بيوتنا ، الحكم بما أنزل الله مطلوب من الشعب ومن الدولة ، مطلوب من التاجر ألا يغش ، ومطلوب من الدولة ألا تفضل حكماً استعمارياً مجلوباً مع الاستعمار على حكم نزل به كتاب الله وجاءت به سنة رسول الله ﷺ ، والحكومة والشعب يتعاونان معاً على أداء حق الله وعلى بلوغ الأمل الذي نصح به من علة ونكث به من قلة ونعتز به من ذلة .

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

نَظَرَاتٌ فِي سُورَةِ "الرُّومِ"

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فخطبتنا اليوم حول سورة الروم ، نلقى نظرة عامة عليها داعين الله سبحانه وتعالى أن نستفيد مما أودع فيها من هدايات وما بث فيها من عبر .

سبق أن قلنا: إن هذه السورة نزلت في مكة المكرمة قبل الهجرة النبوية ببضع سنين وأن صدر السورة تحدث عن الهزيمة التي سحقت الروم أمام الفرس ثم تنبأ أن أولئك الأروام بعد هزيمتهم سوف ينتصرون . وكان جديراً بالتاريخ الصليبي أن يحتفى بهذه النبوءة ، وأن يتحدث عنها ، ولكنه حاول تحريف الكلم عن مواضعه ، وأن يغضّ من شأن النبوءة التي صدقتها الأيام وكشفت أن صاحبها ما تحدث بها إلا ملهماً من رب العالمين عن طريق الروح الأمين .

نتجاوز هذه النبوءة لتحدث عن السورة نفسها ، وأول السورة أشار

إلى أمر يعيننا نحن الآن ، فإن العرب كانوا أمة ضعيفة يوم كان الروم والفرس يملكون أزمة الدنيا ، والضعيف أحياناً يلتمس لنفسه وجاهة عندما يتعلق بجهة أو بأخرى ، ويظن أن تبعيته لأحد الأقوياء تعطيه فضلاً من مكانة ، وهذا جهل كبير ، لنفرض أن المجوسية انتصرت في فارس فهل انتصار المجوسية في فارس يعطى الوثنية العربية قوة أو يرد باطلها حقاً ؟ كلا . ما قيمة هذا الانتصار ؟ لا قيمة له . ولنفرض أن النصرانية انهزمت في بلاد الروم – وعلى يد أتباعها – فهل يضير ذلك المسلمين أو يرد حقهم باطل ؟ كلا . لا يضير ذلك دعاة التوحيد ولا ينال من حماسهم لدينهم وإخلاصهم لربهم .

لكن بعض الضعاف له مع الأقوياء المنتصرين في العالم تصرفات وتعلقات وتعليقات يجب أن نلقى عليها ضوءاً ، يجب أن يعلم الضعاف أنهم إن أرادوا أنفسهم مكانة فذلك عن طريق خصائصهم وتنميتها ، وعن طريق رسالتهم والوفاء لها ، أما أن تكون الأمم الضعيفة ذنباً لإحدى الجبهتين فذلك لا يعطيها مكانة أبداً .

عندما تقدم الألمان ناحية الإسكندرية في الحرب العالمية الثانية استمعنا إلى بعض الأصوات الطائشة تقول : تقدم يا روميل (١) !! فلنفرض أنه تقدم فماذا سيصنع إلا أنه سيحرق الحرث والنسل ؟ والذين كانوا يكرهون الاستعمار البريطاني ويميلون إلى مهادنة زبائنته أكان هذا الميل يشرف أمتهم أو يعطيهم شيئاً من القدرة على المستقبل ؟ كلا .

من أخطاء الضعاف هذا التعلق الغريب بالقوة المتصارعة في العالم ، ولعل بعضهم يحسب أن صراع الأقوياء ينفع الضعاف ، إن صراع الأقوياء قد يكون عاملاً ثانوياً في انتفاع الضعاف بما قد يقع ، لكن الحقيقة الأصلية في القضية كلها أن صراع الأقوياء لا يهب الضعاف قوة وأن العرب أو

(١) عسكري ألماني من أشهر قواد الحرب العالمية الثانية ، وهو فيلد مرشال أروين روميل ، ولد بإقليم سوابيا ١٨٩١ وتوفي متأثراً بجراح من أثر انفجار قنبلة في ١٤ أكتوبر ١٩٤٤ م .

المسلمين عموماً ما ينفعهم أن تتقاتل الجبهتان في العالم إذا بقوا هم خونة لرسالتهم أو ضعاف التعلق بها أو قليلي الاستفادة منها ، فلو فنيت القوتان المتنازعتان على امتلاك الأرض وبقي المسلمون لا يفهمون من دينهم إلا صوراً لا حقيقة لها فإن صراع الأقوياء لا يشرف الضعاف ولا يقدمهم خطوة إلى الأمام ، إنك وحدك — أيها الضعيف — الذي تملك أن تقوى يوم تحسن العمل ويوم تخطو إلى الأمام بقوتك الخاصة ، ولعل ذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة وهي تعلق على ما كان بين الروم والفرس :

﴿ ألم • غلبت الروم • في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون • في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون • بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم • وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون • يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون • أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بقاء ربهم لكافرون • أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون • ثم كان عاقبة الذين أساءوا السواى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾ [الروم : ١ - ١٠] .

إن حضارات كثيرة حكمت العالم ومدنيات شتى تقلبت على هذه الدنيا ، ولكن تاريخ الحضارات المنقرضة أو المزدهرة وهذه الدنيا التي نعيش في ظلها ، كل هذا ينطق بأن ما عدا الله باطل وأن ما عدا الحق سخف

﴿ فذلکم الله ربکم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾ [يونس : ٣٢] .

ولذلك جاءت سورة الروم بعد أن حقرت علم الأقوياء بهذه الدنيا تنبه إلى أن هؤلاء الضعاف في جزيرة العرب يستطيعون أن يقودوا حضارة جديدة أساسها أن تعرف ربك ورَفْدَهُ (١) ومجده ثم تكون هذه المعرفة سبباً في أن تسبح بحمده وأن تنوه بمجده .

(١) الرفد : العطاء والصلة .

ولذلك تحدثت سورة الروم عن الله جل جلاله الحديث السهل الذى لا يعرف تعقيدات الفلاسفة ولا غموض المتكلمين :

﴿ الله الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون ﴾ [الروم :

١١] .

﴿ الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميّتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ [الروم : ٤٠] .

﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله ﴾ [الروم : ٤٨] .
﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾ [الروم : ٥٤] .

وذكرت السورة ست آيات متعاقبة تبدأ كل آية بتوجيه النظر إلى بعض آيات الله :

أول هذه الآيات :

﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ [الروم : ٢٠] .

كَوَّم من التراب الهامد الجامد تلمسه أصابع القدرة فإذا هو يتحول إلى فواكه وإلى حبوب تلمسها أصابع القدرة فإذا هما يتحولان في جسد الإنسان إلى خلايا حية تبنى اللحم والعظم وتشد الأعصاب وتنشئ الأعاجيب في هذا الكيان ، ثم يتحول الإنسان بالقدرة العليا إلى كائن يجرى في القارات الخمس ثم تبلغ به القدرة إلى أن يحاول الوصول إلى الكواكب الأخرى !! .

من الذى جعل حفنة من التراب - تلوث راحة اليد - تتحول إلى إنسان ذكى قوى عبقرى مكلف يختار لنفسه ويتجبر أحياناً فيكون فرعون

ويتواضع أحياناً فيكون إنساناً كريماً ؟ .

إنه الله : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر
تنتشرون ﴾ [الروم : ٢٠] .

آخر هذه الآيات الست : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض
بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ [الروم :
٢٥] .

هذه الآية تعطى معنى لا بد من شرحه :

إن السيارة تشحن « بالبنزين » وتظل تدور آلاتها وتنطلق عجلائها
إلى أن ينفد الوقود فتتوقف .

إن المنبه تملؤه ثم في الوقت المعين يبدأ جرسه يدق ثم ينتهى الدق مع
انتهاء الشحنة التى كانت فيه .

لكن هناك إنساناً يدور قلبه باستمرار ، تتحرك الرئتان باستمرار ،
ينطلق هذا الإنسان عشرات السنين دون أن توجد أشياء - نلمسها - تمده
ببقاء الروح في الجسد !! .

ما الروح ؟ ما علاقتها بهذه الأعضاء ؟ كيف تجعل القلب يدق ؟
كيف تجعل الصدر يمتلئ بالشهيق والزفير ؟ كيف تجرى الدم في العروق
بسرعة كذا ميل في الساعة ؟ .

من يصنع هذا ؟ الله ! هو الخالق الأمر : ﴿ ألا له الخلق والأمر
تبارك الله رب العالمين ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

وهنا في سورة الروم يقول : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض
بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ [الروم :
٢٥] .

وبين الآيتين حديث عن المجتمع الصغير وهو الأسرة :

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل
بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ [الروم : ٢١]

ثم حديث عن العالم الكبير :

﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم
إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ [الروم : ٢٢] .

﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغائكم من فضله إن في ذلك
لآيات لقوم يسمعون ﴾ [الروم : ٢٣] .

﴿ ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء
فيحيى به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ [الروم :
٢٤] .

ثم جاءت آية أخرى منفردة وهي :

﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته
ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ [الروم :
٤٦] .

هل تحدث كتاب في الدنيا عن الله بمثل هذا الإشراق ؟ .

هل تحدث كتاب في الدنيا عن الله بمثل هذا التمجيد ؟ .

هل تحدث كتاب في الدنيا عن الله بمثل هذا الوضوح ؟ .

الجواب : لا .. فكيف يتهم الإسلام بأنه كيت وكيت ؟ .

ما يوجد الآن في القارات كلها كتاب تحمس للوحدانية وأحصى آيات
الكمال والجمال وشرح ما ينبغي لله من ثناء وما يجيئ منه من عطاء كهذا
القرآن !! .

هذا الدين هو دين الفطرة ، ولذلك جاء في هذه السورة :

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها
لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾
[الروم : ٣٠] .

ونبينا ﷺ هو نبي الفطرة ، ولذلك كانت الفطرة السليمة هي

ما يدعو إليه ، وقد ضرب المثل لذلك منتزِعاً من طبيعة البيئة التي يعيش العرب فيها .

« كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كمثل البهيمة تُنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء » (١) .

هناك تغيرات تقع للفطرة بعد الولادة ، يجيء البدوى في الصحراء فيقطع أذن البهيمة أو يرسم علامة معينة على جسمها ، وقد تكون هناك تغيرات للفطرة أساسها فساد الأبوين ، فالمفروض أن الولد يولد سليم العين والأذن ولكن إذا فسد الأب ومرض « بالزهرى » — لأنه استمرأ الزنا — فإن مرضه هذا لعنة تمتد منه إلى الجنين في بطن الأم ، فقد يولد أعمى ضائع البصر لأن الفطرة عدا عليها أب حقيق مصاب بالزهرى !! .

ديننا يعود بالبشر إلى فطرتهم ، ولو أن إنساناً ولد في جزيرة ليس فيها أحد ولم يتعلم من أحد شيئاً ما فكر أبداً إلا في أن للكون رباً واحداً لا ثان ولا ثالث ولا أكثر ولا أقل !! .

وقد نبه القرآن إلى هذه الفطرة في آية أخرى :

﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفهللنا بما فعل المبطلون . وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون ﴾ [الأعراف : ١٧٢ - ١٧٤] ..

* * *

للعلماء في شرح هذه الآية طريقتان :

(١) رواه البخارى في الجنائز - باب ما قيل في أولاد المشركين ١٢٥/٢ ومسلم في القدر - باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ٥٢/٨ وقوله : هل ترى فيها جدعاء : أى مقطوع الأذن ونقصان الأعضاء .

الأول يقول : إن الله - في عالم الذر - أخذ النفوس كلها وبسط عليها من أشعة جلاله وأخذ الميثاق أن تبقى موحدة له .

الثاني يقول : إن الآية تمثيل للطبيعة التي خُلق الناس بها ونشئوا في أرحامهم أمهاتهم عليها بل نشئوا في أدوار تفكيرهم من الطفولة إلى اليقظة عليها لولا ما يحيى من عوج البيئات الفاسدة ، ويقول هؤلاء : إن السؤال والجواب مثل قول العرب : قال الجدار للوتد لم تشقني ؟ قال : سل من يدقني !! .

ما قال الجدار شيئاً للوتد وما أجاب الوتد الجدار بشيء ، ولكن هذا مجرد تمثيل .

وأياً ما كان الأمر فنحن على ثقة من أن ديننا دين الفطرة ، وتطلع الإسلام إلى أن يستولى على الحياة العامة سببه أن أثر الحياة العامة في اعتدال الفطرة أو تشويهها خطير ، فإن العالم في أدواره الأولى كان يمكن أن يعيش عدد كبير منه بعيداً عن المجتمعات ، لكن الآن أصبحت للدول ضغوط هائلة على الأفراد ، ففي العالم الشيوعي حيث يقع نحو ألف وأربعمائة مليون من الخلق في ظل نظام يقول : « لا إله والحياة مادة » .. تتحرك جميع الإذاعات ووسائل الإعلام وتدخل مع الصورة في التلفزيون ومع الخبر في الراديو ومع القراءات والدوريات اليومية والأسبوعية والشهرية ومع الدراسات في الفصول والمدرجات ، مع هذا كله يُدرس الإلحاد .

فكون الإسلام عبادات ومعاملات أو عقيدة وشرعة سببه أن ترك الحياة العامة للفوضوية والجاهلية والنظم المنحلة يعتبر عدواناً على الفطرة .

فتطلع الإسلام إلى امتلاك الحياة العامة وإلى أن تكون الدولة بيده هذا أمر لا بد منه ، ما بُدَّ من أن تكون الدولة لله وأن يكون توجيهها لله ، وأن تكون صدى لفطرة الإنسان لا حرباً على هذه الفطرة وانحرافاً بمقادها إلى مزالق الشيطان وأهواء الأبالسة .

وقد جاء حديث - بعضه قدسي وبعضه نبوي - يشرح هذه الفطرة شرحاً ما بُدَّ من أن نقف عنده قليلاً أو كثيراً لأن بعض المتدينين يظن أن

التدين افتعال أو تكلف أو تزويق للظاهر ، والحديث هو :

« ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومى هذا ، كل مال (١) نحله عبداً حلال ، وإني خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنيهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم (٢) عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً ، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم (٣) إلا بقايا من أهل الكتاب ، وقال : إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك ، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان (٤) وإن الله أمرني أن أحرق قريشاً ، فقلت : رب إذن يثْلغُوا رأسى فيدعوه خُبْرَةٌ (٥) قال : استخرجهم كما استخرجوك ، واغزهم نُغْزِكَ ، وأنفق فسنفق عليك ، وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك ، قال : وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط متصدق موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قرى ومسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال ، قال وأهل النار خمسة : الضعيف الذى لا زَبَرَ (٦) له الذين هم فيكم تبعاً لا يبتغون أهلاً ولا مالاً ، والحائن الذى لا يخفى له طمع (٧) وإن دق إلا خانه ، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك ، وذكر البخل أو الكذب ، والشنظير الفحاش » .

(١) المال : المِلْك ، فمعنى المال كل ما يملك الإنسان .

(٢) أى استخففتهم فذهبت بهم وأزالتهن عما كانوا عليه وجالوا معهم فى الباطل .

(٣) المقت أشد الغضب ، وهذا النظر والمقت قبل بعثه نبينا ﷺ والمراد ببقايا أهل الكتاب الباقون على التمسك بدينهم الحق من غير تبديل .

(٤) قال القاضى : كناية عن كونه محفوظاً فى الصدور لا يتطرق إليه الذهاب ويحتمل أنه كناية عن تسهيل حفظه .

(٥) أى يشدخوه ويشجوه كما يشدخ الخبز أى بكسر .

(٦) أى لا عقل له يزيه ويمنعه مما لا ينبغي .

(٧) لا يظهر .

معنى قوله : « كل مال نحلته عبداً حلال » هو معنى قوله تعالى : ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ﴾ [البقرة : ٢٩] ، وهو أيضاً معنى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً ﴾ [البقرة : ١٦٨] .

من فساد الفطرة أن يلجأ بعض الناس إلى التحريم دون دليل .

طبيعة التدين الفاسد السرعة إلى التحريم دون دليل .

ومعنى قوله : « إنما بعثك لأبتليك وأبتلي بك » أى لأمتحنك ، وقد امتحن النبى ﷺ وكان بلاؤه مضاعفاً ، والعصمة - كما قال العلماء - لا تمنع المحنة .

ومعنى قوله : « وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان » أن القرآن وحده تميز بالخلود ، الكتب السابقة كتبت فى ألواح ، ممكن أن يُغسل الحبر ويبقى اللوح لا قيمة له ، لكن فى القرآن الكريم - وحده - اعتبر الحرف مقدساً ، اعتبر الشكل جزءاً من الموضوع ، واعتبرت الصياغة بعض الاستدلال الفقهى على الحكم المقصود .

ومعنى قوله : « وإن الله أمرنى أن أحرق قريشاً » أى أن أبلغهم الدعوة التى يكرهونها ، كانوا يكرهون التوحيد كراهية شديدة ويضيقون بصاحبه أشد الضيق قال تعالى : ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ [الزمر : ٤٥] ، وقال تعالى : ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون ﴾ [القلم : ٥١] وقال تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطرون بالذين يتلون عليهم آياتنا ﴾ [الحج : ٧٢] .

واستجاب النبى ﷺ لأمر الله وأخذ يحدث قريشاً بما تكره ، فكان ناس كثيرون يرونه من بعيد فيقولون : سيحدثنا فى الإسلام تعالوا نختفى من

وجهه ﴿ألا إنهم يشون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه علم بذات الصدور﴾ [هود : ٥] .

هذا الحديث شرح الفطرة شرحاً حسناً ، والفطرة السليمة هي العاصم وحده ، ولذلك تحدثت سورة الروم ، عن حال من يكون على الفطرة فقالت : ﴿منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين * من الذين فوقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون﴾ [الروم : ٣١ ، ٣٢] .

إن الناس إذا لم يجمعهم الحق فرقتهم الباطل ، إن الناس إذا لم تجمعهم العفة فرقتهم الشهوات . إن الناس إذا لم تجمعهم الدار الآخرة هلكوا في أودية الدنيا لكثرة متاهاتها ، والفطرة السليمة هي العاصم وحده .

بعد ذلك تحدثت سورة الروم عن أن الناس - بطبيعتهم - يعودون إلى الفطرة وتطيب قلوبهم وترق سرائرهم ويعتدل مزاجهم ، ويستقيم سلوكهم عندما يضعفون بالمرض أو بالفقر أو بضياح السلطة أو بذهاب القوة : ﴿وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون * ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون * أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون * وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون﴾ [الروم : ٣٣ - ٣٦] .

هؤلاء جميعاً يظنون أن الغنى تدليل من الخالق لبعض الخلق وأن الفقر إذلال من الخالق لبعض الخلق ، وهذا غلط : ﴿أو لم يروا أن الله ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ [الروم : ٣٧] .

يسط الرزق وقبضه اختبار إلهي محض ، ولذلك قال لمن عنده المال انجح في الاختبار بأن تؤدي حق الله وحده : ﴿فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون﴾ [الروم : ٣٨] .

افعل هذا لله لا لنفع عاجل : ﴿ وما آتيتهم من ربا ليربوا في أموال
الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتهم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم
المضعفون ﴾ [الروم : ٣٩] .

ثم بين أن الناس تحل بهم الكوارث وتذهب عنهم القوة وتشيع بينهم
الفوضى والاضطرابات بسبب أنهم لم يقوموا بأمر الله : ﴿ ظهر الفساد في
البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم
يرجعون ﴾ [الروم : ٤١] .

وبينت السورة على عجل أن الصراع بين حزب الحق وحزب الباطل
قديم وباق إلى قيام الساعة .

﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات
فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ [الروم :
٤٧] .

لكن متى ينتصر المؤمنون ؟ .

يوم تنضج الفطرة ويستقيم العقل ويسلم القلب من الغش والأحقاد ،
يوم يكون المؤمنون حقاً على مستوى الكلمة فإن المشكلة الكبرى التي
يواجهها العالم كله الآن هي متى يدخل العرب في الإسلام ؟ متى يكون
المسلمون مسلمين ؟ .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ﴾ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [الشورى : ٢٥ : ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المين .

وأشهد أن محمداً خاتم الأنبياء وإمام المرسلين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

عباد الله أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل .

أيها الإخوة :

إن كتابنا هذا مجمع الحقائق التى يفتقر العالم كله إليها ، وأود أن تتاح الفرص مستقبلاً إن شاء الله لنلقى نظرة عامة على سورة من سور القرآن نحاول أن نعرف المحور الذى تدور عليه والهدايات التى نفعلنا الله بأن أودعها فى طيات كتابه .

والتفسير الموضوعى شىء شغلت نفسى به لكى يكون نوعاً من الدعوة إلى فهم القرآن فهماً يلائم هذا العصر الذى يريد الناس منه زاداً سريعاً يقدم لهم وفيه وفاء بحاجتهم .

ويمكن أن يزداد الوعى بالتفسير عندما يعود الإنسان إلى مصحفه وإلى أحد التفاسير ومعه ما قلنا من نقط سريعة .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

• • •

الْأُمَمُ بَيْنَ الصُّعُودِ وَالْهُبُوطِ

خطبة الجمعة بمجمع الإيمان بالمنصورة

في ١٩٨٦/٧/٢٥ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فقد بحثت في علاقة بنى إسرائيل بنبيهم موسى عليه السلام ، وحاولت أن أعرف حقيقتها وأن أشرحها للناس وأشرح ما أعقبتها وما صاحبها من نتائج ، فإن قصص القرآن الكريم مصباح تنطلق أشعته منه لكي يعرف الناس الطريق الصحيح فلا يزيغوا ولا يضلوا .

بدا لي أن علاقة بنى إسرائيل بموسى لم تكن علاقة إيمان بالله وتقدير لحقوقه وتكريم لنبيه ، وإنما كانت أشبه ما تكون بعلاقة قوم مع من جاء يحرقهم ويدفع العذاب عنهم ، أو علاقة قوم برجل من بنى جنسهم يتعصبون له ويحتفون به ، وأخذت أتأمل ما جاء في القرآن الكريم في هذا المجال .. رأيت أن موسى عليه السلام بعد أن انتصر على سحر فرعون فاهتزت ألوهية الرجل الأحق ، وانكشفت صورته أمام الناس فإذا هو

مُخَذَّلٌ تَافَهُ ، ثُمَّ كَانَ إِيمَانُ السَّحَرَةِ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِثَارُهُمْ لِلْآخِرَةِ عَلَى الْعَاجِلَةِ كَانَ ذَلِكَ خَتْمًا لِدَعْوَى الْمُفْتُونِ بِأَنَّهُ إِلَهٌ .

لَكِنْ هَذَا النَّصْرُ الَّذِي أَحْرَزَهُ مُوسَى عَلَى خَصْمِهِ لَمْ يَدُم طَوِيلًا حَتَّى بَدَأَتِ الْحَنَّةُ تَنْزِلُ بِقَوْمِهِ وَبَدَأَ سَيْلُ جَدِيدٍ مِنَ الْحَنِّ وَالْفِتَنِ يَنْزِلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذِرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذِرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ الْحَاشِيَةُ الضَّالَّةُ تُغَرِّى فِرْعَوْنَ بَنِي اللَّهِ ، الْحَاشِيَةُ الضَّالَّةُ تُمَلِّى لِلرَّجُلِ الْمَغْرُورِ أَنْ يَمْضَى فِي طَرِيقِ الْفِتَنِ وَالْأَذَى ﴿ قَالَ سَنَقْتَلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ مَاذَا يَصْنَعُ مُوسَى أَمَامَ هَذَا الْبَلَاءِ ؟ لَا طَاقَةَ لَهُ عَلَى دَفْعِهِ وَلِذَلِكَ أَخَذَ يَصْبِرُهُمْ عَلَى لَأْوَاءِ هَذِهِ الْمَتَاعِبِ ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ مَاذَا كَانَ جَوَابُهُمْ ؟ كَانَ جَوَابًا رَدِيئًا ، فَقَدْ قَالُوا لَهُ : مَا اسْتَفَدْنَا مِنْكَ شَيْئًا ، بَعَثْتُكَ كَانَتْ صِفْرًا ، تَعَبْنَا قَبْلَهَا وَتَعَبْنَا بَعْدَهَا ﴿ قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلَفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الْأَعْرَافُ : ١٢٧ - ١٢٩] مَصَائِرُ الشُّعُوبِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ، مُسْتَقْبَلُ الدُّوَلِ فِي أَصَابِعِ الْقَدَرِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُخْذِلُ مَنْ يَشَاءُ ، مَنْ يَدْرِي ؟ قَدْ يَهْلِكُ عَدُوُّكُمْ ثُمَّ تَتَوَلَّوْنَ الْأُمُورَ مِنْ بَعْدِهِ ، تُرَى هَلْ سَتَكُونُونَ فِرَاعِنَةً مِثْلَهُمْ تَذَلُّونَ النَّاسَ ، وَتَنْصُرُونَ الْبَاطِلَ ، وَتَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَمْ سَتَكُونُونَ قَوْمًا صَالِحِينَ ؟ هَذَا هُوَ مَعْنَى كَلِمَةِ مُوسَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلَفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ .

مِمَّا يَذْكُرُ هُنَا أَنَّ صِلَاحَ الشُّعُوبِ جَمْلَةٌ أَوْ كَوْنُ الصِّلَاحِ يَنْتَظِمُ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بَعْدَ مَرَاحِلَ طَوِيلَةٍ ، أَمَّا فِي الْمَرَحَلَةِ الْأُولَى فَالنَّاسُ خَلِيطٌ وَأَغْلَبُ النَّاسِ يَتَّبِعُ مَا شَاعَ مِنْ تَقَالِيدٍ وَمَا انْتَشَرَ مِنْ بَدْعٍ وَأَحْكَامٍ وَلَا يَعْنِيهِ أَنْ يَحْيَا كَمَا وَرِثَ الْحَيَاةَ ، وَأَغْلَبُ الْيَهُودِ عِنْدَمَا ظَهَرَ مُوسَى كَانَ الذَّلَّ قَدْ رَسَمَ خَطُوطًا عَرِيضَةً عَمِيقَةً فِي أَعْصَابِهِمْ ، وَكَأَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّئِي (١) :

(١) دِيوَانُهُ : ٣٢٧/١ .

من بين يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام
فأكثر أتباع موسى ألقوا الذل والهوان ، ألقوا إذلال الفراعنة وأن
تنحني أصلابهم لغير الله ، وأن يُضربوا فلا يتألموا ، لكن عدداً قليلاً من
الناس سلمت فطرته وصحت عقيدته وعرف الدين صلة بالله ترفع الرؤوس
وتزكى النفوس وتجعل المؤمن يجتاز دروب الحياة وهو لا يعرف إلا ربه
ولا يبغى إلا رضاه ولا ينتظر إلا جده (١) .

وقد صرح القرآن الكريم في سورة يونس أن الذين آمنوا إيماناً فيه
صلاحية وقبول هم الجيل الناشئ ، أما الجيل الذي أَلِف الدنيا وتحمل ذل
فرعون دون أن يتمرد فقد فسد ، قال تعالى : ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية
من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعالٍ في
الأرض وإنه لمن المسرفين ﴾ [يونس : ٨٣] .

الشباب الجديد الناشئ هو الذي مضى مع خيالات المجد والتحرر
ومعرفة الله وحده ورفض الألوهية الأرضية واحتقار الأصنام الحية التي
يعبدها الناس في كل عصر ومصر .

وبعد زمن من التعذيب والتقتيل جاء الأمر لموسى بأن يتحرك من هذا
البلد ، وأصدر موسى أمره إلى بني إسرائيل بأنه في ليلة كذا يتركون بلادهم
متجهين نحو الصحراء الشرقية إلى شاطئ البحر ، وعرف بنو إسرائيل أنهم
خارجون من مصر ولن يعودوا فاستعاروا الحل من المصريين على أن تبقى
معهم قليلاً ثم تُرد وهربوا بها !! .

انظروا الفارق بين مسلكين ، عندما قرر النبي ﷺ الهجرة من مكة
إلى المدينة وكانت في بيته ودائع كثيرة للمشركين استبقى بعده علي بن أبي
طالب رضي الله عنه كي يرد الودائع إلى أصحابها (٢) فلا يكون اختلاف
الدين سبباً في التهام مال أو إضاعة حق !! .

(١) الجد : العطاء .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام : ١٢٦/٢ ، ١٢٧ وتاريخ الطبري ٣٧٨/٢ .

وخرج بنو إسرائيل - وهم سارقون - وراء موسى ، وبداهة ليسوا
كلهم لصوصاً ولكن عدداً كبيراً منهم كان يحمل حلى المصريين معه ، وبدأ
معدن القوم يتكشف .

عرف فرعون أن بنى إسرائيل خرجوا هارين ﴿ فأرسل فرعون في
المدائن حاشرين * إن هؤلاء لشرذمة قليلون * وإنهم لنا لغائظون * وإنا
لجميع حاذرون ﴾ [الشعراء : ٥٣ - ٥٦] وانطلق فرعون وراء بنى
إسرائيل ، وبدأ الجيش الفرعونى يقترب من اليهود ، فلما أحس اليهود بأن
المراحل تطوى وراءهم وأن الجيش المصرى يقترب منهم صاحوا بموسى :
﴿ إنا لمدركون * قال كلا إن معى رى سيهدين ﴾ [الشعراء : ٦١ ،
٦٢] .

مهما اشتدت الظلمة ومهما كثر الحرج فإن المؤمن لا يضطرب يقينه
ولا يتصدع إيمانه ولا تضعف بالله صلته فهو لآخر لحظة واثق من أن الله لن
يضيعه ﴿ قال كلا إن معى رى سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب
بعصاك البحر فانقلب فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثم
الآخرين * وأنحينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين ﴾
[الشعراء : ٦٢ : ٦٦] .

كيف غرق الآخرون ؟ .

أمر موسى بأن يترك البحر على النحو الذى حدث له . جبال من
الأمواج عن اليمين ، وجبال من الأمواج عن الشمال ، وقاع يبس ﴿ واترك
البحر رهوا إنهم جند مغرقون ﴾ (١) [الدخان : ٢٤] وانطلق فرعون
وجنوده وراء الإسرائيليين حتى اجتمع الجيش كله داخل البحر فانطبقت
الأمواج وهلك المفسدون !! .

(١) واترك البحر رهوا : تركه ساكناً على هيئته التى هو عليها بعد ضربه بالعصا ليدخله القبط
فإذا حصلوا فيه أطبقه الله عليهم . يقال : رها البحر يرهو : سكن . وجاءت الخيل رهواً : أى
ساكنة . أو تركه مفتوحاً على حاله منفرجاً ، من رها الرجل رهوا : فتح بين رجله وفرج بينهما ،
وهو حال من البحر . والمراد به : البحر الأحمر .

نتابع القصة لنعرف طبيعة بنى إسرائيل ، فإنهم ما كادوا يخرجون للشاطئ الآخر ويسرون قليلاً حتى وجدوا قوماً يعبدون الأصنام فانكشف الضلال في معادتهم ﴿ وجاوزنا بنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون . قال أغير الله أبغىكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين ﴾ [الأعراف : ١٣٨ - ١٤٠] .

ومشى بهم قليلاً ، وهنا نقف وقفة تأمل فيما يقصه القرآن علينا ، لقد اجتازوا الخليج إلى سيناء ، ومضوا في سيناء في طريقهم إلى الشاطئ الآخر ، والشاطئ الآخر كان فلسطين الأرض المقدسة ، من كان يسكنها ؟ .

كان يسكنها جنس عرى ، كان يسكنها الكنعانيون وهم جنس عرى فيه أخلاق العروبة قبل أن يؤدبها الإسلام ، فيه خصال العرب من جبروت وفتك ومفاخرة قبل أن يحىء الإسلام فيرفع خسيستهم ويلزمهم الأدب .

كلف الله بنى إسرائيل أن يدخلوا أرض فلسطين ليقاتلوا جبارتها ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجالان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلا عليهما الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون . قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾ [المائدة : ٢٠ - ٢٦] .

كانت النتيجة أن الله جعل سيناء مصيدة لليهود ، أحكم جدرانها عليهم فلا يخرجون منها أبداً ، وظلوا هكذا أربعين سنة حتى هلكت الأجيال الجبابة المنافقة التي استمرت الدنيا والمذلة ، وتكونت أجيال أخرى تعرف الله وتحب رضاه وتبذل حياتها في سبيله ، ثم دخل اليهود بعد ذلك فلسطين يقاتلون الجبابرة .

ونسأل : ماذا كان حال الدنيا خلال أربعين سنة ؟ .

كان الجبابرة يفسدون في الأرض ، وقبل الله أن تبقى الأرض أربعين سنة يحكمها الجبابرة لأن الحياة اختبار ، وسيبقى الكافرون يحكمون الأرض ما بقيت الأرض ليس فيها العنصر الذي يخلف الظلمة ويستطيع أن يطبق آيات الرحمن بدل تعاليم الشيطان .

لا بد أن يبقى زمام العالم بين أيدي عبيد الشيطان لأن عباد الرحمن بالمفاسد التي استقرت بينهم ليسوا أهلاً لأن ينتصروا ولا أهلاً لأن يقودوا ، لا بد لكي تكون الأمة سيادة أن تستجمع أسباب السيادة .

قرأت في التاريخ الإسلامي أن « هولاءكو » دخل بغداد وقتل نحو مليون أو مليون ونصف من الناس حتى إن الفرات احمرّت مياهه من كثرة الدماء التي سُفكت !! وكان المسلمون يومئذ أهلاً للهزيمة وكانوا جديرين بها ، ثم مضى القرن السابع الذي انهزم المسلمون فيه ، وجاء القرن الثامن الهجري وما جاء القرن التاسع الهجري حتى كان المسلمون يثأرون لأنفسهم مما نزل بهم ، ودخل المسلمون القسطنطينية وجعلوها عاصمة الإسلام !! .

متى انتصروا ؟ لما صلحت أحوالهم واصطلحوا مع الله !! .

هناك فارق كبير بين الخليفة العربي الذي قُتل مع قومه في بغداد وبين الخليفة الذي انتصر على أعداء الإسلام وافتتح القسطنطينية .

* * *

يقول التاريخ عن « محمد الفاتح » : كان رجلاً صواماً قواماً ، وكان كثير القراءة للقرآن الكريم ، وقبل أن يموت جمع أولاده وأوصاهم بأن يظلوا مجاهدين لنصرة الإسلام وأن لا يشغلهم شيء عن مرضاة الله !! .

انظر لصلتك بالله ثم انتظر أن يصنع الله لك ، والذي حدث أن أمتنا لم تعرف حقيقة الصلة بالله .

أتظنون العرب لما ملكهم الله الفرس والروم كانوا : عنتر بن شداد ، وامراً القيس ، وبقية الشعراء والدجالين ؟ لا ، لا ، كانوا نوعاً آخر من الناس ، كانت فلسفة الحكم في العالم يومئذ : الحق الإلهي للملوك (١) . فإذا في المدينة فلسفة جديدة للحكم يقول فيها الخليفة : « ... أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندي حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله » (٢) .

ويشرح عمر رضى الله عنه سياسته في المال فيقول :

« ما مثلى ومثل هؤلاء إلا كقوم سافروا فدفعوا نفقاتهم إلى رجل معهم ، فقالوا : أنفق علينا ، فهل يحل له أن يستأثر منها بشيء » ؟ .

قالوا : لا يا أمير المؤمنين ، قال : « فكذلك مثلى ومثلهم » (٣) .

(١) نظرية سياسية تعرف كذلك باسم نظرية التفويض الإلهي ، والمقصود بها أن الملوك أو رؤساء الدول قد اختارهم الله تعييناً لحكم شعوبهم ، فمن ثم فهم لا يستعملون سلطانهم من شعوبهم بل من هذا التفويض الإلهي ، وتقريباً من هذه النظرية تعتبر كل ثورة على الملوك اعتراضاً على حكم الله ، وهذا ما عناه لويس الرابع عشر بقوله : « أنا الدولة والدولة أنا » .

(٢) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٣٠١/٦) وقال : هذا إسناد صحيح .

(٣) مناقب عمر لابن الجوزي : ١٠٢ .

وكان يقول :

لا شيء فيما ترى إلا بشاشتُهُ يبقى الإله ويودى المال والولد (١)

سياسة جديدة في المال ، سياسة جديدة في الحكم ، سياسة جديدة في البحث العلمي تقوم على التجربة والملاحظة ورفض الأخيلة الفلسفية الشاردة ، سياسة في الخلق والسلوك ، سياسة جديدة في كل شيء ، غير المسلمون وجه الحياة وطلعوا على الناس بثقافة جديدة وحضارة جديدة .

كيف وقع هذا ؟ .

هنا نقارن بين فترتين ، يقول المؤرخون : احتاج بنو إسرائيل إلى أربعين سنة حتى يتحولوا إلى جيل يصلح لورثة الحكم أو لقيادة الناس أو لإمامة الخليقة ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾ [الأعراف : ١٣٧] .

من الممكن جداً أن تتحول الأمم إلى أضدادها ، لكن الأمر لم يحتاج إلى أربعين سنة بالنسبة إلى النبي العربي محمد عليه الصلاة والسلام ، فخلال ثلاث وعشرين سنة غير العرب السارحين في الصحراء كأنهم إبل هائمة إلى شعب ثقافة وحضارة يحتقرون اللذات ويطلبون الآخرة ، ويمشي أحدهم إلى ميدان الوغى وهو يقول :

ركضاً إلى الله بغير زادٍ إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهادِ وكلُّ زادٍ عُرضة النفاق
غير التقى والبرِّ والرشادِ (٢)

بهذا التغيير الذي حدث للجيش العربي أصبح أهلاً للسيادة وأهلاً لأن

(١) نفس المرجع : ١٨٨ وتاريخ الطبري ٢٩/٥ .

(٢) هذه الأبيات قالها عمير بن الحمام وهو يقاتل في غزوة بدر ، وقد رواها ابن جرير كما ذكر الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية ٢٧٧/٣ .

يؤخر الرومان من هنا والفرس من هنا ويتصدر قافلة البشرية ويقودها
بجدارة .

الأمة العربية الآن تلقى الويل والاحتقار لأنها تحاول الإنسلاخ من
الإسلام ، وقد قلت لبعض إخواننا الفلسطينيين : لماذا تطلبون إقامة دولة
علمانية ؟ .

إن إخوانكم في الجزائر كانوا يحاربون تحت علم التوحيد وتحت هتاف
الله أكبر ، وكانوا يسمون من قُتل شهيداً ، وكانوا يسمون أعداءهم
كفاراً ، ووقعت المعجزة وانتصر الجزائريون على الاستعمار الفرنسي .
أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

• • •

الخطبة الثانية

﴿ الحمد لله الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ [الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإن الأمم ليست بالمزاعم أو الهتافات فإن شيئاً من هذا لا ترجح به كفة ولا ينتصر به ضعيف ، لكي تكون الأمة الإسلامية أهلاً لنصرة الله يجب أن ينظر الله إليها فيرى أن الأسرة الإسلامية ألطف وأحكم وأفضل من الأسرة غير الإسلامية ، وأن الموظف المسلم أرعى للأمانة وأحفظ للحدود وأطوع للنظام من أى موظف آخر ، وأن الشارع المسلم أنظف من أى شارع فى شرق الدنيا أو غربها .

أيها الإخوة :

الإسلام دين جاء رحمة للناس وخروجاً بهم من الظلمات إلى النور ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾ [إبراهيم : ١] .

ما هى الظلمات التى تخرج منها ؟ ظلمات الليل ؟ كلام فارغ لا يقوله عاقل ، ظلمات الجهل والفوضى والتسيب وضعف اليقين وضعف الأخلاق ، وما أكثر هذا فى الأمة الإسلامية !! .

- يجب - كما تُدرّس في كليات الطب الجثث تُعرف أسباب الوفاة وينتفع بها في علاج الأحياء - أن تُدرّس الأمم المنهزمة ويعرف ما فيها من علل ، فإذا كُشفت هذه العلل ، وعرفنا جراثيم الداء أمكن الخلاص منه والبعد عنه ، أما الأمم التي تنافق أمراضها ولا تريد أن تبحثها ولا أن تبعد عنها فستبقى بعلتها إلى أن تموت بها .

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة ..

نَظَرَاتٌ فِي سُورَةِ "الأَحْزَابِ"

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فإن الجماعة الإسلامية الأولى ، والدولة الإسلامية الناشئة في المدينة المنورة عانتا ضغطاً شديداً من الكفار والمنافقين .

فأما الكفار فإن أحزابهم على اختلاف مللهم جمعتهم غاية واحدة هي تقويض الإسلام ونسف دعائمه والإتيان عليه من القواعد ، يستوى في ذلك الوثنيون وأهل الكتاب .

ذاك عمل الأعداء في الخارج ، أما عمل المنافقين في الداخل فكان إثارة الفتن والبلبله الفكرية والعاطفية .

ولقد رأيت من تجارتي الكثيرة ومن دراساتي الكثيرة أن عمل المنافقين في الداخل قد يكون أنكى وأقسى من عمل الكفار الصرحاء الذين يهاجمون الدولة من الخارج .. قد يكون عمل المنافقين مستوراً تحت أغشية من الخداع والمرونة والمراوغة ، وقد يكون مخبوءاً تحت استغفال أصحاب النيات الحسنة وإن كانت عقولهم ضيقة وفقههم قليلاً ، ذلك لأن الصديق الجاهل قد يكون أشد على صاحبه من العدو العاقل .

وأمس ترمى إلى نقاش غريب في « جامعة القاهرة » فإن واحداً من هيئة التدريس في « كلية الطب » وعدداً من التلامذة له أشاع تفسيراً غريباً لقوله تعالى : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

قال : إن الآية صريحة في أن لكل إنسان أن يعمل بالدين وأن يتركه !! .

تفسير الآية في نظره غير تفسيرها عند جمهور الفقهاء والمفسرين على امتداد أربعة عشر قرناً ، هؤلاء جميعاً قالوا : المقصود بالآية أننا لا نكره أحداً على الدخول في الإسلام ، وأن القوة في أيدينا ليست أداة ضغط أو فتنة أو هيمنة على العقل والضمير ، فالإسلام غنى بحججه ، ثرى ببراهينه ، فهو يسوق قضيته بين أشعة غامرة من اليينات والهدى ، فمن رد ذلك كله فلا علينا منه ، ومن قبل فهو أخونا ، أما أن نحتاج إلى سلاح لتأسيس إيمان في قلب أو يقين في فؤاد فلا .

لكن مفسر القرن الخامس عشر في « كلية الطب » قال لنا : إن المقصود بالآية أن الإنسان حر في أن يصلى أو لا يصلى أن الإنسان حر في أن يزكى أو لا يزكى ، أن الإنسان حر في أن يُحسن أولاً يحسن ، أن الإنسان حر في أن يقارف ما يشاء من مطالب الهوى ومنازع الشهوة دون أن نكلف بإكراهه على شيء من الهدى والخير .

ونحن - في هذه الدائرة - لا نُكلف بإكراه أحد على شيء من الهدى والخير ، ولكن الكلام بهذا الأسلوب معناه إبطال قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما دام كل إنسان حراً في أن يصلى أو لا يصلى ، ومعناه أيضاً إبطال أن تتحول الدعوة الإسلامية إلى دولة إسلامية تحارب الشر وتقيم الخير وتأمّر بالصلاة وتعلمها في برامج التدريس وتنشئ عليها الأجيال وتكلف الآباء في الأسر أن يربوا الأولاد على أدائها وتكلف الإذاعة أن تنادى للصلاة في كل وقت من الأوقات الخمسة .

ومن هنا فالتفسير بهذه الطريقة تقويض للمجتمع المسلم ولبيلة لقواعده فضلاً على أنه جهل مركب وصفاقة غريبة في فرض الضلال على الإسلام ، فإن شبانا أغراراً مساكين تبعوا الذي قال لهم هذا ومشوا وراءه ، وما أشك في

أن الاستعمار العالمى بشقيه الصهيونى والصليبي وراء هذا الفكر !! .

فكر آخر : جاءنى طالب من « الزقازيق » أمس وقال لى : إن بعض المنتسبين إلى السلفية - وما هم بسلفيين فى الحقيقة - رموا بالكتب المعاصرة ورفضوا أن تُعرض فى معرض للكتاب الإسلامى !! .

والكتب المعاصرة بعضها ألفها أخونا الأستاذ سيد قطب .. والأستاذ محمد قطب .. والأستاذ أبو الحسن الندوى .. والأستاذ أبو الأعلى المودودى .. والأستاذ عبد القادر عودة .. وكثيرون !! .

قلت : ما أشك أن وراء هؤلاء البله فكرأ خبيثاً يريد تمزيق الكيان الإسلامى والوسوسة لهؤلاء بأن الكتابات المعاصرة رديئة وأن الكتابات القديمة لابن تيمية وابن القيم هى وحدها التى يؤخذ الإسلام منها !! .

وشيوخ الإسلام ابن تيمية رجل كبير وتلميذه ابن القيم رجل كبير ، والغريب أن ابن تيمية بُلى فى عهده بقوم تناولوا الأئمة العظام بلسان حاد وولغوا فى أعراضهم وحاولوا مناوشة القمم الشماء فى تراثنا الإسلامى وفقهنا الضخم فتصدى لهم شيخ الإسلام ابن تيمية وألّف كتابه المشهور (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) !! .

والواقع أن الذين يتظاهرون بالحماس لابن تيمية وابن القيم جهال لأن الإسلام لم يكن عقيماً قبل ميلاد ابن تيمية وابن القيم فى القرن السابع للهجرة ، سبعة قرون قبل ميلاد ابن تيمية وابن القيم وسبعة قرون بعد ميلاد ابن القيم وشيخه ابن تيمية امتلأت برجالا الإسلام من ذوى الفكر الثاقب والقلب النابض والحرارة التى تصبغ عواطفهم نحو ربهم ونحو نبيهم !! .

وما بد فى عصرنا هذا من أن نقرأ كتب المعاصرين لأن الغزو الاستعمارى الذى هجم بحجافله على العالم الإسلامى - فى عصرنا - جديد فى أساليبه ، مزود بخطط غريبة لسرقة العقائد واختلاس القيم ، وهو يجر وراءه خلفية عريضة من الحضارة الغربية التى ازدهرت فى ميدان العلم والتطبيق واستطاعت أن تستغل تقصيرنا وغفلتنا وتراخينا فى خدمة ديننا

خلال القرون الأخيرة وهجمت علينا هجوماً منوعاً يحتاج إلى أفكار جديدة وكما قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله في القرن الثاني : تَحْدُثُ للناس أفضية بقدر ما أحدثوا من فجور !! .

فكيف يقال : إن الثقافة الإسلامية انتهت بكتابات ابن تيمية وابن القيم ؟ .

إننى أحد الذين تتلمذوا على ابن تيمية وابن القيم وابن رشد والغزالي وابن الجوزي وابن حزم وطبعاً تلميذ تافه للأئمة الأربعة الكبار الذين شمخت قممهم في تراثنا العقلي والفقهى ويعتبرون نماذج رائقة لتقوى الله ونفع الناس !! .

ما أشك في أن الذين يضمرون التعصب لفلان أو لفلان من الأئمة والعلماء ويريدون تمزيق مجتمعنا بمثل هذا التفكير ما أشك في أن وراء هذا الغلو أصابع خبيثة من الصهيونيين أو الصليبيين ممن يعملون لحساب الاستعمار العالمى !! .

الفتنة في الداخل أقسى على الأمة من الهجوم الصريح من الخارج ، ولذلك فإن المسلمين في عصرنا هذا ينبغي أن ينظروا بقلق إلى النزعات المغالية التى تنتشر الآن فإن من العجيب أن يدخل اليهود كنيستهم فتلتقى القلوب على أكلنا والهجوم علينا ويخرج المسلمون من المسجد ممزق الصفوف بأفكار تافهة وقضايا حقيرة ! .

هذا الكلام استطرد منى ألجئت إليه ، وأنا أريد في الحقيقة إلقاء نظرة على سورة الأحزاب .

وسورة الأحزاب - كما نفهم من عنوانها - تناولت الكلام عن غزوة الخندق وعن تجمع أحزاب الكفر وثنية وكتابية لحصار المدينة المنورة والضغط عليها بكل ما أوتيت من قوة حتى تخنق الإسلام وتبرز أمعائه وتجعله أثراً بعد عين !! .

وتناولت السورة شيئاً آخر وهو عمل المنافقين داخل المدينة لجعل المجتمع الإسلامى يتلوى ويتعب ، كان عمل المنافقين في أثناء الحرب أن

ينشروا الإشاعات والأراجيف وأن يشبطوا جند الله ويلقوا الفزع في أفئدة الجماهير ، وكان عملهم أيضاً السخرية أو التنديد بما كان يؤثر عن رسول الله ﷺ وصحابته الكرام من أن المستقبل للإسلام وأن الدعوة الناشئة سوف يطلع صباحها على الروم والفرس وسوف تدخل الأمم في هذا الدين .

كانوا يستهزئون ويسخرون ويتضحكون وهم يرون المؤمنين من وراء الخندق يقاتلون ببأس شديد وعنف رهيب كي يستبقوا حياتهم ويستنقذوا دعوتهم ويجعلوا علم الإسلام باقياً في وجه الرياح الهوج التي تريد أن تطويه .

هذا عمل المنافقين في الحروب ، أما في أيام السلام فعملهم تتبع الشهوات وإثارة أسبابها والوقوف على أفواه السكك لإلقاء النظرات النهمة على أعراض المؤمنين وتتبعها .

فكان لابد من علاج هذا كله ، وجاءت سورة الأحزاب فوصفت في صفحتين تقريباً ما وقع في غزوة الخندق ، ووصفت في بقية الآيات - وهي نحو خمس صفحات - تنظيم المجتمع الإسلامي وفي قمته الأسرة النبوية .

هذا هو المحور الذي دارت عليه سورة الأحزاب ، وبدأ الكلام تنبيهاً للمؤمنين أن يوحدوا صفوفهم وأن يجمعوا شملهم وأن يركزوا قواهم في مواجهة التيارات المنبثقة من تلك الجبهتين : (الكفر والنفاق) .

بدأت بقوله جل شأنه : ﴿ يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله عليمٌ حكيمٌ ۝ واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً ۝ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ۝ ﴾ [الأحزاب : ١ - ٣] .

الكلام عن الكافرين والمنافقين تكرر عدة مرات في السورة :

ففى وسط السورة يقول الله تعالى : ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ۝ وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ۝ وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ۝ ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ۝ ﴾ [الأحزاب : ٤٥ - ٤٨] .

وفي ختام السورة يقول الله تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ . لعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴿ [الأحزاب : ٧٢ ، ٧٣] .

ومع هذا التوجيه في الوقوف ضد الكفار والمنافقين والتصدي للجهتين على سواء نلاحظ أيضاً خلال السورة أن الصبر على أذى هؤلاء وأولئك مطلوب وأن تحذير المؤذنين من المضي في طريقهم واضح ونجد هذا في قوله تعالى : ﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً ﴾ . والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ﴿ [الأحزاب : ٥٧ ، ٥٨] .

وقبل ذلك قال : ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴾ [الأحزاب : ٤٨] .

وفي آخر السورة قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً ﴾ [الأحزاب : ٦٩] .

وفي جلوس الناس في بيت الرسول ﷺ دون سبب واضح بين أن ذلك كان يؤذي النبي ﷺ ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق ﴾ [الأحزاب : ٥٣] .

ذاك كلام هامشي على جانب السورة أما الكلام في السورة نفسها فنحن نتناوله أيضاً هامشياً لنقول : إن السورة بينت أن صاحب الهدف الواحد لا يشغله عن هدفه شيء آخر لأن ما ارتكز في القلب من إيمان يربط صاحبه برب الأرض والسماء لا يجعله صاحب قلب آخر يلتفت إلى الناس ويرجوهم أو يخشاهم : ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ﴾ [الأحزاب : ٤] .

وعرض لشيء من القضايا التي تناولتها السورة وهي قضية تزوج النبي ﷺ بامرأة متبناه - زيد بن حارثة - فقال : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ﴾ ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم ﴿ [الأحزاب : ٤ ، ٥] .

تبين الآية هنا أن من لا نعرف أباه فهو أخ لنا في الدين ، وينبغي أن لا يضيع في مجتمعنا ، لكن الذي حدث - للأسف - أنه ضاع ، وقد رأيت - وأنا قادم من أسبوط من حوالى أسبوعين - مؤسسة على نحو ثلاثة عشر فدانا جمعت اللقطاء من المدينة خلال ثلاثين سنة وتبنت هذه المؤسسة تربيته على البروتستينية وهي الآن تأخذ معونات من مجلس الكنائس العالمي ! .
أين المسلمون :

يتقاتلون على التوافه من قضاياهم بينما يشب الألوف على غير دينهم وهم لا يدرون !! .

هذا استطراد آخر نتركه لنقول : إن الآية تحدثت بعد ذلك عن موقعة الأحزاب وبينت أولاً : أن الدولة الإسلامية وقعت في مأزق خطير وأنها - حقيقة - امتحنت امتحاناً شديداً وأن النبي ﷺ والصحابة من مهاجرين وأنصار كانوا حوله يتطلعون إلى الأفق في لهفة واضحة إلى عون الله وأن المستقبل تلبد بالغيوم لأن أعداءهم أحاطوا بهم إحاطة لا منجاة منها إلا بفضل الله ، وتلمح هذا في التصوير الذي بدأت به هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً ﴾ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ﴾ هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً ﴿ [الأحزاب : ٩ - ١١] .

ظل المسلمون قرابة شهر ومواقعهم بين حين وآخر مهددة بأن تُفتَحَ ، صحيح أنهم حفروا الخندق وأنهم باتوا ساهرين حوله وأنهم منعوا خيل الكفار من أن تقتحم المدينة ، ولكن هذا كله ما هوّن من شدة

الحصار لأن الحصار جمع قريشاً التي أقبلت من مكة - عاصمة الوثنية يومئذ - ثم بدو الجزيرة ثم أهل الكتاب بما يمثلون من حقد على عقيدة التوحيد ومن بغض على صاحب الرسالة الخاتمة ومن خبث وغدر في دمهم ضد كل من يريد بالإنسانية خيراً ويبغى لها شرفاً ، اتفق هؤلاء كلهم على أن يدخلوا مع الإسلام في معركة حياة أو موت ، وكان كل شيء يشير إلى أنهم منتصرون حتماً ، فالمسلمون داخل مصيدة لا يجدون منفذاً حتى إن النبي ﷺ أراد أن يتحايل على إنقاذ الدعوة فأرسل إلى البدو - وهم قوم تجمعهم الأموال وتفرقهم المنافع - وعرض عليهم أن يرجعوا - لتحدث ثغرة في هذا الحصار - وعرض عليهم نصف ثمار المدينة ليعودوا ، وفعلاً كادوا يقبلون لولا أن الفدائية والتضحية والاستماتة ملأت قلوب رؤساء الأنصار سعد بن معاذ وسعد بن عباد وقال سعد بن معاذ : والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم . فقال رسول الله ﷺ :

« فأنت وذاك » (١) .

وشاء الله أن تزداد الظلمة عندما انضمت بنو قريظة إلى المشركين ولكن النبي ﷺ كان موقناً بأن النصر له لأنه موقن بكلام الله ، والله أنزل عليه بمكة - في سورة الصافات : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ [الصافات : ١٧١ - ١٧٣] . وأنزل عليه في سورة غافر : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم وهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ [غافر : ٥١ ، ٥٢] .

كان واثقاً من صدق الوحي ومن أن الله لن يخذله فصابر حتى تدخل القدر وعصفت الرياح بخيام المشركين وأكفأت قدورهم وألقت الفزع في أنفسهم فانفضوا ما هزمهم إلا الله ، ولذلك كان عليه الصلاة والسلام فيما استقبل بعد ذلك من معارك يقول : « اللهم منزل الكتاب * ومجري السحاب * وهازم الأحزاب * اهزمهم وانصرنا عليهم » (٢) .

(١) راجع بالتفصيل سيرة ابن هشام : ٣ : ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٢) رواه البخاري في الجهاد - باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس ٦٣/٤ ومسلم في الجهاد - باب كراهة تمنى لقاء العدو ، والأمر بالصبر عند اللقاء ١٤٣/٥ .

وكان يقول : « لا إله إلا الله وحده ، أعز جنده ، ونصر عبده ،
وغلب الأحزاب وحده فلا شيء بعده » (١) .

لكن من الذى يستحق النصر ؟ .

قلوب أخرى ، فى الحقيقة عندما أقارن بين قلبى وقلوب أولئك الناس
أشعر بشيء كبير من البعد ، لأنه فى يوم من الأيام ضاقت قريش بالحصار
وقررت أن تهجم هجوماً تنتهى فيه إلى نتيجة حاسمة ، وفعلاً وجهت قواها
فى ضربة شديدة لقلب المدينة ، وتجمع المسلمون من الظهرية إلى صلاة
العصر إلى أن غربت الشمس وهم يقاومون حتى ردوا المهاجمين على أعقابهم
خاسئين ، تدرون ما ذا كان تعقيب صاحب الرسالة الخاتمة على المعركة ؟ .

يقول : « ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً شغلونا عن الصلاة الوسطى
حتى غابت الشمس » (٢) .

هذا ما أحزنه ، أحزنه أنه لم يسعد بلقاء الله فى صلاة العصر ، أحزنه
أنه لم يشعر بحلاوة الوحي وهو يتلوه بين يدى رب العالمين !! .

هذا قلب وحوله قلوب على شاكلته أو تعلمت منه ، ما أساءها أن
بذلت جهداً أو فقدت مالاً أو روعها الأعداء ، بل « شغلونا عن الصلاة
الوسطى » !! .

ليس بعيد أن تنزل الأمطار وأن تعصف الرعود وأن تقصف قواصف
الجو على الكافرين فترغمهم على أن يفكوا الحصار ويذهبوا بدداً من حيث
جاءوا : ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين
القتال وكان الله قوياً عزيزاً ﴾ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب
من صياصيمهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً .
وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل
شيئاً قديراً ﴿ [الأحزاب : ٢٥ : ٢٧] .

(١) رواه البخارى فى المغازى - باب غزوة الخندق ١٤٢/٥ ومسلم فى الذكر والدعاء - باب
التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٨٣/٨ .

(٢) رواه البخارى فى الجهاد - باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة ٥٢/٤ ومسلم فى المساجد
- باب الصلوة - باب الدليل لمن قال : الصلاة الوسطى هى صلاة العصر ١١١/٢ .

هذا ما تضمنته سورة الأحزاب عن غزوة الأحزاب ، وبداية ما قلته
بعد إشارات خاطفة ، أما المعركة وما وقع فيها وتفاصيلها فلها مجال آخر .
بعد ذلك جاء كلام في تنظيم البيت النبوي ، أساس هذا التنظيم يجعلنا
نتحدث عن فلسفة الغنى والفقر في الإسلام ..

أيها الإخوة : الإسلام دين يكره الفقر ويراه نكبة تنزل بالإنسان
فتزلزل مروءته وتكسر رجولته ، ولذلك كان النبي ﷺ يسويه بالكفر في
الاستعاذة بالله من وطئتهما : « اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر ،
اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر لا إله إلا أنت » (١) وكان يقول :
« اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ، وأعوذ بك من
الخيانة فإنها بئس البطانة » (٢) .

وكان يقول : « نعماً بالمال الصالح للرجل الصالح » (٣) .

والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة ، لكن هل كان النبي ﷺ غنياً ؟
لقد أغناه الله فعلاً - بنص القرآن الكريم - ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾
[الضحى : ٨] عائلاً : فقيراً . فأغناه . أغناه في شبابه ورجولته بكدحه في
الأرض وتجارته التي كسب منها الكثير ، وأغناه بعد الرسالة بنصيبه في
الفىء والغنائم ، كان غنياً ولكنه كان إماماً للبذل والعطاء ، قال لأبي ذر
رضي الله عنه يوماً وكان يمشي معه : « يا أبا ذر : ما يسرني أن عندي
مثل أحد هذا ذهباً تمضي عليّ ثلاثة وعندي منه دينار إلا شيئاً أرصده
لدين إلا أن أقول به عباد الله هكذا وهكذا وعن يمينه وعن شماله
ومن خلفه » (٤) .

(١) رواه أبو داود في الأدب - باب ما يقول إذا أصبح ٤٣٣/١٣ والنسائي في عمل اليوم والليلة ١٤٦/١ والحاكم وصححه ٢٥٢/١ والبيهقي ١٢/٧ وأحمد ٤٢/٥ ورمز له السيوطي بالصحة (فيض
القدر ١٣٥/٢)

(٢) رواه أبو داود في الدعاء - باب في الاستعاذة ٤٠٦/٤ والنسائي في الاستعاذة ، الاستعاذة
من الجوع ٢٦٣/٨ ، وابن ماجه في الأطعمة ١١١٣/٢ وقال في صحيح الجامع : (١٢٨٣)
حسن .

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد - باب المال الصالح للمرء الصالح : ٤٥ والحاكم في السيوع
وصححه ٢/٢ وأحمد ١٩٧/٤ ، ٢٠٢ .

(٤) رواه البخاري في الزقاق - باب قول النبي ﷺ ما أحب أن لي مثل أحد ذهب ١١٧/٨ ،
١١٨ ومسلم في الزكاة - باب تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة ٧٥/٣ .

هذا عطاؤه ، ومع ذلك بلغ به العطاء أن ينسى حاجات بيته وربما سأل أهله الأدم فقالوا ما عندنا إلا خل فدعا به فجعل يأكل به ويقول : نِعْم الأدم الخل ، نعم الأدم الخل » (١) .

ما السبب في هذه المعيشة ؟ .

السبب أن الأمة الإسلامية كانت تواجه مصاعب هائلة ، ففي مكة حُصر المسلمون في شُعب بنى هاشم نحو ثلاث سنين كانوا يأكلون التراب من الفقر ، فكيف يتوسع ؟ .

ثم بعد الهجرة وجدنا المدينة المنورة تتعرض للهجوم والحصار والضوايق ، أكان البيت النبوي يستمتع بالخير الكثير والزاد الوفير والناس يحيئون من كل ناحية فاقدين لأموالهم ولأملأهم ؟ .

كان لابد أن يعيش البيت النبوي عيشة فيها شدة ، كان لابد أن يتحمل ، لكن النسوة اللاتي تزوجهن - وقد جئن من بيوتات كان فيها شيء من الخير والثراء - تألمن وضقن ، وعلى ما بين الضرائر من خلاف اتفقن جميعاً على إعلان رفضهن لهذه المعيشة القاسية . فماذا يفعل الرسول ﷺ ؟ .

جاء الوحي الإلهي يقول له : ليس إلا هذا ، وقل لمن عندك في البيت ! هذه معيشة بيت يصدر للناس العفة والقناعة ، يصدر للناس السهر في طاعة الله والتهجد وجعل الليل أبيض من طول القراءة والعبادة : ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحكن سراحاً جميلاً . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار

(١) رواه مسلم في الأشربة - باب فضيلة الخل والتأدم به ١٢٥/٦ . قال ابن القيم : هذا ثناء عليه بحسب الوقت لا لتفضيله على غيره ، لأن سببه أن أهله قدموا له خبزاً فقال : ما من أدم ؟ قالوا : ما عندنا إلا خل ، فقال ذلك جبراً لقلب من قدمه وتطليماً لنفسه لا تفضيلاً له على غيره ، إذ لو حصل نحو لحم أو عسل أو لبن كان أحق بالمدح (فيض القدير ٢٨٦/٦) .

الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكم أجراً عظيماً ﴿ [الأحزاب :
٢٨ ، ٢٩] .

وانتهت الآيات بقول الله لنساء النبي ﷺ : ﴿ واذكرن ما يتلى في
يوطن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً ﴾ [الأحزاب :
٣٤] .

هذا بدء لتنظيم البيت النبوي ثم اتصل التنظيم بعد ذلك بقضايا
كثيرة ، ربما طال الوقت قبل أن ننهيها ، لعل لها مجالاً آخر .
أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

◊ ◊ ◊

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [الشورى : ٢٥ : ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .
وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

أيها الإخوة : من علامات المجتمع المسلم ما قاله الله جل جلاله في وصف أبنائه : ﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ [المائدة : ٥٤] ، ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ [الفتح : ٢٩] .

نحن بحاجة إلى أن يكون المسلم ذليلاً لأخيه ، ومعنى أن يكون المؤمن ذليلاً لأخيه أن يكون سهلاً معه وأن لا يكون شرساً أو صعب القياد ، ومعنى أن يكون المؤمن رحيماً بأخيه أن يرق له ، إذا عثر أنهضه وأزال عنه القذى الذي قد يضره في سقطته وأن لا يكون عوناً للشيطان عليه .

وأنا أرحب بل أنا مسرور بالنهضة الإسلامية التي انتشرت في عواصم الإسلام كلها . بديهي أن تلحق هذه النهضة شوائب ، ونحن لسنا معصومين ، بديهي أن يكون هناك طلاب فيهم قصور فقهية .

بديهي أن يستغل أعداء الإسلام هذا ، وأن تتحول المخابرات العالمية بأساليبها الدنسة الخبيثة إلى صفوف هؤلاء الطلاب لتمزقهم أو لتجعل قوى بعضهم ضد الآخر .

إن الصحوة الإسلامية موجودة الآن في كل بلد ، وأنا أخشى على الصحوة الإسلامية لا من الأعداء التقليديين المعروفين وإنما أخشى أن يأكل

بعضنا بعضاً بسبب خلافات تافهة وأفكار ضيقة .. ستجدون كما ذكرت لكم في صدر خطبتي الأولى - من يفسر القرآن خطأ ومن يدخل في السنة وهو لا يدري رأساً من ذنب ولا يعرف صحيحاً من ضعيف ، وإذا عرف الصحيح لم يعرف كيف فهمه فقهاء الإسلام .

لا بأس أبداً أن يجيء واحد من الناس يقول لك : الرسول ﷺ قال : (نَعَمْ الْأَذْمُ الْخُل) فلنجعل طعامنا كله خلا !! .

أى تفكير هذا ؟ هذا إنسان كبير يرضى نفسه بواقع عابر .

هناك ناس خبراء بالأحوال العلمية في القاهرة وفي دمشق وفي بغداد وفي غيرها يريدون إساءة هذه الأمة ونكبتها في حاضرها ، فلنكن بصراء بديننا وبمن يعملون في هذه الميادين المشبوهة .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

بَيْنَ بَدْءِ الْوَحْيِ وَخِتَامِهِ

خطبة عيد الأضحى المبارك

بميدان عابدين في ٣١/١٠/١٩٧٩ م

الحمد لله حمداً مضاعفاً بالشكر والثناء والتمجيد ، حمداً يوافي نعمه
ويكافي مزيده ، حمداً يُبتغى به رضاه ويُتقى به سخطه ﴿ وقُل الحمد لله
الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الدل
وكبره تكبيراً ﴾ [الإسراء : ١١١] .

الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . ما أُبْدعت حياة وأحى
موات . الله أكبر ما اهتز في مهده طفل وما بَسَقَ (١) في حقله نبات . الله أكبر
ما دار في فضائه فلك . الله أكبر ما سبح بحمد ربه الأعلى ملك . الله أكبر
ما انطلقت مواكب المجاهدين أنصار الله تنشر دعوته وتعلو كلمته وتُحيى
شريعته . الله أكبر . ما انطلقت مواكب الحجيج صوب البيت العتيق الذي
جعل الله زيارته حجاً مبروراً وسعيّاً مشكوراً . الله أكبر ما انسكبت
عبرات التائبين يستغفرون الله لزلتهم ويستقبلونه من عثراتهم ويقولون ما قال
أبونا الأول آدم وأما الأولى حواء : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا
وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ [الأعراف : ٢٣] الله أكبر ما قامت
بربها الأشياء وخضعت لحكمه الأرض والسماء . الله أكبر ما التقى على
ظهر الأرض الكفر والإيمان ، وتصارع أنصار الحق وأنصار الباطل وكافح
بعضهم بعضاً ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت
لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم * يصهر به ما في
بطونهم والجلود * ولهم مقامع من حديد ﴾ [الحج : ١٩ - ٢١] .

هذا جزاء الكفرة الفجرة ، أما الصالحون الأبرار ﴿ والذين قتلوا في
سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة
عرفها لهم ﴾ [محمد : ٤] .

(١) بسق الثبات : ارتفع وطاق .

الله أكبر ولا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .

أيها الإخوة :

إن أعياد الإسلام تقترن بالقرآن الكريم اقتراناً تاماً ، فمع بدء الوحي الأعلى كان رمضان ، وكان صومه ، وكان عيد الفطر ، ومع خواتيم الوحي الأعلى كان الحج ، وكان يوم عرفة ، وكان اكتمال الدين ، وكان بدء حضارة أظلت الدنيا فلم تر الدنيا لها نظيراً ، إذ أغلت قدر الإنسان وشرفته على امتداد الزمان والمكان !! .

وبين بدء الوحي وختامه ثلاث وعشرون سنة ، ربع قرن طويل امتلأ بالأحداث العجب ، كان هذا المدى من الزمن مشحوناً بالنصر والهزيمة وبالفرح والحزن وبالفرج والضيق ، وكما قال ربنا : ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

في هذا الربع القرن وجدنا صاحب الرسالة الخاتمة يُطارَد في الحرم الآمن ويقال له - وهو أنضر الناس عقلاً وأرشداهم فكراً - : ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ [الحجر : ٦] .

ثم يطارد من بلده إلى مهجره لتلحق به في أحد هزيمة رهيبة صرعت من أئمة المسلمين سبعين شهيداً ، وبلغ توقع الوثنية بعد أن أحرزت نصرها أن وقف قائدها يقول : (اُعْلُ هُبْل . فقال النبي ﷺ : « أجيبوه » . قالوا : ما نقول يا رسول الله ؟ قال : « قولوا : الله أعلى وأجل » (١) .

إذا كانت الوثنية قد ظفرت بمعركة وألحقت بالمسلمين خسائر فإن خمس سنين أعقبت غزوة أحد وإذا المسلمون سادة الموقف في مكة المكرمة ، وبعد سنة واحدة من فتح مكة كان المسلمون يسودون مواسم

(١) رواه البخاري في المغازي - باب غزوة أحد ١٢٠/٥ ، ١٢١ .

الحج ومخيمات الحجيج ، وتنزلت في السنة التاسعة من الهجرة سورة التوبة
تُنهى الوجود الوثني في جزيرة العرب وتختتم رواية خرافية دامية بقيت تخدم
الباطل أمداً ليس بالقصير ، وأعطى المشركون فرصة محدودة إما عادوا
بعدها إلى رشدهم وإما فقدوا حياتهم وأمانهم ﴿ براءة من الله ورسوله إلى
الذين عاهدتم من المشركين ﴾ فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا
أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين . وأذان من الله ورسوله
إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم
فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين
كفروا بعذاب أليم ﴿ [التوبة : ١ - ٣] .

هذه الصيحة بعد اثنتين وعشرين سنة من بدء الوحي ختمت صراعاً
دامياً طويلاً بين دعوة التوحيد وبين الجاهلية التي أبت إلا سفك الدم
ومصادرة الحرية ووأد الحق فكان جزاؤها أن طُبّق عليها القانون الأزلي :
﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾
[الرعد : ١٧] .

لكن لهذا الصراع عبرة يجب أن يعيها الناس إلى آخر الدهر فإن
الصراع بين الحق والباطل مُرُّ المذاق كثير الجراحات فادح التضحيات ،
ولقد تحمل المسلمون الأوائل بِجَلْدٍ هذا كله ، وعلموا أن الصراع كلما
اشتدت وطأته وبلغت القمة ويلاته كان النصر القريب وكان تحقيق الأمل ،
وبيّن هذا رب العالمين حتى يدرك المسلمون أنهم لن ينالوا في زمن ما نصراً
رخيصاً .

إن الكفاح يمس النفس الإنسانية حتى يبلغ شغاف القلب وحتى يبلغ
السكين حَزَّ العنق ، وعندما تصل المحنة إلى هذا المدى الرهيب تبدأ حركة
التحول ، أما الكفر فإلى أدنى وأما الإيمان فإلى أعلى . قديماً أذاق الفراعنة
موسى وقومه بلاءً شديداً وعذاباً مهيناً فلما شاء رب العالمين أن يخرج موسى
وقومه من هذا الوادي رأى فرعون أن يتبعهم ﴿ فأتبعوهم مشرقين ﴾ فلما
ترأى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون . قال كلا إن معي ربي

سبيدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثم الآخرين * وأنحينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين ﴿ [الشعراء : ٦٠ - ٦٦] .

والشاهد أن موسى لما رأى فرعون يطارده ورأى الجيش يقترب منه لم يفرع وبلغت ثقته في الله حداً عندما قال : ﴿ كلا إن معي ربي سيهدين ﴾ وقد هداه الله وأنجز وعده وأغرق الجبابرة وملاً بالطين أفواههم !! .

إذا قلنا : إن خواتيم الوحي نزلت في مواسم الحج فهذا يتناول أموراً كثيرة ويحتاج إلى شيء من التفصيل ، فإن السنة التاسعة قرىء في حجتها صدر سورة براءة ، وكان أبو هريرة وغيره من الصحابة ينسابون في كل فج وينطلقون نحو كل اتجاه ليقولوا بأعلى صوتهم : « ألا لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان » (١) . انتهت المهزلة ، انتهت الوثنية .

وفي السنة التي تلت هذه الحجة - حجة أبي بكر بالناس - نزل قوله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ [المائدة : ٣] .

وكثير من الناس يظن هذه الآية آخر ما نزل من القرآن الكريم ، وهذا غير صحيح ، فهي آخر ما نزل متعلقاً بالتشريع وآيات الأحكام ، لكن ثبت أنه بعد ثمانين يوماً من نزولها نزل قوله تعالى : ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ [البقرة : ٢٨١] .

وهذه الآية سمة مميزة لحضارة الإسلام ، إن الحضارة الأوربية الغالبة في هذا الزمان شرقيها وغربيها تعبد اليوم الحاضر وتجدد الغد القريب ، هذه الحضارة بشقيها ما تعبد إلا جسدها وإلا لذتها العاجلة وإلا زمنها الموقتي ، أما أن يَمْهَدَ

(١) رواه البخاري في الحج - باب لا يطوف بالبيت عريان ١٨٨/٢ ومسلم في الحج - باب لا يحج البيت مشرك ١٠٦/٤ .

الإنسان لآخرته ، وأما أن يتزود من دنياه زاداً يلقي به ربه فهذا مالا تفكر فيه الحضارة الحديثة !! .

إن هذه الحضارة كافرة حقاً بالله مهما زعمت من إيمان ، ولكنها ما انتصرت وغلبت إلا لتفريط المسلمين في مواريتهم وخلخلة اليقين في صدورهم وانحراف خطاهم عن الصراط المستقيم الذي ألزمهم الله إياه !! .

وذلك يحتاج إلى شيء من البيان ، فإن الأمة العربية كانت في تاريخها القديم أمة من الشعوب العادية لا وزن لها في الحضارات الغالبة ولا في المدنيات الكاسحة ثم جاء الإسلام ، فماذا صنع للعرب ؟ .

لا أقول : أطعمهم من جوع - وقد فعل - ولا أقول : آمنهم من خوف - وقد فعل - ولكن أقول : إن الإسلام جعل العرب الأمة الأولى في العالم قريباً من ألف سنة !! .

إذا كان العرب معروفين في القارات بأنهم يصدرون النفط (البترول) فإن العرب قبل أربعة عشر قرناً قد طلّعوا على الدنيا طلوع الصبح بعد ظلام طويل ، وكانوا يصدرون الوحي والقيم وحقوق الإنسان وحرّيات الشعوب !! .

كان العرب أمة أولى بما أفاءت على الدنيا من خير وبما أسدت للإنسانية من صنيع . كان العرب أمة أولى لا بشقشقة اللسان ولا بفم يفتخر كاذباً وأعماله تُزري به وتقوده إلى أسفل . كان العرب في سيرتهم نماذج تحتذى وفي حضارتهم أفقاً عريضاً مليئاً بالنور والروحانية والثقافة والسماحة . كان العرب شيئاً مذكوراً في دنيا الناس لأنهم قاموا بالقرآن وساروا على هديه والتزموا وحيه !! .

فماذا كسب العرب لما تركوا الإسلام ؟ ! .

إن العرب من غير إسلام كقصب السكر من غير سكر ، إن العرب من غير إسلام صفر لا وزن لهم في حضارة ولا قدرة لهم على كسب معركة ، إن العرب من غير إسلام ليسوا شيئاً في تاريخ الحضارات ولا في تاريخ الأمم .

لقد زود الله هذه الأمة بجمال ممدود وجاه عريض وبسط رقعتها بين المحيطين ، فأحشاء العالم كله بين أصابعها ، ولكن العرب هينون على الله وعلى الناس لأنهم ما يريدون أن يستمسكوا بدينهم وأن يجعلوا حماسهم لربهم .

إن العرب - لو رشدوا - دماغ الإسلام وقلبه ، وقد امتن الله عليهم بهذه الحقيقة ، قلت يوماً وأنا أقرأ في سورة البقرة : ﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون ﴾ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم ﴿ [البقرة : ١٥٠ ، ١٥١] .

قلت : ما تمام النعمة وما حقيقة الهداية هنا ؟ .

واستبان لي المعنى ، إن الله يقول للعرب : إنه شرف ضخم أن تتجه القارات كلها من مشرقها إلى مغربها إلى هذه الكعبة المشرفة الجاثمة فوق صدر الجزيرة العربية ، أى شرف هذا ؟ لكن هذا الشرف الذى ذكر القرآن به تبعته آية أخرى فكرت فيها ملياً ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم ﴾ قلت لنفسي : ﴿ كما ﴾ هذه ما موقعها هنا ؟ التشبيه هنا ما معناه ؟ ثم تبين لي المعنى ، إن الله يقول للعرب : كما شرفتمكم فجعلت القبلة في أرضكم سبق أن شرفتمكم بجعل النبوة الأخيرة فيكم ، بجعل الرسالة الخاتمة منكم !! .

ثم دخل العرب التاريخ لا من باب واحد ولكن من أبواب متفرقة ، ثم تبدأ خطاهم تتكبد النهج السوى ، وتبدأ عيونهم تشخص إلى يمين ، وإلى يسار ، إنهم ما أحسنوا الانتفاع بترائهم ولا الاعتداد بنبوتهم ، ولذلك عرض لهم من الهزائم والآلام ما جعلهم مضرب الأمثال !! .

أيها الشباب : اعلموا أن شرفنا بالإسلام ، وأن انتصارنا بتعاليمه ، وأن استعادة ما افتقدنا إنما هو بالوقوف عند حدوده والانطلاق مع غاياته وأهدافه .

أحب أن أقول للشباب : تشبثوا بالعقائد التى شرفكم الله بها ،

استمسكوا بأصول الإسلام التي آلت إليكم بعد جهاد مُرٍّ مع قوى الشر ..
لقد ورثنا الأجيال القديمة هذا الدين القيم ويجب أن يبقى في أيدينا وأن
نورثه غيرنا وأن ننشئ عليه أجيالاً أخرى ربما كانت أصدق منا يقيناً وأعمق
إيماناً وأجدي إلى تحقيق النصر وأقرب إلى بلوغ الفوز العظيم !! .

أحب أن أقول للشباب : عليكم أن تُشعروا أعداءكم بأنكم طلاب
آخرة لا طلاب دنيا ، عليكم أن تشعروا أعداءكم بأننا لا نطلب حكماً
لنرتع فيه ، ولا نشتغل بسياسة لنكسب منها ، إننا خدّم للقيم ولشعب
الإيمان ، فمن استمسك بهذه القيم وأحيا هذه الشعب فنحن من ورائه
نخدمه ونؤثر أن نكون جنوداً مجهولين لا نبتغي مآلاً ولا جاهاً لأن الله
علمنا في كتابه أن الدار الآخرة ليست لطلاب المال والجاه ﴿ تلك الدار
الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة
للمتقين ﴾ [القصص : ٨٣] .

أيها الشباب : إن القاهرة كانت عاصمة الإسلام ، ولا تزال عاصمة
الإسلام ، وستبقى بعون الله إلى آخر الدهر عاصمة الإسلام تصدر الثقافة
الصحيحة وتنشئ الأجيال المضحية ، وعلى مناكب الشباب الجَلْدِ النقي
الطهور ومن هؤلاء الإخوة الذين حموا الإسلام في قرون مضت سوف
يكسب الإسلام معارك أخرى إن شاء الله في أيام مقبلة .

إننا لن ننسى أبداً أن قوى الشر تتربص الدوائر بالإسلام وتظن أنها ربما
نالت منه لبأساء أو ضراء نزلت بأهله ، ولكن هيهات هيهات مهما طال
المدى فإلى الحق المصير .

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها
معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل
خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا
غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

نَظَرَاتٌ فِي سُورَةِ "يَس"

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

في سنة ١٩٧٣ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فستدبر الآن سورة من سور القرآن الكريم ، نشرحها على طريقتنا في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ، هذه الطريقة التي نرسم بها صورة مجملة للسورة تبين ملامحها وتستكشف الخيوط التي تشد أولها إلى آخرها وآخرها إلى أولها ، وتبين لنا المحور الذي تدور عليه السورة كلها .

والذي نبدأ تدبره هذه الساعة - مستعينين الله جل جلاله - سورة يس ، وهي سورة تستغرق نحو خمس صفحات في المصحف ، وهي تتكون - بعد دراسة عميقة لها - من مقدمة تتناول الرسالة وصاحبها ، وثلاثة فصول تستوعب الأدلة على صدق هذه الرسالة .

أما المقدمة فقد بدأت بقسم : ﴿ يس • والقرآن الحكيم • إنك لمن المرسلين • على صراط مستقيم • تنزيل العزيز الرحيم ﴾ [يس : ١ - ٥] .

وهناك علاقة بين المقسم به والمقسم عليه ، فالمقسم هنا قسم بقوة الدليل على صدق القضية ، قسم بوضوح الحجة على وجاهة صاحبها الذي جاء بها ، قسم بما في القرآن على أن الذي تنزل عليه القرآن مرسل حقاً من عند الله جل شأنه .

هذه العلاقة مطردة في كثير من أقسام القرآن يراها من يراها وتغيب عمن تغيب عنهم .

عندما فسر الشيخ محمد عبده رحمه الله سورة الضحى - وكانت السورة قد نزلت بعد فتور الوحي وانقطاعه أمدأ طال أو قصر - قال : اختار الله القسم بهذين الوقتين : ﴿ والضحى والليل إذا سجى ﴾ إشارة إلى أن وقت الضحى وقت تألق للنور فهو يشبه ساعات الوحي ، وأن وقت الظلمة بالليل وقت وحشة وسكون فهو يشبه انقطاع الوحي !! .

وترى ذلك أيضاً في قوله تعالى : ﴿ والنجم إذا هوى • ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ فإذا كانت السورة تتحدث عن معراج النبي ﷺ إلى ربه فإن هبوطه بعد استغراقه في التجلي الإلهي يشبه عودة الكوكب المنطلق إلى مكانه في الأرض مرة أخرى !! .

قال تعالى : ﴿ يس • والقرآن الحكيم • إنك لمن المرسلين • على صراط مستقيم • تنزيل العزيز الرحيم ﴾ .

إن ما في القرآن من حكمة وما فيه من استقامة دليل على أن صاحبه ليس كاذباً إنه مرسل من لدن العلي القدير ليأخذ بنواصي الناس إلى الحق ، وليصُف أقدامهم على الطريق القويم ، وليجعل منهم ناساً أهدى طريقاً ، وأقوم قِيلاً ، وأشرف غاية ، وأهدى سبيلاً ، وتنزل القرآن من الله جل شأنه الموصوف بالعزة والرحمة لتتضح هذه المعاني على الأمة التي تحمل الرسالة على الرسالة نفسها ، كأن الرسالة من لدن العزيز الرحيم تقدم للبشر

ما يحتاجون إليه من كرامة وعزة ، وتقدم أيضاً لهم ما يفتقرون إليه من رحمة وسكينة .

وذاك ما يسره الله للعرب ، وكانت العرب يومئذ أمة ما ورثت عن آبائها إلا الجاهلية الطامسة ، وما أخذت عن آبائها إلا الحيرة والوثنية ﴿ لتذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ . لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴿ [يس : ٦ ، ٧] . والناس أمام دعوات الإصلاح ورسالات الحق فريقان : بعضهم مرنٌ يُحسن أن يتدبر ما يعرض عليه وأن يستبين وجه الصواب فيه وأن ينخلع من تقاليده التي كبلته ليذهب مع الدين الجديد حيث يذهب به .

وهناك ناس آخرون يعيشون في عالم من السدود والقيود كأنهم رُمي بهم في سجن ضيق فأبصارهم مهما تحركت لا تعدو السدود التي حولهم من يمين ويسار ومن فوق ومن تحت : ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ﴾ . وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ . وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ . إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم ﴿ [يس : ٨ - ١١] .

ولقد تضمنت السورة بعد هذه المقدمة ثلاثة فصول تعرض الدلائل التي تشرح الصدور ، والبراهين التي تقيم العوج وترتفع بالنفس الإنسانية إلى مستوى اليقين العاقل والإيمان الواعي :

أما الفصل الأول فدليل تاريخي يعرض موقف الأنبياء وموقف الناس من دعواتهم .

وأما الفصل الثاني فدليل عقلي يحرك الفكر الخامد وينظم له المقدمات التي يعرف بها ربه .

وأما الفصل الثالث فدليل تربوي يعتمد على الآخرة وأنها حق وأن ما يعقبها من ثواب أو عقاب ينبغي أن يلتفت الناس إليه حتى لا تستبد بهم خرافة طائشة أو مقالة ضالة .

الدليل الأول : دليل يتصل بالماضى قريه وبعيده .

الدليل الثانى : دليل يتصل بالحاضر المعاصر الذى نعيش فيه .

الدليل الثالث : دليل يتصل بمستقبل الإنسانية وما أعده الله للأخيار والأشرار جميعاً .

وبذلك تكون السورة — فى فصولها الثلاثة بعد المقدمة — قد تعرضت للزمن كله : ما مضى وما ينتظر وما نعيش فيه .

بدأ الدليل الأول بقوله تعالى : ﴿ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون * إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون * قالوا : ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون ﴾ [يس : ١٣ - ١٥] .

أساس القصة يعطى شيئاً من الحقائق التى نحتاج إليها فإن الرسالة التى انفردت بالعموم زماناً ومكاناً هى رسالة محمد ﷺ ، أما الرسائل التى سبقته فهى رسائل محلية موضعية ، يرسل النبى من الأنبياء إلى قرية بل يرسل عدد من الأنبياء إلى قرية واحدة كما فى هذه السورة ، إذ نجد اثنين من الدعاة إلى الله بُعث بهما معاً إلى قرية واحدة ، فلما كُذِّبَا قال الله : ﴿ فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون ﴾ فكان جواب أهل القرية : لستم مرسلين ، أنتم ناس لا تزيدون علينا ولا تنقصون ، لا صلة لكم بالسماء ، ما تقولونه دعوى مرفوضة : ﴿ ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون ﴾ كان رد المرسلين على هذا التحدى أو هذا التصدى ﴿ قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون * وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ [١٥ - ١٧] .

وظيفة الرسل : التعليم — تعليم الجاهل . وظيفة الرسل : التبليغ — تبليغ الزاهل . وظيفة الرسل : تغيير النفس الإنسانية تغييراً يجعلها تعرف الحق وكانت تجهله ، تعرف الله معرفة صحيحة وكانت إما عاجزة عن هذه المعرفة وإما تعرفه معرفة فيها خطأ وصواب .

لكن كثيراً من الناس خصوصاً خدام الباطل المنتفعين من الأوضاع

الجائرة المرتزقين من المظالم القائمة ، هؤلاء لا يدعون كلمة الحق تمضي إلى آذان المستمعين لأنهم يخشون أن يصحو النيام وأن يعتدل المنحرفون ، ولو كان أهل الباطل يطمئنون إلى ما عندهم لتركوا أهل الحق يقولون ما لديهم ولكنهم ما يطمئنون إلى ما عندهم ولذلك سرعان ما قالوا لأهل الحق : ﴿ إنا تطيرنا بكم ﴾ تشاء منا منكم : ﴿ لئن لم تنتهوا ﴾ عن البلاغ ﴿ لنرجنكم ولنجسنكم منا عذاب أليم ﴾ كان جواب المرسلين : ﴿ طائرکم معکم ائن ذکرتم بل ائنم قوم مسرفون ﴾ [يس : ١٨ ، ١٩] .

ويعرض القرآن الكريم هنا مثلاً لجندى مجهول ، لم يذكر القرآن اسمه لأنه يريد أن يستبقى هذا الاسم عند الله حتى يكون نموذجاً للناس الذين يحبون أن يعملوا بعيداً عن الضوء زاهدين في الشهرة راغبين عن الهتاف وعن التفاف الجماهير .

رجل مجهول الاسم ولكنه عند الله معروف المكانة رفيع الدرجة . رجل مجهول الاسم ولكنه في حماسه للحق وفي إيمانه بالدين وفي تأييده للمرسلين تحرك من أقصى المدينة لينصر الرسالة التي شعر بأن الحق فحواها وأن الهدى معناها : ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يستلکم أجراً وهم مهتدون ﴾ هؤلاء ناس ما يطلبون من أحداً ثمناً على موعظة تلقى أو نصيحة تؤدي أو حق يعلم . ثم يتحدث عن نفسه فيقول : ﴿ وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون * أأخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقدون * إني إذا لقي ضلال مبين * إني آمنت بربكم فاسمعون ﴾ [يس : ٢٠ - ٢٥] .

هذا حوار أداره الرجل بينه وبين نفسه وبينه وبين الناس واستحياه القرآن ليسمعه أهل مكة قديماً ولتسمعه البشرية على امتدادها مع تاريخ الحياة فوق هذه الأرض حتى يكون للتوحيد أساسه الحقيقي .

ما الذي يربطني بغير الله — كما يقول الإمام زين العابدين — إنها لمأساة أن يدعو فقير فقيراً وأن يتعلق محتاج بمحتاج .

أنت فقير تعلق بالغنى ، أنت محتاج تعلق بمن لا يحتاج إلى أحد ويحتاج إليه كل أحد ، هذا المعنى هو الذى أودعه النبى ﷺ فى حديثه الصحيح :
« اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد » (١) .

إذاً فلتسقط الآلهة كلها وليبق على عرش القلوب المؤمنة الإيمان برب العالمين وحده ، ما تتجه إلا إليه ولا تعبد إلا إياه ، هكذا تعلم الناس من هذا الدليل : ﴿ إني آمنت بربكم فاسمعون ﴾ .

قيل فى روايات التاريخ : إن أهل القرية قتلوا الرجل ورفضوا ما عنده وبداهة كانت المسافة بينه وبين الجنة مسافة الانتقال من الحياة إلى الموت ، فى لحظة واحدة ينتقل إنسان من شارع ما فى شوارع القاهرة ، من حارة ما فى إحدى القرى ، من مساحة ما فى إحدى الميادين ينتقل من دنيا مغبرة إلى جنة عرضها السموات والأرض يمرح فيها ويستريح : ﴿ قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾ [يس : ٢٦ ، ٢٧] .

هل احتاج القتلة إلى جيش يؤلف وتعباً قواه لينتقم منهم ؟ .
لا ، هم أهون على الله من هذا : ﴿ وما أنزلنا على قومك من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين * إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون * يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون * ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون * وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ [يس : ٢٨ - ٣٢] .

هذا هو الفصل الأول من السورة وهو مع المقدمة يستغرق نحو صفحتين وتبقى من السورة ثلاث صفحات تضمنت فصلين آخرين :

(١) جزء من حديث رواه مسلم فى الصلاة باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع ٤٧/٢ .

الفصل الأوسط حديث معاصر ترك الماضي فلم يتحدث عنه ولم يتحدث أيضاً عن المستقبل ، إنما قال للناس : ألا يفكر أحدكم في الأكل الذى يتناوله ، كيف نبت ؟ ومن الذى صنعه له ؟ إن الرغيف يقع في يديك فتمزقه كي تلتهمه ، أفكرت كيف كان هذا الرغيف حبوباً في سنابل القمح أو حبوباً في كيزان الذرة أو حبوباً في سنابل الأرز ؟ هل فكرت كيف انشق الوحل والطين عن الورود والرياحين ؟ هل فكرت كيف تحولت التربة الهامدة إلى أشجار شامخة ونخيل باسقة وثمار تتدلى ؟ .

قال تعالى : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون * وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون * ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ﴾ [يس : ٣٣ - ٣٥] .

ثم إن ولداً لا يتكون في بطن أمه إلا من ازدواج ، وإن ثمرة لا تتكون إلا من ازدواج بل إن الذرة تتكون من عناصر مزدوجة ، وليس هناك من تفرد في كيانه وتوحد في ذاته إلا رب العالمين : ﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ [يس : ٣٦] .

هذه آية ، وآية أخرى .

﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ [يس : ٣٧ - ٤٠] إن أى سياحة مع علماء الفلك تجعل الإنسان يتضاءل في مكانه ويشعر بحقارته على ظهر هذه الأرض بل يشعر بحقارة الأرض كلها إذا قيسَت الأكوان بأحجامها .

إن أى دارس لعلم الفلك يعلم أن الأرض والمجموعة الشمسية كلها شيء ضئيل في كون كبير وأن الأرض لو تبددت في الفضاء وتلاشت فلم

يبق عليها كافر ولا مؤمن ما نقص الملكوت الإلهي شيئاً طائلاً :
« يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب
رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم
وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم
ما نقص ذلك من ملكى شيئاً » (١) .

وآية ثالثة :

﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون • وخلقنا لهم من
مثله ما يركبون • وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقدون • إلا
رحمة منا ومتاعاً إلى حين ﴾ [يس : ٤١ - ٤٤] .

الذى يقرأ السورة يجد أن الدليل العقلى امتد وتسلل إلى الدليل الثالث
والأخير وهو الدليل الذى يسوقه القرآن الكريم ويكثر من عرض مشاهدته
لأمر واحد هو :

نحن البشر غارقون فى مطالبنا ومآربنا فقلما نتفصى منها ونتخلص من
قيودها كي نعيش فى عالم الحق لحظات ترتفع بنا ونعتز بها ، ولذلك يلح
القرآن الكريم على البشر بوصف الجنة حتى لا يزهلوا فيها وبوصف النار
حتى لا يتجرأوا عليها ، ويلح القرآن الكريم عليهم بمشاهد البعث والجزاء
وبيين أن ذلك سوف يقع لهم وهم منغمسون فى تجارتهم أو فى صناعاتهم
أو فى أحوالهم المعاشية ، التاجران ييسطان الثوب بينهما فلا يتبايعانه
ولا يطويانه وتقوم الساعة : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم
صادقين • ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون • فلا
يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون • ونفخ فى الصور فإذا هم من
الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾ [يس : ٤٨ - ٥١] .

* * *

(١) رواه مسلم فى البر - باب تحريم الظلم ١٦/٨ .

وختمت السورة بهذا الدليل على البعث وصدقته :

﴿ وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم • قل يحيىا الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ [يس : ٧٨ ، ٧٩] .

تستطيع إن كنت حافظاً للقرآن أن تغمض عينيك ثم تتأمل علام تدور سورة يس ، تستطيع إذا كنت غير حافظ للقرآن أن تعود إلى مصحفك ثم تقرأ سورة يس وقد عرفت كيف أن أولها تمهيد لآخرها وكيف أن آخرها تصديق لأولها وكيف أن هناك خيوطاً خفية تشد معانى السورة وتبين حقائقها ، وبذلك نحسن فهم القرآن ونحسن تدبره والانتفاع به .
أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

* * *

المخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ﴾ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [الشورى : ٢٥ : ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المين .

وأشهد أن محمداً خاتم النبيين وإمام المرسلين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فالقُرآن كنز مشحون بالهدايات ملىء بالخيرات ، القرآن أوجد من العدم أمة كبيرة ، وقد ثبت أنه يستحيل أن تقوم نهضة تشق طريقها في الحياة وتزحف نحو مستقبلها البعيد وهي راسخة وقوية ومتفائلة وناجحة إلا إذا كان لها مهاد معنوى يُمدها بالقوة والأمل ، وقد كان القرآن الكريم أساس انطلاق العرب من جزيرتهم التي عاشوا فيها زمناً كما وصف القرآن في هذه السورة : ﴿ لتذر قوماً ما أنذر آبائهم فهم غافلون ﴾ * لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴿ [يس : ٦ ، ٧] .

لكن هذا القرآن حوّل الغفلة إلى يقظة ، حوّل الجمود إلى حركة ، حوّل الموت الأدنى إلى حياة !! .

هذا ما يصنعه القرآن ، لكن كيف يصنع القرآن هذا ؟ بآيات تعلق على الجدران ؟ بقرء يُستجلبون في سرادقات الموتى ؟ .

لا ، تقول سورة يس : ﴿ لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ﴾ [يس : ٧٠] .

على المسلمين أن يُنشئوا علاقة جديدة بالقرآن .. وأن يؤسسوا صلات

ذكية بهذا الكتاب حتى يستطيعوا أن يحيا وأن يؤدوا واجبهم وأن يعودوا
سيرتهم الأولى رجالاً كباراً وشعباً محترمة .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي
فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في
كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا
غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

* * *

نظرات في سورة الزمر (١)

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

في ١٩٧٣/٦/٢٩ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فبِعُونَ الله نلقى نظرات في سورة الزمر ، والزمر جمع زمرة وهي الجماعة .. والقارئ العادي لسورة الزمر يرى أن اسمها ربما أخذ من آخر ما ورد في السورة من تقسيم الناس إلى قسمين :

قسم يذهب إلى جهنم : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ﴾ [الزمر : ٧١] وقسم يذهب إلى الجنة : ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ﴾ [الزمر : ٧٣] إلا أن القارئ المتدبر الذي ينعم النظر في السورة الكريمة يرى أن اختلاف الناس زمراً وانقسامهم جماعات والمقارنة بين مبدأ كل جماعة وطريقها ونهايتها وبين الجماعات الأخرى المقابلة لها يرى أن هذا التقابل موجود في السورة كلها .

قال تعالى : ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذا جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين . والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ﴾ [الزمر : ٣٢ ، ٣٣] .

وقال تعالى : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يحسبهم السوء ولا هم يحزنون ﴿ [الزمر : ٦٠ ، ٦١] .

فهذه آيات - في السورة - ذكرت حال الحزين أو الفريقين أو الزميتين وقد تكرر - في السورة - أمر المقابلة بين العمى والبصر ، وبين الحق والباطل ، وبين الشرك والإيمان ، وسنقف - إن شاء الله - أمام هذه المقابلات وقفات متأنية نتدبر ما أودع الله فيها من عبرة وما بث في ثناياها من حكمة ورحمة .

إلا أننا نريد - الآن - أن نعرف المحور الذي دارت عليه السورة كلها قبل أن نستعرض بتفصيل هذه المقابلات وما يعقبها من شروح .. هذه السورة تقوم على : تصحيح المعتقد وتنقية الإيمان من الشوائب التي علقّت به وإخلاص التوحيد لله ..

قامت السورة كلها على هذا المعنى ، وهي في وفائها بحقه ودورانها حوله ومجادلتها أصحاب الأوهام والنقائص والخرافات دونه ، هي بهذا جزء من القرآن الكريم الذي أنزله الله ليحق الحق ويبطل الباطل في شئون الناس جميعها . القرآن الكريم كتاب إذا قورن بغيره - فرضاً - وجدناه أعمر الكتب بالأدلة التي تنافح عن وجود الله وكلامه ، وأحرّ الكتب أسلوباً في دفع الناس إلى حب الله واليقين فيه والاعتماد عليه .

القرآن الكريم كتاب الحقائق مصفاة منقاة لا شائبة فيها ، ولو أن أي إنسان رُزق الحياض المطلق ثم قيل له : اقرأ هذا الكتاب فإنه يتحدث عن رب العالمين وقرأ غيره إن شئت وقارن ، فإنه عندما يقرأ القرآن الكريم سيجد حديثاً عن الله مفصلاً معقولاً ، ويجد براهين مستخلصة من مقدمات رتيبة ، ويجد أن منهج القرآن في إثبات العقائد وفي غرسها وتجميع الناس عليها وفي مناقشات غيره ممن ذهبوا مذهباً آخر غير ما شرح يجد أن القرآن الكريم في هذا كله بلغ مدى استحيل أن يقترب منه غيره .

• • •

وهذا هو السر في أن الآية الأولى من هذه السورة نزلت تقرر هذه الحقيقة :

﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ [الزمر : ١ ، ٢] .

لا بد من استعراض لأحوال الناس في علاقاتهم بالله ، وقد استعرضت الآيات هنا هذه الأحوال :

﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين * ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون * إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار * لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ [الزمر : ٢ - ٤] .

* هناك ناس لا يؤمنون بالوهمية ، يرون الكون مقطوعاً مبتوراً ليس له صاحب ولا مدبر ولا موجد ، كان الإلحاد بهذا الوصف مرضاً يصيب بعض الأفراد قديماً ، ولكنه الآن أصبح مرضاً شائعاً قامت باسمه دول عظيمة - كما توصف - لها قوى ضخمة في البر والبحر والجو .

* وهناك - في أمريكا وغرب أوربا - ناس لا دين لهم ، يؤمنون بالمادة وحدها ، ويعيشون لأهوائهم فوق هذا التراب ، وأكثرهم ينكر الألوهية ويغفلها ويبعدها من طريقه ، فهو يرسم خطته في الحياة وفق دماغه .

* وهناك من يؤمن بالوهمية ، لكن هذه الألوهية قد تكون نتاج عمل عقلي ناقص ، وذلك كإيمان بعض الفلاسفة الإلهيين مثل « أرسطو » ، فهو يتصور الإله الذي خلق السموات والأرض مستغرقاً في تفكير ذاتي مشغولاً بنفسه وآفاقه عما عداه ، فهو لا يدرون شيئاً مما يقع في الأرض ولا يعرفون ما هنالك .

* وهناك نوع من التدين الأرضي والسماوي فمثلاً اليهود يرون أن الله

الذى خلقهم خلق العالم من أجلهم أو خلقهم فى العالم ليحتكروه ويكونوا سادته (١) !! .

ومن تبجحهم أنهم أثبتوا فى العهد القديم أن أباهم يعقوب أخذ لقب إسرائيل بعد أن صارع الله طول الليل وكاد يغلبه ، وإنما أنقذ الإله نفسه بأن أعطاه لقب إسرائيل (٢) !! .

« وهناك من انتزع من ذات الله جزءاً ، وزعم أن هذا الجزء ولد الله ، واعتبر هذا الولد حيناً إلهاً وحيناً آخر ابن إله أو شبه إله أو ما إلى ذلك مما حير الأفهام واستحال أن يوجد له تفسير واضح معروف !! .

« وهناك مشركو العرب الذين كانوا يعلمون أن الله موجود وأنه حق ولكنهم يقولون: إن الاتصال بهذا الإله مباشرة شيء صعب ، وهناك أولاد الله يمكن الاتصال بهم فيقربوننا منه ويكونون شفعاء لنا عنده !! .

أما الإسلام فقد جاء بعد هذه الأوهام الكثيرة ، والمزاعم المختلفة وقال : إن الله واحد لا شريك له ، وقال : إن ما عدا الله من أشخاص أو أشياء عبيد له ليس لهم مع الله شيء وأفضلهم قدراً وأكثرهم أجراً هو أشدهم إخلاصاً لله وتعبداً له واستغراقاً فى طاعته وابتعاداً عن مخالفته .

يُن الإسلام أن قصة أن لله ولداً قصة سخيفة : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ [الزمر : ٤] .

ليس لله ولد ، ما عدا الله عبد له ، خلقه من عدم ودبر أمره وأفقره إلى ذاته أبد الأبدين ، فما يستغنى بذاته عبد أبداً وإن كان نبياً أو ملكاً ،

(١) فى سفر التثنية الإصحاح الرابع عشر : « أنتم أولاد للرب إلهكم ، لا تخمشوا أجسامكم ولا تجعلوا قرعة بين أعينكم لأجل ميت . لأنك شعب مقدس للرب إلهك وقد اختارك الرب لكى تكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض » .

(٢) راجع سفر التكوين .. الإصحاح الثانى والثلاثون .

من العرش إلى الفرش كل شيء عانٍ وجهه الله ، ذليل في ساحته ، مقهور له ، مغلوب على أمره لأنه عبد ، ولو كان الله يريد أن يكرم أحداً لكرم من شاء لكن ولادة ونبوة لا .

على هذا النحو بدأت سورة الزمر :

﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين * ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار * لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ [الزمر : ٢ - ٤] .

ولما كان المسلمون الآن قد تجرى بينهم بعض الخلافات في دعاء الله فإني أحببت أن أذكر كلام العلماء في معنى التوسل ، قال العلماء : تذكر كلمة الوسيلة وتقصد بها معان خمسة :

أما المعنى الأول : فهو التوسل إلى الله بذاته وصفاته وأسمائه الحسنى . وهذا النوع من التوسل لاشك في قبوله وصحته ، ومنه هذا الدعاء : « اللهم إني أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » (١) .

ومنه هذا الدعاء أيضاً : « اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو

(١) عن بريدة الأسلمى عن أبيه قال : « سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو وهو يقول : اللهم إني أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . قال فقال : والذي نفسى بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى » رواه الترمذى فى الدعوات - باب ما جاء فى جامع الدعوات عن رسول الله ﷺ وقال هذا حديث حسن غريب ٤٤٥/٩ وأبو داود فى الوتر - باب الدعاء ٣٦٢/٤ والنسائى ٥٢/٣ وابن ماجه فى الدعاء - باب اسم الله الأعظم ١٢٦٧/٢ ، ١٢٦٨ وأحمد ٣٦٠/٥ وابن حبان وصححه (٢٣٨٣) والحاكم وصححه ٥٠٤/١ وأقره الذهبي .

استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري
وجلاء حزني وذهاب همي» (١) .

أما المعنى الثاني : فهو التوسل إلى الله بالعمل الصالح ، وهذا النوع من
التوسل مقبول يقيناً ، وهو مفهوم من قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾
[المائدة : ٣٥] فإن الوسيلة هنا تعني العمل الصالح . وقد جاء في السنة
الصحيحة أن ثلاثة آواهم الغار وانسد فمه وهم في داخله فلم يروا إلا أن
يتوسل كل منهم إلى الله بأفضل ما قدم من عمل ، وفعلاً توسل الأول بیره
بوالديه ، وتوسل الثاني بعفاه ، وتوسل الثالث بعدله ، فكشف الله عنهم
وخرجوا يمشون (٢) .

(١) رواه أحمد ٣٩١/١ ، ٤٥٢ وابن حبان وصححه (٢٣٧٢) وقال في المجمع (١٨٦/١٠ ،
١٨٧) : رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني والبيهقي إلا أنه قال : وذهاب غمي مكان همي ، وزجال أحمد
وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان .

(٢) عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « خرج ثلاثة يمشون ، فأصابهم المطر ، فدخلوا في غار
في جبل ، فانحطت عليهم صخرة ، قال : فقال بعضهم لبعض : ادعوا الله بأفضل عمل عملتموه ،
فقال أحدهم : اللهم إني كان لي أيوان شيخان كبيران ، فكنت أخرج فأرعى ، ثم أجيء فأحلب
فأجيء بالحلاب فأتني به أبوي فيشربان ثم أسقي الصبية وأهلي وامراتي ، فاحتبست ليلة ، فجئت فإذا
هما نائمان ، قال : فكرهت أن أوقظهما ، والصبية يتضاغون عند رجلي ، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهما
حتى طلع الفجر ، اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة تری منها
السماء ، قال ففرج عنهم . وقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أني كنت أحب امرأة من بنات عمي
كأشد ما يحب الرجل النساء ، فقالت : لا تنال ذلك منها حتى تعطها مائة دينار ، فسعيت فيها حتى
جمعتها ، فلما قعدت بين رجلها قالت : اتق الله ولا تقض الخاتم إلا بحقه ، فقمت وتركتها ، فإن كنت
تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة ، قال : ففرج عنهم الثلثين . وقال الآخر : اللهم
إن كنت تعلم أني استأجرت أجيراً بفرق من ذرة فأعطيته ، وأنى ذاك أن يأخذه فعمدت إلى ذلك الفرق
فرزعت حتى اشتريت منه بقرًا وراعيها ، ثم جاء فقال : يا عبد الله أعطني حقي ، فقلت : انطلق إلى
تلك البقر وراعيها فإنها لك ، فقال : أستعزيء بي ؟ قال فقلت : ما أستعزيء بك ولكنها لك ، اللهم
إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ، فكشف عنهم » رواه البخاري في البيوع -
باب إذا اشترى شيئاً لغيره بغير إذنه فرضي ١٠٤/٣ ومسلم في الذكر - باب قصة أصحاب الغار الثلاثة
والتوسل بصالح الأعمال ٨٩/٨ ، ٩٠ .

أما المعنى الثالث : فهو التوسل إلى الله بدعاء الصالحين ، وهو أن تقول لمن شئت أو يقول لك من شاء : ادع الله لي ، وهذا النوع من التوسل لا خلاف بين العلماء في صحته وقبوله ، ونحن جمهور المسلمين ندعو الله لنبينا عليه الصلاة والسلام (١) ولمن سبقنا من المؤمنين (٢) ، وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (أنه استأذن النبي ﷺ في العمرة فقال : أي أخي أشركنا في دعائك ولا تنسنا (٣) ، وقد كان المسلمون عندما يقع لهم شيء من الضيق يطلبون من النبي ﷺ أن يدعو الله لهم ، وحدث - كما يقول أنس بن مالك أن « أصابت الناس سنة على عهد النبي ﷺ فبينما النبي ﷺ يخطب في يوم الجمعة قام أعرابي فقال : يا رسول الله هلك المال وجاع العيال فادع الله لنا ، فرفع يديه وما نرى في السماء قزعة ، فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال ، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته ﷺ فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد وبعد الغد والذي يليه حتى الجمعة الأخرى ، فقام ذلك الأعرابي أو قال غيره فقال : يا رسول الله تهدم البناء ، وغرق المال فادع الله لنا ، فرفع يديه فقال : « اللهم حوالينا ولا علينا » فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت وصارت المدينة مثل الجوبة

-
- (١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً ثم سلوا لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة » رواه مسلم في الصلاة - باب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم صلى على النبي ﷺ ثم يسأل له الوسيلة ٤/٢ .
- وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، حلت له شفاعتي يوم القيامة » رواه البخاري في الأذان - باب الدعاء عند النداء ١٥٩/١ .
- (٢) قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] .
- (٣) رواه الترمذي في الدعوات - باب (١) وقال : هذا حديث حسن صحيح ٧/١٠ وأبو داود في الوتر - باب الدعاء ٣٦٥/٤ وابن ماجه في المناسك - باب فضل دعاء الحاج ٩٦٦/٢ وأحمد ٢٩/١ ، ٥٩/٢ وقال في ضعيف الجامع (٦٢٩٢ - ١٠٥٩) : ضعيف .

وسال الوادى قناة شهراً ، ولم يجيء أحد من ناحية إلا حدث بالجود (١) .

وعن أنس « أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبدالمطلب فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . قال : فيسقون » (٢) .

أما النوع الرابع : فهو التوسل إلى الله تعالى بحق أو بجاه محمد ﷺ وهو ممنوع عند جمهور العلماء لأنه لم يقع من الصحابة رضى الله عنهم في الاستسقاء ونحوه لا في حال حياة النبي ﷺ ولا بعد موته ولم يثبت في دعاء من الأدعية الصحيحة ، والدعاء عبادة أساسها التوقيف .

وقال الذين قبلوا هذا اللون من التوسل بل وجد في السنة « أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال : ادع الله أن يعافيني ، قال : « إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك » ، قال : فادعه ، فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي ، اللهم فشفعه في » (٣) وهذا الحديث وإن كان ضعيفاً إلا أنه روى من نحو أربعة عشر طريقاً .

أما النوع الخامس : فهو دعاء غير الله ، وقد اتفق العلماء على رفضه لأن الدعاء عبادة ، والعبادة لا تكون إلا لله .

(١) رواه البخارى في الجمعة - باب الاستسقاء في الخطبة يوم الجمعة ١٥/٢ ومسلم في صلاة الاستسقاء - باب الدعاء في الاستسقاء ٢٥/٣ . و « قناة » اسم لواد معين من أودية المدينة .
(٢) رواه البخارى في الاستسقاء - باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا ٣٤/٢ .
(٣) رواه الترمذى في الدعوات - باب ٦ أحاديث شتى من باب الدعوات وقال هذا حديث حسن صحيح غريب ٢٢/١٠ والنسائى وابن ماجه في إقامة الصلاة - باب ما جاء في صلاة الحاجة ٤٤١/١ وأحمد ١٣٨/٤ ورواه أيضاً ابن خزيمة في صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين .

على هذا النحو يمكن أن ندرك الحقائق في عقيدة التوحيد عندما نقرأ قوله تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر : ٣ ، ٤] .

والكاذب الكفار - هنا - من افترى على الله ما لم يقله ، أو من افترى على الله آلهة ليست معه ، فكل كذب على الله يعتبر صاحبه محروماً من توفيق الله ومن فضله .

بعد أن بينت السورة أن الله هو رب العالمين وأنه الخالق وأن ما عنده مخلوق وأن الأمر كله إليه وأن الحكم كله منه بعد أن بينت هذا حركت في كل إنسان عقله الذي يفهم به ويخاطب به ويرتفع أو ينخفض به ، وقد لوحظ أن السورة ذكرت « أولى الألباب » ثلاث مرات في خلال خمسة عشر سطراً منها .

قال تعالى : ﴿ أَمِنْ هُوَ قَائِلٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ٩] .

وقال تعالى : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادَ ۖ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ١٧] ، [١٨] .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زُرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مَصْفُورًا ثُمَّ يُجْعَلُهُ حِطَابًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ٢١] .

هذا الإيقاظ لأولى الألباب يعني أن التدين يوم يكون مناقضاً للعقل فإن هذا التدين يسقط ، هذا الكلام المتكرر عن أولى الألباب يعني أن الإسلام عقد صلحاً بين العلم والدين ، لأن العلم والدين في نظر الإسلام كل منهما يكمل الآخر وترجم عن جانب من الحقيقة الكونية في الأزل والأبد .

معنى هذا أن السورة التي قامت على إخلاص التوحيد أو على تصحيح العقيدة أرادت أن تقول للإنسان : إنك أيها الإنسان مخلوق لك ناحيتان : ناحية مع الله - سلبية - تقف بين يديه خاضعاً تسمع منه ولا تقترح عليه ، تنتظر منه أن يوجهك هو بوجيه ، تطلب منه لأنك فقير وهو غنى ، لأنك ضعيف وهو قادر .

هذه ناحية ، وناحية أخرى إيجابية ، فأنت عبد لله سيد للكون ، ملك في العالم ، العناصر تحت يديك ، البر والبحر والجو من مملكتك ، كرمك الله في هذا الملك الواسع وجعلك سيد هذا الكون على أن تكون عبداً لرب الكون .

هذا المعنى هو ما قامت عليه سورة الزمر ، صححت العقيدة ، وبينت أن الله الفرد الصمد ليس له ند ولا ضد وعلمتنا إذا عبدناه ودعواناه أن نلجأ إليه وحده ولا نلجأ إلى غيره ، وعلمتنا في مجتمعنا أن نحل ما أحل وأن نحرم ما حرم وأن نحتكم إلى القوانين التي شرعها .
أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

• • •

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿ الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ﴾ ويستجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [الشورى : ٢٥ : ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين . وأشهد أن محمداً خاتم النبيين وإمام المرسلين . اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين . أما بعد :

عباد الله : أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل ، واعلموا أيها الناس أن الإسلام لا يزال ديناً مجهولاً في العالم كله حيناً وبين أتباعه حيناً آخر . أما في العالم فقد قال لى أحد القادمين من أوروبا إنهم عندما كانوا يسمعون منى احتراماً لعيسى يستغربون ويقولون : هل الإسلام يحترم عيسى ؟ .

إنهم لا يعلمون أن الإسلام يصف عيسى بأنه سيد وشريف ووجه في الدنيا والآخرة ، والسبب أن الأجهزة الصليبية الاستعمارية ناشطة في الكذب على الإسلام ، وليتها وجهت نشاطها في محاربة الانحلال والإلحاد الذى ملأ أوروبا وأمريكا ، إنها تنسى هذا كله وتشمر عن ساعديها لضرب الإسلام وحده !! .

لكن المشكلة أن المسلمين أنفسهم لا يعرفون دينهم معرفة صحيحة ، وكثيراً ما يحجى بعض إخواننا هنا لكى نجعل بعض الخلافات الفرعية مجالاً للحديث على هذا المنبر ، وهذا مستحيل ، فله المنة على العبد الذى يتكلم ، بينكم إننى أوتيت رشدى ، إننى لست مجنوناً حتى أتكلم فى خلافات فرعية أو فقهية أو أمور جزئية ممكن أن تحل برفع المستوى العلمى للمسلمين .

إن أعداء الإسلام تميزوا بالعلم الواسع فى الدنيا وبالبراعة الهائلة فى الإنتاج وبالقدرة على رسم الخطط ، ونظروا للمسلمين كما ينظر بعض

الفلاسفة إلى جماعات من الصبية في الحارة ، فهو يلعب بهم أو يسخر منهم أو يغري بعضهم البعض الآخر أو يشغلهم بشيء من العبث يصرفهم عن مستقبلهم وعن حياتهم وعن غدهم القريب والبعيد !! .

نريد أن نعقل من نحن ؟ وما رسالتنا ؟ وأين نحن في دنيا الناس ؟ ومن أعداؤنا ؟ وما يبتوا لنا ؟ وما يمكن أن نتجاوز عنه من خلافات فرعية بيننا حتى نستطيع أن ننقذ أنفسنا ؟ .

إن الشيوعية العالمية والصليبية العالمية والصهيونية العالمية إن كل هذه القوى شحذت سكينها لتجهز على العرب والمسلمين ، فإذا لم يستيقظ العرب الآن فمتى يستيقظون ؟ بعد الذبح ؟ بعد الذبح لا يقظة إلا في جهنم وبئس القرار ؟ ! .

يجب أن نكون كما وصف الله المؤمنين القدامى : ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ [الفتح : ٢٩] فإن وصف المسلمين الآن أنهم رحماء بالكفار أشداء بينهم !! .

نريد أن نعرف من نحن ؟ . وما مستقبلنا ؟ .
فإن كل شيء يتجه على عجل لوأدنا والإجهاز علينا فإلى متى نبقي في غفلتنا ؟ .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .
عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

نظرات في سورة الزمر (٢)

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

في ١٩٧٣/٧/٦ م

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين . أما بعد :

فقد شرحنا في الجمعة الماضية صدر سورة الزمر ، ومع التفسير الموضوعي للقرآن الكريم نمضي في استكمال هذه السورة المباركة آملي أن يجعلنا الله ممن قال فيهم النبي ﷺ .

« خيركم من تعلم القرآن وعلمه » (١) .

إن سورة الزمر - كما أبتأ - تقوم على محور واضح هو إخلاص التوحيد لله ، ونفى النقص ، وإثبات الكمال لله في جميع الشئون .. والمؤمن يدرك من أعماق قلبه أن الله جل شأنه هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، ما من شيء إلا وهو خالقه ، وما من خير إلا وهو سائقه ، وما من ضوء إلا وهو مشرقه ، وما من رزق إلا وهو رازقه ، وما من أمر إلا وهو مدبره ، والله سبحانه وتعالى يسبح كل شيء بحمده ، ويهتف بمجده ، ويعنو أمام وجهه ، ويشعر بالذل في ساحته ، وأكرم منزلة للإنسان أن يكون بين يدي ربه راكعاً أو ساجداً يقول : سبحان ربي العظيم أو سبحان ربي الأعلى !! .

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن - باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه ٢٣٦/٦ .

وقد تضمنت سورة الزمر مقارنات بين الفريقين :

« الفريق الذى آمن ووحد ونزه وانتقل التوحيد فى حياته من التوحيد فى العقيدة إلى التوحيد فى العمل والسلوك فأصبح مؤمناً ظاهراً وباطناً .

« والفريق الذى اختلطت عليه الأمور وتوزعت الأهواء فى كل ناحية .

فى سورة الزمر سبع مقارنات بين الفريقين ، نريد أن نذكرها ثم نرى التعقيب القرآنى عليها ، وقبل أن نذكرها نريد توجيه الأنظار إلى إشارة بلاغية فى هذه المقارنات ، فأحياناً يحكى القرآن المقارنة بين الطرفين فيثبت الطرفين معاً ، وأحياناً يذكر طرفاً ويسكت عن الطرف الآخر .

« المقارنة الأولى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آنَاءُ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ٩] .

أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آنَاءُ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ كَمَنْ هُوَ نَائِمٌ مَلءٌ أَجْفَانَهُ لَا تَوَرُّقَهُ فِكْرَةٌ وَلَا يَزْعُمُجُهُ عَنِ الْكَسَلِ وَالْخُمُولِ وَالْخُنُوعِ إِيْمَانٌ أَوْ تَهْجُدُ أَوْ رَغَبٌ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ؟ أَيْسْتَوِي الْكُسُولُ وَالنَّشِيطُ ؟ . أَيْسْتَوِي الْخَامِلُ وَالنَّاهِضُ ؟ .

أَيْسْتَوِي مَنْ طَهَرَ فَمَهُ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَمَنْ أَغْلَقَ فَمَهُ فَلَمْ يَتَلْ حَرْفاً ؟ وَالْوَاقِعُ أَنَّ الْمَجْتَمَعَ الْمُتَدِينِ يَفْرُقُهُ عَنِ الْمَجْتَمَعَ الْمُلْحَدِ فَارِقٌ ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَنْ قَدْ يَكُونُ فِي كَيَانِهِ فَضْلٌ نَشَاطٌ وَزِيَادَةٌ حَرَكَةٌ فَلَا يَكْفِيهِ النَّهَارُ حَتَّى يَضُمَّ إِلَيْهِ اللَّيْلُ ، فَإِنْ كَانَ الْمَجْتَمَعُ مُؤْمِناً كَانَ نَشَاطُهُ اللَّيْلِ أَيْضُ ، يَصْرِفُهُ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ وَأَدَاءِ الْعِبَادَاتِ وَمَنَاجَاةِ اللَّهِ ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْمَجْتَمَعُ مَنْحَلّاً أَوْ مُلْحَداً فَإِنَّ نَشَاطَهُ بِاللَّيْلِ يَحْمُرُّ مِنَ الْأَعْرَاضِ الْمَذْبُوحَةِ وَالْحَرَمَاتِ الْمُسْفُوكَةِ وَالْحُدُودِ الْمَضْيَعَةِ !! .

وَلَا تَزَالُ الْفَوَارِقُ قَائِمَةٌ ، فَلِيَالِي الْمُؤْمِنِينَ بَيضاءَ لِأَنَّهُمْ يَقُومُونَهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ ، أَمَّا لِيَالِي الْفَاسِقِينَ فَحُمْراءَ لِأَنَّهُمْ يَذْبَحُونَ الشَّرْفَ فِيهَا !! .

لَا تَزَالُ الْفَوَارِقُ قَائِمَةٌ ، فَلِيلِ الْمُؤْمِنِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آنَاءُ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ أَوْ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ مَنْفَرِداً قَامَ يَدْعُو الْوَاحِدَ الصَّمْدَا
عَابِدٌ لَمْ تَبْقَ طَاعَتُهُ مِنْهُ لَا رُوحاً وَلَا جَسداً

خطب الغزالي - المجلد الثانى

المقارنة الثانية : ﴿ أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار ﴾ [الزمر : ١٩] .

وهذه المقارنة كسابقتها حذف فيها طرف وأثبت فيها طرف ، وهنا أثبت الطرف الخسيس الذى حق عليه كلمة العذاب لأنه زاع وضل ، والله جل شأنه يجعل إضلاله عقوبة لمن استمحق في تفكيره ولمن شرد في مسلكه : ﴿ إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴾ [الزمر : ٣] ، ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ [غافر : ٣٥] .

فالذى يضل ويستكبر ويتجبر ويطغى يضلله الله وينسج على بصيرته غشاوة سوداء ، وعندئذ لو تجمع أهل الأرض على استنقاذه من ضياع الدنيا وبوار الآخرة لعجزوا عن أن ينجوه من بطش الله !! .

أفمن حق عليه كلمة العذاب لأنه تكبر وطغى فأضلله الله وأذله كمن عاش على نحو آخر استحق به أن يلهمه الله رشده وأن يتم له نوره وأن يحفظ عليه نعمته ؟ .

هذه المقارنة يدل عليها ما ذكر بعدها مباشرة : ﴿ لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد ﴾ [الزمر : ٢٠] .

المقارنة الثالثة : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين ﴾ [الزمر : ٢١] . وهذه المقارنة كسابقتها ذكر فيها طرف وحذف فيها طرف إلا أن الذى ذكر هنا هو النوع الطيب والذى طوى النوع الخبيث ؟ ! .

ما الذى تعنيه كلمة ﴿ فهو على نور من ربه ﴾ ؟ .

يمكن أن تعنى هذه الكلمة أمرين :

الأمر الأول : أن الكافر يأكل فلا يدرى من رزقه ، ويشرب فلا يدرى من سقاه ، ويكتسى فلا يدرى من ستره ، ويصح ويرزق العافية فلا يدرى من أسبغ عليه حُلل العافية ومنحه ما يستمتع به من قوة في حواسه ومشاعره ، وفي هذا النوع من الناس يقول الله تعالى : ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾ [الحجر : ٣] .

أما المؤمن فإنه يأكل ويشكر ، يعرف أن ما عنده من فضل هو خير الله ساقه إليه ، كان النبي ﷺ إذا فرغ من طعامه قال : « الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين » (١) .

وقال : « من لبس ثوباً فقال : الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » (٢) .
المؤمن الذي على نور من ربه يدرك أن ما فيه هو أمر الله وخيره وفضله ، فإن كان يرضيه شكر ، وإن كان يتعبه صبر لأنه على نور من ربه لأنه يعرف أن كل شيء من الله .

المعنى الثاني للنور : أن المؤمن المستنير في حياته يجعل هواه تبعاً لما جاء به الإسلام فهو إذا أمر الله قال : ليك أنا أول من يطيع ، وإذا نهى الله قال : أنا أول من يجتنب ، إذا كان هناك لله حد كان أول من يحفظه ، وإذا كانت هناك وصية كان المنفذ المحب لها ، فهو في الحلال والحرام وفي الخير والشر وفي الأمر والنهي يمشي متبعاً لأمر الله مستنيراً بتعاليمه صافياً قدميه على الصراط المستقيم وماضياً إلى الهدف لأنه على نور من ربه ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

هذه الآية ذكرت الطرفين : الذي في الظلمات ليس بخارج منها ، والذي استنار بأمر الله ، أما آية الزمر فقد ذكرت طرفاً وطوت الطرف الآخر : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ أى كمن هو في الظلمات ليس بخارج منها ؟ .

ونلاحظ أن القرآن الكريم يتحدث فيه رب العزة عن قيمة هذا القرآن في أعقاب كثير من المقارنات ، وهنا يقول الله : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين

(١) رواه أبو داود في الأُطعمة - باب ما يقول الرجل إذا طعم ، ٣٣٠/١ ، والترمذي في الدعوات - باب ما يقول إذا فرغ من الطعام والنسائي في عمل اليوم والليلة : ٢٦٥ وابن ماجه في الأُطعمة - باب ما يقول إذا فرغ من الطعام ١٠٩٢/٢ وأحمد ٣٢/٣ وحسنه الحافظ ابن حجر : فيض القدير ١٥١/٥ وقال في ضعيف الجامع (٤٤٤٣) : ضعيف .

(٢) رواه أبو داود في أول كتاب اللباس ٦٤/١١ ، ٦٥ وقال في صحيح الجامع (٦٠٨٦) - ٢٠١٥ حسن .

جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن
يضلل الله فما له من هاد ﴿ [الزمر : ٢٣] .

ومعنى هذا أن القرآن خير الكتب لأنه كتاب لا ريب فيه ، وهو
أحسن الحديث لأنه لا خداع فيه ولا ختل ولا كذب فيه ولا انحراف ..
وكلمة « متشابهاً » تحتاج إلى شرح ، ففي سورة آل عمران يقول الله :
﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر
متشابهات ﴾ [آل عمران : ٧] .

المحكم هنا : ما تحدث عن العقائد والأخلاق والأحكام والعبادات
والفضائل وما إلى ذلك ، وهو أم الكتاب لأن التكليف به ولا يتحمل آراء
شتى .

والمتشابه هنا : ما تحدث عن الله وذاته وصفاته ، ولما كان العقل
الإنسانى قاصراً بطبيعته عن أن يدرك أبعاد ما وراء المادة فإن الحديث فى
المتشابه رُفض ، وقد قيل : إن العقل يدرى الكثير ولكنه لا يدرى نفسه
ما هو ، كما أن الأسنان تقضم الطعام ولكنها لا تقضم نفسها ؟ ! .

هذا هو المحكم والمتشابه فى سورة آل عمران ، لكن قد يطلق على
القرآن كله أنه محكم ، وقد يطلق على القرآن كله أنه متشابه ، ومعنى أن
القرآن كله محكم أنه محبوب الصياغة دقيق المعانى ، يستحيل أن يتطرق إليه
تناقض أو أن يتسلل إليه لغو أو وهم ، ومعنى أن القرآن كله متشابه أنه
يهدى الناس إلى حقائق محددة ويجرى إلى غايات معينة ، ففي سورة يونس
يقول الله سبحانه : ﴿ إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى
السموات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾ [يونس : ٦] .

هذا المعنى الذى نزل فى مكة هو الذى نزل فى المدينة بعد عشر
سنين فى سورة آل عمران فى قوله تعالى : ﴿ إن فى خلق السموات
والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ [آل عمران :
١٩٠] .

وكلمة « مثانى » تعنى أنه يتضمن الخوف والرجاء والأمر والنهى

والوعد والوعيد والنعم والجحيم وكثيراً من المتقابلات التي يحتاج الناس إليها لضبط سلوكهم وتحديد مواقفهم في دنياهم .

وكلمة « تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » تحتاج إلى شرح فإن أثر القرآن - الحقيقي ليس في تصحيح الحمقى وليس في هذا الجوار الهمجي الذي يصحب تلاوة القرآن كما نرى في بعض الأماكن مما يدل على عدم الوعي وقلة الفقه ، بل التأثير الحقيقي أن ترى إنساناً اخترقت الهدايات السماوية كيانه واستقرت في قلبه فجعلته خلقاً آخر لأن روح القرآن شرحت صدره ، ورفعت مستواه ، وجعلته يحس من جلال الله ما يرتعد به بدنه أو من بشاشة الرحمة الإلهية ما يفتح أقطار نفسه على أمل كبير وخير كثير .

المقارنة الرابعة : ﴿ أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾ [الزمر : ٢٤] .

والمعنى : « أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة » فتسود ملامحه ، وتنطمس معالمه ، ويكسو حريق النار أديم وجهه كمن يجيء آمناً يوم القيامة : ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم ﴾ [الحديد : ١٢] .

هذا هو الفارق بين الاثنين ، وهو فارق كبير ، لكن هل يظلم ربك أحداً ؟ لا ، ولذلك يقول بعد هذه المقارنة : « وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾ [الزمر : ٢٤] .

المقارنة الخامسة : ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين ﴾ والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ﴾ [الزمر : ٣٢ ، ٣٣] .

هذه المقارنة تحكي صنفين من الناس :

صنفاً صادقاً يتبع الصدق في حياته ويهتدى بسناه في سيرته وأخلاقه .

وصنفاً كاذباً يتبع الضلال ويمشي في الدنيا معوج المسلك .

الطف ما في هذه المقارنة أن الله جل شأنه - رحمة منه بعباده وبراً منه بالمؤمنين - يقول : ﴿ لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ﴾ .
ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴿ [الزمر : ٣٤ ، ٣٥] .

نسأل الله أن يجعلنا ممن قال فيهم : ﴿ ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾ .

ثم نسمع من رب العالمين جل شأنه عتاباً لعبيده ، هذا العتاب يقول للعبء الفقير المسكين العاجز المحتاج : لم ذهبت إلى باب غير بابي ؟ هل الباب الآخر فيه الغنى وعندى الفقر ؟ هل الباب الآخر فيه قضاء الحاجات وعندى الحرمان ؟ .

هذا العتاب يقول : « أليس الله بكاف عبده » ؟ .

ثم يقول الله : ﴿ ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ .

من هم الذين من دون الله ؟ وما قيمتهم ؟ وما ذا يصنعون ؟ .

يقول جل شأنه - مبيناً قيمتهم : ﴿ قل أفرايتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾ [الزمر : ٣٨] .

هذا المعنى الجليل هو الذى وعظ منه النبى ﷺ الصحابى الجليل عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عندما قال له : « يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » (١) .

(١) رواه الترمذى فى القيامة - باب ٢٢ وقال : حسن صحيح ٢١٩/٧ ، ٢٢٠ وأحمد ٣٠٣/١ ، ٣٠٧ وقال فى صحيح الجامع (٧٩٥٧ - ٣٠٥١) : صحيح .

المقارنة السادسة : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يحسبهم السوء ولا هم يحزنون ﴿ [الزمر] .

المقارنة واضحة ، الذين كذبوا على الله لهم مصير أسود ، والذين صدقوا معه وصدقوه لهم مصير طيب .

ومن الكذب على الله أن تشرك به ، ومن الكذب على الله أن تختلق حديثاً على نبيه ، ومن الكذب على الله أن تبتدع خرافة من عندك ثم تجعلها ديناً ، وكثير من الذين ألدوا أو انحلوا إنما ألدوا أو انحلوا لأنهم نظروا إلى الدين لا من خلال الوحي النقي ولكن من خلال أعمال الناس الخرافية التي جعلوها ديناً وليست من دين الله لا في قليل ولا في كثير .

المقارنة السابعة : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ﴿ [الزمر : ٧١ - ٧٤] .

وختمت المقارنات بهذه المقارنة الأخيرة إلا أنه بين المقارنات الأخيرة في السورة اطلع الرحمن على عباده ليقول لهم : من ضل يستطيع أن يهتدى ، ومن كفر يستطيع أن يؤمن ، ومن زاغ يستطيع أن يستقيم ، ومن أساء يستطيع أن يحسن ، لا تستكبر على الله ذنبك إذا نويت أن تصلح ما بينك وبينه .

قال تعالى :

﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ وأنبياء إلى ربكم

وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴿ [الزمر : ٥٣ - ٥٥] .

واعلموا أيها الناس أن كل ذنب يصدر وصاحبه متشبث بربه يرجو رحمته ويخشى عذابه ويفر من الإصرار ويطلب من ربه غفران الذنب وتكفير السيئة فإن هذا الذنب مغفور بعفو الله ، واعلموا أن كل من تبجح بمعصيته وعالن بها وأراد أن يصبغ المجتمع بشرها وأن يجعلها تقليداً قائماً وعادة متبعة فهيئات هيئات أن ينال ذرة من غفران الله ما بقي على هذا الضلال .

* * *

سورة الزمر سورة جليلة استطعت بعون الله أن أعطي خطوطاً سريعة تدل على مسار الوحي الإلهي فيها ، يستطيع الحافظ بعد ذلك أن يراجع نفسه ، ويستطيع أي منكم أن يقرأ في مصحفه ليرى هذه المقارنات بعد العقيدة الأولى ، ونرجو - كما قلت أولاً - أن نكون ممن قال فيهم رسول الله ﷺ : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » (١) .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

* * *

(١) تقدم تخرجه صدر الخطبة .

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون * ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ [الشورى : ٢٥ : ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً خاتم النبيين وإمام المرسلين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

عباد الله أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل . واعلموا أيها المسلمون أن المسجد روح المجتمع الإسلامي ، فيه يلتقى المؤمنون ليتصلوا بربهم في الصلاة الخاشعة والمعرفة المبرأة والصدقة المتحابة بروح الله جل شأنه ، ثم هو مصدر التوجيه الدائم للخير والبر والعدل ، ولذلك كان أول ما عني به النبي ﷺ عندما ملك القدرة على العمل في المجتمع أن بنى المسجد في المدينة وكان أول ماصنعه عمرو بن العاص رضي الله عنه عندما قدم إلى هذا الوادي المبارك كي يحرره من قيود الرومان ومن آثار الخرافة ومن ظلمات الشرك أن بنى هذا المسجد .

وأنا أعلم أن مؤامرات قوية محبوكة بذلت جهداً هائلاً لمنع تجديد هذا المسجد حتى سميته (جُرنًا) .

وعندما شرفني الله وجاء بي إلى هذا المكان كان من قدر الله أن رجلاً ألهمه الله الرشd وبث في عزمته القوة وجعله يغالب كل أسباب الضعف وكل عناصر التفريط والتكاسل والتهاون ، واختفت بجهود هذا الرجل القناطير المقنطرة من القمامة التي كانت حول هذا المسجد ، ولا يزال السيد الوزير محافظ القاهرة على العهد به يتعهد المسجد ويحجى إليه بين الحين والحين ، ورب العالمين يعطيه من الأمل والقوة ، ما يرد المسجد به إلى أيامه الأولى يوم كان مشرقاً للعالم الإسلامية .

ومن خير الله وبره بنا أن جاءنا اليوم سماحة الشيخ الجليل إمام المسجد النبوي وخطيبه وقاضي قضاة المدينة وكبير علمائها ، جاء إلى مسجد عمرو ابن العاص وإنني سأصلي معكم وراءه إن شاء الله ، لعل قبساً من الرحمة والخير والذكريات الطيبة يسرى في مشاعرنا ويجعل جو هذا المسجد مليئاً بالقبول إن شاء الله .

إننا نرحب بخطيب المسجد النبوي المبارك ، والقاهرة تستقبله وهي فرحة بقدومه ، ونسأل الله أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

• • •

نظرات في سورة النجم

خطبة الجمعة بمسجد النور بالعباسية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المشددة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

ففي هذه الجمعة نلقى نظرة عامة على سور النجم ، لعلنا بفضل الله تعالى نعود من ذلك بعبر نافعة ونصائح غالية .

ولعلكم تذكرون أننا في الجمعة الماضية أوضحنا أن الإسلام دين يقوم على العقل وأنه يحتفى بأولى الأبواب ويعتبرهم حملة فكرته ومبلغى رسالته ، والواقع أن الإسلام إذ يحترم العقل ويعينه على دقة الفقه وحسن الحكم على الأمور يريد من ذلك شيئاً مهماً هو أن نصل في معرفتنا إلى اليقين ، أى أن تكون معارفنا صحيحة لا جهل فيها ولا زيغ .

وقد رأينا - مع دراسة التاريخ الإنساني ومع ملاحظة التجمعات البشرية في القارات الخمس - أن الأمم والجماهير تُسيرها الأوهام والظنون

والشائعات والتخامين أكثر مما تُسيرها الحقائق التي لا ريب فيها والعقائد التي لا شك في معناها ..

الأمم كثيراً ما تغلبها جهالات قد تكون مضحكة ومع ذلك فهي تقدسها وتنتشي بها وتندفع بوحيا شرقاً أو غرباً دون وعي وعلى غير هدى .

في سياحاتي الأخيرة رأيت تمثالاً لبوذا في آسيا ، وسألني شاب مسلم : ما بوذا ؟ قلت له : هذا شاب اشتغل بدراسة الفلسفات المادية والنظم الاجتماعية على عهده ، وكان فكره ترايياً ما نظر إلى السماء يوماً ولا اعترف بأن للكون رباً ، عاش في قوقعته المادية ينكر الألوهية ، فلما مات اعتبره أتباعه إلهاً وعبدوه ، ثم وجدنا هذه الأصنام فوقها أبنية فوقها قباب ذاهبة في الفضاء وحولها قوافل تعد بمئات الملايين !! .

هذا المعنى هو الذى تناوله القرآن الكريم من أساسه العقلى عندما قال : ﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً إن الله عليم بما يفعلون ﴾ [يونس : ٣٦] .

ما يقال في عبدة الأصنام يقال في نفر من أهل الكتاب انتشرت بينهم شائعة أن هناك إلهاً ثانياً وثالثاً وأن الإله الثانى قُتل افتداءً لخطايا الخلق ، انطلقت الإشاعة ، واحتفت بها جماهير من الخلق ، وفي التعليق عليها يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً ﴾ [النساء : ١٥٧] .

إذن اتباع الظن مشكلة سيطرت على البشرية ، وعلاج هذه المشكلة أن نبحث عن اليقين ، ولذلك كانت الآية الثانية في سورة البقرة : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ [البقرة : ٢] .

إن الإسلام يرفض الظنون وينكرها ويعيب على أتباعها أن يتشبثوا بها .

هذه مقدمة بين يدي نظرتنا العامة في سورة النجم .

سورة النجم فيها حديث عن الأصنام التي يعبدها العرب : ﴿ أفرايتم
اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى * ألكم الذكر وله الأنثى * تلك
إذا قسمة ضيزى * إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها
من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم
الهدى ﴾ [النجم : ١٩ - ٢٣] .

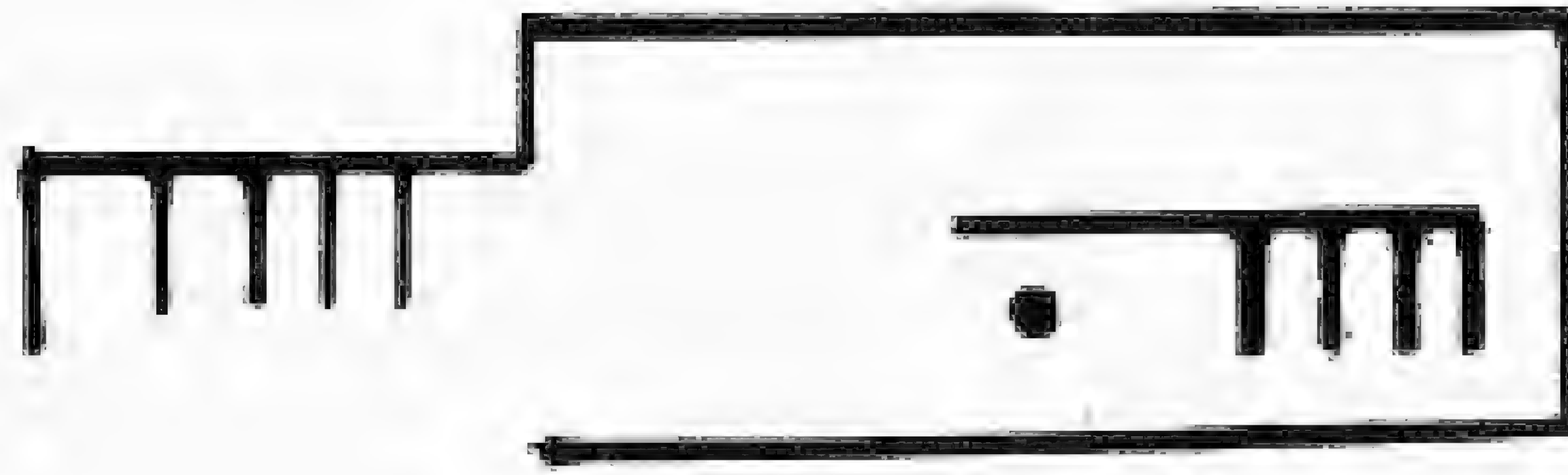
شهوات أو أهواء أو ظنون تجمع حولها أولئك الجاهليون وعاشوا بها :
﴿ ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ ثم يحىء هذا السؤال : ﴿ أم للإنسان
ما تمنى ﴾ [النجم : ٢٤] .

إن الإنسان يتصور أنه يعيش وفق أحلامه وآماله ، ويظن أنه يفرض
أمانيه على الحياة ، إنه بهذا مخدوع ، فإن الإنسان في هذه الحياة يحيا داخل
إطار صنعه الغالب على أمره القاهر فوق عبادته ، ومهما كان الإنسان حراً
في قدرته وإرادته فهو محكوم في إطار القدرة العليا والإرادة العليا : ﴿ فقلله
الآخرة والأولى ﴾ [النجم : ٢٥] .

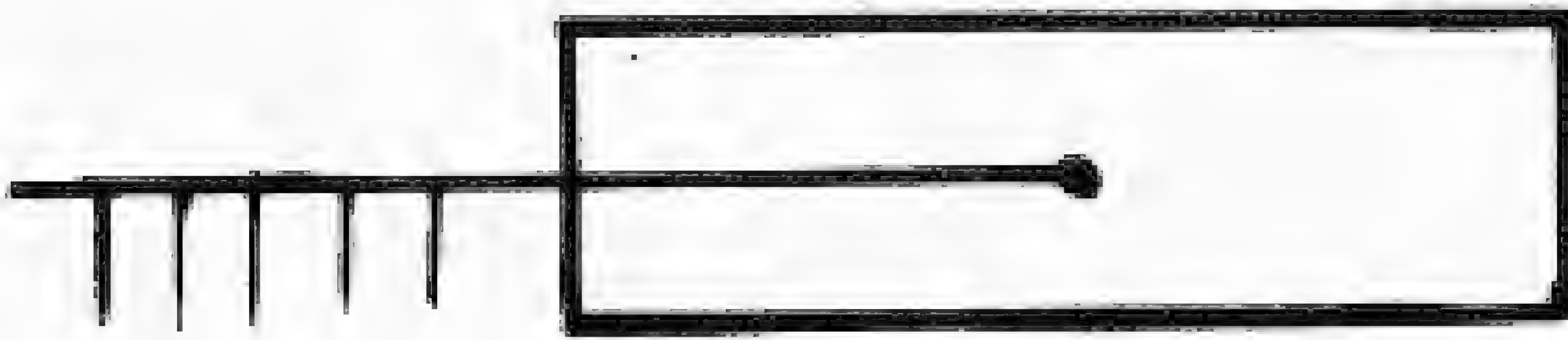
وقد وضع النبي ﷺ هذا المعنى في هذا الحديث الذي رواه
البخارى :

عن عبد الله رضي الله عنه قال : خَطَّ النبي ﷺ خطاً ، مربعاً وخطاً
خطاً في الوسط خارجاً منه ، وخطاً خُططاً صغيراً إلى هذا الذي في الوسط
من جانبه الذي في الوسط ، وقال : « هذا الإنسان ، وهذا أجله محيط به
أو قد أحاط به ، وهذا الذي هو خارج أَمَلُهُ ، وهذه الخطط الصغيرة
الأعراض ، فإن أخطأه هذا نهشه هذا ، وإن أخطأه هذا نهشه
هذا » (١) .

(١) رواه البخارى في الرقاق - باب في الأمل وطوله ١١٠/٨ ، ١١١ وقد رسمه الحافظ ابن حجر في
الفتح : =



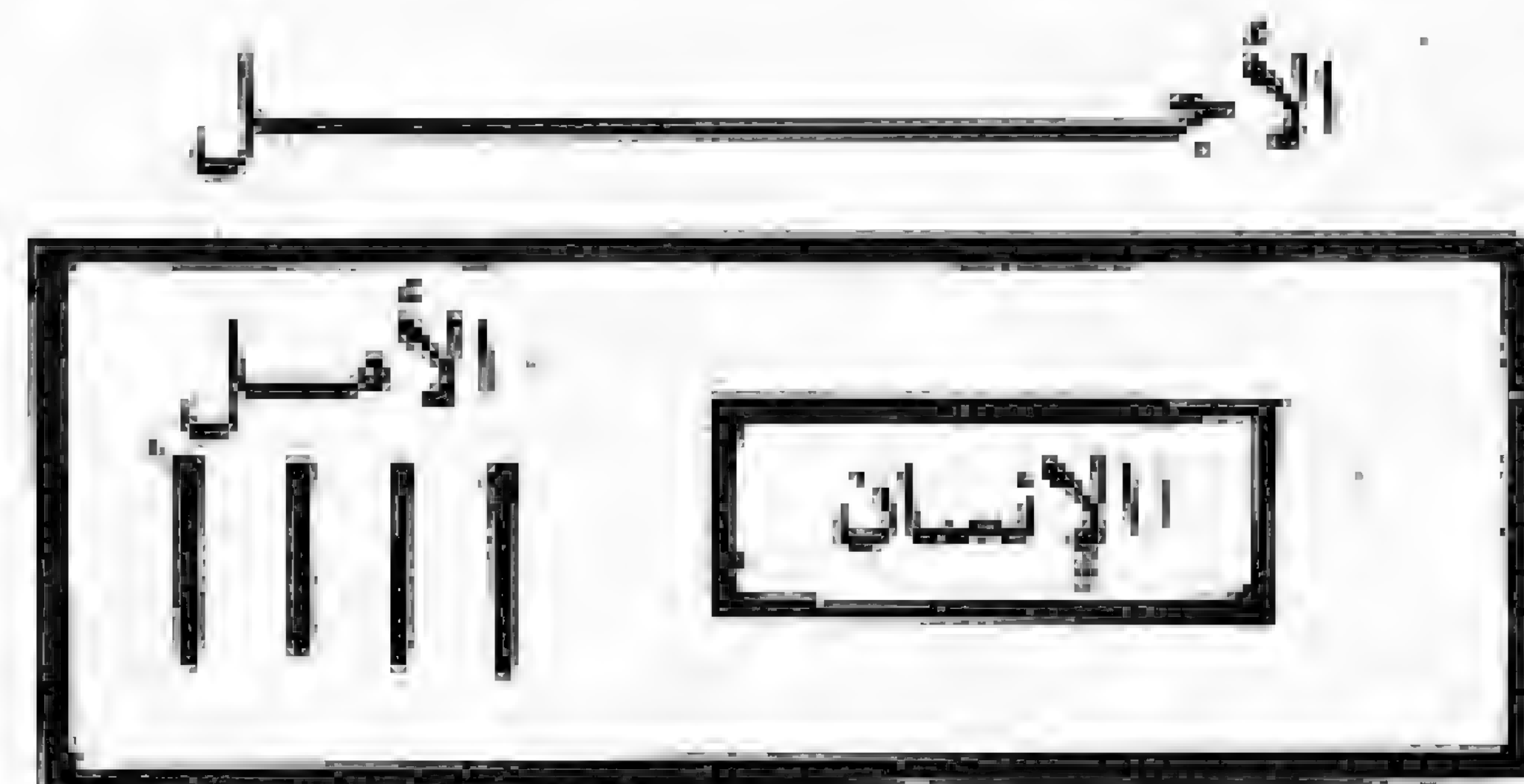
(١) هكذا :



(٢) وقيل هكذا :



(٣) وقيل هكذا :



(٤) وقيل هكذا :

قال الحافظ ابن حجر : والأول المعتمد ، وسياق الحديث ينزل عليه .

بتعبير علماء الهندسة الآن رسم مربعاً أو رسم شكلاً رباعياً ، ثم وضع نقطة داخل الشكل الرباعي ، وأخرج منها خطاً ، امتد هذا الخط حتى قطع المحيط المربع وتجاوزه وخرج بعيداً ، ثم فسر النبي ﷺ ما فعل ، هذا الشكل المربع هو أجل الإنسان يحيط به ، هذه النقطة داخل الشكل المربع هي بدء حياته ، هذا الخط هو عمره ، امتداد الخط هو أمله ، ويمتد الخط حتى يتجاوز المحيط ، وما أكثر ما يؤمل الإنسان وأجله قادم يقطع الأمل وينهى الحياة فتكون آماله متاع الغرور أو تكون آماله شيئاً وهمياً لأن الأجل اخترم حياته وهو ماض في أماله وأمانيه ما يفكر إلا فيها !!! .

قال تعالى : ﴿ أم للإنسان ما تمنى ﴾ . فله الآخرة والأولى . وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴿ [النجم : ٢٤ - ٢٦] .

كم من عظيم في الأرض وكم من عظيم في السماء ما تغنى عنهم عظمتهم شيئاً وما ينفعون غيرهم بشيء إذ ما ينفعون أنفسهم .

في وسط السورة يبين الله أن الظنون لا قيمة لها ، وأن الحق هو الذي يجب أن يتبع وأن نرنوا إليه بأبصارنا وأن نتعشقه بأفئدتنا ومن هنا كانت الدعوة اللطيفة : « اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه » فكم من غافل رأى الحق باطلاً أو رأى الباطل حقاً ثم انطلق في دنياه لا يلوى على شيء ، فإذا هو ينطلق وراء وهمه ، كما تقول لإنسان : « الإسكندرية » في جنوب القاهرة فهو يجرى حتى يصل إلى « أسوان » ولن يصل إلى « الإسكندرية » أبداً لأن الوجهة من البداية غلط ، ولذلك كانت الظنون والأوهام شيئاً يكرهه الإسلام لأن الإسلام - كما قلنا - نؤه بأولى الأبواب في ست عشرة آية لأنهم حملة فكرته ومبلغو رسالته وأصحاب القدرة على إدراك قضاياه وفهم أهدافه .

الإيمان الصحيح وليد المعرفة التي لا ظن فيها ، وتوحيد الله أول هذه الحقائق ، ولذلك داس على عبادة الأصنام : ﴿ إِن هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴾ [النجم : ٢٣] .

إن توحيد الله هو اليقين القاطع ، لكن مع توحيد الله ضميمة أخرى أشارت إليها أوائل السورة وهي الإيمان بأن محمداً رسول الله ﷺ فهو الذي عرفنا بالله الواحد ، وهو الذي نفى الأوهام والشائعات عن ذاته ، وهو الذي نزهه ويين ما ينبغي له من كمال وجمال .

أحببت أن أبين أن محمداً هو الرجل الأول في التاريخ كله فقلت :

إذا لم يكن محمد نبياً فمن يكون نبياً !! .

بحثت في التراث الإنساني كله فلم أجد أحداً ذكر ربه بعبارات أحرّ ولا أرق من العبارات التي ذكره بها محمد عليه الصلاة والسلام ، لم أجد أحد أفنى ذاته في مرضاة ربه وجعل حياته وموته وليله ونهاره وراحته وجهاده لله مثل محمد ﷺ !! .

استعرضت التاريخ البشري من أوله إلى آخره فلم أجد إنساناً وقف في ساحة العبودية يُسَبِّح ويُحَمَّدُ وَيُكَبِّرُ ، وَيُخَوِّفُ في الله فلا يخاف ، ويشعر بالألم والعنت فلا ينكص ولا يتأخر مثل محمد ﷺ ؟! .

لم أجد أحداً غير المجتمعات بعد أن كانت ضالة حائرة فجعلها مهديّة راشدة مثل محمد عليه الصلاة والسلام !! .
ولذلك فإن المؤلف الأمريكي (١) الذى ذكر مائة من قمم التاريخ وجعل محمداً ﷺ القمة الأولى كان فى الحقيقة يذكر ما يشير إليه العلم الصحيح واليقين الحق !! .

إن الكواكب فى السماء قد تهوى ، ونرى نيازك تحترق - كما يقال - فى اشتباكها مع الطبقة الهوائية ، ونرى كواكب تنحطّ عن مداراتها وتعود فترتفع مرة أخرى ، لكن الكوكب الذى لا ينجو له سنا ولا ينكسف له شعاع ولا تنحط له منزلة ولا يهوى أبداً من عليائه هو محمد ﷺ وهو ما أقسمت عليه السورة فى السطر الأول منها : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى * علمه شديد القوى ﴾ [النجم : ١ - ٥] .

إن محمداً ﷺ هو النبى الخاتم والرسول الحق ، وما نزل عليه من قرآن : ﴿ لا يأتیه الباطل من بین یدیه ولا من خلفه ﴾ ، وسيرته وسنته نماذج لإنسانية هى أزكى وأرقى وأنقى ما عرفت الإنسانية فى معادن الرجال من نقاوة وصلابة ورفعة !! .

إن محمداً ﷺ نجم لم يهو له جرم ، ولم ينقطع له سنا ، ولم يطرأ على دارته انحطاط ، بل ظل معصوماً منذ بعث إلى أن ذهب إلى الرفيق الأعلى .
إن هذا الإيمان بأن الله واحد وبأن محمداً ﷺ حق يهذى إلى الإحسان ، أى أن المؤمن يعصمه إيمانه من الزلل ويقيه السيئات ويجعله إنساناً صاحب منهاج فاضل ، وهل خلق الله الحياة إلا ليتميز فيها المحسن من المسىء والمصيب من المخطىء والناجح من الراسب فى ميدان الفضيلة والخير ؟ .

هكذا خلق الله الحياة : ﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ .
[النجم : ٣١] .

(١) هو ما يكل هارت ، وكتابه : « المائة : تقويم لأعظم الناس أثراً فى التاريخ » وقد نشر هذا الكتاب فى مصر بعنوان « الخالدون مائة » .

هل معنى ذلك أن المؤمن لا يخطيء ؟ .

لا ، هذا غير ممكن ، لابد أن يخطيء الإنسان وأن تكون له هفوات أو أن تكون له كبوات ، ولذلك قال الله في وصف هؤلاء المحسنين : ﴿ الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تركوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ [النجم : ٣٢] .

وهنا نقف لتأمل كلمة « إلا اللمم » .

كلمة « إلا » قد تكون بمعنى « لكن » .

وهذا ما يسميه علماء اللغة « استثناء منقطعاً » أى ما بعد « إلا » مخالف لما قبلها ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ﴾ [النساء : ٢٩] قال العلماء : الاستثناء هنا منقطع ، أى لكن إذا كانت تجارة عن تراض كلوها .

فمعنى أن الاستثناء منقطع في قوله تعالى : ﴿ إلا اللمم ﴾ أن المؤمن لا يقارف فاحشة من الفواحش ولكن قد يُلم بصغائر الذنوب . لكن بعض العلماء يقولون : الاستثناء في قوله تعالى : « إلا اللمم » متصل . ومعنى أنه متصل أن كلمة « اللمم » تعنى أنه قد يرتكب الفاحشة لمآماً يعنى على نُذرة من باب : لكل جواد كبوة ولكل صارم نبوة ، ويستشهد هؤلاء على أن المؤمن قد يقع منه ما هو فاحشة بقوله تعالى : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ [آل عمران : ١٣٥] .

على كل حال الكل متفق على أن التوبة لابد منها من الصغائر أو من الكبائر ، وأن الإنسان لا يُستغرب عليه الخطأ لأنه كما هو نفخة من روح الله هو طينة من الأرض وكما قال ابن الرومي :

ولابد من أن ينزع المرء مرة

إلى الحمأ المسنون ضربة لازب^(١)

(١) أى شيء لازم أبدلت الميم باء لتقارب المخارج صوتياً .

بعد أن ذكر أن الظن لا قيمة له ، وأن اليقين هو الأساس ، وأن توحيد الله هو أول اليقينيات ، وأن الشهادة بختم محمد ﷺ للأنبياء وصدقه فيما يقول ضميمه لتوحيد الله ، وأن الإيمان يلد الإحسان والعمل الصالح ، وأن الإنسان قد يخطيء فإذا تاب تاب الله عليه ، بعد هذا كله بدأ شيء من التوبيخ للإنسان الذي يمشی وحده بعيداً عن هدايات السماء ، بدأ شيء من التوبيخ لهذا الإنسان مقرون بأن الإنسان ما يصلح إلا إذا زكى نفسه ، وأصلح أحواله ، وهذب أخلاقه ، واعتقد بأنه صانع مستقبله ولا دخل لأحد معه في هذا ، قال تعالى : ﴿ أفرايت الذي تولى * وأعطى قليلاً وأكدى * أعنده علم الغيب فهو يرى ﴾ [النجم : ٣٢ - ٣٥] .

« تولى » رفض السير مع المؤمنين .

« أعطى قليلاً » أى امتلك ما يمتلك وبخل به .

« أكدى » غلبه الشح والكزازة فإذا هو نافر من العطاء .

« أعنده علم الغيب فهو يرى » معناها أن الذى يمتنع عن العطاء سئء الظن بالمستقبل فهو يقول لك : أحفظ ما فى يدي اليوم ينفعنى غداً ، ولا معنى للتطويح بما فى اليد ومنحه للناس وانتظار ما عند الله !! .

ولهذا جاء فى الحديث : « أنفق بلال ولا تخش من ذى العرش إقلالاً » (١) .

قال تعالى : ﴿ أعنده علم الغيب فهو يرى * أم لم ينبأ بما فى صحف موسى * وإبراهيم الذى وفى * ألا ترروا وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى * وأن إلى ربك المنتهى * وأنه هو أضحك وأبكى * وأنه هو أمات وأحيا ﴾ [النجم : ٣٥ - ٤٤] .

فى تفسير هذه الآيات نرجع إلى سيرة النبي ﷺ فقد نظر النبي ﷺ يوماً إلى أفاق الدنيا فى ليلة من الليالى ثم كأنه أخذ يفكر : ترى بم يطلع اليوم الجديد على الناس ؟ .

الناس فيهم من سيموت ، فيهم من سيحيا ، فيهم من سيقتنى ، فيهم من سيفتقر ، فيهم من سيصح ، فيهم من سيمرض ، فقال هذه الكلمة

(١) عن أبى هريرة أن النبي ﷺ دخل على بلال وعنده صبر من تمر فقال : ما هذا ؟ قال : أدخره ، قال : أما تخشى أن ترى له بخاراً فى نار جهنم أنفق بلال ولا تخش من ذى العرش إقلالاً » رواه البزار وأبو يعلى والطبرانى فى الكبير والأوسط وإسناده حسن (مجمع الزوائد : ١٠ / ٢٤١) وقال فى صحيح الجامع (١٥١٢) : صحيح .

الموجزة : « سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن ، وماذا فتح من الخزائن ، أيقظوا صواحب الحُجَر قُرب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة » رواه البخارى في العلم - باب العلم والعظة بالليل ٤٠/١ .

تُرى خزائن الرحمة الإلهية التي تتدفق في عالم الناس تذهب لمن ؟ ومن من خلق الله سيضحك ؟ .
تُرى خزائن الفتن وهى تبلى الناس وتغزوهم بالآلام والمتاعب تصيب من ومن من خلق الله سيبكى ؟ .

من الذى أضحك ويبكى ؟ ومن الذى أمات وأحيا ؟ .
إنه الله جل شأنه ، أما قدرى أن زمام الأمور بيد الله وأن الناس مطلقون في الحياة كما ترى الدابة بيد صاحبها يرسلها والحبل في يده ؟ ! .
لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى لَكَ لَطَوَلُ الْمُرُخَى وَثَنِيَاهُ فِي الْيَدِ
مَتَى مَا يَشَأْ يَوْمًا يَقْدُهُ لِحَتْفِهِ وَمَنْ يَكُ فِي حَبْلِ الْمَنِيَةِ يَنْقَدُ
هل يستطيع أحد أن يقطع حبال القدر ويخرج من طوع الله ؟ .

هيئات هيئات ﴿ والله غالب على أمره ﴾ [يوسف : ٢١] ،
﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ [الأنعام : ١٨] ، ﴿ والله يحكم لا معقب لحكمه ﴾ [الرعد : ٤١] .

بعد ذلك قال تعالى : ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى * وأن عليه النشأة الأخرى ﴾ [النجم : ٤٥ - ٤٧] .
كثير من الناس ينجب بنات ويتصور أن الأم هى المسئولة عن هذا ، وقد قرأت أخيراً كتاباً طيباً لطيب مسلم يقول فيه :

تبين أن الرجل وحده هو المسئول عن ذريته ، فهو يحمل حيوانات منوية بعضها له رأس لامع يمثل الذكورة ، وبعضها له رأس خافت يمثل الأنوثة ، فإذا سبق الحيوان المنوى اللامع الرأس جاء الولد ذكراً وإلا جاء المولود أنثى ، ثم قال :

وهذا ما صورته القرآن عندما قال : ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى ﴾ !! .

أيها الإخوة : هذه نظرة عجلت إلى سورة النجم ، ومن الممكن أن نزداد غوصاً في المعانى جمعاً لأطراف السورة فنعطى صورة أخرى أدق وأكثر علماً وتحقيقاً للقضايا التي وردت فيها لكن ما ألهم الله به هو هذا القدر من المعرفة . والله ولى التوفيق ..

الخطبة الثانية

الحمد لله ﴿الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون﴾ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴿[الشورى : ٢٥ : ٢٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين .

وأشهد أن محمداً خاتم النبيين وإمام المرسلين . اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين . أما بعد :
فتحن في العشر الأوائل من ذي الحجة ، وثبت في الأحاديث الصحاح أن هذه الأيام من أفضل أيام السنة أو لعلها أفضل أيام السنة ، ففي الحديث : « ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام العشر . فقالوا : يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله ولم يرجع من ذلك بشيء »
رواه البخارى في العيدين باب فضل العمل في أيام التشريق

العمل الصالح له صور كثيرة : القرآن ، العلم ، العبادة ، الدراسة ، إننى أشعر بحزن عندما أرى أولاداً ينتسبون للشيوعية يأكلون الكتب أكلاً ولهم باع طويل في المعارف الإنسانية في الوقت الذى أجد فيه شباباً مسلماً معرفته ضحلة أو فكره قريب القاع !! .

ديننا دين العلم ، وكل ما يصقل العقل وينظم الفكر ويوسع آفاق النظر ويجعلك تُصدر حكماً على نحو صحيح هو من دين الله .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾ [الحشر] .
عباد الله :

﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾ [النحل : ٩٠] .
أقم الصلاة

نظرات في سورة الحشر

خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً رسول الله ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فنتسعين الله تعالى الآن على رسم صورة عجلي لسورة الحشر ..

بدأت سورة الحشر - كما ختمت أيضاً - بتسبيح الله وتحميده ﴿ سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ [الحشر : ١] .

وخُتمت بتسبيح الله وتحميده : ﴿ هو الله الخالق الباري المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ [الحشر : ٢٤] .

تسبيح الذات معناه أن الله تبارك وتعالى اسمه منزّه عن الضد والند والصاحبة والولد، وأنه يستحيل أن يشبه بشراً، أو أن يشبه بشر وأنه لا يوصف بأنه والد ولا ولد .

وتسبيح الله بالنسبة إلى أفعاله - وهو مدخل السورة، هذا - أساسه أن الجنس اللعين الذي تمتع بالشهوات والذي تبجح في الأرض والذي استباح الربا والزنا والذي عاش وفق هواه واستدبر هدايات الله ترك ولكنه ترك إلى حين وأمهل ولكنه لم يهمل ، وأن العقوبة الإلهية أخذت تنزل به ، فتسبيح الله هنا إشعار بأنه ما يترك أفعال الخلق تسير فوضى، إن الزمام بيده وهو

الغالب على أمره ، ولذلك عندما بدأ ينكل بهؤلاء ذكر اسمه مقرونا بالتسبيح والتحميد ، وهو جل شأنه يوجه أنظار الصالحين إلى هذه الحقيقة كلما اشتدت عليهم الضوائق :

قال تعالى : ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ﴾ فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴾ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ [الحجر : ٩٧ : ٩٩] إن توجيه نظرة إلى تسبيح الله وتحميده هو إشعار له بأن الأمور لا تُفلت من يد الله ، وأنه إن ضاق اليوم فإن المستقبل له .
وقال تعالى : ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾ ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾ [الطور : ٤٨ ، ٤٩] .

هذا التسبيح لله رب العالمين هو شعور من الإنسان بأن أحوال الخلق وأن مصائر العباد إلى الله ، لا بد أن يُبت فيها ولا بد أن يرسل حكمه العدل في قضايها إن عاجلاً وإن آجلاً ، وقد سكت على اليهود دهرأ ولكنه الآن يضربهم الضربة القاصمة : ﴿ سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ [الحشر : ٢٠]

هذا الوصف يعطى أن اليهود كانوا مركز القوة ، وأن حصونهم كانت تخيف المؤمنين وتدع في قلوبهم يأساً من أن اقتحامها سهل ، كانوا يعتقدون أن حصونهم مانعتهم من الله ، وكان المسلمون يتهيبون هذه الحصون التي أقيمت ، لكن الذي حدث كان مفاجأة فإن الحصون خُربت والدور التي أقيمت خلفها هُدمت ، وكان المؤمنون واليهود جميعاً يشتغلون بتخريب هذه الحصون .

ننظر إلى السورة فنجد أربعة أوصاف نُسبت إلى اليهود :

الوصف الأول : أنهم شاقوا الله ورسوله : ﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ﴾ [الحشر : ٤] .

ومعنى مشاقتهم لله ورسوله أنهم عصوا ربهم واستباحوا حرماته وعطلوا أحكامه وشرائعه وأضاعوا حدوده وحقوقه ، واليهود سادة هذه الخصال وأسباب انتشارها في العالمين .

الوصف الثانى : أنهم فاسقون ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين ﴾ [الحشر : ٥] .

الوصف الثالث : أنهم يخشون الناس أكثر مما يخشون الله : ﴿ لأنهم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ [الحشر : ١٣] .

الوصف الرابع : أن مظهرهم يدل على الوحدة والجماعة ولكن سرائرهم متفرقة ممزقة ، يكره بعضهم بعضاً ، وليست بينهم عقيدة جامعة ولا وحدة فكرية أو عاطفية تربط بينهم : ﴿ لا يقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾ [الحشر : ١٤] .

هذه هى المواضع الأربعة فى السورة التى تحدثت عن أخلاق اليهود عندما هُزموا ، وأظن هذا الإحصاء ناضحاً بأن القوم قد استجمعوا ما يؤهلهم للضياع وما يرشحهم للغضب الإلهى .

هنا يجب أن نسائل أنفسنا : هل الأمم تتوارث الأخلاق النفسية والتقاليد الاجتماعية والخصائص الفكرية والسياسية من جيل إلى جيل ؟ .

قد يحدث هذا وقد لا يحدث ، وعندما يحدث فإن السابق واللاحق يشتركان فى نتيجة واحدة ، وربما لا يحدث هذا فيكون من جمع خصال الشر جديراً بأن يجنى الشر ، ومن استجمع خصال الخير كان جديراً بأنه يجنى الخير .

ومعلوم أن اليهود يوم خرجوا من مصر كانوا أذلة لأنهم مرتوا على أن يوطئوا ظهورهم ويحنوا رؤوسهم ولذلك ما أفلحوا فى قتال ولا شرفوا موسى فيما قصد إليه من معارك وقالوا له : ﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ﴾ [المائدة : ٢٤] .

ولقد قال المؤرخون : إن الله أتابهم في سيناء أربعين سنة حتى هلكت الأجيال الجبانة ونبتت أجيال شجاعة أمكن أن تحقق رسالة موسى، وأن تكون وفق ما يرضى الله .

إذن الأخلاق تورث ولا تورث ، والخصائص العامة تنتقل ولا تنتقل ، ولو كانت الأخلاق تورث والتقاليد تنتقل لكان المسلمون الآن على أخلاق الصحابة والتابعين .

إن السورة التي شرحت لنا لماذا هزم اليهود ولماذا قذف في قلوبهم الرعب قالت لنا : كان لابد أن يعاقب اليهود ﴿ ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار ﴾ [الحشر : ٣] .

ولذلك فإن هذه السورة التي قالت للمسلمين : ﴿ فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾ بدأت في صفحتها الأخيرة تخاطب المسلمين خطاباً تتحقق به العبرة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خير بما تعملون * ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ [الحشر : ١٨ ، ١٩] هاتان الآيتان – في سياق سورة الحشر – تنبئ المسلمين بأنه لا يجوز أن يقعوا فيما وقع اليهود فيه ، واليهود نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، واليهود لم يتقوا الله ولم يحسبوا حساب الغد ..

والواقع أن اليهود فيما يتصل يوم القيامة حذفوا ما يتصل به من نصوص ، لا يوجد في العهد القديم نص يُحدث عن يوم القيامة ، ولذلك فإن أغلب اليهود يرون أن جنتهم في التجمع في فلسطين ، وأن إقامة مملكة يهوه على الأرض – كما يزعمون – هذا النعيم الذي يوعدون به والذي يجيئهم من المشرق والمغرب إلى أرض فلسطين .

ينبه القرآن المسلمين إلى أن لا يسلكوا مسالك اليهود ويبين لهم أن مصير الناسين النار، وأن مصير الذاكرين الجنة .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتظر نفس ما قدمت لغد واتقوا

الله إن الله خير بما تعملون • ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون • لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴿ [الحشر : ١٨ : ٢٠] .

ويبين الله بعد ذلك أنه أنزل القرآن الكريم عقيدة وشرعة ، وأن الأمة التي تجعله رايتها وتمشي تحته لا بد أن تسمو وأن تزكو وأن تنتفع وأن ترتفع ، وأن هذا القرآن حوى من المواعظ ما يزلزل الطغيان ويمنع الكفران ويجعل صلة الإنسان بربه جل جلاله صلة قائمة على الخوف والوجل :

﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ [الحشر : ٢١] .

بعد هذا العرض السريع بدأ ختام السورة يذكر الله مرة أخرى وتسميحه وتحميده :

﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم • هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون • هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ [الحشر : ٢٢ : ٢٤] .

سورة الحشر - إلى هذا القدر من الشرح - تبين منها :

• أن الله تحدث عن نفسه أولها وآخرها .

• وأنه أذل أهل الكتاب من اليهود لمسالكتهم الشائنة ومواقفهم الرديئة وبقي بعد ذلك أن نعرف الوقائع التي تضمنتها السورة .

• حاول اليهود قتل رسول الله ﷺ وانتهزوا لذلك فرصة أنه ذهب إليهم ليطلب منهم - كما تقضى المعاهدة المبرمة بين المسلمين واليهود - المعاونة في دية قتيلين ، ولقد أجاب اليهود إجابة حسنة ، وأظهروا كأنهم يستعدون لجمع الدية وتسليمها للنبي ﷺ ، واستند النبي ﷺ إلى جدار ينتظر الوفاء ، ولكنه وهو المحفوف برعاية الله عرف أنهم يتآمرون عليه ، ففعلاً لقد قال بعض

اليهود للبعض الآخر لن تجدوا الرجل مستغفلاً كحالته هذه فليذهب أحدكم بصخرة وليلقها عليه من السطح وهو مستند إلى الجدار ليريحنا منه ، وعرف النبي ﷺ المؤامرة ، فترك المكان على عجل ، ولحق به أصحابه وفرض عليهم الحصار !! .

« المجتمع في المدينة كان مجتمعاً خليطاً ، كان فيه مؤمنون مُخلص صدقوا الله وكانوا أتباعاً ناصحين لله ولرسوله ﷺ وهم المهاجرون والأنصار ومن انضم إليهم .

وكان فيه منافقون يعيشون في المدينة قلوبهم مع قريش ضد الإسلام ، قلوبهم مع اليهود ضد الإسلام ، وفي الوقت نفسه يتظاهرون بأنهم على إيمان ، هؤلاء قالوا لليهود : اثبتوا في مواقعكم إن الحصار الذي سيضرب عليكم لن يدوم طويلاً وسنشترك معكم في القتال حتى تُفُضَّ هذا الحصار ، ولكن المسلمين حاصروا بنى إسرائيل وشددوا عليهم الخناق وبدأ من حماسهم وقوتهم وجرأتهم وإيمانهم واعتمادهم على الله أنه لن يستطيع أحد أن يفك قبضتهم عن عدو الله وعدوهم ، وبعد أن كان المنافقون يلوحون بتدخلهم ويشعرون اليهود بأنهم معهم تخاذلوا ..

قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون * لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ [الحشر : ١١ ، ١٢] .

لو أن قوى الدنيا كلها تجمعت لمساندة اليهود فإن هذه القوى ستمزق وتتلاشى ولا بد من أن ينزل بطش الله باليهود على يدى محمد ﷺ وصحبه .

هذا ما كان في بنى النضير ، وفعلاً تمت المعركة ، وكان الرعب الذي بثه الله في قلوب اليهود عوناً على أنفسهم وكان سلاحاً إسلامياً ضدهم ، وانتصر المسلمون وأخذوا أموال اليهود ، فماذا فعلوا بها ؟ أعطوها الفقراء

المهاجرين الذين خرجوا من مكة تاركين أموالهم ودورهم ، فكان ذلك تعويضاً حسناً لهم ، وكان ذلك إشارة إسلامية إلى أن المجتمع المؤمن لا يبقى فيه ناس دون مال وناس لهم مال كثير ، ولذلك يقول الله جل شأنه :

﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ [الحشر : ٧] .

• تعطى هذه السورة الجليلة أن الله تبارك وتعالى لما نصر نصر عقيدة حرة عادلة منصفة لها أتباع كرام مؤثرون مخلصون شجعان مؤمنون على قوم يتصفون بالفسق ومشاققتهم لله ورسوله ، ويتصفون بأنهم في مظهرهم كيان واحد وفي باطنهم أحزاب متفرقة وفرق متشاكسة ، ويتصفون بأنهم يخشون الناس أكثر مما يخشون الله .

النصر هنا لأحوال ولرجال ، والهزيمة هنا لأحوال ولرجال ، ومعنى ذلك أن المسلمين إذا فسقوا وإذا شاقوا الله ورسوله وإذا كانوا في مظهرهم كياناً واحداً وفي باطنهم أحزاباً متفرقة وإذا كانوا يخشون الناس أكثر مما يخشون الله فإنهم عندئذ ليسوا أهل نصر .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين .
وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين .
اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
والتابعين .

أما بعد :

عباد الله أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل .

واعلموا أيها الإخوة أننا في بلدنا هذا — وهو قلب الأمة الإسلامية —
حاربنا الشيوعية يوم كانت الشيوعية صبغة غالبة لبعض القابعين في كراسي
السلطة وبعض المتربصين على عرش الصحافة وبعض الذين ملكوا ناصية
القلم وكثيرين من هؤلاء الذين أغواهم الشيطان فحطبوا في حبله ونصروا
طريقته . حاربنا الشيوعية ، ولي فيها كتاب — ينشر في الخارج — اسمه
« الإسلام في وجه الزحف الأحمر » ألف في سنة ١٩٦٧ م في أيام عجاف
وأزمات عصيبة كانت تمسك بخناق المؤمنين وأصحاب الغيرة على الإسلام .
لم حاربنا الشيوعية ؟ .

حاربناها لأننا نحب الله بداهة ومن أنكر الله احتقرناه ، حاربناها لأننا
نعرف الإسلام ونعرف أن الله سبحانه وتعالى أودع في تضاعيف الكتاب
والسنة من النصوص والتعاليم والقواعد ما يغنى الأمة الإسلامية عن أى
فلسفة لقيطة وأى فكر دخيل .

لكنى أعرف ناساً كثيرين لا يحاربون الشيوعية للمعنى الجليل الذى في
نفوسنا ، لعلهم يحاربونها لأن لهم أموالاً يخافون عليها أو لأن لهم نفوذاً
يخشون أن يتقلص أو لأن لهم منافع يريدون أن تدوم ..

لسنا من هؤلاء ، إننا نحارب الشيوعية لحساب الإسلام وحده ،

ولذلك فنحن نقول : لا يكفي في محاربة الشيوعية أن أسماء تختفى وأن بعض الذين مسّت خيانتهم أولى الأمر يتلاشون من ظاهر الميدان ، إنما المهم أن التيار الإسلامي يقوى وأن الثقافة الإسلامية تنتعش ، وأن العودة إلى الإسلام تتضح وأن التقاليد الإسلامية تسود وأن الأخلاق الإسلامية تنمو وأن تقنين الشريعة يبدأ يأخذ طريقه إلى النور وإلى الحياة وأن الأجهزة المخططية في الأزهر وفي غيره الأزهر والتي كتب لها أن تعمل للإسلام وهي لا تعمل له إلى الآن عملاً محترماً ، أو عملاً واضحاً يجب أن تتحرك لخدمة دينها .

لا يكفي في صد الشيوعية أو الإباحية الغربية أن يختفى بعض الذين قادوا الضلال في بلدنا دهرًا طويلاً ، إنما يجب أن يؤخذ في الاعتبار أن الثقافة الإسلامية معتلة وأن التشريعات الإسلامية مختفية وأن أوضاعاً إسلامية كثيرة مختلة ، ويجب أن يعود إليها ما ينبغي أن يسودها من نظام ومن اتساق ومن إنتاج ، هذا هو الكفاح الحقيقي للشيوعية وللإباحية الهاجمة علينا ، وأنا موقن بأنه يوم تبدأ اليقظة الإسلامية تأخذ طريقها إلى الضمير العربي وإلى العقل العربي فإن المد اليهودي سيأخذ في الانكماش .

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر » .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ١٠] .

عباد الله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ٩٠] .

أقم الصلاة

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
١١	تأملات فى مناسك الحج
٢٦	قصة القتال فى الإسلام
٤٢	عهد المظالم والهزائم
٧١	تأملات فى سورة آل عمران
٧١	أهل الكتاب كما تحدثت عنهم السورة
٨٣	النكبة الكبرى
٩٧	غزوة أحد كما تحدثت عنها السورة
١١٢	العالم فى انتظاره ﷺ
١٢٦	تأملات فى الهجرة
١٣٩	كان خلقه القرآن
١٥٦	عرض موجز لمسيرة الدعوة الإسلامية خلال أربعة عشر قرناً
١٧٠	حركة الارتداد بين الماضى والحاضر
١٨١	أحوال المسلمين فى القلبن
١٩٥	الشخصية العربية عوامل اضمحلالها وعناصر ازدهارها
٢٠٩	نظرات فى سورة البقرة (١)
٢٢٢	نظرات فى سورة البقرة (٢)
٢٣٦	نظرات فى سورة البقرة (٣)
٢٥٠	الذكر (خصائصه ووسائله)
٢٦٣	نفحات الرحمة وبشريات الخير
٢٧٧	نظرات فى سورة النساء (١)
٢٩٣	نظرات فى سورة النساء (٢)
٣٠٨	نظرات فى سورة النساء (٣)
٣٢٥	نظرات فى سورة النساء (٤)

٣٣٨ القرآن يتحدث عن الهجرة
٣٥١ شبهات حول بعض الأحاديث النبوية
٣٦٥ الإسلام والمتغيرات الدولية
٣٧٦ نظرات في سورة الأنعام
٣٨٥ أولوا الألباب في القرآن الكريم
٣٩٧ نظرا في سورة الأنفال
٤٠٩ من نبوءات القرآن الكريم
٤١٩ نظرات في سورة يونس
٤٣٢ الدين الإسلامي وحاجة الإنسانية إليه
٤٤١ نظرات في سورة الحج
٤٥٧ حاضر العالم الإسلامي
٤٦٧ نظرات في سورة الشعراء
٤٨٠ بناء الأمم
٤٩١ نظرات في سورة الروم
٥٠٥ الأمم بين الصعود والهبوط
٥١٦ نظرات في سورة الأحزاب
٥٣٠ بين بدء الوحي وختامه
٥٣٧ نظرات في سورة يس
٥٤١ نظرات في سورة الزمر (١)
٥٦٠ نظرات في سورة الزمر (٢)
٥٧١ نظرا في سورة النجم
٥٨١ نظرات في سورة الحشر

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٠٢/١٩٩١

الترقيم الدولي ٥-٠١٠-٢١١-٩٧٧

دار الناصر للطباعة الإسلامية

٢ - شارع المنشأحي شبراخيت

الرقم البريدي - ١١٢٣١